

الدكتور الشيخ
عبدان فرحان آل قاسم
«أبوانس»

دروس في

السيرة النبوية

منهج تحليلي لدراسة أحداث السيرة النبوية
واستلهام المعطيات والدروس والعبر منها
للعهد الحديث

قدم له
العلامة الشيخ محمد باقر شريف العريشي

دار السيرة



دُرُوسُ
فِي السِّيَرِ فِي النَّبِيِّينَ

دُرُوسٌ
فِي السِّيَرِ النَّبَوِيِّ

طبعة جديدة
مصحَّحةٌ ومنقَّحةٌ ومَزِيْدَةٌ
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

جميع حقوق النشر محفوظة ومسجلة للناشر
ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة طبع
أو ترجمة أو نسخ الكتاب أو أي جزء منه إلا بترخيص
خطي من الناشر تحت طائلة الشرع والقانون

دار السلام
بيروت - لبنان

لبنان : 009611472192 - 009613461595

العراق : 009647802150376

E-mail: daralsalamco@hotmail.com

للتواصل مع المؤلف:

009647810957670

العراق

009647901849809

00989121536411

ايران

aboanasir@yahoo.com

دُرُوسُ

فِي السَّيْرِ فِي النَّبِيِّينَا

مَنْهَجٌ تَحْلِيلِيٌّ مَوْضُوعِيٌّ لِدِرَاسَةِ أَحْدَاثِ السَّيْرِ النَّبَوِيِّ
وَأَسْتِلْهَامِ الْمَعْطِيَّاتِ وَالْدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ مِنْهَا

الْعَهْدُ الْمَكْنِي - الْقِسْمُ الثَّانِي

الدُّكْتُورُ شَيْخُ عَدْنَانَ فَرْحَانَ آلِ قَاسِمٍ
«أَبُو أَنْسٍ»

قَدَّمَ لَهُ
الْعَلَّامَةُ السَّيِّدَةُ بَاقِرَةُ شَرْيْفُ الْعَرُشِيِّ

دارُ السَّلَافَةِ
بِیروت - لُبْنان

بيت المقدس حالي

المقدمة

هذا هو القسم الثاني من دروس السيرة النبوية في عهدها المدني .

ويبدأ هذا القسم من الدرس السابع عشر، وينتهي بالدرس السابع والعشرين .

وتتناول دروس هذا القسم بقية أحداث السنة السادسة وأحداث السنة السابعة والثامنة، وقسم من أحداث السنة التاسعة من الهجرة النبوية .

وفي بداية هذه الدروس تحدثنا عن قضية قصة حديث الإفك وما رافقها من ملابسات ثم تناولنا الأحداث الأخرى .

والأحداث والوقائع التي تناولتها دروس هذا القسم من سيرته ﷺ، من الأحداث الهامة والمفصلية في عمر الدعوة الإسلامية .

ف نجد من أحداثها غزوة الحديبية التي توجت بصلح الحديبية، والتي بدورها قد مهدت لعمرة القضاء وفتح مكة بعد ذلك .

وبفتح مكة تهاوت إلى الأبد كلَّ معاقل الوثنية وعبادة الأصنام، وخضعت قريش لسلطة الدولة الإسلامية، فارتفعت بذلك كلَّ الموانع والحواجز والعقبات من أمام القبائل الأخرى التي كانت تترقب - بفارغ الصبر - نتيجة الصراع بين الدعوة الإسلامية وقريش .

وبعد فتح مكة أخذت وفود القبائل تتسابق إلى المدينة لإعلان إسلامها وبيعته لرسول الله ﷺ ، فكان عام الوفود والبيعة في السنة التاسعة من هجرته ﷺ .

وفي ثنايا هذه الأحداث هنالك أحداث أخرى لها أهميتها، تناولناها بالبحث والتحليل ، وتوقفنا عند بعض مفاصلها، مستلهمين منها المعطيات والدروس والعبر . والله ولي التوفيق والسداد .

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

الدرس السابع عشر

أحداث السنة السادسة من الهجرة

قصة حديث الإفك

مباحث البحث:

- ١ - قصة حديث الإفك بعد غزوة بني المصطلق
- ٢ - الاتجاهات التفسيرية في سبب نزول آيات حديث الإفك :
الاتجاه الأول : نزولها في حق السيدة عائشة
تناقض الروايات والاشكالات الواردة عليها
الاتجاه الثاني : نزولها في حق السيدة مارية القبطية
الاشكالات الواردة على الرواية
الاتجاه الثالث : نزول آيات الإفك في المنافقين
الاشكالات الواردة على هذا الاتجاه
- ٣ - رأي السيد الطباطبائي في حديث الإفك
- الأسئلة

قصة حديث الإفك

١ - حادث الإفك^(١)

يعتبر حادث الإفك أو (حديث الإفك) من الحوادث المتصلة بغزوة بني المصطلق، وهو الحادث الثاني فيها.

وكنا نود أن لا نتعرض لذكرها لما في روايتها من المتناقضات والاشكالات الكثيرة، ولمساسها بشخصية النبي الأكرم ﷺ وعصمته وأخلاقه ومروءته وثباته وحكمته.

بالإضافة إلى ما في الرواية من التعريض ببعض الشخصيات الإسلامية المرموقة، وخيار الصحابة.

إلا أنَّ اشتهار هذا الحادث وحديثه ومروياته بين المؤرخين والمحدثين والمفسرين، بالإضافة إلى وجوب الذبِّ عن شخصية رسول الله ﷺ وعما يتنافى وعصمته، ودفع الشبهات التي تثيرها روايات الإفك حول بعض كبار الصحابة. . كل ذلك دعانا إلى ذكر هذا الحادث بحسب روايته التاريخية - وباختصار شديد -، ثمَّ التوقف عند بعض الجوانب الحساسة منها وفي الجانب التحليلي والنقدي للروايات.

٢ - آراء واتجاهات المؤرخين والمفسرين في أسباب نزول آيات قصّة الإفك

في قضية الإفك تبرز لدينا ثلاثة اتجاهات رئيسية في سبب نزول آيات

(١) الإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه. . . واستعمل في الكذب (المفردات).

الإفك، وفيمن نزلت فيه :

الاتجاه الأول: إن آيات حديث الإفك نزلت في السيدة عائشة:

وذلك عندما تناولتها ألسنة المنافقين وبعض المسلمين ورموها بالذي رموها فيه .

وتبني هذا الرأي والاتجاه أغلب المؤرخين والمفسرين .

روى ابن إسحاق: «عن الزهري . . . عن عائشة، عن نفسها، حين قال فيها أهل الإفك ما قالوا: فكلّ قد دخل في حديثها عن هؤلاء جميعاً يحدث بعضهم ما لم يحدث صاحبه . . فكلّهم حدث عنها ما سمع . . .» .

فالحديث بكلّ تفاصيله ينتهي إلى السيدة عائشة، ومنها أخذه المحدثون ودوّنوه في مجاميع الحديث والتفسير والتاريخ، وجميع الرواة له ينتهون إليها .

قال ابن اسحاق: قالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً، أقرع بين نسائه، فأيهنّ خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه فخرج سهمي عليهنّ معه» .

وفي رواية الواقدي: «أقرع بيننا فخرج سهمي وسهم أمّ سلمة، فخرجنا معه» .

قالت: « . . . فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجّه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات فيه بعض الليل . . وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي، فيه جزع ظفار^(١) فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرّحل ذهبُ أتمسه في عنقي، فلم أجده، وقد أخذ الناس بالرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمسته حتى وجدته .

(١) جزع ظفار: الجزع الخرز، وظفار: مدينة في اليمن، وينسب إليها الجزع الظفاري .

وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يرحلون البعير.. فأخذوا اليهودج وهم يظنون أنني فيه، فاحتملوه، فشدّوه على البعير.. ثم أخذوا رأس البعير، فأطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع، ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتقدت لرُجع إليّ. فوالله إنني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته... فلما رأيته قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، طعينة رسول الله ﷺ ما خلفك يرحمك الله؟... ثم قرب البعير، فقال: اركبي، واستأخر عتي، فركبت وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتج العسكر^(١)، والله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألث أن اشتكيت شكوى شديدة.. وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبيي، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أنني أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحماني، ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل عليّ وعندي أمني تمرضني.. قال: كيف تيكمن؟ لا يزيد على ذلك».

ثم تذكر عائشة أن الخبر وصلها عن طريق امرأة يقال لها أم مسطح.. فجاءت إلى أمها وقالت لها: «يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً! قالت: أي بنية، خفّضي - أي هوني عليك - عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء، عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن وكثر الناس عليها».

(١) ارتج العسكر: أي تحرك واضطرب.

ثم تذكر أن رسول الله ﷺ قام في الناس يخطبهم وهي لا تعلم بذلك! . . وقال ﷺ في خطبته: «أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلاّ خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلاّ خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلاّ وهو معي».

ثم تقول: «وكان كُبر ذلك عند عبد الله بن أبي في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش، . . فأما زينب فعصمها الله تعالى دينها، فلم تقل إلاّ خيراً، وأما حمنة . . فأشاعت من ذلك ما أشاعت، تضادني لاختها، فشقيت لذلك».

ثم تذكر ما كان من نزاع بين الأوس والخزرج بعد خطبة رسول الله! وقبل أن تختتم قصتها بنزول برائتها من الإفك، تنقل خبر استشارة رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب وأسامه بن زيد.

قالت: «فدعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وأسامه بن زيد، فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى عليّ خيراً وقال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم منهم إلاّ خيراً، وهذا الكذب والباطل».

وأما عليّ فإنه قال: يا رسول الله إنّ النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسلّ الجارية، فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بُريرة ليسألها، فقام إليها علي بن أبي طالب، فضربها ضرباً شديداً!! ويقول: أصدقني رسول الله ﷺ، فتقول: والله ما أعلم إلاّ خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً . . .».

ثم تختتم عائشة قصتها بقولها: «ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ، وعندي أبوي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي، وهي تبكي معي، فجلس فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً، مما يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده».

قالت: فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك، فتقلص دمي... وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله، فلم يتكلما. فلما لم أر أبوي يتكلمان، قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله؟ فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه! فاستعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إنني لا أعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أنني منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني... ولكن سأقول كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

قالت: فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجى بثوبه ووضعت له وسادة من آدم تحت رأسه... ثم سري عن رسول الله ﷺ فجلس... فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك. قالت: قلت بحمد الله.

وفي رواية الواقدي: قالت عائشة: وقالت أُمي: قومي لرسول الله، فقلت: والله، لا أقوم إلا بحمد الله لا بحمدك!

ثم تذكر أن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس، فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت، وحملة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضربوا حدهم^(١).

تناقض الروايات والاشكالات الواردة عليها

هذه هي رواية حديث الإفك في إحدى مروياتها بعد تلخيصها وحذف الزوائد منها، وقد تداخل معها قصة مسابقة النبي ﷺ لعائشة! وقصة آية التيمم

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣ / ٢٩٧ وما بعدها، والواقدي، المغازي: ١ / ٤٢٦ وما بعدها. وللتوسع انظر: أحاديث أم المؤمنين عائشة للسيد العسكري: ٢ / ٩٩ وما بعدها، والصحيح من سيرة النبي المجلد (١٣) من طبعة دار الحديث.

ببركة آل أبي بكر...! وهما أقرب إلى الخيال والأسطورة من الواقع؛ ولهذا أعرضنا عنهما^(١).

ولحديث الإفك مرويات أخرى عند البخاري، ومسلم، ومسنند أحمد، والطبري في تفسيره... وهي في أغلبها تروى عن الزهري، وعبد الله بن الزبير، وتنتهي جميع الروايات إلى السيدة عائشة، واستند إليها أصحاب الرأي الأول.

ولا يمكن لنا أن نستوعب كل أطراف الحديث عن قضية الإفك، فإن رواياتها يناقض بعضها بعضاً، ويناقض الواقع التاريخي للغزوة، وفيها من المتناقضات والاختلافات التي لا يمكن الاجابة عنها من خلال الجمع العرفي أو الأصولي، ومن حاول ذلك من شراح كتب الصحاح ومن المؤرخين وقع في متناقضات أشد وتهافت أغرب^(٢).

إلا أن عدم الامكان هذا لا يسوغ لنا المرور على الرواية التي نقلناها؛ فلا بد من التوقف عند بعض جوانبها وباختصار شديد.

أولاً: دعوى أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحرب أو غزوة أقرع بين نسائه، فأيتهن خرجت عليها القرعة أخذها معه... فهذه الدعوى تحتاج إلى سند تاريخي يؤيدها، فإن حروب وغزوات رسول الله ﷺ قد سجلها المؤرخون بكل جزئياتها، فلم يرد فيها هذه الدعوى سوى هذه الغزوة وضمن حديث عائشة نفسها.

(١) انظر تفاصيل ذلك عند الواقدي: ١ / ٤٢٧، وقارن بما ذكره السيد مرتضى العسكري في كتابه أحاديث أم المؤمنين عائشة: ٢ / ١٥٣ وما بعدها. والصحيح من سيرة النبي: ١٣ / ٣٣٨ وما بعدها.

(٢) انظر العسقلاني: تهذيب التهذيب: ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٣ / ٩ / ٩٨، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٨ / ٣٤٨ و٣٥٦ وما بعدها.

كذلك لا نجد في كتب السيرة أنَّ أحدًا من المسلمين كان يأخذ معه زوجته، فلماذا اختص الأمر برسول الله ﷺ؟ وهل من العدل أن يترك الأصحاب نساءهم؟ ورسول الله ﷺ مع نسائه؟

ثم إنَّ رسول الله ﷺ هل كان في رحلة سياحية استجمامية حتى يأخذ معه من نسائه الواحدة أو الاثنتين؟ ألم يكن في حروبه وغزواته يقابل أعداء من أشرس خلق الله؛ يستيحيون الاساءة إليه وإلى كل من يتصل به بسبب أو نسب؟

ثم لوتغاضينا عن ذلك، فكيف يغفل رسول الله ﷺ عن زوجته ويتحرك، ويتركها في الفلاة؟ وكم استغرق غياب عائشة من الوقت في البحث عن عقدها حتى تحرك الركب وتركها؟ وكيف تحرك الركب بهذه السرعة؟ وكم ابتعدت عائشة عن الركب حتى إذا رجعت لم تجد سامعاً ولا مجيباً؟

وكيف لا يشعر من حمل الهودج ووضعه على ظهر البعير بخلوه من صاحبه؟

بالإضافة إلى عشرات الأسئلة الأخرى التي يمكن أن تثار حول هذا المقطع من حديث الإفك.

يقول أحد الباحثين: «ولا أستبعد أن يكون حديث المؤرخين عن خروج زوجاته معه في حروبه وغزواته؛ من المكذوبات على الرسول ﷺ بقصد تصويره بأنه حتى في أوقات الحرب التي هي من أعسر الأوقات وأخرجها لا يترك الملذات ولا يستغني عن النساء»^(١).

ثانياً: عندما نتأمل في رواية السيدة عائشة وهي تصف موقف النبي ﷺ منها بعد شياخ حدث الإفك، وكيف أن سلوكه ولطفه بها من قبل، قد تغير إلى جفوة وقطيعة.

(١) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٤٨٩.

نجد إن ذلك يتنافى مع شخصية الرسول النبوية والتي تعتبر العصمة أبرز مقوماتها، فكيف ينساق النبي ﷺ مع الشائعات، ويقع فريسة للأكاذيب، ويستشير هذا وذلك في هذا الأمر؟ أو ليس المتهم بريئاً حتى تثبت إدانته؟ وهل أن العتاب الشديد، والتوبيخ الصارخ الذي جاء في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢)، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١) كان يعم ويشمل النبي ﷺ أيضاً؟ أو لا يتنافى ذلك مع عصمته؟ وكيف يمكننا قبول ذلك مع ما عرفناه عن شخصية النبي ﷺ وإنسانيته وتبته في الأمور بالاضافة إلى عصمته؟

فليس أمامنا إلا رفض هكذا مرويات، لمنافاتها مع مقام النبي ﷺ وعصمته .

ثالثاً: وفي قضية استشارة النبي ﷺ لأسامة بن زيد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، الذي استجوب جاريتهما بطريقة عنيفة لانتزاع الاعتراف منها . . ما يثير العجب من جوانب عديدة .

فما حاجة رسول الله ﷺ لهذه الاستشارة، في قضية لم تثبت بعد؟ وهل أن هذه الاستشارة تكشف شيئاً عن واقع أمر القضية؟

وهل كان أسامة بن زيد ممن له أهلية الاستشارة من النبي ﷺ والروايات تنص على أن عمره في ذلك الوقت لم يتجاوز عمر الشاب الذي لم يتجاوز الحلم؟ وإن عمره حين توفي الرسول ﷺ ثمانية عشر عاماً فقط!

«فكيف يترك النبي ﷺ شيوخ المهاجرين، وبني هاشم، ويلجأ إلى استشارة هذا الطفل الذي لم يمارس الأمور ولم تحكمه التجارب بعد» (٢)؟

(١) النور: ١٢ و ١٤ .

(٢) الصحيح من سيرة النبي: ١٣/١٦٠، وانظر اعتذار العسقلاني في هذه القضية، فتح

الباري: ٣٥٧/٨ .

ولماذا لم يستشر والده زيداً وكان يومها على قيد الحياة؟

وهل كانت الجارية - بريرة - مع عائشة في هذه الرحلة حتى يسأل النبي ﷺ منها؟ مع أن الروايات التاريخية تقول: «إنَّ بريرة كانت يومذاك جارية لبعض بني هلال، وإنما اشترتها أم المؤمنين بعد ذلك بسنتين أو أكثر يوم كان العباس عم النبي في المدينة. . وإنما هاجر العباس قبيل فتح مكة التي كانت في السنة الثامنة من الهجرة» وبناء على ذلك كان شراء عائشة لبريرة وعتقها في السنة الثامنة من الهجرة، وما كانت في السنة الخامسة أو السادسة للهجرة التي رويت فيها روايات الإفك، في واقعة غزوة بني المصطلق»^(١).

ثم على فرض وقوع هكذا استشارة، ووجود جارية لعائشة تدعى «بريرة» في ذلك الوقت! فكيف جاز لعلي عليه السلام وبمرأى ومسمع من النبي ﷺ أن يضرب هذه الجارية المسكينة ضرباً شديداً لينتزع منها اعترافاً يسيء إلى عائشة؟ ويسيء إلى النبي ﷺ قبل ذلك؟

«إلا يلاحظ من حديث عائشة في علي عليه السلام أنها تقصد منه إنه كان كارهاً لها وحاقداً عليها منذ أن اتصلت بالرسول ﷺ، لتبرر بذلك حقدها عليه، ووقوفها بجانب المناوئين والمعارضين له؟»^(٢).

أم أن يد السياسة والكيد السياسي من جانب المعارضين والمناوئين لعلي عليه السلام قد وضعوا هذا الحديث ونسبوه للسيدة عائشة؟

رابعاً: نلاحظ في حديث السيدة عائشة عن قصة الإفك، النيل والقذع من

(١) العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة: ٢ / ١٦٨ - ١٦٩، وانظر ترجمة العباس من: الاستيعاب، وأسد الغابة، والإصابة .

(٢) الحسني، سيرة المصطفى: ٤٨٨، وانظر الصحيح من سيرة النبي: ١٣ / ٢٢٤ وما بعدها، والروض الأنف للسهيلى: ٤ / ٢٠ .

صحابة رسول الله ﷺ ومن البدرين!

فبعد أن نال علي عليه السلام نصيبة من هذه الرواية، اتهم فيها آخرون من أمثال مسطح بن أثاثه، الذي يعتبر من البدرين بحسب شهادة عائشة نفسها.

فإذا كان كذلك، وهم يروون: «إن الله تعالى قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟ فإذا كان ذنبه مغفوراً فلماذا يعاقب عليه؟ وهل يمكن تصور وقوع المعصية من البدري على رأي من يقول: أن المعصية لا تقع من البدري أصلاً...»^(١).

ثم نجد التعريض بسعد بن عباد في قولها: «وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية»^(٢)، ثم اتهام حسان بن ثابت، ثم تبرأته أو قبول توبته! والتعريض بنساء النبي ﷺ وإن موقفهن منها موقف الحاسد والمبغض!

خامساً: ثم إن السيدة عائشة تذكر خطبة الرسول ﷺ المقتضبة في المسجد، وتذكر فيها أن النبي ﷺ ذكر صفوان وقال عنه: «وذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي - أو بيتاً من بيوتي - إلاّ معي».

في حين أن صفوان كان قد أسلم قبل تلك الغزوة، وأن أول مشاهدته الخندق، بل قيل: إن أول مشاهدته غزوة المريسيع نفسها^(٣)!

فكيف كان يدخل مع رسول الله على أهله؟ وما هو المبرر لدخوله معه ﷺ على نسائه وهو رجل أجنبي عنهن...؟

(١) انظر فتح الباري للعسقلاني: ٨ / ٣٦٩ .

(٢) انظر رواية البخاري لحديث الإفك .

(٣) انظر الاستيعاب، وأسد الغابة، والإصابة عند ترجمة صفوان بن المعطل . وللتوسع انظر الصحيح من سيرة النبي: ١٣ / ٢١١، وأحاديث أم المؤمنين عائشة: ٢ / ١٦٨ .

سادساً: ولا ينقضي العجب من الكلمات التي نسبتها عائشة لنفسها، والتي قالتها لرسول الله ﷺ وهو يبشرها بنزول برائتها، ففي بعض الروايات: ان أمها قالت لها: قومي إليه - أي لرسول الله ﷺ - قالت عائشة: قلت: والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل، أو أنها قالت: بحمد الله وذمكمما!

وفي نص آخر أنها قالت لوالدها: «بحمد الله لا بحمد صاحبك الذي جئت من عنده أو الذي أرسلك

ثم تضيف: فجاء رسول الله، فجلس عند رأسي، فأخذ بكفي، فانتزعت يدي منه، فضرمني أبو بكر وقال: انتزعين كفك من رسول الله ﷺ؟ أو برسول الله تفعلين هذا؟ فضحك رسول الله»^(١).

وفي نص للبخاري عن عروة عن عائشة: «فقلت - أي لرسول الله - ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً»^(٢)؟

فلو كنا نسمع هذا الحديث من راوي آخر غير السيدة عائشة لكننا كذبناه أو شككنا في صحته؛ إذ لا يمكن أن نقبل من امرأة عادية؛ زوج لرجل عادي أن تواجهه بهذه الطريقة الفجة العنيفة، فكيف إذا كان الزوج رسول الله ﷺ وخاتم النبيين، وسيد البشر؟ ولا ندري ما هو المبرر لهذه التصرفات بعد أن برأها رسول الله ﷺ من على منبره، وبعد أن بشرها بنزول برائتها بحسب روايتها! ألا يعتبر ما قاله سوء أدب مع رسول الله وإيذاء له^(٣)؟

وما قاله بعض شراح كتب الصحاح وبعض كتاب السيرة كنوع من التبرير لهذه التصرفات، من أن ما صدر منها سببه: «عتبها عليهم، لعدم تبرئتهم إياها!

(١) انظر: المعجم الكبير للطبراني: ١٢٠/٢٣، ومجمع الزوائد: ٢٣٠/٩، والدر المنثور للسيوطي: ٣١/٥.

(٢) البخاري: كتاب التفسير: ٣ / ١٠٨ - ١٠٩.

(٣) الصحيح من السيرة: ١٣ / ٢٥٨.

مع تحققهم من حسن طريقتها، أو أنها قالت ذلك إدلالاً منها عليه ﷺ. أو أنها فهمت من قول النبي ﷺ لها: احمدي الله: إفراد الله بالحمد، وبقية الألفاظ، باعتبارها الغضب^(١)! لا يمكن قبوله كمبرر لهذه التصرفات.

فلماذا الغضب والرسول ﷺ يبشرها ببرائتها؟ وهل الغضب، مبرر لهذه الجرة على النبي ﷺ والتفوه بكلمات مقذعة مؤذية للنبي ﷺ؟

وهل يمكن أن نقبل ما يقوله أحد الكتاب المعاصرين كتبرير لتصرفات وكلمات السيدة عائشة حيث يقول:

«لقد كانت السيدة عائشة . . . ذهبت في توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهباً أنساها ما سواه ومن سواه، فلذلك أجابت أمها حينما طلبت إليها أن تقوم فتشكر النبي ﷺ قائلة: «لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي . . .»

إنّ هذا الكلام من السيدة عائشة قد يبدو وكأنّ فيه شيئاً من عدم اللياقة تجاه النبي ﷺ غير أن الظروف والحالة، هما اللذان أمليا عليها هذا الكلام، فهي إنما انسأقت بوحى الحالة التي كونتها الحكمة الإلهية، تثبيتاً لعقيدة المؤمن، وقطعاً لإفك المنافقين والملحدين، وإظهاراً لمعنى التوحيد والعبودية الشاملة لله وحده^(٢).

فهل كانت السيدة عائشة أكثر عمقاً واستغراقاً في توحيدها وعبوديتها من الرسول الأكرم ﷺ؟ أو ليس من خُلق التوحيد والعبودية أن تشكر الرسول ﷺ لحسن صنيعه بها بدلاً من مواجهته بهذا الأسلوب غير لائق؟

(١) انظر: ارشاد الساري: ٧ / ٢٧٠، وفتح الباري: ٨ / ٣٦٦، والنووي في شرح صحيح مسلم .

(٢) البوطي، فقه السيرة: ٣١٠ - ٣١١ .

الاتجاه الثاني: نزول آيات الإفك في تبرئة «مارية القبطية» زوج الرسول وأُم إبراهيم.

بعد وضوح تناقض الروايات التي تتحدث عن نزول آيات الإفك في السيِّدة عائشة، ومناقضتها للواقع التاريخي للغزوة التي وقعت فيها، وهي غزوة بني المصطلق.

لابدّ من استعراض روايات أخرى ليست عن السيِّدة عائشة هذه المرة، وإنما عن رواة آخرين، تتحدث عن نزول آيات الإفك في تبرئة «مارية القبطية» من الاتهام الذي وُجِّه لها، وكان مصدره هذه المرة السيِّدة عائشة نفسها!

وعلى ضوء هذه الروايات يبرز لنا اتجاه ثاني في سبب نزول آيات الإفك من سورة النور. إلاّ أن هذه الروايات وإن كانت قد رويت في كتب الفريقين إلاّ أنها لم تسلم بدورها من المناقشات السنية والدلالية وعدم الوضوح في مفادها ومدلولاتها.

روى الحاكم في المستدرک: «تزوج رسول الله ﷺ «مارية بنت شمعون» وهي التي أهداها إلى رسول الله ﷺ المقوقس صاحب الاسكندرية، وأهدى معها أختها «سيرين» وخصيا يقال له «مابور»، فوهب رسول الله ﷺ سيرين لحسان بن ثابت، وولدت «مارية» لرسول الله ﷺ إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، ومات إبراهيم بالمدينة وهو ابن ثمانية عشر شهراً^(١).

أما قصة اتهامها وقذفها ونزول آيات سورة النور فيها فقد تعددت الروايات في ذلك ننقل منها:

١ - في مستدرک الحاكم وتلخيصه للذهبي، عن عائشة قالت: «أهديت

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين: ٤ / ٣٨ .

مارية إلى رسول الله ﷺ ، ومعها ابن عم لها ، قالت : فوقع عليها وقعة فاستمرت حاملا . . فعزلها عند ابن عمها ، قالت : فقال أهل الإفك والزور : من حاجته إلى الولد ادعى ولد غيره ! وكانت أمه قليلة اللبن ، فابتاعت له ضائنة لبون فكان يغذى بلبنها ، فحسن عليه لحمه .

قالت عائشة : فدخل به عليّ النبي ﷺ ذات يوم فقال : كيف ترين ؟

قلت : من غذي بلبن الظأن يحسن لحمه . قال : ولا أشبهه !

قالت : فحملني ما يحمل النساء من الغيرة إن قلت : ما أرى شبيها !

قالت : وبلغ رسول الله ﷺ ما يقول الناس ، فقال لعلي : خذ هذا السيف فانطلق فاضرب عنق ابن عم مارية حيث وجدته .

قالت : فانطلق ، فإذا هو في حائط على نخلة يخترف^(١) رطباً ، فلما نظر إلى علي ومعه السيف استقبلته رعدة ، فإذا هو لم يخلق الله عز وجل له ما للرجل شيء ممسوح^(٢) .

٢ - وأخرج ابن سعد في طبقاته عن الزهري ، عن أنس بن مالك قال : «كانت أم إبراهيم سرية النبي ﷺ في مشربتها ، وكان قبطي يأوي إليها ويأتيها بالماء والحطب ، فقال الناس في ذلك : عالج يدخل على علة .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل إلى علي بن أبي طالب ، فوجده على نخلة فلما رأى السيف وقع في نفسه ، فألقى الكساء الذي كان عليه وتكشف فإذا هو مجبوب .

(١) يخترف الثمر : يجنيه .

(٢) المستدرك للحاكم : ٤ / ٣٩ مع تلخيصه للذهبي في ترجمة مارية .

فرجع علي إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: يا رسول الله أرأيت إذا أمرت أحدنا بالأمر ثم رأى غير ذلك أيراجعك؟ قال: نعم، فأخبره بما رأى من القبطي.

قال: «ولدت مارية إبراهيم فجاء جبرئيل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم، فطمأن رسول الله إلى ذلك»^(١).

وهناك روايات أخرى بنفس المضمون رواها مسلم في صحيحه، وابن سعد في طبقاته، وغيرهم^(٢). من رواة السنة ومؤرخيهم.

وإذا رجعنا إلى كتب الحديث والتفسير بمدرسة أهل البيت عليه السلام وجدنا روايات متعددة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة من ولده، الإمام الباقر، والإمام الصادق، والإمام الرضا عليه السلام، تنص جميعها على قصة الإفك التي إتهمت بها السيدة مارية القبطية أم إبراهيم.

قال القمي في تفسير عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ...﴾ الآية.

قال: إن العامة رووا: أنها نزلت في عائشة، وما رميت به في غزوة بني المصطلق... وأما الخاصة فإنهم رووا: أنها نزلت في مارية القبطية، وما رمتها به عائشة. حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن عيسى، عن الحسن بن علي بن فضال، قال: حدثني عبد الله بن بكير، عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ حزن عليه حزناً شديداً، فقالت عائشة: ما الذي يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريح! فبعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام، وأمره بقتله، فذهب علي عليه السلام ومعه السيف، وكان جريح القبطي في حائط، فضرب علي باب البستان، فأقبل جريح، ليفتح له الباب، فلما رأى

(١) طبقات ابن سعد: ٨ / ٢١٤، ومجمع الزوائد: ٩ / ١٦١ عن الطبراني في الأوسط.

(٢) انظر صحيح مسلم: ٤ / ٢١٣٩، وطبقات ابن سعد: ٨ / ٢١٤.

علياً، عرف في وجهه الغضب، فأدبر راجعاً، ولم يفتح الباب، فوثب علي عليه السلام على الحائط، ونزل إلى البستان، واتبعه، وولّى جريح مدبراً، فلما خشي أن يرهقه (أي يدركه) صعد في نخلة، وصعد علي في أثره، فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة، فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا ما للنساء! فانصرف علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إذا بعثتني في الأمر أكون فيه كالمسمار المحمي في الوبر، أم أثبت؟ قال صلى الله عليه وسلم: لا بل تثبت.

قال: والذي بعثك بالحق ما له ما للرجال وما له ما للنساء.

فقال: الحمد لله الذي صرف عنا سوء أهل البيت^(١).

وهناك روايات أخرى بنفس المضمون في المصادر نفسها.

وقبل أن نسجل الملاحظات الواردة على هذه الروايات المروية من الفريقين في قصة مارية القبطية ينبغي أن نشير إلى أن قصة مارية رغم صراحتها في القذف، وتحديدتها للقاذف والمقدوف، فإننا لا نجد لها من الاهتمام الكبير من قبل الرواة والمحدثين، ولا ادعى أحد نزول آيات يبرئ فيها الله سبحانه مارية، ويصحح نسب إبراهيم من النبي صلى الله عليه وسلم مع ما للقضية من أهمية!!

في حين نجد الاهتمام الكبير بقصة الإفك وما نزل فيها من آيات تبرئ السيدة عائشة منها كما يقولون!

الاشكالات الواردة على الرواية

ومهما يكن من أمر، فإن الروايات الواردة من الفريقين في قضية السيدة مارية القبطية، لم تسلم بدورها من المناقشات والمؤاخذات، سجلها بعض

(١) تفسير القمي: ٢ / ٩٩ - ١٠٠ و ٣١٨ - ٣١٩، وتفسير البرهان: ٣ / ١٢٦ - ١٢٧ و ٤ /

٢٠٥، والحويزي في نور الثقلين: ٣ / ٥٨١ - ٥٨٢.

العلماء ومن الفريقين أيضاً، نشير إلى بعض منها:

أولاً: أشكل السيد المرتضى في الغرر، وابن حزم في المحلى بأنه: «كيف يجوز أن يأمر الرسول ﷺ بقتل رجل على التهمة، بغير بينة ولا ما يجري مجراها»؟^(١)

وعلى حد تعبير ابن حزم: «كيف يأمر رسول الله ﷺ، بقتله دون أن يتحقق عنده ذلك الأمر، لا بوحى، ولا بعلم صحيح، ولا بينة، ولا إقرار؟ وكيف يأمر بقتله في قصة، بظن قد ظهر كذبه بعد ذلك وبطلانه؟ وكيف يأمر بقتل امرئ قد أظهر الله تعالى براءته بعد ذلك بيقين لا شك فيه؟ وكيف يأمر بقتله، ولا يأمر بقتلهما، والأمر بينه وبينهما مشترك»؟^(٢)

وقد حاول كلا منهما حلّ هذا الاشكال بشكل يمكن معه قبول الرواية إلاّ أنها حلول تخمينية اجتهادية لا تخلو بدورها من مناقشة.

وأشكل السيّد المرتضى أيضاً: «كيف جاز لأمر المؤمنين الكف عن القتل، ومن أي جهة أثره لما وجده أجبّ، أي تأثير لكونه أجبّ فيما استحق من القتل؟

وأجاب بقوله: وإنما أثر الكفّ الذي كان إليه، ومفوضاً إلى رأيه، لإزالة التهمة والشك الواقعيين في أمر مارية، ولأنّه اشفق من أن يقتله، فيتحقق الظنّ، ويلحق بذلك العار، فرأى ﷺ أنّ الكفّ أولى لما ذكرناه»^(٣).

ثانياً: وأشكل السيّد الطباطبائي في الميزان على موضوع الإفك على مارية في رواية القمي باشكالين:

(١) المرتضى - علي بن الحسين، أمالي المرتضى: ٧٧/١، وابن حزم، المحلى: ٤١٣/١١ - ٤١٤.

(٢) و (٣) المصدر نفسه: ٧٩ / ١.

أولاهما: إن قضية مارية لا تقبل الانطباق على الآيات التي نزلت في الإفك .

ثانيتهما: إن مقتضى القصة، وظهور برائتها. اجراء الحد على الآفكين، ولم يجز. . . وقد أجاب عن الاشكال الثاني: «بالقول بنزول آية القذف بعد قصة الإفك بزمان»^(١). إلا أنه لم يجب على الاشكال الأول.

وقد حاول أحد كتّاب السيرة المحدثين الاجابة عن الاشكال الأول من أن رواية مارية قاصرة في شرحها للقصة، وعلل ذلك بكون الاتجاه السياسي كان يفرض أن لا تذكر جميع الحقائق المتعلقة بالموضوع. . .^(٢).

ثالثاً: ما يرد من اشكال سندي على مثل هذه الروايات الواردة في تفاسير تعتمد الروايات الضعيفة، من قبيل تفسير القمي، وتفسير البرهان، فقد أشكل أحد الباحثين بعد أن نقل رواية تفسير القمي السابقة بقوله: «وهذه الرواية التي نقلها «المحدث البحراني» في تفسير البرهان، و«الحويزي» في تفسير نور الثقلين، ضعيفة وغير مستقيمة من حيث المفاد، وهو ضعف ظاهر لا يحتاج إلى البيان لذلك. ومن هنا لا يمكن القبول بها في شأن نزول هذه الآيات»^(٣).

بعد بروز هذه الاشكالات السندية والمضمونية ووجود الكثير من التناقضات في حديث الإفك على السيدة عائشة، والتي لا يمكن رفعها، أو التوفيق بينها أو تجاوزها، نفى أصحاب الاتجاه الثاني نزول آيات الإفك في السيدة عائشة، وقالوا بنزولها في مارية القبطية، وما قذفت به مع القبطي.

إلا أن الروايات التي استند إليها أصحاب هذا الاتجاه لم تسلم من

(١) انظر: تفسير الميزان: ١٥ / ١٠٥ .

(٢) انظر الصحيح من سيرة النبي: ١٣ / ٣٢٤ وما بعدها .

(٣) السبحاني، سيرة سيد المرسلين: ٢ / ٣٢٣ .

الاشكالات والتساؤلات الكثيرة، بالإضافة إلى ضعف المصادر التفسيرية التي روت هذه الروايات.

ومن الطبيعي أن يحشد أصحاب كل اتجاه المؤيدات اللازمة، ودفع الاشكالات الواردة... من أجل اثبات أحقية الاتجاه الذي يروونه أنسب بسياق الآيات والواقع التاريخي لهذه الحادثة، إلا أن كلا الاتجاهين لا يخلو حديثهما من شيء كما يقول السيد الطباطبائي^(١).

الاتجاه الثالث: نزل آيات الإفك في المنافقين:

وفي مقابل هذين الاتجاهين، هنالك اتجاه ثالث أشار إليه بعض الباحثين في السيرة إلا أنه لم يعززه بالأدلة الكافية لاثباته، ولا المناقشة المستفيضة للأدلة التي استند إليها أصحاب الاتجاه الأول والثاني، وإنما ناقشها مناقشات عابرة^(٢).

ويذهب صاحب هذا الاتجاه إلى احتمال نزول آيات الإفك في المنافقين الذين أرادوا إشعال الفتنة بين المسلمين في غزوة بني المصطلق، من خلال افتعال شجار جانبي بين مهاجري وأنصاري على بئر ماء المريسيع.

ويمكن تلخيص ما قاله أصحاب هذا الاتجاه ضمن نقاط محددة مع التوضيح اللازم لها:

أولاً: إن حديث الإفك... والقصة كما التي ترويها عائشة ويرويها الرواة عنها، ليست بذلك الوضوح الذي فرض على الباحث أن يمر عليها بدون محاكمة ولو لبعض جوانبها ويتغاضى عن عيوبها... ومجرد اتفاق المؤرخين والمحدثين على تدوين حادثة من الحوادث، لا يمنع من التساؤل والتشكيك فيها.

(١) الطباطبائي، الميزان: ١٥ / ٨٩.

(٢) انظر: الحسني، سيرة المصطفى: ٤٨٨ وما بعدها.

ثانياً: الآيات الكريمة التي يدعي المفسرون والمؤرخون أنها نزلت بهذه المناسبة ليست صريحة في ذلك، ولو كانت صريحة في هذا الأمر لوقفنا مؤمنين خاشعين، لأنها من عند الله العزيز الحكيم الذي لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثالثاً: ان كلمة «الإفك» الواردة في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْأُفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ...) والذي يعني الكذب مطلقاً... «لا ينحصر بهذا النوع من التهم الباطلة، بل يشمل كل ما كان مخالفاً للواقع، وكثيراً ما كان المنافقون يفتعلون ويكذبون وينسبون للرسول وإلى المسلمين والمسلمات ما ليس فيهم».

رابعاً: يمكن أن تكون هذه الآيات قد نزلت ابتداءً ومن دون وجود سبب لنزولها، وذلك بملاحظة سياق الآيات السابقة عليها: «فإن الآيات السابقة على هذه الآية قد تعرضت لحكم الزاني والزانية، والذين يتهمون زوجاتهم بالسوء ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم... إلى غير ذلك من الأحكام والتشريعات، شأنها شأن غيرها من الآيات التي كانت تنزل على النبي ﷺ لبيان الأحكام، أما عند حدوث بعض المناسبات، أو ابتداءً، كما يبدو ذلك للمتتبع في آيات الأحكام» وعلى هذا فلا موجب للبحث عن أسباب نزول هذه الآيات لنطبقها على السيدة عائشة، أو على غيرها.

خامساً: ومن الجائز أن يكون المراد من الإفك في الآية هو ما حدث بين غلام عمر والأنصاري وأن يكون ما حدث كان مصطنعاً من قبل المنافقين لايقاع الفتنة بين المسلمين، لكي يتاح لبني المصطلق أن ينقضوا على المسلمين وهم على تلك الحالة من الصراع، ولذا فإن النبي ﷺ أسرع في الرحيل وتابع مسيرته على خلاف ما هو مألوف من أمره، وظل يجد السير ليلاً ونهاراً حتى نزل بذلك المكان».

ويؤيد ما قاله هذا الباحث هو ما يستفاد من الآيات أن الرامين كانوا عصابة

من القوم، والعصبة تعني الجماعة المتعصبة المتعاضدة، وهذا ينطبق على مجموعة المنافقين في المدينة الذين يرتبط بعضهم ببعض، ويتواطئون فيما بينهم^(١).

ويختتم هذا الباحث، ما ذهب إليه من رأي بقوله: «وعلى أي الأحوال فإنني أرجح أن هذا الحادث - أي حادث الإفك - مفتعل من أساسه للأسباب التي ذكرناها»^(٢).

هذه هي خلاصة ما ذهب إليه أصحاب الاتجاه الثالث في قضية الإفك.

إلا أن نفي قضية وقصة الإفك من الأساس تحتاج إلى مزيد من التثبت والتأمل، وما ذكره من الأدلة لا تساعد على نفي القضية بعد اشتهاها وشيوعها وحديث القرآن عنها.

٣ - رأي السيّد الطباطبائي في حديث الإفك

يقول السيّد الطباطبائي في ديباجة تفسير الآيات (١١ إلى ٢٦ من سورة النور):

«الآيات تشير إلى حديث الإفك، وقد روى أهل السنة أن المقدوفة في قصة الإفك عائشة، وروت الشيعة أنها مارية القبطية أم إبراهيم التي أهداها مقوقس ملك مصر إلى النبي ﷺ، وكلّ من الحديثين لا يخلو عن شيء، على ما سيجيء في البحث الروائي، فالأحرى أن نبحث عن متن الآيات في معزل من الروايتين جميعاً، غير أن من المسلم أن الإفك المذكور فيما كان راجعاً إلى بعض أهل النبي ﷺ، إما زوجة وإما أم ولده، وربما لوح إليه قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ

(١) انظر الميزان للطباطبائي: ١٥ / ٨٩ - ٩٠.

(٢) الحسنی - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٤٨٨ - ٤٩٢ (بتلخيص وتوضيح).

هَيِّنَا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١﴾ .

والمستفاد من الآيات أنهم رموا بعض أهل النبي ﷺ بالفحشاء، وكان الرامون عصابة من القوم، فشاع الحديث بين الناس يتلقاه هذا من ذاك، وكان بعض المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض يساعدون على اذاعة الحديث حباً منهم أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فأنزل الله الآيات ودافع عن نبيه ﷺ ﴿١﴾ .

ونلاحظ السيد الطباطبائي في بحثه الروائي لم يرجح أحد الرأيين على الآخر، وإنما أشكل عليهما معاً^(١) .

(١) انظر تفسير الميزان: ١٥ / ٨٩ و ١٠١ وما بعدها .

الأسئلة:

- ١ - ما هي قصة حديث الإفك برواية السيدة عائشة؟
- ٢ - ما هي أهم الاشكالات الواردة على حديث الإفك بحسب رواية السيدة عائشة؟
- ٣ - كيف نوجه نزول آيات حديث الإفك في السيدة مارية القبطية؟
- ٤ - ما هي الاشكالات الواردة على روايات نزول آيات الإفك بحق السيدة مارية؟
- ٥ - كيف يمكننا معالجة الاشكالات الواردة على الرأي الذي يقول بنزول آيات الإفك في المنافقين؟
- ٦ - ما هو رأي السيد الطباطبائي في حديث الإفك؟
- ٧ - كيف عالج رسول الله ﷺ الفتنة التي أثارها المنافقون في حديث الإفك؟
- ٨ - ما هي الدروس والعبر والعظات التي يمكن أن نستخلصها من قصة حديث الإفك؟

الدرس الثامن عشر

أحداث السنة السادسة من الهجرة

(غزوة الحديبية)

«القسم الأول»

محاوِر البحث

- ١ - سرايا سبقت الحديبية ، أهدافها ونتائجها
- ٢ - غزوة الحديبية
- ٣ - الحديبية غزوة ، أم صلح ، أم معاهدة؟
- ٤ - تاريخ الغزوة ومكانها ، وأهداف النبي ﷺ منها
- ٥ - سجلال المفاوضات بين قريش والنبي ﷺ
- ٦ - النبي ﷺ يرسل رجلين من أصحابه لمفاوضة قريش
- ٧ -بيعة الرضوان ، أسبابها الحقيقية ونتائجها

غزوة الحديبية / ق ١

١ - سرايا سبقت غزوة الحديبية

كانت غزوة الأحزاب ومن بعدها غزوة بني قريظة، قد تركتا آثاراً كبيرة في نفوس المسلمين من جهة، وفي نفوس أعداء الإسلام من المشركين والوثنيين واليهود من جهة ثانية.

فبعد النصر المؤزر الذي كتبه الله للمسلمين في هاتين الغزوتين امتلأت نفوسهم إيماناً وعزيمة ورسوخاً، وأضحوا يتطلعون إلى اشراقة غد جديد يسود فيه الإسلام على الجزيرة العربية بأكملها، ومنها يشع نوره على العالم بأكمله.

أما أعداء الإسلام من وثنية العرب، وبقايا اليهود، وفلول الأعراب، فقد ارهبتهم نتائج هاتين، وامتلأت نفوسهم خوفاً ورعباً من قوة الإسلام والمسلمين المتنامية التي أخذت تواجه اعتى وأكبر قوى الكفر والشرك، وتخرج من المعركة بانتصار ساحق لا مثيل له، «فأخذت القبائل المعادية تخفف شيئاً من عداوتها، وأخذت القبائل الأخرى تحاول التقرب من المسلمين، وأخذ جو من الرهبة والجلال يملأ نفوس الناس عن الإسلام ورسوله، فذهبوا يتحدثون بقوة المسلمين وسلطانهم، وبمقام محمد وقوته ورهبة جانبه»^(١).

وأما بقايا اليهود فقد انكفأوا على أنفسهم في حصون خيبر، والقرى المجاورة لها، وقد امتلأت نفوسهم خوفاً ورعباً، لما جرى على أسلافهم من

(١) دويدار، صور من حياة الرسول: ٤٤٤ (مرجع سابق) .

يهود بني قريظة ومن قبلهم بني النضير، وبني قينقاع، إلا أنهم لم يتركوا ما جبلت نفوسهم عليه من عداوة وحقد وأضغان على رسول الله ﷺ والمسلمين، فكانوا يراقبون أوضاع المسلمين وينتظرون الفرصة المناسبة لخيانة جديدة، وعدوان آخر، كما سوف يأتيها لاحقاً.

وبانتهاء غزوة الأحزاب وبني قريظة، لم ينته جهاد المسلمين، ولم يركنوا سلاحهم جانباً، ويخلدوا إلى الراحة والدعة، وإنما بدأت صفحة جهادية جديدة، ومرحلة جديدة من الدعوة، يسميها بعض الباحثين في السيرة بـ«مرحلة دعوة الناس كلهم إلى الإسلام»^(١).

وقد تكون بداية هذه المرحلة هي «غزوة الحديبية» وما رافقها من أحداث، وما أسفرت عنه من نتائج إيجابية كبيرة.

إلا أن الفترة الفاصلة ما بين غزوة الأحزاب وبني قريظة، وغزوة الحديبية قد شهدت جملة من السرايا والمناوشات العسكرية، التي اتسمت بعامل المفاجأة، وأخذ الطريق على العدو قبل أن يأخذ أهبطه ويستجمع قواه، «فكل ما كان من هذه السرايا والمناوشات العسكرية، إنما كان ردّاً لعدوان بادى به عدو، أو إرهاباً لعدو يريد أن يعتدي، ولقد أدت هذه السرايا أغراضها على أتم وجه»^(٢).

وقد اختلفت كلمات المؤرخين في عدد هذه السرايا، وفي تقديم بعضها على بعض، وفي بعض مفردات وقائعها، بعد اتفاقهم على وقوعها جميعاً قبل غزوة الحديبية.

ولا نريد أن نطيل الوقوف عند جزئيات وتفاصيل ما أدرجه المؤرخون عند حديثهم عن هذه السرايا، وإنما نشير إليها إشارة مختصرة، مع ذكر المصادر لمن

(١) البوطي، فقه السيرة: ٣٣٦ (مرجع سابق).

(٢) دويدار، صور من حياة الرسول: ٤٥٢.

أراد التوسع في تفاصيلها.

لقد ذكر الواقدي في المغازي، وابن سعد في الطبقات، جملة هذه السرايا بتفصيل في بعضها، وإجمال في بعضها الآخر.

أولاً: سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغمر:

وكانت في شهر ربيع الأول سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ، حيث وجه رسول الله ﷺ عكاشة في أربعين رجلاً، قاصداً الغمر وهو ماء لبني أسد على بعد ليلتين من المدينة، ولم يقع فيها قتال، إذ هرب هؤلاء الأعراب وتركوا ابلهم، فأغار عليها المسلمون، فاستقوا ما تتي بعير منها.

ثانياً: سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة:

وكانت في شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة، حيث بعث رسول الله محمد ابن مسلمة إلى بني ثعلبة وبني غول وهم بذي القصة على طريق الرّبذة، فوردوا عليهم ليلاً، فأحرق بهم القوم، وهم مائة رجل، فتراموا ساعة من الليل، ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحاً، فمّر به رجل من المسلمين فحمله حتى ورد به المدينة.

ثالثاً: سرية أبي عبد الله بن الجراح إلى ذي القصة:

وكانت في شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة، حيث أجمع بنو محارب وثعلبة وأنمار أن يغيروا على سرح المدينة ومراعيها، فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة في أربعين رجلاً من المسلمين، فأغاروا عليهم فهربوا في الجبال، وأصاب رجلاً واحداً فأسلم فتركه، وأخذ نعماً من نعمهم فاستاقه وقدم به المدينة.

رابعاً: سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجَموم:

وفي نفس الشهر من السنة نفسها، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى بني سليم فأصابوا نعماً وشياه وأسرى

خامساً: سرية زيد بن حارثة إلى العيص:

وكانت في جمادى الأولى سنة ست من الهجرة . . قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أنّ عيراً لقريش أقبلت من الشام فبعث زيداً في سبعين ومائة راكب يتعرض لها، فأخذها وما فيها . . . وأسروا أناساً ممن كان في العير، منهم أبو العاص بن الربيع، وقدم بهم المدينة فاستجار أبو العاص بزینب بنت رسول الله ﷺ فأجارتها . . فقال رسول الله ﷺ: وما علمتُ بشيء من هذا وقد أجرتنا من أجرت، ورد عليه ما أخذ منه .

والسرايا التي تنسب قيادتها إلى زيد بن حارثة إلى مناطق متفرقة هي: العيص، والطّرف، وحسمى، ووادي القرى، وأم قرنة بوادي القرى.

سادساً: سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

وكانت في شعبان سنة ست من الهجرة، ولم يكن في هذه الغزوة قتال، وإنما كانت دعوة إلى الإسلام حيث مكث عبد الرحمن ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام فأسلم الأصبع بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً وكان رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية . . .

سابعاً: سرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى بني سعد بفدك:

وكانت في شعبان سنة ست من الهجرة، قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، أنّ لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر، فبعث إليهم علياً في مائة رجل . . فأغاروا عليهم فأخذوا خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد . . فعزل عليّ صفي النبي ﷺ . . ثم عزل الخمس وقسم سائر الغنائم على أصحابه، وقدم المدينة ولم يلقَ كيداً.

وهنالكَ سرايا أخرى ذكرها المؤرخون، لم نذكرها خشية الإطالة^(١).

أهداف هذه السرايا ونتائجها

لقد كانت لهذه السرايا المتلاحقة زماناً، والتي اشترك فيها كتائب من المسلمين جملة من الأهداف العسكرية والأمنية التي يجب اتخاذها كمقدمة لازمة وضرورية لغزوة الحديبية.

ويمكن إجمال هذه الأهداف بما يلي :

أولاً: الأخذ بأسباب القوة

لقد كانت هذه السرايا بمثابة الاعداد للقوة التي أمر الله تعالى بها في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، عَدُّوا لِلَّهِ وَعَدُّوْكُمْ...﴾^(٢) فكانت اظهاراً للقوة من جهة، وتحركاً عسكرياً متواصلاً، جعلت من المسلمين في حالة يقظة كاملة لكل حركة من حركات أعدائهم من جهة ثانية، وعلى أهبة الاستعداد والنشاط الدائم، تحسباً لكل طارئ من قبل العدو، من جهة ثالثة.

ثانياً: تأمين الحماية الكاملة للمدينة

لقد توزعت هذه السرايا الجهادية على أطراف المدينة في رقعة جغرافية تحيط بها من كل الاتجاهات، حتى لا يفكر أحد من أعراب المدينة أو من اليهود وغيرهم في غزو المدينة، في حال خلوها من رسول الله ﷺ ومن المسلمين.

وهكذا كان الأمر، فقد خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية وغاب عنها قرابة

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٩٢ - ٢٩٦، والواقدي، المغازي: ١ / ٥٥٠ - ٥٧٠، وللتوسع في بعض هذه السرايا ومناقشتها انظر: الصحيح من سيرة النبي: ١٤ / ٢٧٥ وما بعدها، و٧ / ١٥ - ٣٠.

(٢) الأنفال: ٦٠.

عشرين يوماً، ومعه معظم المسلمين، وترك المدينة وهو مطمئن على سلامتها وسلامة أهلها، ولم يكن هذا الاطمئنان إلا نتيجة لهذه السرايا وما سبقها من الغزوات التي شلت قدرات الأعداء، وأدخلت الرعب والرهبة في قلوبهم، فلم يفكر أحد من الأعراب المحيطة بالمدينة، ولا من اليهود في غزوها.

ثالثاً: تشديد الحصار الاقتصادي على حلفاء قريش

لقد نجح المسلمون في ضرب قريش اقتصادياً من خلال السيطرة على طريق تجارتهم إلى الشام، وهي الطريق التجاري الحيوي، وشريان الحياة الاقتصادية لقريش.

إلا أن حلفاءهم من الأعراب كانوا يمدونهم بما يحتاجون إليه في عدوانهم، فكانت هذه السرايا التي غنم فيها المسلمون غنائم كثيرة، بمثابة الضربة الموجهة لحلفاء قريش، سلبت منهم قوتهم المادية التي كانوا يستعينون بها لغزو المسلمين، أو يمدون بها قريش لغزوهم.

هذه أهم أهداف هذه السرايا.

وأما نتائجها، فقد كانت لهذه السرايا نتائج عظيمة من خلال تحقيق جميع أهدافها، ومن دون خسائر تذكر.

«فإنه ما كادت السنة السادسة تنتهي، حتى كانت هيبة المسلمين قد استقرت في نفوس القبائل العربية فيما حول المدينة وفيما وراءها، وأخذ الجو يتهدأ لحياة استقرار وسلم بين المسلمين وجيرانهم، وصار من الممكن أن تقوم علاقة جوار فيما بينهم على تناسي الثارات ودفن الحزرات، وعلى التعاون والتلاقي في سبيل الخير في طمأنينة وأمن»^(١).

٢ - غزوة الحديبية

تعتبر واقعة أو غزوة الحديبية من أهم المنعطفات والأحداث في سلسلة أحداث السيرة النبوية، وذلك لما تمخض عنها من نتائج وآثار إيجابية صبت جميعها في صالح الإسلام والمسلمين، كما سوف تبين لنا من خلال دراسة مفرداتها وأحداثها.

ولهذا كلّه توقف كتاب السيرة طويلاً عند هذا الحدث في كل جزئياته ومفرداته، مستخلصين منها الدروس والعبر والعظات العظيمة.

وسوف نساير وقائع هذه الحادثة في نصها التاريخي - وباختصار - ثم نتوقف عند بعض المفصل لاستخلاص الدروس والعبر منها.

٣ - الحديبية غزوة أم صلح، أم معاهدة؟

اختلفت عبارات المؤرخين في عنوان هذا الحدث التاريخي من أحداث السيرة النبوية، فنجد بعضهم يعبر عنها بـ(غزوة الحديبية)^(١) باعتبار خروج رسول الله ﷺ على رأس قوة كبيرة قوامها أكثر من ألف فارس، وإن لم يكن من قصده القتال، ولهذا يمكن أن نسميها تسامحاً بـ(الغزوة) في مقابل (السرية) وهي الكتيبة القتالية التي لا يخرج معها رسول الله ﷺ.

إلا أنّ بعض المؤرخين قد تحاشى التعبير عنها بالغزوة فعنونها ابن هشام بقوله: «أمر الحديبية في آخر سنة ست، وذكربيعة الرضوان والصلح بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو» وقال عنها الطبري: «قصة الحديبية»^(٢).

(١) انظر الواقدي، المغازي: ١ / ٥٧٨، وابن سعد، طبقات: ٢ / ٢٩٧، والمسعودي، التنبيه والإشراف: ٢٢١.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٠٨، وتاريخ الطبري: ٢ / ٦٢٠.

أما الكتاب المحدثين فقد عنوانوا الواقعة بما رأوه مناسباً لها، فعبر عنها بعضهم بـ(صلح الحديبية) وعبر آخر بـ(عمرة الحديبية)، وسماها ثالث بـ(عهد الحديبية)^(١)، وابتدع رابع لهذه الحادثة اسماً طريفاً فسمّاها (رحلة سياسية دينية)^(٢).

ومهما يكن من أمر، فإنّ كلّ واحد من المؤرخين نظر إلى جانب من جوانب هذا الحدث فاختار لها ما يناسبها من اسم، ولا مشاحة في الأسماء مادامت تشير إلى واقعة معينة، معروفة بأحداثها ووقائعها وملابساتها.

٤ - تاريخ الغزوة ومكانها، وأهداف النبي منها

اتفقت كلمات المؤرخين على وقوع هذه الغزوة في ذي القعدة سنة ست للهجرة، وهنالك قول شاذ ينسب إلى عروة يقول بوقوعها في شوال، وقد استقرب هذا القول ابن كثير في سيرته^(٣).

قال ابن إسحاق: «ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر رمضان وشوالاً، وخرج في ذي القعدة معتمراً، لا يريد حرباً»^(٤).

وحدد ابن أسعد بدقة زمان هذه الغزوة بقوله: «... خرج للعمرة في ذي القعدة سنة ست من مهاجرة، وذلك يوم الاثنين لهلّال ذي القعدة»^(٥).

وعلى هذا تكون غزوة الحديبية من حوادث أواخر سنة ست للهجرة، وبها تختتم حوادث هذه السنة.

(١) انظر: البوطي، فقه السيرة: ٣٣٩، والغزالي، فقه السيرة: ٣٢٢، وهيك، حياة محمد: ٣٦٣.

(٢) سبحاني، سيد المرسلين: ٢ / ٣٣٤.

(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٢.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٠٨.

(٥) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٩٧.

أما المكان الذي تنسب إليه الحادثة فهو: «الحديبية»، «قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها، بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل»^(١).

أما الأهداف التي كان يبتغيها رسول الله ﷺ من خروجه في هذا الظرف الزماني وهو الشهر الحرام «ذي القعدة» وقاصداً البيت الحرام وهو «مكة المعظمة» فهي أهداف كثيرة، سياسية، واجتماعية، ومعنوية، وإن كان الهدف المعلن هو الخروج إلى العمرة، إلا أن الطريقة التي خرج بها، والظرف الزماني الذي اختاره لخروجه، واستنفار الناس إلى الخروج بما فيهم المشركون، وعدم تكتمه على الناس نبأ خروجه، كل هذه الأمور تدل على وجود أهداف عظيمة يبتغيها رسول الله ﷺ بما فيها العمرة؛ إن تمكن من ذلك في عامه هذا، فما هي هذه الأهداف؟

إن هذه الأهداف يمكن أن تتضح لنا جلياً من خلال المقطع التاريخي الذي ذكره المؤرخون لخروج رسول الله ﷺ من المدينة، إلى حين وصوله إلى الحديبية، فلا بد لنا من بيان هذا القسم من النص التاريخي، ومن ثم استنتاج تلك الأهداف منها.

روى الواقدي وابن هشام وابن سعد، واللفظ للأول باختصار قال: «كان رسول الله ﷺ قد رأى في النوم أنه دخل البيت، وحلق رأسه، وأخذ مفتاح البيت، وعزف مع المعزفين»^(٢)، فاستنفر أصحابه إلى العمرة، فأسرعوا وتهياؤا للخروج.. وخرج أصحاب رسول الله ﷺ معه، لا يشكون في الفتح، للرؤيا

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٢٠٨ (الهامش) عن معجم البلدان للحموي .

(٢) في هامش المصدر: «أي وقف في عرفة» إلا أن المعروف في أن العمرة ليس فيها وقوف في عرفة، إلا أن تكون رؤيا رسول الله ﷺ أعم من العمرة. أو نقول كما قال صاحب الصحيح في السيرة: ١٥ / ٥٩ (أي جعل على الناس عرفاء) وهو معنى بعيد! ويمكن أن يقال إنه ﷺ عزف الهدى من خلال اشعارها!

التي رأى رسول الله ﷺ يخرجون بغير سلاح إلا السيوف في القرب، وساق قوم من أصحابه الهدى . . . وقال سعد بن عباد: يا رسول الله، لو حملنا السلاح معنا، فإن رأينا من القوم ريباً كنّا معدين لهم، فقال رسول الله ﷺ: لست أحمل السلاح، إنما خرجت معتمراً، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم^(١).

«وخرج رسول الله ﷺ من المدينة . . . فاغتسل في بيته، ولبس ثوبين من نسج صُحار، وركب راحلته القصواء من عند بابه، وخرج المسلمون، فصلّى رسول الله ﷺ الظهر بذي الحليفة^(٢)، ثم دعا ببدنة واحدة، فأشعرها في الجانب الأيمن^(٣)، ثم أمر ناجيه بن جندب بأشعار ما بقي . . . وهي سبعون بدنة . . . وأشعر المسلمون بदनهم . . . ودعا رسول الله ﷺ بسر بن سفيان من ذي الحليفة فأرسله عيناً له، وقال: إنّ قريشاً قد بلغها أنّي أريد العمرة، فخبّر لي خبرهم، ثم ألقني بما يكون منهم.

. . ثم دخل رسول الله المسجد فصلّى ركعتين، ثم خرج ودعا براحلته فركبها من باب المسجد، فلما انبعثت به مستقبلة القبلة، أحرم، ولبّى بأربع كلمات: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والتّعمة لك، والمُلك، لا شريك لك». وأحرم عامّة المسلمين بإحرامه، ومنهم من لم يُحرم إلا من الجُحفة^(٤).

وخرج معه المسلمون ست عشرة مائة، ويقال: ألف وأربعمائة، ويقال:

(١) وفي رواية ابن هشام: ٣ / ٣٠٨ استعمل على المدينة: نميلة بن عبد الله الليثي .

(٢) ذي الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال، وهي ميقات أهل المدينة، الذين يحرمون عنده للحج .

(٣) الأشعار: ضرب صفحة سنام البعير اليمنى بحديد، فلطخها بدمها اشعاراً بأنه هدي .

(٤) الجحفة: قرية على طريق المدينة إلى مكة، وهي على أربع مراحل من مكة، وهي ميقات أهل مصر والشام .

ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون رجلاً، وخرج معه من - قبيلة - أسلم مائة رجل، ويقال: سبعون رجلاً، وخرج معه أربع نسوة: أم سلمة زوج النبي، وأم عمارة وأم منيع، وأم عامر الأشهلية، فجعل رسول الله ﷺ يمرُّ بالأعراب فيما بين مكة والمدينة فيستنفرهم، فينشغلون له بأموالهم وأبنائهم وذرايعهم - وهم بنو بكر، ومزينة، وجهينة - فيقولون فيما بينهم: أريد محمد أن يغزو بنا إلى قوم مُعَدِّين مؤيدين في الكراع والسلاح؟ وإنما أصحابه أكلَةُ جزور! لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً! قوم لا سلاح معهم ولا عدد، وإنما يقدم على قوم حديث عهدهم بمن أُصيب منهم بيدٍ!

ولما بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ إلى مكة راعهم ذلك، واجتمعوا له وشاوروا فيه ذوي رأيهم فقالوا: «يريد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً، فتسمع به العرب، وقد دخل علينا عَنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا! والله، لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف، نرى أن نُقدِّم مائتي فارس إلى كراع الغميم»^(١). ونستعمل عليه رجلاً جلدأ. واستنفر قريش من أطاعهم من الأحابيش^(٢)، وأجلبت ثقيف معهم، وقَدَّموا خالد بن الوليد في الخيل، ووضعوا العيون على الجبال...

ودخل بسر - أو بشر - بن سفيان مكة فسمع من كلامهم ورأى منهم ما رأى، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فلقية في.. عُسفان^(٣).. فقال: يا رسول الله ﷺ تركت قومك.. قد سمعوا بمسيرك ففزعوا وهابوا أن تدخل عليهم عنوة،

(١) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال (معجم البلدان).

(٢) الأحابيش: أحياء من العرب رماة، سموا بذلك لاسودادهم، أو نسبة إلى حُبشي، جبل بأسفل مكة، وهم خلائط من العرب يتبعون كنانة بن خزيمة.

(٣) عُسفان: منهلة من مناهل الطريق، وهي من مكة على مرحلتين.

وقد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم . معهم العوذ المطافيل^(١)، قد لبسوا جلد النمر ليصدوك عن المسجد الحرام . وقدموا الخيل عليها خالد بن الوليد، مائتي فارس، وهذه خيلهم بالضميم

وفي رواية ابن إسحاق عن الزهري: «فقال رسول الله ﷺ: يا وَيْحَ قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلَوْا بيني وبين العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»^(٢) ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعرّاً بين الشعاب، فلما خرجوا منه، وقد شق ذلك على المسلمين وافضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ للناس: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه، فقالوا ذلك: فقال: والله إنها للحطّة التي عُرِضت على بني إسرائيل، فلم يقولوها»^(٣).

قال ابن شهاب - الزهري - : فأمر رسول الله ﷺ الناس: اسلكوا ذات اليمين . . في طريق تخرجه على ثنية الممرار مهبط الحديدية من أسفل مكة، فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش الجيش قد خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش .

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية الممرار بركت ناقته، فقالت الناس: خلأت الناقة^(٤)، قال: ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس

(١) يريد: أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان .

(٢) السالفة: صفحة العنق، وهما سالفتان من الجانبين، وكنى بانفرادها عن الموت .

(٣) الحطة: يريد قول الله تعالى لبني إسرائيل: (وَقُولُوا حِطَّةٌ) ومعناه: اللهم حطّ عنا ذنوبنا .

(٤) خلأت - بركت .

الفيل عن مكة، لا تدعونني قريش اليوم إلى خطّة يسألوني فيها صلّة الرحم إلّا أعطيتهم إياها.

ثم قال للناس: انزلوا، قيل له: يا رسول الله: ما بالوادي ماء فنزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب من تلك القُلب، فغرز في جوفه، فجاش بالروء، حتى ضرب الناس عنه بعطف^(١)^(٢).

هذا هو ملخص النص التاريخي الذي ذكره الواقدي وابن هشام وغيرهما من المؤرخين حول غزوة الحديبية، وقد تركنا ذكر بعض ما ذكره الواقدي والتي منها صلاة الخوف التي قيل أن رسول الله ﷺ صلاها بعد مواجهة جيش خالد، ومنها خطبة له ﷺ قصيرة، يذكر فيها: «قد تركت فيكم كتاب الله وسنة نبيه!!» حيث أن محلها ليس هنا وإنما في حجة الوداع كما سوف يأتي إن شاء الله.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا المقطع من النص التاريخي لواقعة أو غزوة الحديبية، يعطينا فكرة جيدة وواضحة عن الأهداف التي كان رسول الله ﷺ يبتغيها من خروجه في هذه الغزوة.

فالهدف المعلن لخروجه هو «العمرة» وكلّ الدلائل تشير إلى ذلك، من سوق الهدى، إلى الاحرام من الميقات إلى عدم إخراج السلاح معهم، إلى استنفار ودعوة العرب من المشركين لمرافقته في هذه الرحلة.

إلا أنّ السؤال الذي يطرح نفسه: كيف يخرج رسول الله ﷺ إلى مكة وهي موطن قريش وبينه وبينهم الحرب والسيف والدم؟ وكيف يخرج وليس معه سلاح في الوقت الذي لم تكن هنالك معاهدة هدنة بينه ﷺ وبينهم! وكيف يطمئن إلى

(١) القليب: البئر، وجاش: ارتفع، والروء - بالفتح - الكثير، والعطف: مبرك الابل حول الماء.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٧١ وما بعدها، وابن هشام، السيرة: ٣ / ٣٠٩ - ٣١٠، وابن سعد،

خروجه مع أصحابه على تلك الحالة؟ فهل كان النبي ﷺ يعلم بأن قريشاً سوف تفتح له أبواب مكة، وتعطيه مفاتيح البيت الحرام ومن دون أي مقاومة تذكر؟ لقد كان رسول الله ﷺ في خروجه معتمراً إلى مكة يستهدف تحقيق أهداف ثلاثة:

أولها: إشعار الناس جميعاً أن علاقات الإسلام بالقوى الأخرى ليس شرطاً لها أن تظل قائمة على الحرب والعنف والقتال، وأن بالامكان أن تسودها فترات من السلم والتهادن والتعايش المشترك.

ولهذا نجد النبي ﷺ في سفره هذا لم يحمل معه سلاحاً إلا ما يحمله معه المسافر عادة وهو السيف فقط، رغم المخاطر التي تحيط به، ورغم رغبة بعض الأصحاب بحمل السلاح تخوفاً من قريش.

وثانيها: تجميد الصراع العسكري ضد قريش، ذلك الصراع الذي استغرق معظم مساحات الدرب الطويل الذي اجتازته الدعوة الإسلامية، سيما بعد التصعيد الذي شهده الصراع ضد اليهود.

ولهذا كان النبي ﷺ في سفرته هذه، حريصاً جداً على تحاشي الصراع العسكري، وهو ما يتضح جلياً من خلال كلماته ومواقفه التي سوف نبينها في المقطع الثاني من النص التاريخي لهذه الغزوة.

وثالثها: إقرار حقيقة أن مكة ومقدساتها ليست حكراً للوثنية تمارس فيها تقاليدها بحرية، وتسيطر على مقدراتها، فتسمح بدخولها لمن تشاء وتمنع من تشاء.. على العكس، فإن المسلمين أحفاد إبراهيم ﷺ أبي الحنفية السمحاء، وباني الكعبة، أحق وأجدر بدخول الحرم الآمن، وممارسة شعائره القائمة على التوحيد الخالص، الذي من أجله أقيم البلد الحرام^(١).

(١) د . عماد الدين خليل، دراسة في السيرة: ٢٢٣ بتصرف وإضافة بعض التوضيحات اللازمة .

إلا أن من خرج مع رسول الله ﷺ من المسلمين وغير المسلمين - وهم نفر يسير من الوثنيين - والقبائل التي امتنعت عن الخروج معه، كانوا في سفرهم هذا أمام احتمالين لا ثالث لهما:

الأول: وقوع الحرب لا محالة وذلك لأنّ قريشاً متوترة بقتلها في بدر، وضربت طرق تجارتها إلى الشام، ومهددة في أصل وجودها وكيانها السياسي، فهي تتربص بالمسلمين الدوائر، فكيف والمسلمون على باب دارهم وهم عزل من السلاح؟ فلا بدّ من حرب للقضاء عليهم، وهذا ما قطعت به بعض أفراد القبائل التي دعاها رسول الله ﷺ للخروج معه إلى مكة، فلم تستجب، لأنها كانت ترى أن الحرب لا محالة واقعة، وأن المسلمين أكلة جزور! كذلك احتمله بعض المسلمين، ممن أشار على رسول الله ﷺ بحمل السلاح معهم.

الثاني: دخول مكة وفتحها وأداء العمرة قطعاً، وهذا ما كان يجزم به جلّ من خرج مع رسول الله ﷺ من المسلمين، إن لم نقل كلهم باستثناء نفر يسير من الصحابة من أصحاب البصائر النافذة ممن أسلموا أمرهم لله ورسوله، وعبرة الواقدي تدل على ذلك بوضوح، يقول: «وخرج أصحاب رسول الله ﷺ معه، لا يشكّون في الفتح، للرؤيا التي رأى رسول الله ﷺ»^(١).

ولهذا نجد بعض الصحابة يعترض على رسول الله ﷺ بعد اقرار وثيقة الصلح بينه وبين سهيل بن عمرو ممثل قريش، ووصلت هذا الاعتراضات إلى درجة الخروج عن اللياقة الايمانية كما سوف يأتي، مع أن رسول الله ﷺ لم يقل لهم إنه سيدخل مكة في نفس عامهم هذا جزماً.

أما رسول الله ﷺ، فبادراكه السياسي العميق، وبصيرته النافذة، وقبل هذا وذاك بالتسديد الإلهي له، كان ينظر إلى الأمور، وما سوف تأول إليه سفرته هذه

بنظرة أخرى تختلف كلياً عن النظرتين المتطرفتين السابقتين وكان يرى الأمور بواقعية وإيجابية، تأول في نتیجتها لصالح الدعوة الإسلامية .

لقد كان رسول الله ﷺ يرى أن ما يواجهه في سفره هذا أحد ثلاثة احتمالات :

الاحتمال الأول : أن تمنعه قريش بالقوة من دخول مكة وزيارة الكعبة ، نظراً لما بينهما وبينه ﷺ من دماء . ولكن قريشاً لن تقدم على هذا التصرف لأمرين :

أولهما : أن هذا سيثير حفيظة العرب ضد قريش لأنها تمنع من يريد تعظيم الكعبة من تعظيمها ، وإن أقدمت قريش على هذا العمل ، فهو في صالح الدولة الإسلامية قطعاً ، لأنه سيثير شقاقاً في الصف العربي المعادي للدولة الإسلامية ، وقريش أعقل من أن تقدم على مثل هذا التصرف .

وثانيهما : أن الدولة الإسلامية قد أكدت وجودها في الجزيرة العربية ، وأوقعت الرعب في قلوب القبائل العربية ، وقريش تعلم هذا تمام العلم ، ولهذا فإنها لن تجازف بخوض حرب معها .

الاحتمال الثاني : أن تسمح قريش لرسول الله وأصحابه بدخول مكة ، ولكن هذا أمر تأباه قريش وأعرافها القبلية لأنها تمس كرامتها ، إذ كيف يظأ القاتل أرض المقتول ممتعاً بحماية ذويه له؟!!

وعلى فرض أن قريشاً تجاوزت ذلك كله وقبلت دخول محمد وأصحابه ، فمن يضمن أن لا تقع بعض الحوادث عندما يشاهد الرجل قاتل أبيه وأخيه نعمان بالأمن والحرية أمامه؟!!

وإذا ما وقعت بعض هذه الحوادث فلن يكون ذلك في صالح قريش ، لأنه سيشتع بين العرب أن قريشاً تقتل في الحرم من أتى لتعظيم الكعبة ، وأكبر بها من قولة!

الاحتمال الثالث: أن تعرض قريش على الرسول ﷺ الرجوع دون دخول مكة، وهو في هذه الحالة لن يعود إلا بشروط يرضاها، وستبذل له قريش ما يريد خوفاً من الوقوع في أحد الاحتمالين السابقين.

وكيفما كان الأمر، وأي الاحتمالات الثلاثة قد وقع فهو في مصلحة الدولة الإسلامية إذا نظر إليه سياسياً.

ولذلك أعلن رسول الله ﷺ أنه يريد أداء العمرة، وجمع الجموع وسار بهم إلى الحديبية، وحدث الاحتمال الثالث، وتمت معاهدة هدنة الحديبية بين قريش والدولة الإسلامية على الشكل المعروف في السيرة» كما سوف يأتي تفصيله.

وقول رسول الله ﷺ عندما وصل الحديبية وبركت ناقته: «لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطّة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» تدل بوضوح على إرادة الاحتمال الثالث من سفره، وهذا لا يمنع من كونه ﷺ أراد العمرة في تلك السنة، وليس كما قال بعضهم: «إنّ رسول الله ﷺ لم يرد الحج في الأصل، وإن أظهر ذلك، وإنما كان يريد الحصول على هدنة بينه وبين قريش تمكنه من التحرك العسكري المأمون»^(١).

٥ - سجال المفاوضات بين قريش والنبي ﷺ

لقد فشلت قريش في مناشاتها العسكرية من خلال الكتيبة العسكرية التي جهزتها بقيادة خالد بن الوليد، لصدّ رسول الله ﷺ ورجوعه من حيث أتى، كذلك يتحدث المؤرخون عن ابن عباس: «إن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين رجلاً، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً، فأتى بهم رسول الله ﷺ فغفا عنهم، وخلّى

(١) د . محمد رؤاس قلعة جي، قراءة سياسية للسيرة النبوية: ٢١٤ .

سبيلهم، وقد كانوا رَمَوْا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والتبل»^(١).

لقد كانت قريش تعلم يقيناً بأن الصدام العسكري الواسع ضد رسول الله ﷺ والمسلمين في مثل هذه الظروف ليس في صالحها أبداً، فالتجأوا إلى هذه المناورات العسكرية علّها تدخل الرعب في قلوب المسلمين كي يكفوا عما يريدون من دخول مكة والعمرة، ويعودوا من حيث أتوا من دون أن يحصلوا على أي شيء يذكر، إلا أن مناوراتهم وخططهم هذه باءت بالفشل، فلم يلمسوا من رسول الله ﷺ والمسلمين إلا إصراراً على دخول مكة، وأداء العمرة.

فلم تجد قريش إلا الدخول في مفاوضات مع رسول الله ﷺ من خلال من تنتخبه لهذه المهمة من ذوي الحنكة السياسية، لعلهم يقنعون رسول الله ﷺ بأن لا جدوى من محاولاته تلك، بعد اصرار قريش على منعه منها.

وكانت قريش تعرف سلفاً بأن هذه المفاوضات محكومة باعطاء تنازلات كبيرة، إلا أنها كانت مستعدة لذلك، في مقابل حفظ سمعتها وكرامتها أمام القبائل الأخرى، إذ إن دخول المسلمين إلى مكة عنوة يعتبر هزيمة منكرة، تهون دونها كل التنازلات الأخرى.

وكان رسول الله ﷺ يعرف قريشاً جيداً، ويعرف مواطن القوة والضعف فيها، ويعرف ما جبلت عليه من عتو وعنجهية واستكبار، إلا أنه ﷺ كان يقدر الأمور جيداً، ويعرف أن قريشاً سوف تعطيه ما يريد في مقابل عدم دخول مكة في عامه هذا.

على هذه الأسس والتي تؤيدها النصوص التاريخية الآتية جرت المفاوضات بين ممثلي قريش، ورسول الله ﷺ، حتى انتهت بالمفاوضات النهائية التي تمخض عنها تدوين وثيقة العهد بين الطرفين.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٤ .

بديل بن ورقاء ورجال خزاعة بين الرسول وقريش:

روى ابن إسحاق عن الزهري قال: «فلما اطمأن رسول الله ﷺ أنه بديل بن ورقاء الخزاعي، في رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمته، ثم قال لهم نحواً - أي مثل - مما قال لبشر بن سفيان.

وفي رواية الواقدي إضافة مهمة قالها رسول الله ﷺ ولم ترد في رواية ابن إسحاق عن الزهري وهو قول رسول الله ﷺ: «... وقريش قوم قد اضررت بهم الحرب، ونهكتهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة يأمنون فيها...»^(١).

«... فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً هذا البيت. فاتهموهم وجبهوهم^(٢)، وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب. قال الزهري: وكانت خزاعة عيبة نصح^(٣) رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة^(٤)».

والذي يفهم من رواية الزهري أن قريشاً لم ترسل بديلاً وأصحابه إلى رسول الله ﷺ لأنهم كانوا متهمين عندهم بموالاة رسول الله ﷺ والنصح له، ولهذا خاطبهم بما يكرهون من القول واتهموهم.

بل إن رواية الواقدي صريحة ليس فقط في أن قريشاً لم ترسلهم إلى

(١) الواقدي، المغازي: ٥٩٣/١.

(٢) جبهوهم: أي خاطبهم بما يكرهون.

(٣) عيبة نصح رسول الله: أي خاصته وأصحاب سره.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١١ - ٣١٢.

النبي ﷺ، بل امتناعهم حتى من استخبارهم والاستماع إليهم، وقالوا لهم: «لا والله ما لنا حاجة بأن نخبرونا عنه! ولكن اخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً، حتى لا يبقى منا رجل»^(١).

ويبدو أن بين رجال قريش، رجال اتصفوا برجاحة العقل والحنكة وبعد النظر، فلم يعجبهم موقف قريش المتعجرف وتعصبها عن مجرد الاستماع إلى ما قاله رسول الله ﷺ لبديل ومن معه.

يقول الواقدي: «فقال عروة بن مسعود: والله ما رأيت كالיום رأياً أعجب! وما تكرهون أن تسمعوا من بديل وأصحابه؟ فإن أعجبكم أمر قبلتموه،

وإن كرهتم شيئاً تركتموه، لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً، وقال رجال من ذوي رأيهم واشرافهم . . : أخبرونا بالذي رأيتم والذي سمعتم . فأخبروهم بمقالة النبي ﷺ التي قال . . فقال عروة: . . إن بديلاً قد جاءكم بخطة رشد لا يردّها أحد أبداً إلا أخذ شراً منها، فاقبلوها منه وابعثوني حتى آتيكم بمصدقها من عنده»^(٢).

مركز رسول قريش إلى الرسول ﷺ

وقبل أن تبعث قريش عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ بعثوا إليه مركز بن حفص . . فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: هذا رجل غدر، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه، قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ^(٣).

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٩٤ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٥٩٤ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٣ / ٣١٢، والواقدي: ١ / ٥٩٩ إلا أنه يقدم إرسالهم ابن مسعود على إرسالهم المركز .

الحليس رسول من قريش إلى الرسول ﷺ

«وكانت قريش تعتمد فيما أعدت من قتال محمد ﷺ على حلفائها من الأحابيش، ففكرت أن توفد سيدهم لعلّه إذا رأى أنّ محمداً لا يسمع له ولا يتفاهم وإياه، ازداد لقريش نصرة، فزادهم على محمد قوة»^(١).

قال ابن إسحاق: «ثمّ بعثوا إليه الحليس بن علقمة، وكان يومئذ سيّد الأحابيش. فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألّهون»^(٢)، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدى يسيل إليه من عرض الوادي. . رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظماً لما رأى، فقال لهم ذلك. فقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك!

قال ابن إسحاق: إنّ الحليس غضب عند ذلك، وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصّد عن بيت الله من جاء معظماً له، لأنّصرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مه - أي اسكت - كفّ عنا يا حليس حتى تأخذ لأنفسنا ما نرضى به»^(٣).

عروة بن مسعود رسول قريش إلى الرسول ﷺ

لم تكتفِ قريش برسلها السابقين إلى رسول الله ﷺ، ولم تقتنع بما جاؤوا به من قول رسول الله ﷺ، فرأوا أن يوفدوا إليه حكيماً يطمئنون إلى حكمته، فتحدّثوا في ذلك إلى عروة بن مسعود الثقفي^(٤): «فقال: يا معشر قريش، إني قد

(١) هيكمل، حياة محمد: ٣٦٩.

(٢) يتألّهون: يتعبدون ويعظمون أمر الإله. والتأله: التعبد والتنسك (القاموس المحيط).

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٢، والواقدي، المغازي: ١ / ٥٩٩ - ٦٠٠.

(٤) وفي رواية الواقدي في المغازي: ١ / ٥٩٤ أن ابن مسعود هو الذي اقترح على قريش أن تبعثه إلى

رسول الله ﷺ.

رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ . .
وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، حتى آسيتكم بنفسي،
قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم.

فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، ثم قال: أجمعت أوشاب
الناس، ثم جئت إلى بيضتك لتفضها بهم^(١)، إنما قریش قد خرجت ومعها العودُ
المطافيل، قد لبسوا جلودَ النُمر، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنة أبداً، وأيم
الله، لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً . . .».

ثم ينقل ابن هشام محاوره بين ابن مسعود وأبي بكر، والمغيرة لسنا بصدد
نقلها لعدم ارتباطها بموضوع المهمة التي جاء من أجلها ابن مسعود.

قال ابن إسحاق عن الزهري: «فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به
أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً.

فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا
ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا
أخذوه، فرجع إلى قریش فقال: يا معشر قریش، إني قد جئت كسرى في ملكه،
وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل
محمد في أصحابه، وقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فَرَوْا رأيكم».

وفي رواية الواقدي: «فقال قریش: لا تكلم بهذا يا أبا يعفور! لو غيرك
تكلم بهذا للُمناه، ولكن نردّه عن البيت في عامنا هذا ويرجع إلى قابل»^(٢).

لقد كان عروة بن مسعود في حديثه مع رسول الله ﷺ أكثر دبلوماسيّة من

(١) الأوشاب: الأخلاط، وبيضة الرجل: أهله وقبيلته . وتفضها: أي تكسرها .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٣ - ٣١٤، والواقدي، المغازي: ١ / ٥٩٩ .

الذين سبقوه، فاستعمل في حوارهِ مع رسول الله ﷺ لغة تحريك المشاعر القومية والقبلية أولاً، ثم لغة التهديد والوعيد ثانياً، ثم لغة ما تأول إليه الأمور فيما إذا وقعت الحرب بين رسول الله ﷺ وقريش بحسب تقديره للأمور ثالثاً!

إلا أن ما يلفت النظر هو تشخيصه الدقيق لوضع رسول الله ﷺ بين أصحابه، ونصيحته لقريش بأن يتدبروا أمرهم، وعلى رواية الواقدي: «فروا رأيكم، وإياكم واضجاع الرأي.. وقد عرض عليكم خطة فمادوه^(١)! يا قوم، اقبلوا ما عرض فإنني لكم ناصح، مع إني أخاف ألا تنصروا عليه! رجل أتى البيت معظماً له، معه الهدي ينحره وينصرف»^(٢).

فلم تستمع قريش لرأي عروة، ولم يستجيبوا لما رغبتهم فيه من الصلح، فانصرف هو ومن معه إلى الطائف^(٣).

لقد انتهت هذه الجولة من مفاوضات رسل قريش لرسول الله ﷺ بنتائج عكسية لقريش، إذ إنها كانت تريد إرهاب رسول الله ﷺ وتخيفه ومن معه من عاقبة اصرارهم على دخول مكة، إلا أن استقامة رسول الله، وحزمه، وعزمه الراسخ، ومطالبته بحق له يقره له حتى أعداؤه، والذين فاوضوه على الرجوع، أفشلت ما خططت له قريش من أمر التخويف والترهيب، وكانت نتائج هذه المفاوضات وبالا على قريش، إذ تصدعت صفوف حلفائها من الأحابيش إلى خزاعة، ثم إلى عروة بن مسعود وقومه من ثقيف الذين رجعوا إلى الطائف...

إلا أن قريشاً، التي لم يكن لها أي مبرر مقبول حتى أمام حلفائها، بقيت على عنادها ولجاجها وممانعتها لرسول الله ﷺ من دخول مكة، لأنها سوف تمس في كرامتها وكبريائها!

(١) اضجاع الرأي: أي الوهن في الرأي، ومادوه: أي أضربوا له أجلاً ومدة زمنية أخرى.

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٩٩.

(٣) السيرة دحلان، السيرة النبوية: ١ / ٤٨٩، والحلي، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٢.

٦ - النبي ﷺ يرسل رجلين من أصحابه لمفاوضة قريش

عندما توقفت قريش من ارسال رسلها لمفاوضة رسول الله ﷺ بالرجوع من حيث أتى، رأى رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم من قبله، ليؤكد لهم أنه إنما جاء إلى مكة معتمراً وزائراً، وليس غازياً أو مستعداً.

وقد يكون رسول الله ﷺ قد قدر «أن رُسل قريش ربما لم يكن لديهم من الإقدام ما يقنعون به قريشاً بالرأي الذي يرى، فبعث من جانبه رسولا يبلغهم رأيه»^(١).

خُراش بن أُمية رسول النبي ﷺ إلى قريش

قال ابن إسحاق: «إن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أُمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له يقال له الثعلب، ليبلغ اشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلّوا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ»^(٢).

لقد كان تصرّف قريش مع رسول الله ﷺ، يدلّ بوضوح على روح الخصومة والحقد والبغضاء لديهم، وبعيدة كل البعد عن الأعراف القبلية السائدة بينهم آنذاك في عدم التعرض للرسل بأذى، وكانت أي مهانة أو قتل للرسل قضية لا تحتل ولا تغتفر، إلا أن رسول الله ﷺ بصبره الجميل، وحلمه الكبير احتملها منهم، ولم ييأس من إعادة المحاولة ثانية معهم.

عثمان بن عفان رسول محمد ﷺ إلى قريش

لقد وقع اختيار رسول الله ﷺ على شخص عمر بن الخطاب ليكون رسوله إلى قريش، إلا أن عمر اعتذر من القيام بهذه المهمة خوفاً من قريش! ورشح

(١) هيكل، حياة محمد: ٣٧ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٣١٤، والمغازي للواقدي: ١ / ٦٠٠ .

مكانه عثمان بن عفان!

قال ابن إسحاق: «ثم دعا عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عديّ بن كعب أحد يمنعني. . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظماً لحرمة.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقاه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان، وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت طفط؛ فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل»^(١).

ولا نريد أن نتوقف كثيراً لنتحدث عن سرّ اختيار عمر بن الخطاب أولاً لهذه المهمة وسبب اعتذاره منها، ثم ترشيح ابن عفان لها وقبول رسول الله ﷺ لهذا الترشيح، وتقليده إياه مهمة ابلاغ قريش ما جاء رسول الله من أجله!!

٧ - بيعة الرضوان، أسبابها الحقيقية ونتائجها

تحدثنا في القسم المكي من كتابنا هذا عن المفهوم القرآني للبيعة^(٢)، وأشرنا إلى بيعة الرضوان التي حدّثنا القرآن الكريم عنها ضمن آيات سورة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/ ٣١٥، وابن إسحاق، والواقدي، المغازي: ١/ ٦٠٠.

(٢) انظر كتابنا: دروس في السيرة النبوية - العهد المكي.

الفتح المباركة .

ولوقوع هذه البيعة في ضمن سياق أحداث غزوة الحديبية، فلا بد من التوقف عند بعض جزئياتها والأسباب الظاهرية التي دعت إليها - بحسب نصوص المؤرخين - وما يمكن أن نستفيدة من علل وأسباب واقعية لهذه البيعة .

قال ابن إسحاق: «إنَّ رسول الله ﷺ قال - حين بلغه أنَّ عثمان قد قُتل - : لا نبرح حتى تُناجز القوم، فدعا... الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إنَّ رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفرّ.

فبايع رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها، إلّا الجد بن قيس (أخو بني سلمة)... ثمَّ أتى رسول الله ﷺ أنَّ الذي ذكر من أمر عثمان - أي مقتله - باطل .

وأضاف ابن هشام: أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى»^(١).

وأضاف الواقدي: «فلما رجع عثمان (رضي الله عنه) أتى به رسول الله ﷺ إلى الشجرة فبايعه! وقد كان قبل ذلك حين بايع الناس قال: إنَّ عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله، فأنا أباع له! فضرب بيمينه على شماله»^(٢).

هذه هي خلاصة ما قاله المؤرخون حول بيعة الرضوان والتي تعرف أيضاً ببيعة «الشجرة» لجلوس النبي ﷺ تحت شجرة هناك عند البيعة .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه البيعة، وأثنى على المبايعين فيها، في قوله تعالى من سورة الفتح: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٦ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٦٠٥ .

الشَّجَرَةَ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ .

فوقوع هذه البيعة في سياق أحداث غزوة الحديبية من الأمور المسلمة تاريخياً عند المؤرخين، وحديث القرآن الكريم عنها في سورة الفتح قطعي، ونزول سورة الفتح بعد توقيع وثيقة صلح الحديبية وفي طريق رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة^(٢)، مما لا شك فيه ولا ريب عند المفسرين.

إلا أن الكلام في سبب وقوع هذه البيعة! إذ إن ما ذكره المؤرخون من سبب لها يفتح لنا جملة من التساؤلات! فهل أن السبب الوحيد لهذه البيعة هو اشاعة خبر مقتل الصحابي عثمان بن عفان، كما قيل؟ أم أن هنالك أسباباً أخرى أكثر واقعية وموضوعية من هذا السبب الشخصي؟

فالمعطيات التاريخية لكيفية تعامل النبي ﷺ مع الأحداث الحادة والمفصلية وطريقته الحكيمة في معالجتها، تجعلنا نشك في أن يكون سبب هذه البيعة هو قضية اشاعة مقتل عثمان بن عفان!

والذي نعتقده أن دواعي هذه البيعة أعمق بكثير مما ذكره المؤرخون للأسباب التالية.

أولاً: إن اختيار النبي ﷺ لعثمان بن عفان لكي يكون رسوله لقريش لم يكن اعتباطياً، وإنما كان مبتنئاً على أساس خلفية عثمان بن عفان في سوح المواجهة والقتال مع قريش، فهو لم يشترك في معركة بدر، ولم يكن له دور يذكر في بقية الوقائع، فلا تطلبه قريش بدم لها، حتى يكون في معرض القتل من قبلها. بالاضافة إلى علاقة النسب الذي تربطه بالأمويين فهو منهم وإليهم فكيف

(١) الفتح: ١٨ .

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٥٥، والميزان في تفسير القرآن للطباطبائي: ١٨ / ٢٥١ وما

يتعرضون له بالقتل؟ بل على العكس من ذلك نزل عليهم معزراً مكرماً، ودعوه إلى الطواف ببیت الله الحرام .

بل حتى المسلمين كانوا يعرفون ويعون هذه الحقيقة، فعندما عاد من قريش إلى صفوف المسلمين قال له بعضهم: «اشتفيت من البيت يا عبد الله؟» وقالوا قبل ذلك لرسول الله ﷺ: «وصل عثمان إلى البيت فطاف»^(١).

فمع وجود هذه الخلفية التاريخية والمنزلة الاجتماعية لعثمان عند أشرف قريش عامة والأمويين خاصة، فكيف يصدق رسول الله ﷺ خبر مقتله؟ ويدعو الناس للبيعة على الموت على أساس ذلك؟

ثانياً: وعلى فرض وقوع وشيوع خبر مقتل عثمان بن عفان عند المسلمين، فهل أن هذا الخبر بذاته يدعو النبي ﷺ إلى طلب البيعة من المسلمين؟ فما هي خصوصية عثمان دون غيره من المسلمين الذين تسلموا إلى أهلهم ثم اعتقلتهم قريش في نفس هذه الواقعة. وكان عددهم أحد عشر رجلاً كما يقول المؤرخون^(٢)؟ فلماذا لم يأخذ النبي ﷺ البيعة من المسلمين من أجل هؤلاء المعتقلين؟

ثالثاً: ثم إن كان سبب هذه البيعة هو خبر مقتل عثمان بن عفان كما يقولون، فما معنى أن يبايع له رسول الله ﷺ بأن يضرب يمينه على شماله؟ فهل تجري البيعة نيابة عن شخص ميت؟ وهل يمكننا أن نصدق ما يقوله المؤرخون من أنه: «لما رجع عثمان، أتى به رسول الله إلى الشجرة فبايعه»^(٣)! فما هو الداعي لهذه البيعة بعد أن انتفى سببها برجوع عثمان سالماً معافى؟ وما هو السبب لتجديد البيعة، بعد أن بايع له رسول الله ﷺ كما يقولون؟

رابعاً: لقد وقعت حوادث مشابهة للمسلمين، وغدير بهم وقتلهم بعض

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٦٠١ - ٦٠٢ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٦٠٤ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٦٠٥ .

المشركين بعد أن تكفلوا بحمايتهم والذود عنهم، كما هو الحال في حادثتي الرجيع وبئر معونة، حيث قتل في هاتين الحادثتين خيرة المسلمين، ومن الدعاة وحملة القرآن وبطريقة وحشية في القتل والمثلة.

فلم يحدثنا التاريخ أن رسول الله ﷺ قد طلب من المسلمين البيعة على الموت أو الثبات!

هذه المعطيات وغيرها تجلعلنا نبحت عن سبب آخر لهذه البيعة، أكثر عمقاً وواقعية وموضوعية من الذي ذكره كتاب السيرة والمؤرخون لها.

والذي نطمئن إليه، وتؤيده بعض النصوص التاريخية أن رسول الله ﷺ دعا المسلمين لهذه البيعة كاجراء وقائي رادع لقريش كي تكف عن تصلبها وعنادها وامتناعها عن السماح لرسول الله والمسلمين من دخول مكة، بل وحتى عن التفاوض المباشر معه.

لقد خرج رسول الله ﷺ من المدينة مسالماً، ولم يُخرج معه أي سلاح، واختار شهر ذي القعدة لخروجه وهو من الأشهر الحرم التي لا قتال فيها، وأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدى حتى وصل إلى الحديبية، ثم تبادل الرُّسل مع قريش، إلاَّ أنَّ قريشاً ازدادت تصلباً وعناداً فحبسوا بعض المسلمين، وأخذوا يتعرضون لمعسكر المسلمين ليلاً، من خلال ارسال خمسين رجلاً «وأمرهم أن يطيّفوا بالنبي ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم أحداً أو يصيبوا منهم غرة، فأخذهم محمّد بن مسلمة وأصحابه، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ، وكان عثمان بمكة قد أقام بها ثلاثاً يدعو قريشاً، وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ على أهليهم، فبلغ رسول الله ﷺ أنَّ عثمان وأصحابه قد قُتلوا، فذلك حين دعا إلى البيعة»^(١).

فأمام هذه المعطيات التي سجلتها وقائع هذه الغزوة ومن أجل هذه

الأسباب التي ذكرها النص التاريخي وغيرها، كان على النبي ﷺ أن يسيطر على الموقف من خلال اجراء وقائي يظهر فيه قوة واستقامة وتفاني المسلمين في الدفاع عن حقهم المشروع الذي يمنعون عنه .

ومما يؤيد هذا، ان النداء للبيعة، واسراع المسلمين إليها قد تم على مرأى ومسمع وفد قريش بقيادة سهيل بن عمرو! الذين كانوا يفاوضون النبي ﷺ في بادئ الأمر على إطلاق سراح الأسرى .

يقول الواقدي: «فلما نظرت قريش - سهيل بن عمرو، وحويط بن عبد العزى، ومن كان معه، وعيون قريش - إلى ما رأت من سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب، اشتد رعبهم، وخوفهم وأسرعوا إلى القضية»^(١).

فلم يكن النبي ﷺ يريد حرباً مع قريش وهو الذي قال - وقوله الصدق - : «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»^(٢). حتى يأخذ البيعة من المسلمين على الثبات أو الموت ليشن حرباً على قريش في الشهر الحرام والبلد الحرام، ولا كان خبر مقتل عثمان هو السبب الفرد لهذه البيعة، وإنما كانت البيعة من نوع التكتيك السياسي العسكري، أرعب فيها قريشاً، وأرغمها على أن تلين من تصلبها وتدخل مع النبي ﷺ في مفاوضات نهائية، تصب نتائجها في صالح الإسلام والمسلمين .

(١) المصدر نفسه: ١ / ٦٠٤، والمقرزي، امتاع الاسماع: ١ / ٢٩١ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٠ .

الدرس التاسع عشر

أحداث السنة السادسة من الهجرة

(غزوة الحديبية)

«القسم الثاني»

مباحث البحث

- ١ - المفاوضات النهائية مع وفد قريش إلى النبي ﷺ
 - ٢ - أحداث سبقت إمضاء وثيقة الصلح :
 - أ - ردود أفعال عمر بن الخطاب وبعض الصحابة
 - ب - علي بن أبي طالب عليه السلام يكتب وثيقة الصلح . . .
 - ٣ - وثيقة صلح الحديبية في بنودها القانونية
 - ٤ - حوادث ما بعد وثيقة الصلح :
 - أ - التأمل في ما صدر من عمر بن الخطاب في قصة أبي جندل بن سهل
 - ب - التأمل في موقف بعض الصحابة عند أمرهم بالاحلال من إحرامهم
 - ٥ - ما نزل من القرآن في صلح الحديبية
 - ٦ - من الحوادث اللاحقة لصلح الحديبية :
 - الحادثة الأولى : قصة هجرة أبي بصير . . . إلى النبي ﷺ مسلماً
 - الحادثة الثانية : هجرة بعض النساء المؤمنات إلى النبي ﷺ . . .
 - ٧ - من نتائج صلح الحديبية .
 - ٨ - الدروس والعبر المستفادة .
- أسئلة الدرسين الثامن عشر والتاسع عشر

غزوة الحديبية / ق ٢

١ - المفاوضات النهائية مع قريش

لقد أعطت حركة البيعة التي قام بها رسول الله ﷺ بين أصحابه، والتي كانت على مرأى ومسمع من وفد قريش المُفاوض لإطلاق سراح الأسرى، نتائج سياسية مهمة لصالح الدعوة الإسلامية ووصل صداها إلى مسامع قريش بواسطة وفدها المُفاوض، فأخذت تعيد النظر في مواقفها، وترعوي بعض الشيء عما كانت عليه من العناد والغبي والعنجهية.

قال الواقدي: «وَرَجَعَ حُوَيْطَبُ بْنُ عَبْدِ الْعِزَّى، وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو، وَمَكْرُزُ بْنُ حَفْصٍ، إِلَى قَرِيْشٍ فَأَخْبَرُوهُمْ بِمَا رَأَوْا مِنْ سُرْعَةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَقَالَ أَهْلُ الرَّأْيِ مِنْهُمْ: «لَيْسَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نَصَالِحَ مُحَمَّدًا عَلَى أَنْ يَنْصَرِفَ عَنْنَا عَامَهُ هَذَا وَيَرْجِعَ قَابِلٌ، فَيَقِيمُ ثَلَاثًا وَيَنْحِرَ هَدِيَهُ وَيَنْصَرِفَ، وَيَقِيمَ بِلَدْنَا وَلَا يَدْخُلَ عَلَيْنَا، فَاجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ».

فلَمَّا أَجْمَعَتِ قَرِيْشٌ عَلَى الصُّلْحِ وَالْمَوَادَعَةِ بَعَثُوا سَهِيلَ بْنَ عَمْرٍو مَعَهُ حُوَيْطَبَ . . وَمَكْرُزَ . . وَقَالُوا: إِنَّتَ مُحَمَّدًا فَصَالِحُهُ، وَلَيْكُنْ فِي صَلْحِكَ لَا يَدْخُلُ فِي عَامِهِ هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا يَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّكَ دَخَلْتَ عَلَيْنَا عَنوةً.

فَأَتَى سَهِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ طَلَعَ قَالَ: سَهْلُ أَمْرِكُمْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصِّلَحَ.

وفي رواية ابن إسحاق: «أَرَادَ الْقَوْمُ الصِّلَحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ» فلما

انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح^(١).

وفي رواية الطبري: «قال: بعثت قريش سهيل بن عمرو [وفلان وفلان] إلى النبي ﷺ ليصالحوه، فلما رآهم رسول الله ﷺ فيهم سهيل بن عمرو، قال: «سهل الله لكم من أمركم، القوم مأتون إليكم بارحامهم، وسألوكم الصلح، فابعثوا الهدى واطهروا التلبى، لعل ذلك يلين قلوبهم، فلبوا من نواحي العسكر حتى ارتجت أصواتهم بالتلبية»^(٢).

والذي يفهم من رواية ابن إسحاق؛ ومن الروايات التاريخية الأخرى؛ انه جرت محادثات طويلة ومحاولات شتى بين الفريقين، واضطر سهيل خلال المفاوضات أن يراجع قريشاً فيما دار بينه وبين النبي ﷺ، ثم يعود ليبيدي له وجهة نظرهم. . وإن المفاوضات بين الطرفين لم تقتصر على دخول النبي ﷺ مكة لأداء مناسك الحج، بل تناولت ارجاع من أسلم من أهالي مكة إلى عائلاتهم. . إلا أن المفاوضات تركزت حول عدم دخول النبي ﷺ مكة هذا العام، ودخوله لها في العام القادم، واتفقا على جميع بنود المعاهدة، ولم يبق إلا كتابة تلك البنود في نسختين إحداها للنبي ﷺ والأخرى للمشركين^(٣).

٢ - أحداث سبقت امضاء وثيقة الصلح

أ - ردود أفعال عمر بن الخطاب وبعض الصحابة من صلح الحديبية:

وقبل أن يذكر المؤرخون بنود صلح الحديبية في صيغتها القانونية النهائية،

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٦٠٣ - ٦٠٥، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٦ .

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: ٢ / ٦٢٩ .

(٣) انظر: المصادر السابقة، والحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٥٣٧ - ٥٣٨ .

ثم التوقيع عليها من الطرفين، توقفوا عند ردود أفعال بعض الصحابة حول وثيقة الصلح قبل توقيعها، ومن أبرز هؤلاء الصحابة الذين صدرت منهم ردود الأفعال هذه هو عمر بن الخطاب! حيث سجلت عليه مواقف وكلمات وأفعال ما كان ينبغي أن تصدر منه في مقابل شخص النبي ﷺ!! أما بعض الصحابة الآخرون فإن التاريخ قد سجل عليهم بعض المواقف السلبية، إلا أنها لم تكن بنفس الدرجة من الحدة وعدم التعقل، وفقدان الاتزان التي اتصفت بها مواقف الفاروق عمر!

وفيما يلي طرف مما ذكره المؤرخون حول هذه المواقف:

روى الواقدي وابن إسحاق: «فلما التأم الأمر، ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نُعطي الدِّنية^(١) في ديننا؟

فقال أبو بكر: يا عمر، الزم عَرزَه^(٢) فإنني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله ﷺ!

ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أأنت برسول الله؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نُعطي الدِّنية في ديننا؟!

قال ﷺ: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني.

وزاد الواقدي بقوله: ولقي عمر من القضية - أي من وثيقة الصلح - أمراً كبيراً، وجعل يردّ على رسول الله الكلام ويقول: علام نُعطي الدِّنية من ديننا؟

(١) الدِّنية: الذل والأمر الخسيس!

(٢) أي ألزم أمره، والغرز للرحل بمنزلة الركاب للسرّج.

ورسول الله يقول: أنا رسول الله ولن يضيّعني؟ فجعل يردّ على رسول الله الكلام. فقال أبو عبيدة بن الجراح: ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما يقول؟ تعوّد بالله من الشيطان، واتهم رأيك^(١).

وينقل ابن كثير برواية البخاري أن عمرًا قال لرسول الله: «أو لست كنت تحدّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟» قال ﷺ: «بلى، فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟» قال عمر: قلت: لا، قال ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به»^(٢).

كان المفروض بعمر بن الخطاب أن ينتهي من اعتراضاته ورده المتكرر على رسول الله ﷺ بعد أن أوضح له رسول الله ﷺ، أن ما تمّ بأمر الله «ولن أخالف أمره» وبعد أن نصحه صاحبه أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح، إلا أنه - وللأسف - لم يكفّ عن اعتراضه على رسول الله ﷺ، بل؛ وحتى بعد نزول سورة الفتح وبشارة الوحي للمسلمين بهذا الفتح المبين، بقي الشك يتلجج في صدر عمر بن الخطاب، ففي رواية ابن سعد قال: قال رجل من أصحاب محمد يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: «إي والذي نفسي بيده إنه لفتح»^(٣).

ومن رواية الذهبي يتضح لنا أن الرجل الذي أطلق سؤاله الاستنكاري في وجه رسول الله ﷺ هو عمر بن الخطاب، ففي رواية ينقلها جاء في آخرها: «. . ونزل القرآن - يقصد سورة الفتح - فأرسل النبي ﷺ إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أو فتح هو؟! قال ﷺ: نعم. .»^(٤).

وبقي هذا الشك والارتياب مستحكماً عند عمر حتى أنه كان يفكر في التمرد على رسول الله ﷺ لو وجد من يعينه ويشايعه على ذلك كما يتحدث بنفسه

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٦ - ٣١٧، والواقدي، المغازي: ١ / ٦٠٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٤ / ٢٠٠، والسيرة النبوية: ٣ / ٣٣٤، وذكرها الواقدي: ١ / ٦٠٩.

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٠٢، ودحلان، السيرة النبوية: ١ / ٥٠٤.

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام: مجلد المغازي: ٣٩١.

عن ذلك . ففي رواية ابن عباس قال : «قال لي عمر في خلافته، وذكر القضية - أي قضية صلح الحديبية - : ارتبْتُ ارتياباً لم ارتبه منذ أسلمت إلا يومئذ، ولو وجدت ذلك اليوم شيعة تخرج عنهم رغبة عن القضية لخرجت!»!

وروي عن أبي سعيد الخدري قوله : «جلسْتُ عند عمر بن الخطاب يوماً، فذكر القضية فقال: لقد دخلني يومئذ من الشكِّ، وراجعت النبي ﷺ يومئذ مراجعة ما راجعته مثلها قطُّ . . والله لقد دخلني يومئذ من الشكِّ حتى قلت في نفسي: لو كنا مائة رجل على مثل رأيي ما دخلنا فيه أبداً!»^(١).

وبقيت عقدة صلح الحديبية في نفس عمر بن الخطاب إلى زمان خلافته، فعمد إلى الشجرة التي جلس تحتها رسول الله ﷺ في بيعة الرضوان فقطعها! بعد أن وجد المسلمين يقصدونها ويصلون عندها!

روى ابن سعد في الطبقات : «قال : كان النَّاسُ يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان، فيصلُّون عندها، قال : فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فأوعدهم - أي هددهم - فيها، وأمر بها فقطعت»^(٢)!

هذه هي مواقف عمر بن الخطاب من صلح الحديبية، عند وقوعها وبعدها، وإلى زمن خلافته .

وهي مواقف فيها الكثير من علامات التعجب والاستفهام، ولم نجد لها أي مبرر مقنع لصدورها منه، وما كنا نتمنى له مثل هكذا مواقف^(٣).

وهناك موقف آخر لعمر بن الخطاب في هذه القضية بالذات نذكرها في محلها .

(١) الواقدي : ١ / ٦٠٧ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٩٩، والحلي، السيرة الحلبية: ٣ / ٣٧ .

(٣) للتوسع انظر: الصحيح من سيرة النبي الأعظم: ١٦ / ١٢٨ وما بعدها .

أما بعض الصحابة الآخرين فقد سجلت لنا بعض كتب السيرة مواقفهم إجمالاً، فيقول الواقدي: «وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصلح.. فلما رأوا الصلح دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون.. وقال عمر ورجال من أصحاب النبي ﷺ: يا رسول الله، ألم تكن حدثتنا إنك ستدخل المسجد الحرام...»^(١).

وفي رواية الحلبي في السيرة: «.. وتكلم بعض الصحابة وقال: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت وصدّ هدينا، فقال رسول الله ﷺ لما بلغه ذلك: بئس الكلام! بل هو أعظم الفتح..»^(٢).

وهناك مواقف أخرى لبعض الصحابة، تدل على شكهم في جدوى ما فعله رسول الله، وعدم استيعابهم لواقع ما أقدم عليه والنتائج المترتبة عليها، ثم بعد ذلك، وعندما ظهرت لهم نتائج ذلك، أو عندما هدأت نفوسهم من ثورة الغضب..!

رجعوا إلى أنفسهم وندموا على ما فعلوا وقالوا، كما تشير إلى ذلك النصوص التاريخية^(٣).

ب - علي بن أبي طالب عليه السلام يكتب وثيقة الصلح، وسهيل يعترض:

لقد كان اختيار قريش لسهيل بن عمرو لكي يكون آخر من يفاوض رسول الله ﷺ، وأعطاه حق التوقيع على وثيقة الصلح اختياراً موفقاً.

فقد كان هذا الرجل مفاوضاً صعباً، وسياسياً محنكاً، يسعى بكل جهده لتحقيق مصلحة قومه. يروي الواقدي: «فكلم رسول الله ﷺ فاطال الكلام،

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٦٠٧ - ٦٠٩ وما بعدها، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٨.

(٢) السيرة الحلبيّة: ٣ / ٣٥.

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام: ٣ / ٣١٧، والواقدي، المغازي: ١ / ٦٠٧ و ٦٠٩.

وتراجعوا، وترافعت الأصوات وانخفضت».

بل حتى ان هذا الرجل قد اختار في جلوسه بين يدي النبي ﷺ جلسة المتوثب القلق المتحسب لكل طارئ، بينما جلس رسول الله ﷺ جلسة المطمئن لأمر الله وقضائه.

يروى الواقدي عن أمّ عمارة تقول: «إني لأنظر إلى رسول الله ﷺ جالساً يومئذ متربّعاً.. وسهيل بارك على ركبتيه، رافع صوته».

ثم يضيف الواقدي: «فلما حضرت الدّواة والصحيفة بعد طول الكلام والمراجعة فيما بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو، ولما التأم الأمر وتقارب، دعا رسول الله ﷺ رجلاً يكتب الكتاب بينهم.. فقال سهيل: لا يكتب إلا أحد الرجلين، ابن عمك علي أو عثمان بن عفان»^(١).

ولم تنته اعتراضات سهيل بن عمرو عند هذا الحد، وإنما جاء اعتراضه مرة أخرى على ديباجة ومقدّمة وثيقة الصلح.

روى الواقدي وابن إسحاق: «فأمر النبي ﷺ علياً يكتب، فقال رسول الله ﷺ: اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف الرحمن، اكتب كما نكتب: باسمك اللهم..، فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم! - ثم قال اكتب - : هذا ما اصطلاح عليه رسول الله ﷺ، فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتبعتك، افترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله»؟

وفي رواية ابن إسحاق: «قال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقفالك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك! فقال رسول الله ﷺ: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو...»^(٢).

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٦٠٥ - ٦٠٦ و ٦١٠.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٦١٠ - ٦١١، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٧.

هذه كانت مواقف واعتراضات سهيل بن عمرو، فهو يريد أن ينتزع من رسول الله ﷺ ما فيه مصلحة لقريش بحسب تشخيصه، ويريد أن يوثق كتاب الوثيقة من خلال شخصية معروفة تكتب بنودها، ولا يريد أن ينتزع رسول الله ﷺ منه اعترافاً بمفهوم إسلامي غير مستخدم عندهم، أو ينتزع منه الاعتراف بنبوته ورسالته ﷺ، وقد قابل رسول الله ﷺ كل ذلك بقلب مطمئن، وصدر رحب، وحلم كبير، مؤثراً مصلحة الإسلام والدعوة الإسلامية وما تجنيه من نتائج طيبة من وثيقة الصلح هذه، ولهذا استجاب لما أراده سهيل.

وقبل أن ننتقل إلى ذكر بنود وثيقة الصلح، لابد من الإشارة إلى قضية ذكرها بعض المؤرخين ولم يذكرها الواقدي وابن إسحاق، وتتعلق هذه القضية بشخصية علي بن أبي طالب عليه السلام.

فعندما اعترض سهيل بن عمرو على كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، وعلى كلمة رسول الله، وطلب محوهما واستبدلهما، واستجاب رسول الله ﷺ لطلبه، واستجاب علي عليه السلام لطلب رسول الله ﷺ فمحاها واستبدلها بما أمره رسول الله ﷺ ولم يسجل الواقدي وابن إسحاق أي موقف لعل في هذه القضية كما مر بنا سابقاً.

إلا أن بعض المؤرخين والمحدثين قد ذكروا هنا زيادة لابد من الوقوف عندها - ولو باختصار - لدفع شبهة في المقام.

فقد روى الطبري هذه القضية بروايتين، لم يسجل في الأولى أي امتناع لعل عليه السلام عن محو مصطلح «رسول الله» فامثل لأمر رسول الله ﷺ وكتب اسمه واسم أبيه. إلا أنه في الرواية الثانية ذكر أن رسول الله ﷺ: «قال لعل عليه السلام: امح رسول الله»، قال - أي علي - لا والله لا أمحاك أبداً. فأخذه رسول الله ﷺ - وليس يُحسن الكتابة - فكتب مكان «رسول الله»، «محمد»^(١).

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: ٢ / ٦٣٤ و٦٣٦.

وفي رواية أخرى يرويهما الذهبي: «فجعل عليٌّ يتلأأ ويأبى إلا أن يكتب: محمد رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب، فإن لك مثلها تُعطيها وأنت مضطهد»^(١).

وهناك روايات أخرى بألفاظ مختلفة تنص على امتناع عليٍّ عليه السلام عن محو كلمة «رسول الله ﷺ».

وهنا وجد بعضهم فيما نقل من موقف عليٍّ عليه السلام في هذه الواقعة، مجالاً للطعن في شخص عليٍّ عليه السلام، حيث رفض امتثال أمر النبي ﷺ بمحو وكتابة ما يمليه عليه، فقال بعضهم: «لقد كان هذا الإباء بالرأي في مقابلة النص»^(٢).

وقد أجاب السيد المرتضى في المسألة الثالثة والعشرين من المسائل الطرابلسيات، عندما سئل عن ذلك - ضمن مسألة طويلة، ما ملخصه: «إنَّ النبي ﷺ لما أمر أمير المؤمنين بمحو اسمه المضاف إلى الرسالة، جوز - أي علي - أن يكون النبي ﷺ إنما قال ذلك مرضياً سهيل، وإن كان لا يؤثره ولا يريد فعله، بل يؤثره التوقف عنه، فتوقف حتى يظهر من النبي ﷺ ما يدل على أنه لذلك مؤثر، وأنه أمر في الحقيقة محو ما كتب...»^(٣).

وأجاب بدر الدين العيني في شرحه على صحيح البخاري، عن هذا المطعن في شخص عليٍّ عليه السلام بقول: «وقول علي - رضي الله تعالى عنه - : «ما أنا بالذي أمحاه» ليس بمخالفة لأمر رسول الله ﷺ، لأنَّه علم بالقرينة أن الأمر ليس للإيجاب»^(٤).

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام: مجلد المغازي: ٣٩١.

(٢) السرخسي، أبو بكر محمد، أصول السرخسي: ١٣٥/٢.

(٣) المرتضى - علم الهدى، المسائل الطرابلسيات، مجموعة رسائل الشريف المرتضى: ٤٤٣/١.

(٤) العيني - بدر الدين، عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: ١٣ / ٤٠٩، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط. الأولى، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).

وأجاب آخرون بأجوبة أخرى تبرئ ساحة علي عليه السلام من معصية الرسول ﷺ وتدفع عنه هذا المظن^(١).

إلا أن الصحيح في هذه القضية - على فرض وقوعها - ما رواه الشيخ المفيد في الإرشاد بقوله: «... فقال له النبي ﷺ: «أمحها يا علي». فقال: «يا رسول الله، إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة».

قال له: «فَضَع يدي عليها» فمحاها رسول الله ﷺ بيده، وقال لأمر المؤمنين عليه السلام: «ستدعى إلى مثلها فتجيب وأنت على مضض»^(٢) أو «وأنت مضطهد» كما في رواية الطبرسي^(٣).

والذي يدعونا إلى تقديم رواية الشيخ المفيد على غيرها أمور:

أولها: إن هذه الزيادة لم ترد في رواية الواقدي، وابن إسحاق وابن سعد، كذلك لم يذكرها الطبري في روايته الأولى، وإنما ذكرها في روايته الثانية، ونسب فيها الكتابة لرسول الله ﷺ، والمعروف عن رسول الله ﷺ أنه أُمِّي، لا يحسن الكتابة. فكيف يكتب اسمه واسم أبيه؟!

ثانيها: إن هذه الزيادة الموجودة في رواية الطبري، قد ذكرها بعض المؤرخين بألفاظ أخرى، من قبيل ما ذكره دحلان في السيرة: «فقال رسول الله ﷺ لعلي (رضي الله عنه): «امح رسول الله» فقال علي: ما أنا بالذي امحوه» ثم يقول: وفي رواية: «والله لا أمحوك أبداً»^(٤).

وفي رواية الحلبي: «فقال علي - كرم الله وجهه - : «ما أنا بالذي أمحاه،

(١) انظر: شرح صحيح البخاري للقسطلاني، وشرح صحيح مسلم للنوي: ١٢ / ١٢٥ .

(٢) المفيد، الإرشاد: ١ / ١٢٠ - ١٢١ .

(٣) الطبرسي، إعلام الوري: ١ / ٢٠٤ .

(٤) دحلان، السيرة النبوية: ١ / ٤٩٤ .

وفي لفظ، لا أمحوك، وفي لفظ: والله لا أمحوك أبداً، وفي رواية أخرى أن أسيد بن حضير وسعد بن عباد أخذوا بيد علي عليه السلام ومنعاه أن يكتب إلا محمد رسول الله^(١).

فهذا الاختلاف في ألفاظ الرواية تجعلنا نشكك في أصل صدورها من الإمام علي عليه السلام.

ثالثها: ان رواية الشيخ المفيد تنسجم مع ما نعرفه عن أمير المؤمنين عليه السلام، ومدى طاعته وانقياده لرسول الله ﷺ في كل مراحل الدعوة الإسلامية والتي لازم فيها رسول الله ﷺ ملازمة الظل، وتبعه متابعة الفصيل إثر أمه.

وقد روي عنه عليه السلام في نهج البلاغة: «وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنِّي لَمْ أَرَدْ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ...»^(٢).

فكيف يمكن أن نصدق أو نتعقل ما نسب إليه عليه السلام، وعلى مرأى ومسمع من المسلمين والمشركين؟

وعلى هذا ينبغي اما أن نستبعد ما نسب إليه عليه السلام فإن يد الدس أو التحريف والاضافة غير مستبعدة فيها، بلحاظ ما حصل من بعضهم في مواجهة النبي ﷺ، أو نأخذ برواية الشيخ المفيد التي تنسجم مع ما عرفناه عن الإمام عليه السلام، وشخصيته الإيمانية واستقامته، فضلاً عما نعتقد من امامته وعصمته.

أما ما ذكره رسول الله ﷺ في قوله لعلي: «ستدعى إلى مثلها فتجيب وأنت على مضض، أو: «وأنت مضطهد».

فهذا من دلائل النبوة وارهاساتها، واستشراف من النبي ﷺ لمستقبل صراع الدعوة الإسلامية مع أعدائها مستقبلاً إذ التاريخ يعيد نفسه، والواقعة تسجل مرة

(١) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٩ .

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٧٩/١٠ .

أخرى ومن خلال أحقاد وثنية قريش الذين كانوا امتداداً لأسلافهم ممن حارب الله ورسوله، ولم يسلموا حتى رضخت لهم في الإسلام الرضائع.

لقد امتد صراع الإسلام مع وثنية قريش من مرحلة الصراع على التنزيل في عهد رسول الله ﷺ، إلى الصراع على التأويل في عهد أمير المؤمنين وخلافته.

ورحم الله عمار بن ياسر، هذا الصحابي الجليل، والمجاهد البصير، وذو الايمان الصلب والاستقامة، إذ كان يخاطب جيش معاوية بن أبي سفيان يوم صفين:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله^(١)

ومهما يكن من أمر، فرسول الله ﷺ بقوله لعلي عليه السلام: «اكتب فإن لك مثلها تعطيها وانت مضطهد» أشار لما سيقع بين علي ومعاوية في حرب صفين، إذ وقعت بينهما المصالحة على ترك القتال إلى رأس الحول... فلما كتب كاتب الصلح: هذا ما صالح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام معاوية بن أبي سفيان، قال عمرو بن العاص.. وهو أحد الحكمين من قبل معاوية: اكتب اسمه واسم أبيه، وأرسل معاوية يقول لعمرو: لا تكتب أن علياً أمير المؤمنين.. لو كنت أعلم أنه أمير المؤمنين ما قاتلته.. فلما سمع علي عليه السلام ذلك، قال: امحها، وتذكر قول النبي ﷺ له في الحديبية.. فقال: الله أكبر مثلاً بمثل...»^(٢).

٣ - وثيقة صلح الحديبية في بنودها القانونية

تعتبر وثيقة صلح الحديبية من الوثائق السياسية المهمة، وفي موازات وثيقة

(١) المنقري - نصر بن مزاحم، وقعة صفين: ٣٤١، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٣٧١ - ٣٧٢.

(٢) السيرة الحلبية: ٣ / ٢٩، وقعة صفين: ٥٠٨، وتاريخ الخميس للديار بكري: ٢ / ٢١.

العهد التي كتبها رسول الله ﷺ في المدينة بين طبقاتها الاجتماعية والدينية وقبائلها المتعددة .

ولهذا نجد بنود هذه الوثيقة في أغلب المصادر التاريخية، حيث اهتم المؤرخون بها باعتبارها فاتحة لعهد جديد من العلاقات بين قريش ومن حالفها، وبين رسول الله ﷺ والمسلمين ومن حالفهم، وكان من الطبيعي أن تختلف بعض نصوص وألفاظ هذه الوثيقة من مصدر تاريخي إلى مصدر تاريخي آخر، أو أن يذكر بعض المؤرخين بعض مواد الوثيقة. ويذكر غيرهم بعضاً آخر منها، فهذا أمر طبيعي بعد تقادم زمن هذه الوثيقة، أو عدم دقة الراوي، أو نقل بعضهم بالمعنى دون النص، أو إطناب بعض المؤرخين واختصار من بعض آخر .

وهذا الاختلاف - وإن كان طبعياً - إلا أنه يعقّد مهمة الباحث، في البحث عن بنود هذه الوثيقة في تلك المصادر الكثيرة ثم الموازنة بينها واستخلاص بنودها القانونية منها .

إلا أنا وجدنا من الباحثين من اهتم بهذا الأمر، وبذل جهوداً كبيرة في جمع الوثائق السياسية للعهد النبوي، ومكاتيب الرسول الأكرم ﷺ .

ومن أفضل من قام بهذه المهمة، وكفانا مؤونة البحث عنها، باحثان من علماء المسلمين .

الأول: البروفيسور محمّد حميد الله، في كتابه القيم: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة .

والثاني: هو العلامة علي بن حسين علي الأحمدي الميانجي، في كتابه القيم: مكاتيب الرسول ﷺ .

والكتاب الأول أكثر شمولاً واستيعاباً من الكتاب الثاني، إذ اعتمد مؤلفه على مصادر كثيرة موجودة في المكاتبات العالمية، لم يظفر بها مؤلف الكتاب

الثاني، رغم جهوده الكبيرة التي بذلها في كتابه. كما أن مؤلف الكتاب الثاني قد اعتمد على مصادر شيعية لم يعتمدها مؤلف الكتاب الأول في مصادره.

وفيما يلي نص وثيقة العهد من مصادرها التاريخية، والمواد القانونية التي تضمنتها الوثيقة، مع شرح لبعض مفرداتها.

أ - النص التاريخي للوثيقة وموادها القانونية :

« ١ - باسمك اللهم .

٢ - هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

٣ - واصطلحنا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين^(١)، يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم عن بعض .

٤ - على أنه من قديم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً، أو يتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام يتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه وماله .

٥ - على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه .

٦ - وأنّ بيننا عيبة مكفوفة، وإنه لا إسلال ولا إغلال^(٢) .

٧ - وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحبّ أن

(١) في رواية أبي عبيدة في الأموال: ٢٠٧ مدة الهدنة كانت أربع سنوات . وعند اليعقوبي في تاريخه: ٢ / ٥٤ مدة الهدنة ثلاث سنين، وقيل ستان . انظر: مكاتيب الرسول للأحمدي: ٢٨٢، وانظر: ابن سيد الناس، عيون الأثر: ٢ / ١٦٧ .

(٢) عَيْبَةٌ مكفوفة: هي استعارة، وإنما يريد: تكف عنا ونكف عنك، والإسلال: السرقة الخفية، والاغلال: الخيانة . (شرح أبي ذر: ٣٤١) .

يدخل في عقد قريش وعهدهم دَخَلَ فيه .

٨ - وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب: السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها .

٩ - وعلى أن هذا الهدى حيث ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا .

١٠ - . . أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين . . وعلي ابن أبي طالب . وَكَتَبَ^(١) .

وقد كتبت هذه الوثيقة في نسختين، وبعد أن وقع عليهما جماعة من شخصيات قريش، والمسلمين وشهدوا عليها، أعطيت نسخة «لسهيل بن عمرو» ممثّل قريش، وتركت نسخة عند رسول الله ﷺ .

وكان من الثمار الآتية لهذه الوثيقة وقبل أن ينفّض مجلس عقدها: «أن وثبت من هناك خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده . . ووثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل مع قريش في عهدها وعقدها»^(٢) .

٤ - حوادث ما بعد وثيقة الصلح

لقد كانت وثيقة الصلح نصراً للإسلام والمسلمين، وفتحاً مبيناً كما وصفه القرآن الكريم . وكان رسول الله ﷺ بقيادته الحكيمة، ونظرفته المستقبلية للأمر قد تحمل بعض بنود الوثيقة، نزولاً عند العهد الذي قطعه على نفسه في أول نزوله في الحديبية «لاتدعوني قريش اليوم إلى خطّة يسألوني فيها صلة الرحم إلّا

(١) حميد الله - محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي: ٧٧ - ٨٤، والأحمدي، مكاتيب الرسول: ٢٧٥ وما بعدها، ولاحظ المصادر التي اعتمدا عليها في المصدرين .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٦١٢ .

أعطيتها إياها» وسعيًا منه ﷺ لتحقيق مصالح الإسلام في السلم والمحبة والوئام.

إلا أن أغلب من كان مع رسول الله ﷺ من الصحابة كانت نظرتهم للأمر نظرة آنية، يستعجلون النتائج، ويريدون القفز على المراحل، وقطف الثمار قبل أوانها، ولهذا كثر اعتراض بعضهم على رسول الله ﷺ، كما مرّ بنا في بعض مواقف الفاروق عمر بن الخطاب!

والذي يبدو من خلال المواقف المتشنجة لبعض الأصحاب أن أكثر ما أزعجهم من بنود الوثيقة هو البند: «الخامس، والثامن» بحسب التسلسل الذي ذكرناه لبنود الوثيقة سابقاً.

إذ كيف يعيدون من جاءهم مسلماً هارباً من قريش وطغيانها وجبروتها؟ وكيف يعودون من حيث أتوا وهم لم يدخلوا مكة، ولم يؤدوا مناسكهم، وينحرون هديهم؟

«فقال بعضهم معترضاً: سبحان الله كيف نردّ للمشركين من جاء مسلماً؟ وعسر عليهم شرط ذلك، وقالوا: يا رسول الله اكتب هذا؟ قال ﷺ: نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً، وفي لفظ قال عمر: يا رسول الله أترضى بهذا؟ فأجابه بنفس الجواب السابق»^(١).

«وأراد رسول الله ﷺ إن الذي يهرب من جماعة المسلمين ويلجأ إلى المشركين، فلا قيمة لإيمانه وإسلامه، إذ إن ذلك يدل على أنه لم يؤمن بهذا الدين حق الإيمان، فلا داعي لأن يعاد إلى رسول الله ﷺ إذ لا اكراه في الدين، وأما من هرب من المشركين إلى المسلمين، فلو علم الله منه الصدق لنجاه حتماً»^(٢).

(١) الحلبي، السيرة الحلبيّة: ٣ / ٣١ .

(٢) السبحاني، سيرة سيّد المرسلين: ٢ / ٣٤٢ - ٣٤٧ .

١ - التأمل في ما صدر من عمر بن الخطاب في قصة أبي جندل:

فبينما هؤلاء على اعتراضهم من هذا البند من الوثيقة، وبعد كتابة بنود الوثيقة وقبل التوقيع عليها «إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ . . فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه، ثم قال: يا محمد، قد لَجَّت^(١) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتره^(٢) بتلابيبه، ويجرّه ليردّه إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته، يا معشر المسلمين، أُرِّدْ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم.

فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنّنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنّا لا نغدر بهم . . .».

فالرسول الأكرم ﷺ وبحكمته وصبره - ورغم حزنه على هذا المسلم المستضعف - قد عالج الأمر، واقتنع أبو جندل بما قاله له رسول الله ﷺ، ولم يردّ عليه بشيء أبداً.

إلا أن الموقف العجيب، والذي لا نجد له أي تفسير معقول، هو موقف الصحابي عمر بن الخطاب، الذي تصرف مع أبي جندل بعض التصرفات، وتكلّم معه ببعض الكلمات الخطيرة، والتي كان من الممكن أن تكون عاقبتها وبالا على المسلمين!

ففي رواية ابن إسحاق، والواقدي - إكمالا لقصة أبي جندل - جاء فيها:

(١) لجت القضية: أي تمت .

(٢) ينتره: يجذبه جذباً شديداً .

«فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم مشركون، وإنما دُم أحدهم دم كلب! قال الراوي: ويُدني قائم السيف منه. قال - الراوي - يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، قال: فضنّ الرجل بأبيه، ونفذت القضية»^(١).

وفي رواية الواقدي تكملة لرواية ابن إسحاق جاء فيها: فقال عمر: «يا أبا جندل، إن الرجل يقتل أباه في الله، والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله، فرجل برجل! فقال: فأقبل أبو جندل على عمر فقال: ما لك لا تقتله أنت؟ قال عمر: نهاني رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره، قال أبو جندل: ما أنت بأحقّ بطاعة رسول الله مني»^(٢).

ولابدّ لنا من التوقف قليلاً لاستجلاء هذا الموقف العجيب، الذي يحرض فيه عمر بن الخطاب ولد على قتل والده، في وقت يكون الوالد في أمان رسول الله ﷺ وهو رسول قريش إليه ﷺ ليفاوضه! ألم يكن الفاروق عمر يقدر خطورة هذا الموقف وما يترتب عليه من آثار خطيرة؟!

لقد توقف السيد الحسيني عند هذا الموقف من عمر بن الخطاب متسائلاً فقال: «والذي يدعو إلى التساؤل في موقف عمر بن الخطاب هذا - كما اتفق عليه المؤرخون - هو انه كيف أقدم على عمل من هذا النوع من أن رسول الله قال له: بأني لم أفعل ما فعلت إلا بأمر من الله، ومع انه رأى من النبي ﷺ الحرص والاصرار على تنفيذه ووضع بنود الاتفاق في كتاب خاص يلتزم به الطرفان.

فكيف يقدم سيفه لأبي جندل ويحرضه على قتل والده وهو في مقام

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٨ - ٣١٩ .

(٢) الواقدي، المغازي: ١ / ٦٠٩ .

التفاوض مع رسول الله من قبل قريش! ولو قُدر لأبي جندل أن ينفذ رغبة عمر بن الخطاب ويقتل أباه بسيفه، فماذا يكون موقف النبي من قريش وقد قتل مندوبها، وأحد زعمائها المبرزين فيها، بل وحتى عند جميع العرب الذين يعدون هذا النوع من الفتك من أقبح أنواع الفتك القذر الذي يترفعون عنه مهما كانت النتائج.

ثم إنَّ قريشاً هل تسكت فيما لو تحققت أمنية عمر بن الخطاب، وبلا شك بأنها كانت ستخوض مع النبي هي وأحلافها معركة من أشرس المعارك على أبواب مكة وبطائحها، والمسلمون لا يملكون إلا سيوفهم حين ذاك، ومن الصعب أن يتخلص المسلمون من أيديهم، وهم على مثل هذا الحال! وكل الملابسات تشير إلى أن النصر سيكون لقريش.

فلو نجح عمر في تخطيطه لكان ذلك سبباً لاتهام المسلمين بالغدر ونقض المواثيق - من جهة - وتكذيب النبي ﷺ فيما أعلن عنه منذ خروجه من المدينة، فلقد صرح في عشرات المناسبات بأنه لم يخرج غازياً، ولا مقاتلاً، ولا يريد الاساءة لأحد، ولم يتحرك إلا لأداء مناسك الحج لا غير.

ومجمل القول: أن هذا الموقف من ابن الخطاب - كما نقله المؤرخون - يسيء إلى النبي وإلى سمعته، ويوشك أن يعرض المسلمين لحرب ضارية لا بدَّ وأن يكون النصيب الأكبر من أخطارها للمسلمين حسب تقديرنا للملابسات التي كانت تحيط بهم آنذاك^(١).

وكان عمر بن الخطاب يقدر جيداً مقدار الأذى الذي ألحقه برسول الله ﷺ من خلال مواقفه السابقة واللاحقة في قضية وثيقة صلح الحديبية، والرواية التي يرويها ابن عباس عنه تحكي لنا هذا الشعور عند عمر بن الخطاب، «قال ابن عباس، قال عمر بن الخطاب...: كنت أسير مع رسول الله ﷺ في منصرفه من الحديبية، فسألت رسول الله ﷺ، فلم يجبني! ثم سأله فلم يجبني، ثم سأله فلم

(١) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٥٤٠ - ٥٤١ .

يجبني، قال عمر: فقلت: ثكلتك أمك يا عمر! نذرت رسول الله ثلاثاً، كل ذلك لا يجبني! قال: فحركت بعيري حتى تقدمت الناس، وخشيت أن يكون نزل في القرآن، فأخذني ما قُرب وما بُعد، ولما كنت راجعاً رسول الله ﷺ بالحديبية وكراهتي القضية، فإني أسير مهموماً. فإذا منادي ينادي: يا عمر بن الخطاب! فوقع في نفسي ما الله به أعلم، ثم أقبلت إلى رسول الله . قال ﷺ: أنزلت عليّ سورة هي أحبّ ممّا طلعت عليه الشمس فإذا هو يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١).

فالملاحظ في هذه الرواية شعور عمر بما سببه من أذى لرسول الله ﷺ نتيجة مواقفه، واختيار رسول الله ﷺ لعمر بالذات ليسمعه ما نزل عليه رداً على اعتراضاته ومواقفه المتشنجة الانفعالية.

ب - التأمل فيما صدر من بعض الصحابة عند احلالهم من الاحرام:

انتهت كتابة وثيقة الصلح بكل ملابساتها وما رافقها من اعتراضات وتشنج في المواقف سواءً من مفاوض قريش سهيل بن عمرو، أو من بعض الصحابة، وتم التوقيع على الوثيقة، وانطلق سهيل بن عمرو وأصحابه إلى قريش، وكان ينبغي على المسلمين أن يغادروا المكان ويعودوا من حيث أتوا، ولكن كان يجب عليهم أن يحلّوا من إحرامهم، فأمرهم رسول الله ﷺ بذلك، ولكن - ومع الأسف - نجد عدم الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ.

روى الواقدي: «فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب . . قال لأصحابه: قوموا فانحروا وحلقوا! فلم يجبه منهم رجل إلى ذلك، فقالها رسول الله ﷺ ثلاث مرّات، كل ذلك يأمرهم، فلم يفعل واحد منهم ذلك. فانصرف رسول الله ﷺ حتى دخل على أم سلمة زوجته مغضباً شديد الغضب . . فقالت: ما لك

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٦١٧ .

يا رسول الله؟ . . قال: عجباً يا أم سلمة! إني قلت للناس انحروا واحلقوا وحلّوا مراراً، فلم يجبني أحدٌ من الناس إلى ذلك، وهم يسمعون كلامي وينظرون في وجهي! قالت، فقلت: يا رسول الله، انطلق أنت إلى هديك فانحره، فانهم سيقتدون بك .

قالت: فاضطبع^(١) رسول الله ﷺ بثوبه، ثم خرج وأخذ الحربة ينهم^(٢) هديه . . فكأنني انظر إليه حين يهوي بالحربة على البدنة رافعاً صوته: «بسم الله، والله أكبر» قالت: فما هذا إلا أن رأوه نحر، فتواثبوا إلى الهدي، فازدحموا عليه حتى خشيت أن يُعَمَّ بعضهم بعضاً .

وفي رواية ابن إسحاق قال: «حلق رجال يوم الحديبية، وقصّر آخرون . فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله المحلّقين، قالوا: والمقصّرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلّقين، قالوا: والمقصّرين يا رسول الله؟ قالوا: فقالوا: يا رسول الله: فلم ظهرت^(٣) الترحيم للمحلّقين دون المقصّرين؟ قال: لم يشكّوا»^(٤) .

والذي نلاحظه في هذه الرواية أنّ رسول الله ﷺ يقول لهم: «قوموا فانحروا واحلقوا» فلم يستجب أحد - بحسب الرواية - لرسول الله ﷺ في طلبه . ثم نجد في رواية ابن إسحاق أن بعض الصحابة لم يحلقوا وإنما اكتفوا بالتقصير فقط، مع أن رسول الله ﷺ قال لهم: احلقوا، ولم يقل لهم: قصّروا . ثم نجد أن رسول

(١) اضطبع: أي أخذ ثوبه فجعل وسطه تحت ابطة الأيمن، وألقى طرفيه على كتفه الأيسر من جهتي صدره . (النهاية: ٣ / ٧٣) .

(٢) نهم الرجل ناقته إذا زجرها (الصحاح للجوهري) .

(٣) ظهرت الترحيم: أي قوته وأكدته بتكرارك إياه . والمظاهرة: القوة والمعاونة .

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٩ .

الله يترحم على المحلقين ثلاثاً، ويستثني المقصرين، وبعد الحاح الصحابة يترحم على المقصرين ولمرة واحدة فقط، وعند يسأل عن ذلك يقول ﷺ لأنه: لم يشكوا.

والذي توحى به رواية ابن إسحاق وقصة الترحيم من النبي ﷺ واستثناء المقصرين منها، ثم الترحيم عليهم مرة واحدة، وتعليل ذلك من قبل رسول الله ﷺ بأنهم: «لم يشكوا»! بأن ما ورد في رواية الواقدي من أنه لم يجب أمر رسول الله منهم رجل إلى ذلك. أو قوله: لم يفعل واحد منهم ذلك... الخ، لا يشمل جميع أصحاب رسول الله ﷺ في هذه القضية، وإنما خصوص المشككين منهم، أو على الأقل نستثني الخُص من أصحاب رسول الله ﷺ من الذين لم تسجل عليهم مخالفة لرسول الله ﷺ طيلة صحبتهم له، وعلى رأس هؤلاء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام «وإن المخالفين لأمر رسول الله ﷺ والشاكين، ليسوا هم جميع المسلمين الحاضرين في الحديبية، بل هم فريق بعينه، كما دلت عليه النصوص»^(١). وذلك ما دلت عليه مواقفهم الاعتراضية السابقة.

٥ - ما نزل من القرآن الكريم في صلح الحديبية

نص المؤرخون والمحدثون وعلماء التفسير وعلوم القرآن على نزول سورة الفتح في انتهاء صلح الحديبية ما بين مكة والمدينة عند رجوع رسول الله ﷺ.

روى الواقدي، وابن إسحاق - واللفظ للأول - من رواية مجمّع بن جارية، قال: «لما كنا بضجنان راجعين من الحديبية رأيت الناس يركضون، فإذا هم يقولون: أنزل على رسول الله ﷺ [قرآن]. فركضت مع الناس، حتى توافينا عند رسول الله ﷺ فإذا هو يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٢)، فلما نزل بها

(١) للتوسع انظر: الصحيح من سيرة النبي الأعظم: ١٦ / ١٤٢ وما بعدها.

(٢) الفتح: ١.

جبرئيل عليه السلام ، قال : يَهْنِئُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَلَمَّا هُنَا جَبْرِئِيلُ هُنَا الْمُسْلِمُونَ»^(١) .

وقال الواحدي في أسباب النزول : «عن أنس قال : لما رجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنها ، فنحن بين الحزن والكآبة ، أنزل الله عز وجل - ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ - فقال رسول الله ﷺ : لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها كلها ، وفي رواية الزهري : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها»^(٢) .

ومع غض النظر عما نص عليه المؤرخون وعلماء التفسير في سبب نزول آيات سورة الفتح ، «فإن مضامين آيات السورة بفصولها المختلفة ظاهرة الانطباق على قصة صلح الحديبية . . وما وقع حولها من وقائع»^(٣) .

ولا نريد أن نتوسع في الأبحاث التفصيلية والمواضيع التي تضمنتها آيات هذه السورة بعد أن تحدث عنها المفسرون بأسهاب ، ولكننا نشير إجمالاً إلى أن السورة المباركة أشارت إلى الفتح الذي تحقق في هذه الغزوة المباركة ، وما أسفر عنها من معاهدة الصلح التي كان لها آثار ونتائج كبيرة سوف تأتينا لاحقاً .

«فغرض السورة بيان ما امتنّ الله تعالى على رسوله ﷺ بما رزقه من الفتح المبين في هذه السفارة ، وعلى المؤمنين ممن معه ، ومدحهم البالغ ، والوعد الجميل للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ كلام واقع موقع الامتنان ، وتأکید الآية بـ«إِنَّ» ، ونسبة الفتح إلى نون العظمة ، وتوصيفه بالمبين ، كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذي منّ الله به على رسوله ﷺ .

(١) الواقدي ، المغازي : ١ / ٦١٧ - ٦١٨ ، والسيرة النبوية : ٣ / ٣٢٠ .

(٢) الواحدي النيسابوري ، أسباب النزول : ٢٥٥ .

(٣) الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٢٥١ .

والمراد بهذا الفتح - على ما تؤيده قرائن الكلام - هو ما رزق الله نبيه ﷺ من الفتح في صلح الحديبية .

وقيل : المراد بالفتح، فتح مكة ، فالمراد بقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ - أي - إنا قضينا لك فتح مكة .

وقيل : المراد به فتح خيبر - أي - إنا قضينا لك فتح خيبر^(١) .

إلا أن القرائن الموجودة في آيات سورة الفتح لا تساعد على هذين القولين .

وفتح خيبر ومن بعدها فتح مكة هما من نتائج وآثار هذا الفتح المبين الذي تحقق في هذه الغزوة كما سوف يأتي .

كذلك الفتح الذي تحدث عنه السورة يشير إلى فتح آخر في نفوس الناس من خلال إقبالهم على هذا الدين ، وعلى النبي الأكرم ﷺ ، وعلى المسلمين . . . «وهو فتح له حسابه في تاريخ الدعوات ، وله دلالاته وله آثاره بعد ذلك في التاريخ . . . ولهذا فرح رسول الله ﷺ بهذه السورة ، وفرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه ، وفرح بالفتح المبين ، وفرح بالمغفرة الشاملة ، وفرح بالنعمة التامة ، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم ، وفرح بالنصر العزيز الكريم ، وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل ، وقال : «نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها» . وفي رواية : «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس» وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته^(٢) .

(١) انظر الميزان في تفسير القرآن : ١٨ / ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن : ٧ / ٤٩٢ .

٦ - من الحوادث اللاحقة لصلح الحديبية

ينص المؤرخون على حادثتين وقعتا بعد إبرام صلح الحديبية ورجوع النبي ﷺ والمسلمين إلى المدينة.

وهاتان الحادثتان كان لهما دور في تعديل وتغيير المادة المتعلقة بإعادة مَنْ يَفِدُ على رسول الله ﷺ من مكة بدون إذن وليه إلى قريش، دون العكس، وهي المادة القانونية التي تضمنتها وثيقة العهد والتي التزم بها النبي ﷺ في قصة أبي جندل بن سهيل بن عمرو، والتي أثارت حفيظة بعض الصحابة في وقتها.

الحادثة الأولى: قصّة هجرة أبي بصير - عتبة بن أسيد - إلى النبي ﷺ:

قال ابن إسحاق: «فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه أبو بصير - عتبة بن أسيد - وكان ممن حُبس بمكة، فلما قدم رسول الله ﷺ كتب فيه أزهر بن عبد عوف، والأخنس بن شريق.. إلى رسول الله ﷺ، وبعثا رجلا من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى لهم. فقدموا على رسول الله ﷺ بكتاب الأزهر والأخنس، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك.

قال: يا رسول الله، اتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟

قال ﷺ: انطلق، فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

وهكذا دفع رسول الله ﷺ أبا بصير إلى العامري وصاحبه، فخرج معهما، ومع خروجه معهما قد وفى رسول الله ﷺ بعهده وذمته، ولا تقع عليه ولا على المسلمين أي مسؤولية قانونية لما يحصل له بعد ذلك، وقد استجاب أبو بصير لطلب رسول الله ﷺ ولم يمتنع عن الخروج، إلا أنه وبعد وصوله إلى «ذي

الحليفة»، جلس إلى جدار، وجلس معه صاحبه - العامري - ، فقال أبو بصير :
«أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال : نعم، قال : أنظر إليه؟ قال :

انظر، إن شئت . فاستلّه أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله، وخرج
-المولى- سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فلما رآه
رسول الله ﷺ طالعاً، قال : إنّ هذا الرجل قد رأى فرعاً، فلما انتهى إلى رسول
الله ﷺ

قال : ويحك ! مالك؟

قال : قتل صاحبكم صاحبي .

فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف، حتى وقف على رسول
الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، وَفَتَ ذِمَّتْكَ ، وَأَذَى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم
وقد إمتنعُ بديني أن أفتن فيه ، أو يعبث بي .

فقال رسول الله : «ويل أمّه، مَحْشُ حَرْب لو كان معه رجال^(١)!

ثم خرج أبو بصير حتى نزل . . . على ساحل البحر، بطريق قريش التي
كانوا يأخذون عليها إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول

رسول الله ﷺ لأبي بصير : «ويل امه . . .»^(٢) ! فخرجوا إلى أبي بصير . .

فاجتمع إليه منهم قريب سبعين رجلاً، وكانوا ضيقوا على قريش، لا يظفرون
بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمرُّ بهم غير إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى
رسول الله ﷺ تسأل بأرحامها إلا آواهم، فلا حاجة لهم بهم فأواهم رسول الله ﷺ
فقدموا عليه المدينة»^(٣) .

(١) مَحْشُ حَرْب : أي موقد حرب ومهيجه، يقال : حَشَّ النار يحشّها إذا أوقدها وضَمَّ الحطب إليها .

(٢) وفي رواية الواقدي : ١ / ٦٢٩ : «ان الذي كتب إليهم بما قال رسول الله ﷺ هو عمر بن الخطاب» ولا يبدو من الرواية انه كتب إليهم بأمر من النبي ﷺ وإنما اجتهد رأيُه في ذلك .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية : ٣ / ٣٢٣ - ٣٢٤ .

وفي رواية الواقدي: «فلما بلغ أبو بصير من قريش ما بلغ من الغيظ، بعث قريش رجلاً، وكتبت إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم: إلا تُدخل أبا بصير وأصحابه، فلا حاجة لنا بهم؟ وكتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير أن يقدم بأصحابه معه، فجاءه الكتاب وهو يموت، فجعل يقرأ وهو يموت، فمات وهو في يديه، فقبره أصحابه هناك وصلّوا عليه، وبنوا على قبره مسجداً، وأقبل أصحابه إلى المدينة وهم سبعون رجلاً..»^(١).

وهكذا نجد قريشاً تكتب إلى رسول الله ﷺ تطلب منه الغاء شرط الاسترداد الذي أصرّ عليه سهيل بن عمرو، والتي أثارت - في وقتها - سخط بعض الصحابة واعتراضهم.

«فكان الشرط الذي تألم منه المسلمون غاية التألم، وتمسك به المشركون غاية التمسك.. فرجاً ومخرجاً للمستضعفين، ونكداً وخسارة على المشركين، حتى صاروا هم الذين يسعون إلى إلغائه، ويعلنون نزولهم عنه، ولم يكن قد مضى عليه عام بعد.. وهكذا جعلت الأيام كلما مرت، تبين بُعد نظر الرسول، وحسن سياسته، وصواب رأيه، وتقع أصحابه بأنهم كانوا متعجلين حين كرهوا ذلك الصلح الذي كان يُمنأ وبركة على الإسلام والمسلمين..»^(٢).

الحادثة الثانية: هجرة بعض النساء المؤمنات إلى النبي ﷺ وعدم إعادتهن لقريش:

قال ابن إسحاق: «وهاجرت إلى رسول الله ﷺ، أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي معيط في تلك المدة، فخرج أخوها عمارة والوليد ابنا عُقبة، حتى قدما على رسول الله ﷺ يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية،

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٦٢٤ - ٦٢٩ .

(٢) دويدار، صور من حياة الرسول: ٤٧٢ - ٤٧٣ .

فلم يفعل، أبا الله ذلك».

وفي رواية الواقدي - الأكثر تفصيلاً من رواية ابن إسحاق - : «قال رسول الله ﷺ : إن الله نقض العهد في النساء، وأنزل الله فيهنّ «الملتحنة» وحكم في ذلك بحكم «رضوه كلهم» فكان رسول الله يرّد من جاءه من الرجال، ولا يرّد من جاءه من النساء...»^(١).

والذي يبدو من بعض الروايات أنّ المهاجرات إلى المدينة جماعة من النساء المؤمنات، وليس فقط أم كلثوم بنت عقبة، ففي رواية ابن عباس: «... فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب - أي كتاب صلح الحديبية - والنبى ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجها وكان كافراً، فقال: يا محمد ردّ عليّ امرأتي، فإنك قد شرطت لنا أن تردّ علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجفّ بعد، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ۚ أَلَمْ يَعْلَم بِإِغْوَاهُنَّ فَإِنْ عَرَفْتُمُوهُنَّ مُمِئَاتٍ فَلَا تُرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ مَّا أَنفَقُوا﴾»^(٢).

والذي يبدو من حادثة هجرة النساء المؤمنات وعدم ردّهن إلى قريش، أنّ النبى ﷺ كان يرى أن عهد الحديبية لا يشمل النساء، وأن النساء إذا استجرن وجبت إجارتهن، ثم إن المرأة إذا أسلمت لم تصبح حلاً لزوجها المشرك، فوجب التفريق بينه وبينها^(٣). ولهذا استدعى الأمر إلى تقييد الإطلاق الوارد في الفقرة القانونية في خصوص الرجال دون النساء، أو تفسير تلك المادة القانونية لرجال قريش الذين هاجرت بعض نسائهم إلى المدينة.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٢٥ - ٣٢٦، والواقدي، المغازي: ١ / ٦٣١.

(٢) الملتحنة: ١٠. وانظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٨٤.

(٣) هيكل، حياة محمد: ٣٧٨.

والملاحظ أنّ قريشاً لم تبدي أيّ معارضة لهذا التقييد، أو التفسير التوضيحي لهذه المادة القانونية في وثيقة الصلح.

٧ - من نتائج وأثار صلح الحديبية

لقد كانت غزوة الحديبية فاتحة خير لكل ما جاء من بعدها من فتوح وانتصارات حقّقها الإسلام والمسلمون داخل الجزيرة العربية وخارجها.

وكان لهذه الغزوة وما حصل فيها من أحداث ووقائع ومن أهمها كتابة «وثيقة الصلح» آثار ونتائج إيجابية كثيرة، توقف عندها علماء السيرة والتاريخ والتفسير ودوّنوها في كتبهم وتفسيرهم، وتأمل فيها السياسيون والمصلحون فوجدوا فيها وفيما وراء سطورها أعظم انجاز سياسي حققه النبي الأكرم ﷺ في هذه الوثيقة.

ولهذا يقول الواقدي: «ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية»^(١).

ويروي ابن إسحاق عن الزهري قوله: «فما فتح في الإسلام فتح قبله أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنّتين^(٢)، مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر.

ويعلق ابن هشام على قول الزهري بقوله: «والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة - في قول جابر بن عبد الله - ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»^(٣).

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٦٢٤ .

(٢) وهي الفترة الزمنية بين صلح الحديبية، وفتح مكة سنة ثمان من الهجرة .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٣ / ٣٢٢ .

ويقول المستشرق الفرنسي «إميل درمنغهم» في كتابه: «حياة محمد»: «وتعدُّ هذه المعاهدة، فتحاً مبيناً لمحمد الذي استطاع بها أن يفاوض البلد الذي أخرجه مفاوضة النظر للنظر، وأبصر محمد أن الثمرة أينعت، ورأى ألا يتعجل في اقتطافها، ولم يدرك أصحابه ما في اعتداله من حِذْق»^(١).

ولا نريد أن نطيل في ادراج كلمات المؤرخين وغيرهم في بيان نتائج وآثار صلح الحديبية، فهي كثيرة جداً، وبمستوى عال من عبارات الانبهار والدهشة لهذا الانجاز العظيم.

وفيما يلي فهرست اجمالي لأهم الآثار والنتائج لصلح الحديبية:

أولاً: الاعتراف بالدولة الإسلامية:

لقد اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدولة الإسلامية، واعتبار المسلمين طرفاً مساوياً لقريش، وهذا أول اعتراف بالدولة الإسلامية، ومن أشدَّ أعدائها وأقواهم في الحجاز.

ففي الوقت الذي كانت قريش تعتبر المسلمين مجرد عصاة خرجوا على دين قومهم وأعرافهم وشقوا عليها عصا الطاعة، نجدها هنا تعترف بها ككيان ودولة، وتعترف بمحمد ﷺ رئيساً لهذه الدولة.

ثانياً: فسح المجال أمام القبائل لمحالفة من يريد من الطرفين:

«ولما كانت قريش هي زعيمة الوثنية وحامية حمى الحرم المقدس - كما تدعي لنفسها - فإن توابعها من القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة رأت نفسها في حل من الانتماء لزعامتها والارتباط بمصيرها، وإن لها الحرية المطلقة في أن

(١) درمنغهم، إميل، حياة محمد: ٣٢٩.

تختار المعسكر الذي تراه مناسباً، دخولا في دينه، أو صداقة معه»^(١) وكان انضمام خزاعة إلى معسكر المسلمين نصراً كبيراً للرسول ﷺ حيث ضمّ قوة كبيرة إلى جنبه .

ثالثاً: فسح المجال أمام المسلمين للانتشار في الآفاق:

«إنّ الحروب المتصلة التي كان رسول الله ﷺ قد شنها على أهل مكة، قد جعلت - حتى ذلك الحين - القبائل التي تقيم جنوبي هذه المدينة حتى تخوم اليمن بعيدين بعداً يكاد يكون تاماً عن سلطان الدين الجديد . . ولكن هدنة الحديبية جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً في ذلك الحين .

وقد كان لانتشار الإسلام في اليمن في الفترة التي أعقبت الحديبية أهمية خاصة من الناحية العسكرية فقد جعل قريشاً محفوفة بالمسلمين من الشمال والجنوب، وبذلك تقرر مصير مكة وقريش نهائياً»^(٢) .

رابعاً: حرية التحرك السياسي والعسكري للدولة الإسلامية:

لقد استطاعت الدولة الإسلامية ومن خلال البند المتعلق بايقاف القتال مع قريش أن تتحرك على محورين أساسيين هما:

المحور العسكري، حيث استطاعت أن تصفي يهود خيبر، آخر معاقل اليهود وأهمها في الجزيرة العربية، وأن ترسل السرايا المتواصلة خلال السنة السابعة في أطراف الجزيرة .

أما المحور السياسي، فقد تمثل في ارسال الدولة الإسلامية رسلها إلى ملوك الأرض طالبة منهم الاعتراف بالدولة الإسلامية وبنظامها القائم .

(١) خليل - عماد الدين، دراسة السيرة النبوية: ٢٣٣ .

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٢ - ٢٣٣٣ نقلا عن (آرنولد) الدعوة إلى الإسلام .

خامساً: صلح الحديبية سبب لفتح مكة:

مما لا شك فيه أن صلح الحديبية قد مهّد الطريق لفتح مكة، بل يمكن القول أن صلح الحديبية قد أسقط مكة من أيدي قريش إلى أيدي المسلمين، وأصبحت مكة بلداً آمناً لهم خلال فترة الصلح، يزورونها ويظهرون بها شعائهم، ويتصلون بالناس فيها ويحدثونهم كلّ ذلك سهّل عملية فتح مكة عليهم فيما بعد ومن دون مقاومة مسلحة من قريش وحلفائها.

سادساً: ادخال المهابة في قلوب المشركين والمنافقين:

لقد كان للمنافقين في المدينة والمشركين من حولها دور تخريبي وخطير في مواجهة الإسلام والدعوة الإسلامية، فجاءت غزوة الحديبية وصلحها لتقصم ظهر المنافقين، وتدخل الخوف والمهابة في نفوسهم، ولهذا لا نجد نشاطاً يذكر للمنافقين بعد صلح الحديبية وبالمستوى الذي كانوا يقومون به قبلها، وتيقن الكثير من المشركين بغلبة الإسلام والمسلمين، فسارع بعض صناديد قريش إلى الدخول في الإسلام، وسارع الأعراب المشركون المجاورون للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم عن النبي ﷺ في خروجه إلى الحديبية.

إلا أنّ هذا لا يعني انتهاء دور النفاق والمنافقين في المدينة، فقد كانت لهم بعض النشاطات المؤذية كما سوف يأتيها.

سابعاً: ظهور الإسلام خارج الجزيرة العربية:

لقد مهّدت حالة الحياد المسلح التي حصل عليها المسلمون في صلح الحديبية مع قريش للانطلاق إلى خارج المحيط الذي تعيش فيه، فكانت قضية تجهيز جيش مؤتة لمواجهة الدولة البيزنطية المتاخمة لحدود الدولة الإسلامية إلى خارج الجزيرة العربية.

هذه أهم الآثار التي ترتبت على غزوة الحديبية ووثيقة الصلح التي انبثقت منها، بالإضافة إلى آثار ونتائج أخرى أشرنا إليها من خلال نصوص المؤرخين لها.

٨ - الدروس والعبر

لقد تجلت لنا في ثنايا هذه الغزوة المباركة الكثير من الدروس والعبر والعظات، نتوقف عند بعضها:

أولاً: وضوح الأهداف عند رسول الله ﷺ:

لقد تحدثنا في ثنايا هذين الدرسين عن الأهداف السامية التي خرج من أجلها رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، ولا نريد أن نُعيد تكرارها.

إلا أن الملفت في الأمر - والذي فيه لنا درس وعبرة - هو: كيفية توخي الهدف، وكيفية التفكير بأقوم وأجدى الطرق لتحقيقه.

وهنا يكمن الدرس العملي الذي تعلمناه من رسول الله في هذه الغزوة، فقد برز مبدأ توخي الهدف لدى رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية بأجلى مظاهره، حتى يمكن أن تكون دروس هذه الغزوة من أروع الأمثلة المفيدة للذين يريدون أن يفهموا معنى توخي الهدف.

لقد قرّر الرسول ﷺ منذ مغادرته المدينة إلا يحارب قريشاً، بل يبذل كل جهده للتفاهم معها، ووضع هذا الهدف نصب عينيه دائماً. وكان قراره حاسماً لا يحتاج فيه إلى استشارة أحد، ولهذا لم يستشر أحداً في عقد الصلح مع قريش، ولم يتراجع لصخب وتشنج بعض الأصحاب. لأنه ﷺ كان يتوخى من التفاهم مع قريش أهدافاً بعيدة جداً ليس من مصلحة الدعوة ولا من مصلحة المسلمين الإخبار عنها، وقد ظهرت أهدافه جلّية فيما بعد، وبسرعة أذهلت الجميع.

بينما نجد في المقابل، عدم وضوح الهدف عند قريش، وكأنها قد أخذت بغتة فسقطت ما في أيديها من استراتيجية المواجهة اتجاه المسلمين، ولهذا: «توخت أهدافاً سطحية دفعتها إليها العصبية الجاهلية وهي: ردّ المسلمين عن زيارة البيت الحرام هذا العام ليعودوا لزيارته في العام المقبل! وردّ الذين يسلمون بدون رضى أوليائهم، حتى لا يكثر عدد المسلمين، وأن ينالوا بهذه الهدنة الاستقرار والأمن ليتفرغوا لتجارته، وهذا أهم هدف حيوي لقريش»^(١).

وخلاصة الأمر، أن قضية وضوح الهدف والعمل والتخطيط من أجل تحقيقه هو الدرس الكبير الذي نستفيده من أجواء هذه الغزوة المباركة، ومن خلال ما تجسّد في سلوك رسول الله ﷺ فيها.

ثانياً: حلم النبي ﷺ وصبره وسعة صدره:

لقد واجهت رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية جملة من المواقف المؤذية، واشتدت عليه الضغوط الكثيرة، وجوبه بكلمات ومواقف انفعالية متشنجة ما كان ينبغي أن تصدر من أصحابها!

فهو من جهة قد اتخذ مبدأ المسالمة مع قريش في هذه الرحلة، وللمسالمة لغتها التي لا تفهمها قريش في حياتها السياسية والعسكرية، فواجهته بجبروتها وتعتتها وكبريائها وعزوفها عن الحق، وعدم تمكينه والمسلمين من الدخول إلى مكة لأداء نسكهم.

ومن جهة ثانية واجه رجالاً يتفاوضون باسم قريش، إلا أنهم لا تنهض لهم حجة، وليس لديهم سوى لغة التهديد والوعيد «وإنّ قريشاً قد لبست جلود النمر...» وكانوا يسعون إلى الحصول على مكاسب وأهداف هشة سطحية ترضي غرور قريش وكبريائها.

ومن جهة ثالث - وهي الأشد والأقسى - واجه مواقف محرجة وكلمات قاسية من بعض الأصحاب، لعدم ادراكهم واستعجالهم الأمور، أو لجبلتهم البدوية التي انطوت نفوسهم عليها.

فكيف تعامل رسول الله ﷺ مع هذه المواقف؟

فأما موقفه من قريش - وهي ألد أعدائه - فقد ذهب في ملايتهم إلى حدود بعيدة، وأعطاهم من سعة صدره وحلمه وصبره الشيء الكثير الذي لا يحتمله أحد دون رسول الله ﷺ.

وأما موقفه من مفاوضيه من قريش، فقد كان يتعامل معهم بالحسنى والبشاشة، ويتطلع إلى جانب الخير في نفوسهم فيستشيرها، بل ويتنازل لمطالبهم في أمور جزئية في جوهرها، من أجل مصالح علياً قد قدر أثرها ونفعها. . وفيهم بما تعاهدوا عليه. . ولا يجيز لنفسه، ولا للمسلمين الغدر ومخالفة العهود والمواثيق.

وأما موقفه من بعض أصحابه الذين تصوّروا أنهم دُلوّ وأخذوا بشروط مجحفة إرضاءً لكبرياء قريش وحميتها الجاهلية، فوقفوا يسألون النبي ﷺ ويستنكرون عليه، ويشككون في بعض مواقفه، ويتثاقلون عن تنفيذ بعض أوامره. . . كل ذلك ورسول الله ﷺ يستوعب هذه المواقف المتشنجة، والانفعالات الغاضبة. . والحالات العصبية، ببرودة أعصاب، وحلم كبير، وسعة صدر.

فلم يواجههم رسول الله ﷺ بشدة، ولا عَنَفهم، وإنما كان يكفل لهم ابداء وجهات نظرهم ويردّها بالحسنى، من دون ارهاب، أو تسلط، أو مصادرة لحياتهم.

وفي كلّ ذلك درس بليغ، وعظة نافعة، وحكمة مستفادة، لمن يريد أن

يتصدى لأمر الناس، ويتسنى كرسى القيادة، فإن: «آلة الرياسة سعة الصدر».

ثالثاً: عظم كلمات الرسول ﷺ ودلالاتها الواقعية:

لم تكن لرسول الله ﷺ في هذه الغزوة خطب طوال، وإنما كانت له بعض الكلمات القصيرة في ألفاظها، والغنية في معانيها ودلالاتها، استخدم فيها النبي ﷺ أسلوباً بلاغياً رائعاً، فكانت آية في البلاغة والبيان والبدیع، مع عمق دلالة معانيها.

ومن هذه الكلمات قوله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب».

«إنّ تعبير النبي ﷺ هنا عجيب في دلالاته، لقد استحوذت الحرب على تفكير قريش كلّها، فما عادوا يرون أي حل آخر غيرها، لقد أكلت قلوبهم ثم وجودهم، ولو كان فيهم ذرة بصيرة لتركوا أمر محمد ﷺ للعرب...»

تأمل قدرة النبي ﷺ على وزن المواقف بعواقبها... إنه يستعرض الحلول الممكنة ويضع نفسه في مكان الخصم ليقارن بين الخيارات لاختيار أقلها غُرمًا... لقد كان بإمكان قريش أن تترك محمداً للعرب، فإن انتصر العرب عليه ارتاحوا منه، وإن انتصر هو دخلت في الإسلام سالمة غانمة، فإن لم ترد ذلك قاتلته وهي ما زالت بقوتها لم توهنها المعارك... لكن قريشاً اختارت أسوأ الخيارات... الحرب الدائمة لمحمد ﷺ.

حديث النبي ﷺ هنا مليء بالواقعية وينطلق من مصالح قريش الدنيوية، ويكشف عن قدرة رائعة في التحليل والتخطيط والحديث مع الخصم ضمن مصالحه.

ومن كلماته في هذه الغزوة قوله ﷺ: «حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيل» وذلك عندما بركت ناقته، وأبت أن تقوم...»

فالنبي ﷺ - بهذه الكلمة الموجزة - يستحضر التاريخ، ويقارن الأحداث مع بعضها ويستخرج السُّنة والقانون. . فهذا بلد الله الحرام، وما يجوز لأحد أن يدخله بالقوة والقهر، ولا يجوز أن يحصل عنده نزاع، لأنَّ الله جعله مثابة للناس وأمنًا. . إنه منارة أمن للناس في كل زمان ومكان كي يدركوا نعمة الأمن ويحاولوا الارتقاء لتحقيقه في كل مكان وزمان.

ولهذا يعلن النبي ﷺ قراره: «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلَّا أعطيتهم إياها»^(١).

هذه أهم الدروس والعبر التي يمكن استفادتها من هذه الغزوة، بالإضافة إلى ما أشرنا إليها في ثنايا البحث.

(١) اللحام - حنان، هدي السيرة النبوية: ٣٨٧ - ٣٨٨، طبعة دار الفكر - سوريا، الطبعة الأولى، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

الأسئلة:

- ١ - ما هي أهم السرايا التي سبقت الحديبية؟ وما هي أهم أهدافها ونتائجها؟
- ٢ - هل تعتبر الحديبية من الغزوات، أم أنها صلح ومعاهدة؟
- ٣ - ما هي أهم أهداف النبي ﷺ في خروجه إلى الحديبية؟
- ٤ - كيف سارت المفاوضات بين رُسُل قريش والنبي ﷺ في مرحلتها الأولى؟
- ٥ - لماذا بادر النبي ﷺ بارسال رجلين من أصحابه لمفاوضة قريش؟
- ٦ - ما هي أهم أسباب بيعة الرضوان؟ وما هي نتائجها؟
- ٧ - كيف تمت المفاوضات النهائية مع قريش؟
- ٨ - كيف نوجه ردود افعال بعض الصحابة حول وثيقة صلح الحديبية؟
- ٩ - ما هي أهم بنود وثيقة صلح الحديبية؟
- ١٠ - ما هي أهم نتائج صلح الحديبية؟
- ١١ - ما هي الدروس والعبر المستفادة من صلح الحديبية؟

الدرس العشرون

أحداث السنة السابعة من الهجرة

(غزوة خيبر)

«القسم الأول»

محاوّر البحث

- ١ - تاريخ الغزوة وأسبابها
- ٢ - أهمية خيبر وموقعها الجغرافي وحصونها
- ٣ - الاجراءات العسكرية التي اتخذها الرسول ﷺ لهذه الغزوة
- ٤ - استعداد اليهود للمعركة وطبيعة القتال في أرض خيبر
- ٥ - سقوط حصون اليهود في خيبر
- ٦ - دور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذه الغزوة

غزوة خيبر / ق ١

المدخل

ودَّع رسول الله ﷺ والمسلمون السنة السادسة من الهجرة، التي كانت - وبحق - سنة حافلة بالانتصارات العظيمة للإسلام والمسلمين، ومن أهمها «صلح الحديبية» ذلك الفتح المبين، الذي أتاح للمسلمين فرصة إعداد صفوفهم وترتيب أمورهم لاستقبال سنة جديدة، ومواجهات أخرى ضدَّ من يقف حائلاً أمام الإسلام والدعوة الإسلامية .

لقد كان رسول الله ﷺ يعلم جيداً، وببصيرة نافذة، وبتسديد من السماء، أنّ الخطر الكبير الذي يهدد دعوته، ويحول دون نشر الإسلام في الجزيرة العربية ومن ثمة الانطلاق بها إلى خارجها، يكمن في جهتين :
الأولى : قريش وحلفائها من القبائل الوثنية .

الثانية : اليهود ومن حالفها من القبائل المجاورة لها .

ولهذا كانت المواجهة على أشدها مع هاتين الجبهتين، أما بقيّة القبائل المتناثرة في الجزيرة العربية ومن حول المدينة فلم تشكل خطراً حقيقياً على الإسلام ودعوته، ولم يكن لها من القوة والمكانة القبلية كما كانت لقريش أو اليهود، وكان يكفي لردعها عن غيها وعدوانها ارسال سرية صغيرة تباغتهم فيولون هاربين .

وبعد سلسلة من المواجهات العسكرية العنيفة مع قريش وحلفائها، أدركت

قريش أنّ لا طاقة لها على استمرار المواجهة مع النبي ﷺ والمسلمين، مما حملها على توقيع صلح الحديبية مع النبي ﷺ معترفةً بذلك بالإسلام كدولة، وبالنبي ﷺ كقائد وحاكم لها، وإن لم تعترف بنبوته ورسالته!

لقد أتاح صلح الحديبية للنبي ﷺ تأمين المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية، وأمن شرّ قريش والقبائل المتحالفة معها.

إلا أنّ المنطقة الشمالية والتي كانت موطناً لليهود في خيبر، وفدك، ووادي القرى، وتيماء . . . لم تكن آمنة، وفيها مكنم الخطر من اليهود أنفسهم، ومن احتمال نفوذ القوات الغازية من الامبراطوريتين المتاخمتين للجزيرة العربية، الامبراطورية الرومانية بقيادة هرقل، والامبراطورية الفارسية بقيادة كسرى!

ولهذا وضع النبي ﷺ في أول أولوياته في هذه السنة، القضاء على قوة اليهود، ومن ثمّ الانطلاق بدعوته إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام الحنيف.

١ - تاريخ الغزوة وأسبابها

اتفق المؤرخون على وقوع هذه الغزوة في السنة السابعة من الهجرة، إلاّ أنهم اختلفوا في الشهر الذي خرج فيه رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر.

قال الواقدي: «قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية في ذي الحجة تمام سنة ست، فأقام في المدينة بقرية ذي الحجة والمحرم، وخرج في صفر سنة سبع - ويقال خرج هلال ربيع الأول - إلى خيبر».

وقال ابن إسحاق: «ثمّ أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية، ذا الحجة وبعض المحرم . . . ثمّ خرج في بقية المحرم إلى خيبر».

وقال ابن سعد في الطبقات: «ثمّ غزوة رسول الله ﷺ، خيبر في جمادى

الأولى سنة سبع من مهاجره»^(١).

ومهما يكن من أمر فإن هذه الغزوة من أحداث السنة السابعة من الهجرة، بل ومن أهم أحداثها كما سوف يتبين لنا من خلال فصول وقائعها.

أما أسباب هذه الغزوة ودوافعها

فقد ذكر المؤرخون أن التكتل اليهودي في منطقة خيبر قد وصل إلى أوج قوته من حيث العدة والسلاح، ومن حيث الرجال الأقوياء المحاربين من أهل خيبر وممن التجأ إليها من بني قينقاع وقريظة وبني النضير، ومن حيث المواقع والحصون العسكرية التي أحكموا بنيانها وسدوا منافذها، تحسباً من غزو المسلمين لهم، بالإضافة إلى تحالفاتهم من بعض القبائل التي تضيف إلى قوتهم قوة أخرى مضاعفة.

يروى الواقدي واصفاً قوة يهود خيبر فيقول: «وكانت يهود خيبر لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمَنَعَتَهُمْ وَحُصُونَهُمْ وَسِلَاحَهُمْ وَعَدَدَهُمْ، كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات! هيهات! وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبي ﷺ إلى خيبر: ما أمتع والله خيبر منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم، حصون شامخات في دُرى الجبال، والماء فيها واتن^(٢)، إن بخيبر لألف دارع، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم، فأنتم تطيقون خيبر؟ فجعلوا يُوحون بذلك إلى أصحاب النبي ﷺ»^(٣).

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٣٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٢٨، وابن سعد، الطبقات:

٢ / ٣٠٢. وانظر: تاريخ الخميس للديار بكري: ٢ / ٤٣.

(٢) وتن الماء: أي دام ولم ينقطع (الصحاح للجوهري).

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٣٧.

فهذه القوة العسكرية الهائلة كانت تشكّل خطراً كبيراً على الدولة الإسلامية، فلا بدّ من القضاء عليها والتخلّص منها، وتأمين المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية من شرّ أعدائها من اليهود والقبائل المتحالفة معها، كما تمّ تأمين المنطقة الجنوبية من قريش وحلفائها.

وقد يتصور البعض أنّ هؤلاء اليهود من أهل خيبر كانوا مسالمين، ولم يبدأوا المسلمين بقتال أو غزو حربي، فلماذا بدأهم النبي ﷺ بالقتال وغزاهم وهم على تلك الحالة السلمية؟

إلا أنّ هذا التصور، تصور ساذج لمجريات الأحداث بعدما وقع لليهود من بني قُريظة وبني النضير، إذ كان هؤلاء اليهود يعدّون العدة العسكرية لغزو المدينة، والنص التاريخي السابق يبين مدى قوتهم واستعدادهم للقتال، واستعراضهم لهذه القوة لارهاب المسلمين وتخويفهم بالاضافة إلى نص تاريخي آخر ينقله الواقدي أيضاً، يعطينا صورة واضحة عن هؤلاء اليهود ومدى استعدادهم للانتقام من الإسلام، واسترداد مواقعهم ومصالحتهم التي جرّدهم رسول الله ﷺ منهم.

يقول الواقدي: «لما قُتلت بنو قريظة، قدّم حُسيل بن نويرة الأشجعي خيبر . . ويهود بني النضير . . ويهود خيبر جلوس في ناديتهم يتحسّبون خبر قريظة . . فقالوا: ما وراءك؟ قال: الشر! قتلت مقاتلة قريظة صبراً بالسيف . . وجعل يخبرهم عن سرائرهم . . وإنه حضرهم قُتلوا بين يدي محمد . . وفزعت اليهود إلى سلام بن مشكّم فقالوا: فما الرأي أبا عمرو؟ قال: محمّد قد فرغ من يهود يثرب، وهو سائر إليكم، فنازل بساحتكم، وصانع بكم ما صنع ببني قُريظة، قالوا: فما الرأي؟ قال: نسير إليه بمن معنا من يهود خيبر، فلهم عدد، ونستجلب يهود تيماء، وفدك، ووادي القُرى، ولا نستعين بأحد من العرب . . ثمّ نسير إليه في عُقر داره فنقاتل على وتر حديث وقديم. فقالت اليهود: هذا الرأي.

إلا أنّ بعض زعماء اليهود قد عارضه في الاقدام على مجازفة كهذه غير مأمونة النتيجة، واستبعد أن يغزوهم الرسول ﷺ فقال: «ومحمد لا يسير إلينا أبداً لما يعرف»^(١).

ولم يكن رسول الله ﷺ يخفى عليه ما يدور في خلد هؤلاء اليهود، فأخذ يتهمياً لقتالهم ويمهد لذلك بارسال مجموعات صغيرة من المسلمين لاغتيال بعض قادة اليهود هناك كسلام بن أبي الحقيق، وأسير بن رزام الذي كان يجتمع ببني غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات ليكونوا مع اليهود في حالة دخول أهل خيبر في حرب مع المسلمين^(٢).

٢ - أهمية خيبر، وموقعها الجغرافي وحصونها

لقد كان لخيبر أهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية، ومن الناحية العسكرية.

أما من الناحية الاقتصادية فينص المؤرخون على أن المغام التي غنمها المسلمون في خيبر من أكثر المغام التي حصلوا عليها منذ أن غزوا في سبيل الله حتى ذلك اليوم.

فقد كانت خيبر واحة خضراء في صحراء مقفرة، وكانت أرضها غنية بالنخيل والزروع، وكانت غلاتها من التمر والقمح والشعير شيئاً كثيراً، فقد روي أنّ عبد الله ابن رواحة خَرَصَ ما فيها من التمر بأربعين ألف وسق، والوسق حمل بعير، كما روي أن «الكتيبة» وحدها - وهي خمس الله ورسوله - كان بها أربعون ألف عذق، وكانت تُخرَص ثمانية آلاف وسق من التمر، وربما اجتمع فيها ألف صاع من النوى، وكان يزرع فيها الشعير فيحصدون ثلاثة آلاف صاع، هذا إلى ما

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٥٣٠ - ٥٣١ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٢٩٥ .

كان فيها من الأنعام والمتاع والخيول والسلاح . (١).

أما من الناحية العسكرية، فقد كانت خيبر من المواقع الاستراتيجية المهمة عسكرياً، وكانت مقسمة إلى ثلاث مناطق حربية: الأولى منطقة النطاة، والثانية منطقة الشَّق، والثالثة منطقة الكتيبة، وكان في كل منطقة عدّة حصون منيعة (٢).

ويحدّد لنا صاحب معجم البلدان الموقع الجغرافي المهم لخيبر بقوله: «خيبر: وهي ناحية على ثمانية بُرْد من المدينة لمن يريد الشام، يطلق هذا الاسم على الولاية، وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، واسماء حصونها: حصن ناعم، والقموص، وحصن الشَّق، وحصن النطاة، وحصن السّلالم، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة.

وأما لفظ «خيبر» فهو بلسان اليهود «الحصن» ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سمّيت «خابر».

وكانت تلك الحصون منيعة على رؤوس الجبال، وكان رجالها مدربين قد مارسوا القتال والنضال، وكانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف اليهودية بأساً، وأوفرها مالا وأكثرها سلاحاً. . . وكانت لمنعة حصونها وطبيعة أرضها لا يظن اليهود أن الرسول يستطيع أن يغزوهم (٣).

٣ - الاجراءات العسكرية التي اتخذها الرسول ﷺ لهذه الغزوة

لكلّ غزوة من الغزوات خصوصياتها ولوازمها، التي تستوجب بدورها إعداد الخطط اللازمة لانجاحها وضمان الانتصار فيها.

وعندما نستعرض غزوات الرسول الأكرم ﷺ في صراعه مع قريش واليهود

(١) دويدار، صور من حياة الرسول: ٤٨٥ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه: ٤٧٨ .

(٣) الحموي - ياقوت، معجم البلدان: ٢ / ٢٦٣ .

والقبائل المحاربة له، نجده في كل غزوة من هذه الغزوات يتخذ الاجراءات اللازمة لها، ويوصى أصحابه بالالتزام بها وتنفيذها، وبمقدار ما التزم الأصحاب بذلك نجحت تلك الغزوة وكان النصر حليف المسلمين، وقد يحصل العكس عندما يتقاعس الأصحاب ويتركون أوامر رسول الله ﷺ كما حصل في أحد.

إلا أنّ هنالك قواسم مشتركة بين هذه الغزوات، وفيما يتخذ لها من اجراءات والتي منها:

الالتزام بسرية المعلومات عن الغزوة، ومباغنة العدو في عقر داره، وتغيير المسير باتجاه الهدف . . . وغيرها.

وغزوة خيبر من بين هذه الغزوات لها قواسمها المشتركة في الاجراءات العسكرية، ولها خصوصياتها التي تفرضها طبيعة العدو، وجغرافية المكان.

وفيما يلي ملخص لأهم الاجراءات العسكرية التي اتخذها النبي ﷺ في هذه الغزوة بحسب ما ورد في النصوص التاريخية:

أولاً: الالتزام بسرية المعلومات عن الغزوة:

لا تحدثنا النصوص التاريخية التي يرويها الواقدي عن هذه الغزوة أنّ رسول الله ﷺ قد أعلن في بداية الأمر انه يريد غزو خيبر، ففي رواية الواقدي: «وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيب للغزو فهم مُجَدُّون . . .» وعندما قال أحد يهود المدينة لأحد المسلمين: «تحسب أنّ قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل!» جاء به إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قال اليهودي، فلم يؤيد رسول الله ﷺ القول بغزو خيبر وإنما: «سكت رسول الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئاً»^(١).

(١) الواقدي، المغازي: ١ / ٦٣٤ - ٦٣٥ .

إلا أن ابن هشام، والطبري، ذكرا أن رسول الله: «خرج في بقية محرم إلى خيبر»^(١) وهذا أيضاً لا يستفاد منه أن رسول الله ﷺ قد أخبر عن الجهة التي هو خارج إليها في غزوته .

إلا أن غزوة خيبر كان لها خصوصياتها وظروفها الموضوعية التي لا يمكن معها كتمان خبرها، فمع وجود طبقة كبيرة من اليهود في المدينة وتعاطفهم مع أبناء جلدتهم، ووجود كتلة المنافقين وتحالفهم القديم مع اليهود ودفاعهم عنهم، بالإضافة إلى وجود رجال من قبيلة غطفان في المدينة، وهم من المتحالفين مع اليهود، وقرب خيبر من المدينة . فكل هذه الخصوصيات تجعل من الصعوبة بمكان كتمان أخبار هذه الغزوة عن يهود خيبر .

روى الديار بكري في تاريخه: «وأرسل ابن أبي سلول إلى يهود خيبر يخبرها بأن محمداً في قصدكم وتوجه إليكم، فخذوا حذرکم وأدخلوا أموالكم في الحصون، واخرجوا لقتاله، ولا تخافوا منه فإن عدتكم وعددكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عَزَل لا سلاح فيهم إلا قليل، فلما علم بذلك أهل خيبر أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس إلى غطفان يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر . . .»^(٢) .

وفي رواية الواقدي: «وكان اليهود يقومون كل ليلة قبل الفجر فيتلبسون السلاح ويصفقون الكتائب، وهم عشرة آلاف مقاتل . . وذلك انه بلغهم أن رسول الله ﷺ سائر إليهم، وكان رجل من بني فزارة حليف لهم قدم بسلة إلى المدينة فباعها، ثم رجع فقدم عليهم فقال: تركت محمداً يعبئ أصحابه إليكم . . .»^(٣) وبني فزارة من قبيلة بني غطفان، وهي متحالفة مع اليهود.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٢٨، والطبري، تاريخ الأمم والملوك: ٣ / ٩ .

(٢) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٤٣ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٤٢ .

فأخبار خروج النبي ﷺ إلى خيبر، قد وصلت إلى قادة اليهود «وتشاوروا في الخروج إلى حرب محمد أو التحصن في حصونهم فحرضهم سلام بن مشكم على الخروج وقال لهم: الرأي ما أشار إليكم عبدالله بن أبي على سبيل النصيحة، ولكن لم يقدّر لهم الخروج فبقوا في حصونهم»^(١).

إلا أنّ هؤلاء اليهود قد غرتهم كثرتهم وحصونهم وسلاحهم، فكانوا يستبعدون أن يخرج رسول الله ﷺ لغزوهم «فكانوا يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات، هيهات! ثمّ إنهم اختلفوا فيما بينهم بعدما أحسّوا بمسير رسول الله إليهم، فأشار عليهم الحارث أبو زينب اليهودي بأن يعسكروا خارجاً من حصونهم ويبرزوا له! .. فقالت اليهود.. هذه حصون منيعة في ذرى الجبال، فخالفوه وثبتوا في حصونهم، فلمّا أصبحهم رسول الله ﷺ وعاینوه أيقنوا بالهلكة»^(٢).

وتبقى للعناية الإلهية دورها في هذه الغزوة: «فخرج رسول الله ﷺ إليهم، فعَمَى الله عليهم مخرجه إلا بالظن حتى نزل رسول الله بساحتهم ليلاً».

«وكان قد استولى ليلتئذ نوم الغفلة على أهل خيبر، فلم يشعروا بقدوم رسول الله ﷺ مع أنهم كانوا قبل ذلك يبعثون كل ليلة من رجالهم ركباً مسلحةً للتجسس والاستخبار عن جيش الإسلام... وفي تلك الليلة لم يتحرك أحد منهم حتى أن ديوكهم لم تصح ودوابهم لم تتحرك»^(٣).

ثانياً: قطع الامدادات عن العدو:

لقد كانت يهود خيبر تُعَوّل كثيراً على حلفائها من قبيلة غطفان القوية، ولو

(١) الديار بكرى، تاريخ الخميس: ٢ / ٤٥ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٣٧ - ٦٣٨ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٦٣٧، والديار بكرى، تاريخ الخميس: ٢ / ٤٥ .

قدر لغطفان أن تمّد اليهود بالرجال والسلاح فهذا يعني بالنسبة للمسلمين فتح جبهة ثانية في المعركة، جبهة اليهود من داخل حصونهم المنيعة، وجبهة غطفان بكثرة رجالها وسلاحها، ولهذا خطط رسول الله ﷺ وبدقة متناهية لقطع الامدادات عن يهود خيبر من خلال الحيلولة بينها وبين قبيلة غطفان، وذلك قبل وصوله إلى خيبر كما ينص على ذلك المؤرخون.

يروى الواقدي وهو يتحدث عن مسير رسول الله ﷺ إلى خيبر والطرق التي سلكها في هذا المسير حتى انتهى إلى منطقة تسمى «الصّهباء» فتوقف هناك للصلاة والاستراحة «ثمّ دعا بالأدلاء فجاء حُسيل بن خارجة . . فقال رسول الله ﷺ لحُسيل: امضِ أماناً حتى تأخذنا صُذور الأودية، حتى نأتي خيبر من بينها وبين الشام، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان»^(١) فرسول الله ﷺ يريد أن يقطع عن هؤلاء اليهود كلّ مدد سواء من الشام التي يحتمل أن يكون لهم مدد منها، أو من قبيلة غطفان المتحالفة معها.

وفي رواية ابن إسحاق: «... ثمّ أقبل رسول الله ﷺ بجيشه، حتى نزل بواد يقال له الرّجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، يتحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ»^(٢).

وهكذا نجح رسول الله ﷺ في قطع الامدادات عن يهود خيبر والحيلولة دون وصول غطفان إليهم.

يقول ابن إسحاق: «فبلغني أنّ غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له، ثمّ خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا منقلّة - أي مرحلة - سمعوا خلفهم في أموالهم وأهلهم حسّاً، ظنّوا أنّ القوم قد خالفوا

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٣٩ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٠ .

إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهلهم وأموالهم، وخلّوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر^(١).

ويرجح أحد الباحثين: «بأنّ تحرّك رسول الله ﷺ إلى وادي «الرّجيع» وهي من أرض غطفان، كان لإيهاهم غطفان بأن الهجوم موجه ضدهم، وأنّ قوات المسلمين توشك أن تطوقهم، ثمّ عاد الرسول إلى خيبر، ولكنه أرسل مفرزة من أصحابه لمباغطة ديار غطفان بعد أن تركتها قوات غطفان الضاربة لمعاونة اليهود، ونجحت المفرزة في القاء الرعب في ديار غطفان، مما اضطر هذه القبيلة إلى الاسراع بالعودة إلى ديارهم لحمايتها من تهديد المسلمين، وتركت اليهود وحدهم أمام المسلمين»^(٢).

إلا أنّ النصوص التاريخية لا تشير إلى أنّ رسول الله ﷺ قد أرسل هكذا مفرزة إلى ديار غطفان لارعابهم إنما في رواية الواقدي: «... سمعوا صائحاً يصيح، لا يدرون من السماء أو من الأرض: يا معشر غطفان، أهلكم أهلكم! الغوث الغوث... وكان أمراً صنعه الله عزّ وجلّ لنبيه»^(٣).

وقد اضطربت روايات الواقدي في قضية قبيلة غطفان، ففي رواية يذكر أنهم نزلوا خيبر ولم يدخلوا الحصون، ففاوضهم رسول الله ﷺ على نصف تمر خيبر لمدة سنة إن رجعوا، فلم يقبل قائدهم «عينه» ذلك ثمّ سمعوا الصائح فعادوا! وفي رواية ثانية إنهم نزلوا خيبر؛ ثمّ دخلوا مع اليهود في حصون النّطأة، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ من يفاضهم على الرجوع ثمّ حصلت الصيحة فرجعوا...»^(٤).

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٣٣٠.

(٢) خطّاب، الرسول القائد: ٢٩٤.

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٥١ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٦٥٠ وما بعدها.

ومهما يكن من أمر، فإن رسول الله ﷺ استطاع أن يعزل مدد غطفان عن حلفائهم يهود خيبر.

ثالثاً: التخطيط الميداني العسكري للمعركة:

لقد كان رسول الله ﷺ يعرف جيداً طبيعة نفسية هؤلاء اليهود، وما انطوت عليه من حقد وضغينة على الإسلام والمسلمين، وإنهم أهل غدر وخيانة وجبن، وليس لهم من الشجاعة الكافية لمواجهة المسلمين في الميدان، وإنهم لا يحاربون إلا أمام حصونهم المنيعة، حتى إذا انهزموا عادوا إلى حصونهم واغلقوها دونهم، وقد سجل القرآن عليهم هذه الخصلة من خصال الجبن، إذ يقول تعالى في تهوين شأنهم للمؤمنين: ﴿لَا يَقْلُوبُكُم جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١).

عرف رسول الله ﷺ فيهم هذه الطبيعة، فوضع خطته على أساسها حين صار إليهم ليغزوهم في عُقر دارهم (٢).

كذلك جغرافية المكان، وطبيعة أرض المعركة، كانت تستوجب وضع خطة عسكرية لسير المعركة تختلف كلياً عما ألفه العرب في حروبهم التي كانت تتسم بالكر والفر واعداد الصفوف والتي اتبعها رسول الله ﷺ في غزواته السابقة.

فأرض خيبر المحصنة والتي تكتنفها البساتين والادغال، تختلف عن غيرها، وليس القتال فيها سهل يسير، ولا هو من المعهود في قتال العرب والمسلمين، فلا بد من خطة محكمة في ميدان المعركة تختلف عن سابقتها من الغزوات، وهكذا فعل رسول الله ﷺ كما سوف يتبين لنا في الفقرة الآتية.

(١) الحشر: ١٤.

(٢) دويدار، صور من حياة الرسول: ٤٧٨.

٤ - استعداد اليهود للمعركة، وطبيعة القتال في أرض خيبر

لقد باغت رسول الله ﷺ أهل خيبر إذ نزل بساحتهم ليلاً ولم يبدأهم بقتال في تلك الليلة، فلما أصبح الصباح خرج أهل خيبر إلى مزارعهم المجاورة لحصونهم فدهشوا لهول المفاجأة.

وبحسب رواية الواقدي: «فأصبحوا وأفئدتهم تخفق، وفتحوا حصونهم معهم المساحي والكرازين والمكاتل^(١)، فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ قد نزل بساحتهم قالوا: محمّد والخميس^(٢)، فولّوا هارين حتى رجعوا إلى حصونهم،

وجعل رسول الله ﷺ يقول: الله أكبر، خربت خيبر، إنّنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(٣).

وكان يمكن لقادة يهود خيبر أن يدخلوا في مفاوضات مع النبي ﷺ قد يؤدي إلى نوع من المصالحة والاتفاق يجنبهم الحرب وويلاتها، إلّا أنهم آثروا المواجهة العسكرية مع جيش الإسلام.

يقول الراوي: «فذلت اليهود حصونهم وأخبروا سلام بن مشكم بأنه قد دهمهم جيش محمد ﷺ، قال: «ما سمعتم كلامي وقصرتم في الخروج إليه فلا تقصروا في الحرب، لان تقتلوا في الحرب خير من أن توتروا، فعزموا على الحرب، فأدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن كتيبة، وأدخلوا ذخائرهم في حصن

(١) المساحي: جمع مسحة، وهي المجرفة من الحديد، والكرازين: جمع كرز وهو الفأس، والمكاتل: جمع مكمل وهو الزبيل الكبير.

(٢) الخميس: الجيش، سمي بالخميس لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة والميسرة، والقلب.

(٣) الواقدي، المغازي: ٦٤٢ - ٦٤٣، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٤٥، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٢٩.

ناعم، وجمع المقاتلة وأهل الحرب في حصن «نطأة» وسلام بن مشكم - مع أنه كان مريضاً - جاء ودخل نطأة معهم وحرّض الناس على الحرب، ومات في ذلك الحصن»^(١).

٥ - سقوط حصون اليهود في خيبر

بعد أن تيقن رسول الله ﷺ أن اليهود تريد الحرب، جمع أصحابه ووعظهم ونصحهم وحرّضهم على الجهاد، ورغبهم في الثواب وبشّرهم بأن من صبر فله الظفر والغنيمة . . وكان شعار المسلمين «يا منصور أمت»^(٢).

كانت حصون خيبر منيعة وعلى رؤوس الجبال، ومتصلة بعضها ببعض من خلال طرق سرية يعرفها أهلها، وكان لبعض هذه الحصون أكثر من سور يحيط به، ولهذا كان اليهود يستخدمون النبال في حربهم مع المسلمين بالإضافة إلى الحجارة التي كانوا يرمونها على المسلمين من فوق حصونهم.

ولهذا اتخذ رسول الله ﷺ للمسلمين منزلاً بعيداً عن حصونهم، إلا أنّ نبال اليهود كانت تصل إليهم.

وبحسب رواية الواقدي: «وجعلت نبلُ اليهود تخالط عسكر المسلمين وتجاوزته، وجعل المسلمون يلقطون نبلهم ثم يردّوها عليهم . . . وكان أول يوم قاتلوا فيه جُرح من المسلمين خمسون رجلاً من نبلهم، فكانوا يُداوون من الجراح»^(٣).

ومن خلال تفاصيل القتال التي يذكرها المؤرخون حول هذه الغزوة، نجد

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٤٥ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٤٦ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٤٤ - ٦٤٦ .

أن رسول الله ﷺ قد وضع خطته الهجومية على حصون اليهود بطريقة الهجوم العنيف من جهة، والمشاغلة من جهة أخرى، فإذا «ركز المسلمون هجومهم الرئيسي على حصن، بقيت قوات المسلمين الثانوية تشاغل الحصون الأخرى، كي تمنع قوات اليهود من التعاون فيما بينها وتحرمها من معرفة اتجاه الهجوم الرئيسي للمسلمين»^(١).

ونجحت خطة رسول الله ﷺ إذ حوَصِر اليهود في حصونهم، ثم أخذت هذه الحصون تتهاوى الواحدة بعد الأخرى، وبحسب تعبير ابن إسحاق: «وتدنى»^(٢) رسول الله ﷺ، الأموال يأخذها مالا مالا، ويفتتحها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم... ثم القموص، حصن بني أبي الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا، منهن صفية بنت حيي بن أخطب... فاصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه... وفتح الله عز وجل حصن الصَّعب بن مُعاذ، وما بخير حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه... ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح، وحاز من الأموال ما حاز، انتهوا إلى حصنهم «الوطيح والسلالم» وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً، فحاصروهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة...»^(٣).

هكذا لخص لنا ابن إسحاق قصة سقوط خيبر، ومن دون أن يدخل في التفاصيل والجزئيات التي ذكرها الواقدي في المغازي.

وينبغي أن نشير إلى وجود الاختلاف الكثير، والأُمُور المتناقضة بين المؤرخين في أخبار سقوط حصون خيبر فيذكر بعضهم أخباراً عما جرى عند فتح

(١) خطاب، الرسول القائد: ٢٩٥ (بتصرف).

(٢) تدنى: أي أخذ الأدنى فالأدنى.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٠ - ٣٣٢.

حصن من الحصون، ويذكرها مؤرخ ثاني عند حصن آخر... ولهذا لم نجد فائدة كبيرة للوقوف عند هذه الجزئيات أو مناقشتها.

٦ - دور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في غزوة خيبر

لقد تهاوت حصون يهود خيبر الواحدة تلو الأخرى، وانهزمت اليهود في هذه الواقعة، وكان النصر المؤزر حليف المسلمين.

ولكل من النصر والهزيمة عوامله وأسبابه وظروفه، وتجري فيهما سنن الله سبحانه.

وعندما نتأمل في مفردات هذه الغزوة ومن خلال نصوصها التاريخية التي سجلها المؤرخون وكتاب السيرة النبوية، نجد أن جملة من العوامل والأسباب والسنن قد اجتمعت في هذا الانتصار الإلهي، الذي كان - وبحق - انتصاراً مذهلاً وعجيباً، أدهش قريشاً وسكان الجزيرة العربية.

ولا نريد أن نتوقف هنا عند هذه العوامل والأسباب التي سوف نشير إليها في نهاية الحديث عن هذه الغزوة.

فالعناية الإلهية، وقيادة الرسول ﷺ الحكيمة، وتفاني المسلمين واستبسالهم في هذه المعركة، وصدق المبادئ التي يقاتلون من أجلها... كل هذه الأمور وغيرها تشكّل منظومة متناسقة من عوامل الانتصار، التي لا يمكن إنكارها، ولم ينكرها أحد من المؤرخين.

إلا أنّ هنالك مفردة من مفردات عوامل الانتصار في معركة خيبر، لا يمكن أن يتجاهلها الباحث المنصف في ثنايا أحداث هذه الغزوة، وإن تجاهلها بعض المؤرخين، وحرفها بعض آخر لأسباب معروفة، وهو دور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذه الغزوة!!

فمما لا شكَّ فيه أنَّ للإمام علي عليه السلام دوراً كبيراً في غزوات الرسول الأكرم ﷺ وكان له حضوره المتميز فيها، إلاَّ أنَّه في هذه الغزوة كان قطب رحاها، وفارسها الأول من دون منازع، وسجلت له فيها مناقب بطولية، ومواقف جهادية، عزَّ نظيرها أقرَّ بها حتى خصومه السياسيون - كما سوف يأتيها - .

فلا بدَّ لنا من وقفة - ولو قصيرة - عند هذه المواقف الحيدرية الكريمة :

أولاً: قيادته لمقدمة جيش المسلمين:

لمقدمة الجيش أهمية كبيرة في الحروب والغزوات وأعطى رسول الله ﷺ مقدّمة جيش المسلمين في غزوة خيبر لعلي عليه السلام .

روى ابن الأثير في أسد الغابة عن الضحّاك الأنصاري قال: «لما سار النبي ﷺ إلى خيبر، جعل علياً على مقدّمته، فقال: «من دخل النخل فهو آمن» فلما تكلم بها النبي ﷺ نادى بها عليّ، فنظر النبي ﷺ إلى جبريل فصحك، فقال: ما يضحكك؟ قال: «إني أحبه، فقال النبي ﷺ لعليّ: «إنَّ جبريل يقول: إنه يحبك» قال: «وبُلّغت أن يُحبّني جبريل؟ قال: «نعم، ومن هو خير من جبريل، الله عزّ وجل»^(١).

وفي هذا الحديث دلالات كثيرة لا يسعنا أن نتوقف عندها، إلاَّ أنَّ مما يؤسف له حقاً هو محاولة بعضهم التشكيك في جعل علي عليه السلام على مقدّمة الجيش، واعطاء هذا الدور المهم لشخص آخر، مع أنَّ الرواية الصحيحة المسندة تنص على أنَّ رسول الله ﷺ جعل علياً على مقدّمة جيش المسلمين^(٢).

(١) ابن الأثير - أبي الحسن علي بن محمد الجزيري، أسد الغابة في معرفة الصحابة: ٣ / ٤٥، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، طبعة دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م) .

(٢) انظر تاريخ الخميس للديار بكري: ٢ / ٤٢، والصحيح من سيرة النبي: ١٧ / ١٤٣ - ١٤٤ .

ثانياً: حمل راية رسول الله ﷺ:

يقول ابن هشام في ذكر المسير إلى خيبر: «ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب، وكانت بيضاء»^(١) وفي رواية الواقدي: «ودفع رايةً إلى علي عليه السلام فخرج علي عليه السلام بالراية»^(٢). وفي رواية الحلبي عن الحافظ الدمياطي: «ولواؤه أبيض دفعه إلى علي كرم الله وجهه، وفيه أن ذلك اللواء يقال له العقاب»^(٣).

وقد ذكرنا سابقاً أن النصوص التاريخية تؤكد بأن علي بن أبي طالب عليه السلام حامل راية رسول الله ﷺ في غزواته، والروايات تارة تعبر عنه باللواء وأخرى بالراية، وهذه منقبة لعلي عليه السلام أن يكون حامل لواء الإسلام في جميع المشاهد.

ثالثاً: علي رجل المهام الصعبة:

من القضايا المعروفة والمتواترة في تاريخ غزوات رسول الله ﷺ قول رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً...». فقد نص عليها كتاب السيرة، والمؤرخون، والمحدثون وكتب الصحاح حتى أصبحت من القضايا البديهية الواضحة التي لا تحتاج إلى استدلال ومزيد بيان، فالقائل معروف، ومن قيلت فيه معروف، والواقعة التي قيلت فيها الكلمة معروفة للقاصي والداني، ولو أردنا أن ننقل كلمات المؤرخين والمحدثين، والمفسرين في هذه القضية لمألأنا صحائف كثيرة، ولكننا سوف ننقل القضية من أوثق مصادرها مع الإشارة إلى بعض المصادر الأخرى.

قال ابن إسحاق: «بعث رسول الله ﷺ أبا بكر... برايته... إلى بعض حصون خيبر، فقاتل، فرجع ولم يك فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٢٨ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٤٩ .

(٣) السيرة الحلبية: ٣ / ٥٢، وطبقات ابن سعد: ٣ / ٣٠٣ .

الخطاب، فقاتل، ثم رجع ولم يك فتح، وقد جَهد، فقال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفزار». قال: يقول سلمة، فدعا رسول الله ﷺ علياً رضوان الله عليه، وهو أرمَد، فتفل في عينه، ثم قال: خُذْ هذه الراية، فامض بها يفتح الله عليك.

يقول سلمة: فخرج والله بها يأنح^(١)، يُهرول هَرولة، وإنّا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن، فاطّلع إليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، قال اليهودي: علّوتم، وما أنزل على موسى، أو كما قال - سلمة - فما رجع حتى فتح الله على يديه^(٢).

كانت هذه رواية ابن اسحاق كما يرويها ابن هشام، وهنالك تتمت لروايته ذكرها السهيلي وغيره من المؤرخين، يقول السهيلي: «قال رسول الله:

لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويفتح على يديه، قال: وفي غير رواية ابن إسحاق: فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها، ومعناه من الدوكة... وهو اختلاط الأصوات^(٣).

وفي رواية ابن سعد عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ يوم خيبر: لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ويفتح عليه، قال: قال عمر: فما أحببت الإمارة قبل يومئذ فتناولت لها واستشرفت رجاء أن يدفعها إليّ، فلما كان الغد دعا علياً فدفعها إليه، فقال: قاتل ولا تلتفت حتى يفتح الله

(١) يأنح: من الانيح، وهو علو النَّفس، أي به نَفَس شديد من الإعياء.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٤ - ٣٣٥. وفي رواية المفيد في الإرشاد: ١ / ١٢٧: «غلبتم وما أنزل على موسى».

(٣) السهيلي، الروض الأنف: ٤ / ٦٠.

عليك، فسار قريباً ثم نادى: يا رسول الله علام أقاتل؟ قال: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا متي دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(١).

وفي صحيح البخاري ومسلم تنمة لرواية ابن سعد بعد قوله ﷺ وحسابهم على الله: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمُر النعم»^(٢).

هذه أهم المصادر التاريخية والروائية التي ذكرت قصة راية رسول الله ﷺ في خيبر، ولو أردنا استقصاء هذه الروايات من مصادر لها لطلال بنا المقام عندها، ولأثقلنا المتن والهامش بها^(٣).

إلا أننا نتوقف قليلاً عند رواية الواقدي في المغازي، الذي اعتمدنا على مرويّاته في كتابه في وقائع غزوات رسول الله ﷺ إذ وجدنا في منهجه الدقة والموضوعية والأمانة العلمية في كثير من المواطن بالإضافة إلى إحاطته وشموله في ذكر الأحداث والوقائع، إلا أنه في هذه الواقعة نجده يبتعد كثيراً عن الموضوعية وعن الامانة العلمية ويستخدم التدليس المتعمد في ذكر هذه القضية مع الاختصار الشديد لها وكأنه يتهرب منها!

ففي الوقت الذي ذكر جلّ المؤرخين إن لم يكن كلهم، أسماء الأشخاص الذين سبقوا علياً عليه السلام في حمل الراية والذهاب إلى حصون خيبر لفتحها

(١) ابن سعد، الطبقات: ٣ / ٣٠٥.

(٢) صحيح البخاري: المجلد الثالث الجزء الخامس: ٩١، حديث: ٤٢١٠، وصحيح مسلم بشرح النووي: المجلد الثامن، الجزء الخامس عشر: ١٧٩.

(٣) للتوسع في هذه المصادر انظر: الصحيح من سيرة النبي: ١٧ / ٢٢٠ وما بعدها، وهامش الصفحة: ٢٢٦.

وعودتهم خائبين، يلوم بعض بعضاً، وبحسب رواية الطبري: «نزل رسول الله ﷺ بحصن أهل خيبر، أعطى رسول الله ﷺ اللواء عمر بن الخطاب، ونهض من نهض معه من الناس، فلقوا أهل خيبر، فأنكشف عمر وأصحابه، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ يجتبه أصحابه ويجتبههم...»^(١).

نجد رواية الواقدي تقول: «... دفع لواءه إلى رجل من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً! ثم دفعه إلى آخر فرجع ولم يصنع شيئاً، ودفع رسول الله ﷺ اللواء الأنصار إلى رجل منهم، فخرج ورجع ولم يعمل شيئاً. فأمسى رسول الله ﷺ مَهْمُوماً، وقد كان سعد بن عباد رجع مجروحاً، وجعل يستبطن أصحابه، وجعل صاحب راية المهاجرين يستبطن أصحابه، ويقول: أنتم، وأنتم! فقال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار...»^(٢).

فالملاحظ في رواية الواقدي عدم ذكره لأسماء المهاجرين اللذين لم يصنعا شيئاً، ثم التكتّم على اسم الأنصاري الثالث، وإن صرح باسم سعد بن عباد الذي جرح، فإذا كان هؤلاء قد بذلوا جهدهم، وحاربوا إلا أنهم لم يتمكنوا من فتح حصن خيبر، فلماذا التكتّم عن ذكر أسمائهم؟ وإذا كان الأمر غير ذلك، وإنهم فرّوا من أمام حصون اليهود، وأخذ بعضهم يجتنّ بعضاً، فلماذا تساق الرواية بشكل لا تُوحى بهذا الفرار من قريب أو بعيد؟ ففي الوقت الذي نجد في عبارات رسول الله ﷺ تعريضاً واضحاً بفرارهم، فيقول: «سأعطي الراية غداً لرجل... ليس بفرار، أو كرار غير فرار، أو لا يولي الدبر» بحسب اختلاف تعابير الروايات، نجد الواقدي يتكتّم ويتحفظ عن ذكر أسمائهم، وكأنه أحرص من رسول الله ﷺ على أصحابه!

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك: ٣ / ١١ - ١٢ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٥٣ .

رابعاً: قتله لمرحب والفرسان الثمانية وقلعه لباب الحصن:

مما يسجل ليهود خيبر في هذه المعركة أنهم دافعوا ببسالة واستماتة عن حصونهم، وقاتلوا ببطولة وشجاعة وإن كانوا على باطل في قتالهم. وكان لبعض رموزهم وشجعانهم دور بطولي في المعركة، وعلى رأس هؤلاء «مرحب اليهودي» الذي كان له حصن معروف باسمه. أو كان ملك حصن صعب، أو انه خرج من حصن قوص أو حصنيهم الوطيح والسالام. . على اختلاف الروايات في ذلك^(١).

والذي يبدو ومن خلال النصوص التاريخية أنّ يهود كانوا يتترسون بحصونهم المنيعه ويقاتلون المسلمين من داخلها من خلال الحجارة والنبال. . فإذا اشتد عليهم الحصار داخل حصونهم خرجوا منه للقتال خارجه، فينتهز المسلمون فرصة خروجهم فتدور معركة ضارية في العراء يقتل فيها من يقتل ويضطر الآخرون إلى الالتجاء إلى حصونهم مرة أخرى، ولهذا كان على المسلمين أن يشددوا الحصار على حصونهم من خلال الوسائل المتاحة والتي منها قطع المياه عنهم كما حصل في حصن (الزبير) الذي استعصى على المسلمين، فُقطِع الماء عنهم، فاضطروا إلى الخروج عنه، فقاتلهم المسلمون في العراء وقضوا على أكثرهم، وألجأوا الباقين منهم إلى الفرار^(٢).

وقد اختلفت كلمات المؤرخين حول تحديد الحصن الذي استعصى فتحه على المسلمين، فأرسل رسول الله ﷺ من الصحابة بعضهم فلم يفلحوا في فتحها، ثم أرسل علياً عليه السلام برايته فقتل مرحباً وأبطال اليهود ثم قلع باب الحصن

(١) الديار بكرى، تاريخ الخميس: ٢ / ٤٩ .

(٢) خطاب، الرسول القائد: ٢٩٥ - ٢٩٧، وانظر النصوص التاريخية عند الواقدي في المغازي:

وكان على يديه الفتح، فقال الواقدي: «عند حصن ناعم» وقال ابن هشام: «عند الوطيح والسلام» وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً، وقال الديار بكري: «عند حصن القموص»^(١) ولا يهمنا كثيراً ترجيح أحد الأقوال على الآخر. وقد كفانا بعض كتاب السيرة ذلك^(٢).

أما مرحب اليهودي الذي قتله الإمام علي عليه السلام، فقد روي: «إنه لم يكن في أهل خيبر أشجع من مرحب، وكان يومئذ قد لبس درعين وتقلد بسيفين، واعمم بعمامتين، ولبس فوقهما مغفراً وحجراً ثقبه قدر البيضة»^(٣) أو كهيئة البيضة على رأسه، وله رمح سنانة ثلاثة أسنان، ولم يقدر أحد من أهل الإسلام أن يقاومه في الحرب. «^(٤).

أما كيفية قتل مرحب من قبل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فقد روى المؤرخون: «ان علياً عليه السلام لما انتهى إلى حصن قموص، كان أول من خرج إليه من الحصن الحارث اليهودي، أخو مرحب مع اتباعه، وياشر الحرب وقتل رجلين من المسلمين فقتله علي عليه السلام فلما رأى مرحب أخاه قد قتل خرج من الحصن سريعاً مع أتباعه وهو يرتجز:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرُ أُنِي مَرْحَبُ شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجَرَّبُ
أَطْعَمُ أَخِيَانَا وَحِينَئِذٍ أَضْرِبُ إِذَا اللَّيْثُ أَقْبَلَتْ تُلْهَبُ
إِنْ جَمَايَ لِلْجَمَى لَا يُقْرَبُ

(١) انظر الواقدي: ٢ / ٦٥٢، وابن هشام: ٣ / ٣٣٢، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٥٠.

(٢) انظر الصحيح سيرة النبي: ١٧ / ٢٠٤ وما بعدها.

(٣) البيضة: من السلاح، سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام، وتعرف بالخوذة (لسان العرب).

(٤) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٥٠.

فبرز له علي عليه السلام وهو يرتجز ويقول :

أنا الذي سَمَتَنِي أُمِّي حَيْدَرَه ضَرِغَامَ آجَامَ وَلَيْثَ قَسُورَه

فلما اختلطاً أراد مرحب أن يضرب علياً، فسبقه عليّ فعلاه بالسيف وهو ذوالفقار، فترس مرحب فوق السيف على الترس فقدّه والحجر والمغفر والعمامتين، وفلق هامته حتى أخذ السيف في الأضراس .

كذا في معالم التنزيل، قيل هذا أي: قتل علي مرحباً هو الصحيح، وما نظمه بعض الشعراء يؤيده وهو :

عليّ حمى الإسلام من قتل مرحب غداة اعتلاه بالهام المضخم

... ثم حمل المسلمون على اليهود فقتلوا اليهود قتلاً ذريعاً، وقتل عليّ يومئذ ثمانية من رؤساء اليهود، وفرّ الباقيون إلى الحصن فتبعهم المسلمون .

وبينما عليّ يشد في أثرهم إذ ضربه يهودي على يده ضربة سقط منها الترس، فبادر يهودي آخر فأخذ الترس، فغضب عليّ فتناول باب الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل .

«وفي شواهد النبوة روي أنّ علياً بعد ذلك حمله على ظهره وجعله قنطرة حتى دخل المسلمون الحصن» .

ثمّ لما وضعت الحرب أوزارها ألقى عليّ ذلك الباب الحديد وراء ظهره ثمانين شبراً، وفي هذا الباب قال الشاعر :

عليّ رمى باب المدينة خيبر ثمانين شبراً وافيّاً لم يثلم

وفي المنتقى والتوضيح روي عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ انه قال :
فلقد رأيته في سبعة نفر وأنا ثامنهم نجهد أن نقلب ذلك الباب فما نستطيع أن

نقله . وفي التوضيح رواه الطبراني وأخرجه أحمد .

وفي المواهب اللدنية : قلع عليّ باب خيبر ولم يحركه سبعون رجلاً إلا بعد جهد، وفي رواية ابن إسحاق سبعة، وأخرجه من طريقه البيهقي في الدلائل، ورواه الحاكم عن البيهقي . . عن جابر : أنّ علياً حمل الباب يوم خيبر وأنه جُرب بعد ذلك ولم يحمله أربعون رجلاً . . وفي رواية البيهقي : أنّ علياً لما انتهى إلى الحصن اجتذب أحد أبوابه فألقاه بالأرض، فاجتمع عليه بعده سبعون رجلاً منّا فكان جهداً أن أعادوا الباب إلى مكانه . . وفي شرح المواقف : قلع عليّ باب خيبر بيده وقال : «ما قلعتُ باب خيبر بقوة جسمانية ولكن بقوة إلهية»^(١) .

كانت هذه رواية الديار بكري لواقعة قتل مرحب ومن معه من رؤساء يهود خيبر، ثم قلعه لباب الحصن . . . وقد استند في روايته للواقعة إلى أمهات كتب التاريخ والصحاح مما وُفّر علينا مؤنة البحث والتنقيب عنها .

وينبغي الإشارة إلى أنّ ابن إسحاق روى عن حدثه عن جابر بن عبد الله أن محمد بن مسلمة هو الذي قتل مرحب^(٢) .

أما الواقدي : فقد روى أولاً الرواية التي نقلناها عن الديار بكري وختمها بقوله : «فحمل عليّ عليه السلام فقطّره - أي ألقاه على أحد قطريه، وهما جانباه - على الباب، وفتح الباب، وكان للحصن بابان» ثم ذكر ثانياً الرواية التي تقول إنّ محمد ابن مسلمة هو الذي قتل مرحب ! وإنّ عليّ قد ضرب عنق مرحب وهو في النفس الأخير بعد أن قطع رجله محمد بن مسلمة، وإنّ رسول الله ﷺ أعطى سيف مرحب ودرعه ومغفره لمحمد بن مسلمة بعد أن تخاصم مع علي في ذلك .
إلا أنه ذكر الرواية الثانية بلفظ : ويقال ! مما يعني تردده في قبولها .

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس : ٢ / ٥٠ - ٥١ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية : ٣ / ٣٣٣ - ٣٣٤ .

ومن الواضح أن رواية نسبة قتل مرحب إلى محمد بن مسلمة لا يمكن قبولها لأنها تتعارض مع الروايات الكثيرة التي وردت في كتب السيرة والصحاح بأن قاتل مرحب هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وإن جابر بن عبد الله لم يكن حاضراً في خيبر فتكون روايته للحادثة بواسطة شخص آخر لم يذكر في سند الرواية فتكون الرواية مقطوعة السند ولا يمكن الاعتماد عليها، ولا تصمد أما الروايات الكثيرة والأصح سنداً ودلالة؛ والتي منها: ما رواه مسلم في صحيحه، فقال: «... فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه»^(١)، وعقب الحاكم في المستدرك على تلك الروايات بقوله:

«على أن الأخبار متواترة بأسناد كثيرة أن قاتل مرحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام» وقال الذهبي: «الأخبار متواترة أن قاتل مرحب علي»^(٢).

خامساً: الله ورسوله يكرمان علياً:

لقد كان لعلي عليه السلام في هذه الغزوة دوره الفريد الذي أشادت به السماء، وهتف به جبريل الأمين من عند الله، ونطق بها رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

وقد سجلت كتب الحديث والأثر والتاريخ هذه الكلمات بأحرف من نور، ونطق بها حتى المخالفين والمعاندين لعلي عليه السلام.

روى القندوزي الحنفي في الينابيع بسند متصل عن علي عليه السلام قال: «قال لي رسول الله يوم فتحت خيبر: لولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالا بحيث لا تمر على ملأ من

(١) صحيح مسلم، شرح النووي: ١٢ / ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) المستدرك على الصحيحين: ٣ / ٤٣٧ وتلخيص مستدرك الحاكم للذهبي (مطبوع مع المستدرك): ٣ / ٤٣٧، وللتوسع انظر: الصحيح من سيرة النبي: ١٧ / ٣٣٢ وما بعدها .

المسلمين إلا أخذوا من تراب رجلِك، وفضل طهورك يستشفون به، ولكن حسبك أن تكون مني وأنا منك... إلخ»^(١).

وعندما نعود إلى كلمات النبي ﷺ وهو يخبر الأصحاب بأنه سيعطي رايته غداً... نجد أن الأصحاب قد اشرأبت أعناقهم، كلُّ يتمنى أن يكون هو صاحبها، ولكن لا يمكن أن يكون صاحب هذه الأوصاف إلا من يحمل راية رسول الله بحقها وهو الذي عناه بقوله ﷺ: «لأعطينَ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار، أو كَرار غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله عليه، أو يفتح الله على يديه، أو قال: لا يولي الدبر، يفتح الله عليه»^(٢).

وكلُّ كلمة من هذه الكلمات النبوية لها وزنها الإيماني في دُنيا الإسلام، ولم يحزها مجتمعة إلا من قيلت فيه وهو علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولم يكتف رسول الله ﷺ بذلك فقال له وهو يعطيه رايته البيضاء: «خذ الراية وامض بها، فجبريل معك، والنصر أمامك، والرُعب مبعوث في صدور القوم، واعلم يا علي أنهم يجدون في كتابهم: أنَّ الذي يُدمر عليهم اسمُهُ آلياً، فإذا لقيتهم فقل: أنا علي، فإنهم يُخذلون إن شاء الله»^(٣).

(١) القندوزي الحنفي - الحافظ سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودة: ٧٢ طبعة المكتبة الحيدرية، الطبعة السابعة (بلا - ت)، بتقديم السيّد محمد مهدي الخرسان .

(٢) انظر مصادر الحديث في القائمة الطويلة التي أوردها صاحب كتاب الصحيح من سيرة النبي: ١٧ / ٢٥٨ - ٢٦١ الهامش .

(٣) الشيخ المفيد، الإرشاد: ١ / ١٢٦، والاربلي، كشف الغمة: ١ / ٢١٣ .

الدرس الحادي والعشرون

أحداث السنة السابعة من الهجرة

(غزوة خيبر)

«القسم الثاني»

محاور البحث

- ١ - مصالحة اليهود على البقاء في خيبر
 - ٢ - يهود فدك ووادي القرى وتيماء ، وجنوحهم للسلم
 - ٣ - مغانم وأموال خيبر ، ومصير فدك في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته
 - ٤ - قدوم جعفر بن أبي طالب والمهاجرين من الحبشة
 - ٥ - قصة الشاة المسمومة التي قدمت لرسول الله ﷺ
 - ٦ - ارجاع صحائف التوراة إلى اليهود
 - ٧ - نبي الرحمة
 - ٨ - اهتمام قريش بأخبار خيبر
 - ٩ - عوامل انتصار المسلمين في خيبر
 - ١٠ - نتائج وأثار غزوة خيبر
 - ١١ - الدروس والعبر
- أسئلة الدرسين العشرين والحادي والعشرين

غزوة خيبر / ق ٢

١ - مصالحة اليهود على البقاء في خيبر

أخذت حصون اليهود تتساقط الواحدة بعد الأخرى، وصارت فلول اليهود تلوذ بالفرار من حصن إلى آخر، «وتحوّلت اليهود من حصن ناعم كلّها، ومن حصن الصّعب بن مُعاذ، ومن كلّ حصون النّطاة، إلى حصن يقال له الزّبير، فزحف رسول الله ﷺ إليهم والمسلمون، فحاصروهم وغلّقوا عليهم حصنهم وهو حصين منيع. . وأقام رسول الله على محاصرة الذين في قلعة الزبير ثلاثة أيام. . - ثم - افتتحه، فكان آخر حصون النّطاة. . ثم تحول إلى أهل الشّق. . وبه حصون عدد، فكبر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه. . فهرب من كان من المقاتلة إلى حصن النّزار، وامتنعوا به أشدّ الامتناع، وزحف رسول الله إليهم في أصحابه فقاتلوهم. . فلما فتح رسول الله ﷺ حصن النّزار هرب أهلها منها حتى انتهوا إلى أهل الكتيبة والوطيح وسّلام، وكان محمّد بن مسّلمة يقول: ونظر رسول الله ﷺ إلى حصن النّزار فقال: «هذا آخر حصون خيبر كان فيه قتال» لما فتحنا هذا الحصن لم يكن بعده قتال حتى خرج رسول الله ﷺ من خيبر»^(١).

والذي يتبين لنا من خلال هذا المقطع التاريخي، أنّ هذه الحصون كانت بحكم الساقطة عسكرياً، إذ فقدت مقاومتها ومنعتها من ساعة ما سقط قائد اليهود

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٦٦ - ٦٦٩ (بتخليص).

وبطلمهم مرحب اليهودي، وسقط معه حصن مرحب، وكان الفتح للمسلمين على يد علي بن أبي طالب عليه السلام.

قال الواقدي: «ثم تحول رسول الله ﷺ إلى الكتيبة والوطيح وسُلاّم حصن ابن أبي الحقيق الذي كانوا فيه، فتحصّنوا أشد التحصّن، وجاءهم كلّ فلّ^(١) كان قد انهزم من النّطة والشّق، فتحصّنوا معهم... وجعلوا لا يطلعون من حصونهم مُغلّقين عليهم، حتى همّ رسول الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم لما رأى من تغليقهم، وأنه لا يبرز منهم بارز. فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً سألوا رسول الله ﷺ الصّلاح...»

قالوا: وأرسل كنانة بن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: أنزل فأكلملك؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فنزل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذرايرهم، ويخلّون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال أو أرض... فقال رسول الله ﷺ: «وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً، فصالحه على ذلك»^(٢).

والملاحظ في هذا النص، أنّ رسول الله ﷺ قد قَبِلَ من ابن أبي الحقيق ما عرضه بنفسه عليه ﷺ، من حقن دماءهم، وترك ذريتهم لهم، على أن يخرجوا من أرضهم وأموالهم... فقبل رسول الله ﷺ ذلك منهم وصالحهم عليه، إلّا أنّه ﷺ قال لهم: «وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً»، وهذا يعني أنّهم دخلوا في ذمة الله ورسوله بهذا الصّلاح، إلّا في حالة كتمانهم لشيء فإنهم بذلك يكونون قد خانوا الله والرسول ﷺ فتبرأ منهم ذمة الله والرسول،

(١) فل القوم: أي منهزموهم .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٧١ .

ويحلّ قتلهم وسبي ذراريهم، وهذا ما حصل إذ تبين للنبي ﷺ أنّ كنانة بن الربيع بن أبي حقيق قد أخفى كنزاً ودفنه تحت الأرض!

قال ابن إسحاق: «وأتى رسول الله بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فوجد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رسول الله ﷺ رجل من اليهود، فقال لرسول الله ﷺ: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كلّ غداة، فقال رسول الله ﷺ لكنانة: أرايت إن وجدناه عندك، أقتلك؟ قال: نعم، فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثمّ سأله عما بقي، فأبى أن يؤدّيه، فأمر به رسول الله ﷺ فضرب عنقه...»^(١).

ولم يحدثنا التاريخ أنّ رسول الله ﷺ قد قتل أحداً من يهود خيبر بعد أن صالحهم إلّا كنانة بن الربيع الذي كان آخر من قتل، بعد أن نقض العهد الذي أبرمه مع رسول الله ﷺ بأن لا يكتمه شيئاً، فلما تبين كذبه انتقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ، إلّا أنّ رسول الله ﷺ لم ينقض عهد الصلح برمته، بل نقضه بالنسبة للذين كتموه، دون غيره.

إبقاء أهل خيبر في أراضيهم

روى الواقدي وابن إسحاق: «وكان رسول الله ﷺ لما فتح خيبر سأله اليهود فقالوا: يا محمّد، نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها، فساقاهم^(٢) رسول الله ﷺ خيبر على شطر من التمر والزروع فقال رسول الله ﷺ: أقرّكم على ما أقرّكم الله، فكانوا على عهد رسول الله حتى توفي...».

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٦ - ٣٣٧ (بتلخيص) وقارن برواية الواقدي في المغازي: ٢ / ٦٧١ - ٦٧٣.

(٢) المساقاة: ساقى فلان فلاناً نخله إذا دفعه إليه واستعمله فيه على أن يعمره ويسقيه... مقابل سهم من الحاصل... .

وفي رواية ابن إسحاق: «.. فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم»^(١).

٢ - يهود فذك ووادي القرى وتيماء^(٢)، وجنوحهم للسلم

لقد وصلت أخبار انتصار المسلمين في خيبر، وسقوط حصون اليهود، إلى مسامع يهود فذك ووادي القرى وتيماء، الذين لم يشاركوا يهود خيبر في حربهم مع رسول الله ﷺ، إلا أنهم كانوا يترقبون النتائج بفارغ الصبر، إذ كانوا يعرفون جيداً أن مصيرهم هو نفس مصير يهود خيبر بعد أن ينتهي رسول الله ﷺ منها.

أما يهود فذك: فبعد أن سمعوا بانتصار المسلمين في خيبر وأن رسول الله ﷺ قد صالحهم على ما صالحهم عليه، فضلوا عدم الدخول في مواجهة مسلحة مع المسلمين، والدخول في مفاوضات مع رسول الله ﷺ، للبقاء في أرضهم وديارهم ومزارعهم، مقابل ما يدفعونه لرسول الله ﷺ من حاصل أرضهم الزراعية وثمار نخيلهم وأشجارهم.

قال ابن إسحاق: «فلما سَمِعَ بهم - أي بأهل خيبر - أهل فذك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يُسَيِّرهم، وأن يحقن دماءهم، ويخلّوا له الأموال، ففعل، وكان فيمن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك مُحَيِّصَة بن مسعود...»

فصالحه أهل فذك على مثل ذلك - أي على ما صالح به رسول الله ﷺ أهل

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٩٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٧.

(٢) فذك: قرية في الحجاز، بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة، وهي شمال المدينة على طريق؛ المدينة، تبوك، الشام. وادي القرى: واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى. تيماء: بلد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، وتقع في شمال الحجاز. (الحموي - معجم البلدان).

خير، أي على النصف - فكانت خير فيئاً بين المسلمين، وكانت فذك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب»^(١).

وفي رواية الواقدي: «لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خير، بعث محيصة بن مسعود إلى فذك يدعهم إلى الإسلام ويخوفهم أن يغزوهم كما غزا أهل خير ويحل بساحتهم... - فامتنعوا أول الأمر بانتظار نتائج معركة خير - فلم يزالوا كذلك حتى جاءهم قتل أهل حصن ناعم وأهل النجدة منهم، ففت ذلك أعضادهم... فقدم معه رجل من رؤسائهم... في نفر من اليهود، صالحوا رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم ويجليهم، ويخلوا بينه وبين الأموال، ففعل، ويقال:.. فوق الصلح بينهم أن لهم نصف الأرض بتربتها لهم، ولرسول الله ﷺ نصفها، فقبل رسول الله ﷺ ذلك. قال الواقدي: وهذا أثبت القولين»^(٢).

وهناك روايات أخرى في أمر فذك وفتحها»^(٣).

والذي يبدو أن رواية ابن إسحاق والرواية الأولى للواقدي هي الأنسب والأكثر إنسجاماً من كون فذك خالصة لرسول الله ﷺ لأنها لم تفتح عنوة، ولم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

أما ما ذكره الواقدي بقوله: ويقال: ووقع الصلح أن لهم - أي لليهود - نصف الأرض بتربتها لهم... ثم يقول: وهذا أثبت القولين! فهو غير صحيح إذ كيف يعطيهم رسول الله ﷺ نصف الأرض بتربتها، وهم قد استسلموا ورضوا بالجلء من أرضهم؟

فالصحيح هو أن رسول الله ﷺ صالحهم على البقاء في فذك وأن يكون لهم

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٧ و ٣٥٣.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٠٦ - ٧٠٧.

(٣) انظر: البحار للمجلسي: ٢١ / ٢٢ - ٢٣، وإعلام الوري للطبرسي: ١ / ٢٠٩.

نصف حاصلها بالاستسقاء أو كأجراء وأيدي عاملة مقابل النصف من الثمر . فتأمل .

وأما يهود وادي القرى : فلم يذكر لنا ابن إسحاق عن مصيرهم سوى قوله : «فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى ، فحاصر أهلها ليالي ، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة»^(١) .

أما يهود تيماء ومصيرهم ، فليس لهم أي ذكر في سيرة ابن إسحاق الذي يبدو أنه لم تصله أخبار كثيرة عن غزوة خيبر ، ولذا نجده قد أهمل الكثير من جزئيات هذه الغزوة ، مع وجود اضطراب شديد في مروياته .

أما الواقدي فقد ذكر خبر مصير وادي القرى - باختصار - فقال : «فلما أتى رسول الله ﷺ الصهباء سلك على بزمة»^(٢) ، حتى انتهى إلى وادي القرى يريد من بها من اليهود . قال الراوي : فلما نزلوا بوادي القرى انتهينا إلى اليهود . . وقد استقبلتنا اليهود بالرمي حيث نزلنا . . وهم يصيحون في أطامهم . . وعباً رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفهم . . ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، وأخبرهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم وحسابهم على الله ، فبرز رجل منهم - فقتل - ثم برز آخر ، فقتل . . حتى قتل رسول الله ﷺ منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قُتل رجل دعا من بقي إلى الإسلام . . فلم ترتفع الشمس قيد رُمح حتى أعطوا بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنم الله أموالهم وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً ، وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القرى وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها»^(٣) .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية : ٣ / ٣٣٨ .

(٢) بزمة : من اعراض المدينة ، بين خيبر ووادي القرى ، به عيون ونخل (وفاء الوفاء : ٢ / ٢٦٠) .

(٣) الواقدي ، المغازي : ٢ / ٧١٠ - ٧١١ .

أما تيماء: فهؤلاء كانوا في أسوأ أحوالهم، فقد تواترت عليهم أخبار انتصار المسلمين في خيبر وفدك ووادي القرى، فخارت قواهم ولم يبدوا أي مقاومة أمام جيش الإسلام، فاختاروا الصلح على الحرب - ونعم ما فعلوا - فحقنوا بذلك دماءهم، وحافظوا على أموالهم.

قال الواقدي: «فلما بلغ يهود تيماء ما وطئ به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم»^(١).

وهكذا انتهت غزوة خيبر بعد الانتهاء من أمر تيماء، «وانصرف رسول الله ﷺ من وادي القرى راجعاً - إلى المدينة - بعد أن فرغ من خيبر ومن وادي القرى وغنمه الله»^(٢).

لماذا لم يُجَلِّ الرُّسُولُ يَهُودَ خَيْبِ

طرح هذا التساؤل المستشرق اليهودي، الدكتور إسرائيل ليفنسون، وأجاب عنه بإنصاف وموضوعية، فقال: «وهنا نتساءل، لماذا عامل الرسول يهود خيبر، بغير المعاملة التي عامل بها يهود يثرب؟ ويتلخص الجواب، على هذا السؤال في أن خيبر كانت واسعة الأطراف، وفيها من الحدائق والمزارع والنخيل ما يحتاج للأيدي الكثيرة التي مارست أشغال الزراعة والفلاحة، ولم يكن من العرب من مارس ذلك إلاّ النزر القليل، وفوق ذلك لم يرَضَ الرسول أن يترك من أنصاره من يستوطن هذه الأرض، ويعمل بها لاحتياجه إليهم في الأعمال الحربية، ولم يكن في الامكان ترك هذه الأرض الخصبة بوراً، لا تنتج زرعاً ولا ثمرأ، إلاّ أنّ الدولة الإسلامية الناشئة كانت في أشد الحاجة إلى الأموال الكثيرة، فلم يكن بدّ من الابقاء على اليهود، ليعملوا في هذه الأرض، وينتجوا منها الزرع

والثمر، ولذلك كانت شروط الصلح التي عقدت بين الطرفين في مصلحة المسلمين، أكثر منها في جانب المغلوبين.

ثم يضيف: هذا إلى أن يهود خيبر لم يفعلوا ما يوغر صدر الرسول، ويثير حقهده عليهم، كما فعل غيرهم، وكل ما كان منهم لا يعدو اشتراك بعض زعماء بني النضير اللاجئين إلى يهود خيبر، في تحريض قريش وغطفان على المسلمين في يوم الخندق، فمادامت شوكة اليهود في الحجاز قد انكسرت، فليس ما يخشى من وجود يهود خيبر في أراضيهم، بل كان في وجودهم مصلحة كبيرة، حيث يستثمر مجهوداتهم في الأعمال التجارية والزراعية، بالاكتثار من واردات الحكومة الجديدة...»^(١).

وبغض النظر عن بعض المصطلحات التي استخدمها هذا الكاتب من قبيل كلمة: «حقّد النبي على اليهود...» فإنّ ما ذكر من أسباب لعدم اجلاء اليهود من خيبر، أسباب وجيهة وواقعية، وينطبق هذا الكلام على يهود وادي القرى وفدك وتيماء.

إلا أنّ هنالك سبباً آخر إلى جانب السبب الاقتصادي لعدم الاجلاء، وهو السبب السياسي والعسكري. فهؤلاء اليهود كانوا يشكّلون كياناً سياسياً وعسكرياً يناوئ الدولة الإسلامية، ويكيد لها، ويتحين الفرصة للانتفاض عليها. وفي هذه المعركة الفاصلة وفيما سبقها من أحداث غزوة بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، لم يبقَ لهؤلاء اليهود كيانهم السياسي بعد أن فقدوا رموزهم المؤثرة، والمنظرين السياسيين منهم، والمؤثرين في مجتمع الجزيرة بالإضافة إلى مقتل أبطالهم وشجعانهم في هذه الغزوة وفيما سبقها، فانكسرت شوكتهم في الجزيرة العربية إلى الأبد، وتحولوا بعدها إلى أيدي عاملة وأجراء في أراضي ليست تابعة

(١) ولنفسون - إسرائيل، تاريخ اليهود في الجزيرة العربية: ٣١٠ - ٣١١ .

لهم بالكامل، وإنما لهم حصّة فيها وفي نتاجها لا يتعدى النصف، بالإضافة إلى وجود شرط لإجلّاءهم في أي وقت شاء النبي ﷺ ذلك.

وببقى أن نذكر أنّ النبي ﷺ لم يحارب اليهود كأفراد متفرقة يعملون في الزراعة أو التجارة، وغيرها. وإنما حاربهم ككيان سياسي موحد يصدر عن رأي وموقف واحد، ويكيد بالدولة الإسلامية، ويشكل مركز خطر كبير عليها، ولهذا بقي بعض اليهود في المدينة حتى بعد غزوة بني قينقاع والنضير وقريظة، وبقي يهود خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء في أراضيهم بعد غزوة خيبر، وتعامل معهم النبي ﷺ بالعدل والإحسان والإنسانية العالية، ولم يسمح لأحد من المسلمين بالتعدي عليهم، أو أخذ بشيء من أموالهم بغير حق سوى ما فرض عليهم من جزية.

يروى الواقدي: «وكان عبد الله بن رواحه يخرص^(١) عليهم النخل... فإذا خرص قال: إن شئتم فلکم وتضمنون نصف ما خرصتُ، وإن شئتم فلنا ونضمن لکم نصف ما خرصتُ... قالوا - أي اليهود - : بهذا قامت السماوات والأرض. قالوا: وجعل المسلمون يقعون في حرثهم وبقلهم بعد المساقاة وبعد أن صار لليهود نصفه، فشكت اليهود ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ... إلى الصلاة جامعة... فاجتمع الناس، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنّ اليهود شكوا إليّ أنکم وقعتم في حظائرهم، وقد أمّناهم على دمائهم وعلى أموالهم والذي في أيديهم من أراضيهم، وعاملناهم، وإنه لا تحلّ أموال المعاهدين إلّا بحقّها» وكان المسلمون لا يأخذون من بقولهم شيئاً إلّا بثمن، فربّما قال اليهودي للمسلم: أنا أعطيكه بلطلا^(٢) فيأبى المسلم إلّا بثمن»^(٣).

(١) الخرص: هو التخمين والتقدير .

(٢) بلطلا: أي باطلا .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٩١ .

ومما لا شك فيه أنّ أموالاً كثيرة بقيت في أيدي اليهود الذين عرفوا فنّ جمع الأموال واستثمارها، ولم يسلب النبي ﷺ كل ما بأيديهم، إذ كانت الأموال من الكثرة التي تخرج عن حد الإحصاء والعد، ولهذا هنالك شك فيما يرويه الواقدي بقوله: «لم يترك على أحد من أهل الكتيبة إلا ثوباً على ظهره من الرجال والنساء والصبيان»^(١) فهذا مما لا ينسجم مع إنسانية النبي الأكرم ﷺ، ويتناقض مع ما قاله الواقدي نفسه من أنّ اليهود قد جمعوا لعبد الله بن رواحه خلياً من خُلي نسائهم^(٢)، فمن أين كانت لهم هذه الحلي إن لم يترك لهم النبي ﷺ سوى ثوب على ظهورهم؟

نعم قد ساءت حالتهم المالية والاقتصادية شيئاً فشيئاً بعد ذلك، وهذا شيء طبيعي، إذ لم يكن لهم من حاصل الأرض سوى النصف وهو ما يسدّ رمقهم ولا يمكنهم الادخار منه، بالإضافة إلى أنّهم فقدوا المحفزات والدوافع الذاتية والنفسية لتطوير زراعتهم وتحسين وضعهم الاقتصادي والمعاشي.

وقد روى لنا الواقدي قصة تدل في مقطع منها على ما وصل إليه هؤلاء اليهود بعد غزوة خيبر من سوء حال، وغضاضة عيش.

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن نوح، عن... قال: «كنا بالمدينة والمجاعة تصيبنا، فنخرج إلى خيبر فنقيم بها ما أقمنا ثم نرجع، وربما خرجنا إلى فذك وتيماء، وكانت اليهود قوماً لهم ثمار لا يُصيبتها قطعه»^(٣)، وأما تيماء فعين جارية تخرج من أصل جبل لم يُصيبتها قطعه منذ كانت، وأما خيبر فماء واتن، فهي مُغفّرة في الماء، وأما فذك فمثل ذلك، وذلك قبل الإسلام، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وفتح خيبر، قلت لأصحابي: هل لكم في خيبر، فإنّا قد جاهدنا

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٦٨٠ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٦٩١ .

(٣) أي لا يقطع عنها الماء .

وقد أصابنا مجاعة؟ . . فخرجنا حتى قدمنا خيبر، فقدمنا على قوم بأيديهم الأرض والنخل ليس كما كانت، قد دفعها رسول الله ﷺ على النصف، فأما سراً اليهود وأهل السعة منهم قد قتلوا - بنو أبي الحقيق وسلام بن مشكم، وابن الأشرف - وإنما بقي قوم لا أموال لهم، وإنما هم عمال أيديهم^(١).

٣ - مغانم وأموال خيبر

لقد كانت مغانم خيبر كما وصفها القرآن الكريم: (مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ)، ولم يغنم المسلمون في كل غزواتهم التي غزوها سابقاً بمقدار ما غنموا في خيبر، وإذا أُضيف إلى مغانم خيبر ما كان من مغانم فدك ووادي القرى وتيماء، تبين لنا حجم الغنائم التي حصل عليها المسلمون من هذا الفتح والنصر الذي أكرمهم الله سبحانه وتعالى به.

وقد اتفق المؤرخون جميعاً على أمر فدك، وإنها «كانت لرسول الله ﷺ خاصة لأنه لم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب»^(٢)، واتفقوا أيضاً على حصن «الكتيبة خمسُ رسول الله ﷺ»، فكان يطعمُ من أطعم من الكتيبة وينفقُ على أهله منها، قال ابن واقد: وأثبت عندنا أنها خمس النبي ﷺ من خيبر^(٣). أما الغنائم الأخرى فقد وُزعت على المسلمين بحسب الأسهم، وروى تفاصيلها كتاب السيرة بإسهاب^(٤).

مصير فدك في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته

تعتبر قضية فدك وقصتها من القضايا الحساسة والمفصلية في تاريخ

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧١٣ .

(٢) البلاذري، فتوح البلدان: ٤٣، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٧ و ٣٥٣ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٩٣ .

(٤) انظر تفاصيل ذلك: الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٨٧ وما بعدها، وابن هشام، السيرة النبوية:

٣ / ٣٤٩ وما بعدها .

المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ وإلى أواخر الدولة العباسية، فنجد لهذه القضية ذكر مع كل خليفة يتسنى زمام الحكومة والدولة.

لقد ظهرت قضية فدك بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة من خلال مطالبة بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء عليها السلام بها، وامتناع أبي بكر وعمر بن الخطاب عن تسليمها لها، مطالبينها بأقامة الشهود على مطالبتها بفدك، رغم أن فدك كانت بيدها، واليد من أوضح علامات الملكية، ومع ذلك أقامت الشهود، ولكن لم يؤخذ بشهادتهم، فأصبحت فدك تحت سيطرة الدولة الحاكمة آنذاك، ثم تداولتها الأيدي بعد ذلك ضمن قصة طويلة ومتشعبة لا يمكننا استيعابها هنا، ولكننا نتوقف قليلاً عند سلسلة أحداثها، مع الإشارة إلى المصادر التي تناولت القضية بالتفصيل في جميع جوانبها.

فقد اتفق المؤرخون على أن فدك كانت خالصة لرسول الله ﷺ في حياته، ومن الطبيعي أن يتصرف رسول الله ﷺ بالشكل الذي يراه مناسباً في فدك، كأن يهبها ويعطيها نحلة لمن يراه أهلاً لذلك، فهل أقدم رسول الله ﷺ على هذا الأمر في حياته؟

تنص الروايات على وقوع هذا الأمر، وإن رسول الله ﷺ قد وهب فدكاً لابنته فاطمة الزهراء سلام الله عليها، وإن فدكاً كانت نحلة للزهراء عليها السلام من أبيها وانتقلت بكامل أرضها ومنافعها لها في حياة رسول الله ﷺ وليس بعد وفاته بواسطة الإرث.

ومن النصوص الروائية التي يستند إليها في هذا المجال:

الرواية التي يرويها المفسرون والمحدثون الشيعة وبعض علماء السنة، ومحصلها كما جاء في الدر المنثور للسيوطي عن عطية الكوفي عن أبي سعيد الخدري قال: «لما نزلت الآية ﴿وَأَتِذَا الْقُرُيْ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ﴾^(١)

أعطى رسول الله ﷺ فاطمة عليها السلام فداً^(١) كما روى ذلك جماعة عن ابن عباس^(٢).

وقد أجمعت المصادر الشيعية على أن النبي ﷺ وهب فداً عند نزول الآية لفاطمة، ووافقهم على ذلك بعض علماء السنة.

وكذلك نجد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام - الذي هو نفس رسول الله ﷺ والصديق الأكبر - قد صرح بملكية فدا في أحد نصوص نهج البلاغة حيث يقول عليه السلام: «بَلَى كَأَن ت فِي أَيْدِينَا فَدا مِنْ كُلِّ مَا أَظْلَمَتِ السَّمَاءُ فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنَعَمَ الْحَكَمُ اللَّهُ»^(٣).

كذلك مطالبة الزهراء عليها السلام بفدا بعد وفاة رسول الله ﷺ، إذ لا يمكن أن نتصور أو أن نتوهم أن الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام تطالب بشيء ليس من حقها، وهي الطاهرة المطهرة بنص القرآن الكريم.

جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن أبي سعيد الخدري: «أنَّ النبي ﷺ وهبها - أي فدا - لفاطمة، ولما انتهت الخلافة لأبي بكر كان أول ما قام به أن انتزعها من يديها بحجة أن النبي - على حد زعمه - قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» وأصر على انتزاعها من يدها بالرغم من أنها طالبت بها وأقامت البيئة على ملكيتها لها»^(٤).

(١) الطبرسي، مجمع البيان: المجلد السادس: ٢٤٣، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٢٦٨، والسيوطي، الدر المنثور: ٥ / ٢٣٨.

(٢) انظر: فضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروزآبادي: ٣ / ١٣٦ وما بعدها.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٤٥.

(٤) الحسنی - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٥٥٩ - ٥٦٠.

لم تكن الزهراء عليها السلام بحاجة إلى إقامة البيئة على ملكيتها لفدك بعد أن كانت فدك بيدها، واليد من أقوى علامات ودلالات الملكية كما هو مقرر في محله من كتب الفقه.

ولكن على الرغم من ذلك احتجت عليهم، وافحمتهم بحججها، ثم أتت بالشهود، وهم من أهل الجنة بنص القرآن وأحاديث النبي ﷺ، فشهد لها علي والحسن والحسين عليهم السلام وأم أيمن التي شهد لها رسول الله بالجنة، وأسماء... إلّا أن شهادتهم لم تقبل!.. والحديث في هذه القضية طويل ومؤلم، ولا يسعنا الدخول في جزئياته وإنما تكفيها هذه الإشارة.

والذي تدل عليه أجواء القضية والظروف الموضوعية لها آنذاك، أنّ السبب الرئيسي لانتزاع فدك من يد الزهراء عليها السلام ما هو إلّا سبب سياسي يتعلق بالإمامة وخلافة رسول الله ﷺ!! وليست هذه الحقيقة مجرد تخمين أو تحليل واستنتاج سياسي لما حدث وإنما المؤشرات التاريخية تشهد لها.

يروى الحلبي في سيرته: «أنّ أبا بكر كتب لفاطمة بفدك، ودخل عليه عمر فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها، فقال - عمر - : ممّاذا تنفق على المسلمين وقد حاربك العرب كما ترى، ثم أخذ عمر الكتاب فشقه»^(١).

ولابن أبي الحديد في شرح النهج كلام طويل حول هذه القضية ننقل منه قوله:

«قلت لمتكلم من متكلمي الإمامية يُعرف بعلي بن تقي من بلدة النيل^(٢): وهل كانت فدك إلّا نخلا يسيراً وعقاراً، وليس ذلك بخطر! فقال لي: ليس الأمر

(١) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٣٩١.

(٢) النيل: قرية من توابع الكوفة آنذاك، وليس المقصود نيل مصر.

كذلك، بل كانت جليلة جداً، وكان فيها من النخل نحوماً بالكوفة الآن من النخل، وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عليها السلام عنها ألا يتقوى عليٌّ بحاصلها وغلتها على المنازعة في الخلافة، ولهذا اتبعوا ذلك بمنع فاطمة وعلي وسائر بني هاشم وبني المطلب حقهم في الخمس، فإنَّ الفقير الذي لا مال له تضعف همته، ويتصاغر عنه نفسه، ويكون مشغولاً بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرئاسة»^(١).

فالغرض إذن من منع الزهراء حقها سياسي وبامتياز!! وذلك من خلال الحصار المالي الذي يشكل عصب الحياة السياسية، ومن مستلزمات الإمامة والولاية الكبرى والقيام بمتطلباتها.

وفي نص آخر ينقله الكاتب نفسه يقول: «سألت علي بن الفارقي مدرّس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم. قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فذك وهي عنده صادقة؟ فتبسم، ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسنًا مع ناموسه وحُرْمته وقلة دعابته، قال: «لو أعطاهما اليوم فذك بمجرد دعواها لجأت إليه غداً، وأدعت لزوجها الخلافة، وزحزته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء، لأنَّه يكون قد سجّل على نفسه على أنها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود» ثم يعلق ابن أبي الحديد على كلام أستاذه بقوله: «وهذا كلام صحيح، وإن كان أخرجه مخرج الدعابة والهزل»^(٢).

ولا نريد أن نسترسل في حديث وقصة فذك أكثر مما ذكرناه، فقد انتزعت من يدي الزهراء عليها السلام ومضت الزهراء إلى ربها بظلامتها ووجدتها، وأصبحت

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٢٣٦ .

(٢) المصدر نفسه: ١٦ / ٢٣٦ .

فدك ورقة سياسية بيد الحكام يهبونها لمن أرادوا، ثم يسلمونها لأهل البيت عليه السلام، ثم سرعان ما ينتزعونها منهم وهكذا دواليك.

يقول السيد الحسني: «وظلت - فدك - في يد الخلفاء كمورد من موارد الدولة، حتى انتهى الحكم لمعاوية فقسمها ثلاثاً بين مروان بن الحكم، وعمر بن عثمان، ويزيد بن معاوية، وانتهت كلها لمروان أيام خلافته، فوهبها لولده عبدالعزيز، وعبدالعزیز وهبها لولده عمر بن عبدالعزيز، ولما انتهت الخلافة إليه كانت أول ظلامة ردها على العلويين وسلمها للإمام علي بن الحسين عليه السلام، فكان يوزع ناتجها على ذرية فاطمة، وبعد وفاة عمر بن عبدالعزيز انتزعها من العلويين يزيد بن عبد الملك، وبقيت بيد خلفائهم إلى أن جاءت الدولة العباسية، فردّها أبو العباس السفاح على العلويين، وانتزعها المنصور بعد ثورة عبد الله بن الحسن، ثم ردها عليهم المهدي العباسي، وانتزعها منهم موسى بن المهدي العباسي، وبقيت في أيدي العباسيين إلى عهد المأمون، فسلمها للفاطميين، وبقيت في أيديهم إلى أن جاء المتوكل، - وكان شديد الكراهة لعلي وبنيه - ، فانتزعها منهم، إلى كثير من المرويات حولها»^(١).

٤ - قدوم جعفر بن أبي طالب عليه السلام والمهاجرون من الحبشة

لقد تحدثنا عن هجرة المسلمين إلى الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب، في الجزء الأول من هذا الكتاب، وتعرضنا هناك إلى أسباب هذه الهجرة وملابساتها، والدور الذي قام به جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين المهاجرين في التبليغ والدعوة إلى الله وإيضاح حقيقة هذا الدين والرسالة الخاتمة

(١) الحسنی - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٥٦٠، وللتوسع انظر: الشهيد محمد باقر الصدر، فدك في التاريخ، والعاملي، الصحيح من سيرة النبي: ١٨ / ٢٢٥ وما بعدها، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦ / ٢٣٦ وما بعدها .

التي جاء بها النبي محمد ﷺ من ربه، وذلك بمحضر من النجاشي وكبراء بطارقتة، ورجال البلاط والحكومة، وبعض رجالات قريش الذين جاؤوا لاسترداد المسلمين إلى مكة^(١).

لقد بقي هؤلاء المهاجرون في الحبشة وهم يعانون آلام الهجرة والبُعد عن الوطن والأحبة ولوعة عدم المشاركة في فتوحات الإسلام، إلا أنهم قد اتخذوا من الصبر جلباباً، وتحملوا ما تحملوا من مشاق وآلام في سبيل الله، فكانوا في عين الله، يحرسهم ويسدد خطاهم ويعطيهم من فضله هدى وبصيرة واستقامة.

ولم يقدم من هؤلاء إلى رسول الله ﷺ إلا أفراد متفرقون لا تعطينا المصادر التاريخية فكرة واضحة عنهم^(٢)، أما جعفر بن أبي طالب ومن معه من المؤمنين فكانوا في انتظار أن يأذن لهم رسول الله ﷺ في العودة فيصدرون عن أمره.

ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يقدره لم يصدر هذا الإذن من رسول الله ﷺ إلا بعد الحديبية وقبل غزوة خيبر على ما توحى به الرواية التالية، فاتفقت عودتهم إلى رسول الله ﷺ وهو في خيبر يعيش اجواء الانتصارات فيها، فكانت فرحته ﷺ مضاعفة.

روى ابن سعد وغيره: «إن رسول الله كتب إلى النجاشي كتاباً يدعوهُ إلى الإسلام وبعث به مع عمرو بن أمية وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يبعث إليه من بقي عنده من أصحابه ويحملهم، ففعل وحملهم في سفيتين...»

وفي رواية الديار بكري: عن ابن إسحاق، أن رسول الله ﷺ كان - قد - بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي فيمن كان أقام بأرض الحبشة من

(١) انظر: دروس في السيرة النبوية، العهد المكي.

(٢) يذكر ابن سعد في الطبقات: ١ / ١٠٠ بعض من رجع إلى مكة والمدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها.

أصحابه فحملهم في سفينتين فقدم بهم عليه وهو بخير بعد الحديبية، فذكر جعفراً أولهم وذكر معه ستة عشر رجلاً قدموا في السفينتين»^(١).

وفي رواية: «وأرسل النجاشي معهم ابن أخيه إلى رسول الله ﷺ ليعلمه»^(٢).

وفي رواية الحلبي وغيره: «وقدم مع جعفر سبعون رجلاً عليهم ثياب صوف، من أهل الصوامع، منهم اثنان وستون من الحبشة، وثمانية روميون من أهل الشام. . وقيل: كانوا ثمانين رجلاً، أربعون من أهل نجران، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية روميون من أهل الشام. فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة (يس) فبكوا وأسلموا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى. ولعلمهم هم الذين يقال: إنه ﷺ قام يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله، فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين»^(٣).

وتنقل لنا كتب السيرة حفاوة الاستقبال الذي حظي به وفد المهاجرين، ففي رواية: «ان رسول الله ﷺ بعث مولاة أبا رافع في استقبالهم»^(٤).

وفي رواية: «فلما رأى رسول الله ﷺ جعفر مشى في استقباله اثنتي عشرة خطوة، ثم قبل ما بين عينيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر؟ بفتح خير أم بقدوم جعفر؟».

وفي رواية أخرى: «لا أدري بأيهما أنا أشدُّ فرحاً، بقدومك يا جعفر، أم

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٠٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٥٩، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٥٦ / ٢.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٢ / ٣٠.

(٣) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٧٢.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٩ / ١٣٣.

بفتح الله على أخيك خير».

ثم إن رسول الله ﷺ قال لجعفر: «يا جعفر ألا أمنحك؟ إلا أعطيك؟ ألا أحبك؟» فظن الناس أنه يعطيه ذهباً أو فضة، فتشوق الناس لذلك، فقال له: «إني أعطيك شيئاً إن أنت صنعته في كل يوم كان خيراً لك من الدنيا وما فيها» ثم علمه ﷺ الصلاة المعروفة بصلاة جعفر الطيار^(١).

هكذا جسّد رسول الله ﷺ أخلاقيات الإسلام العالية في هذا الاستقبال الحافل، وهذه الحفاوة التي تليق بالوفد المهاجر وبمن معه من المهاجرين، كذلك الوافدين عليه كمسلمين جدد فيقوم بخدمتهم بنفسه.

موقف عمر بن الخطاب من مهاجري الحبشة

في مقابل هذا الاستقبال الحافل الذي حظي به مهاجرو الحبشة من لدن رسول الله ﷺ، نجد لونا آخر مناقضاً له في كلمات أحد الأصحاب كما تنقلها لنا كتب السيرة.

روي في كتب الصحاح والتاريخ عن أبي موسى الأشعري - وكان ممن عاد مع المهاجرين على رواية - : «دخلت أسماء بنت عميس - وهي في من قدم معنا يومئذ - على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة.. فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ فقالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ فقالت أسماء: نعم.

فقال عمر: سبقناكم بالهجرة، نحن أحق برسول الله ﷺ.

قال: فغضبت - أسماء - وقالت: كذبت يا عمر، كلا والله يا عمر، كنتم

(١) الكليني، الكافي (الفروع): ١/ ١٢٩ - ١٣٠، والصدوق، الخصال: ٨٢/ ٢، والمقرئ، امتاع الاسماع: ١ / ٣٢٠.

مع رسول الله ﷺ، يُطعمُ جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكُنَّا في دار البُعْداء البُعْضاء بالحِمْيَر، وذلك في الله وفي رسوله.

- ثم قالت - : وأيم الله لا أطمعُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ وأسأله، والله لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد على ذلك.

فلما جاء النبي ﷺ قالت : إن عمر قال : كذا وكذا! فقال رسول الله ﷺ : «فما قلت له؟» قالت : قلت له : كذا وكذا!

قال ﷺ : «ليس بأحق بي منكم، له ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان».

قالت - أسماء - : فلقد رأيتُ أبا موسى وأصحابه يأتوني ارسالا يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم أفرح، ولا أعظم في أنفسهم مما قال النبي ﷺ.

قال أبو بريدة: قالت أسماء: ولقد رأيت أبا موسى، وإنه ليستعيد هذا الحديث مني، وقال: لكم الهجرة مرتين: هاجرتم إلى النجاشي، وهاجرتم إليّ^(١).

ولا نريد أن نتوقف طويلاً عند هذا الحديث، فعمر بن الخطاب يعرف جيداً حجم المصائب والمعاناة التي تحملها هؤلاء في هجرتهم، فلماذا يبخسهم حقهم ويتفاخر عليهم بهجرتهم؟ ثم لماذا هذا الاستقبال الجاف الفج لقوم استقبلهم رسول الله ﷺ بتلك الحفاوة البالغة؟ ولا ندري هل أن ما صدر من عمر كان بعفوية أو مزاح؟ أم أنه صدر عن عنجهية عرفت عنه؟ وكلُّ إناء بالذي فيه ينضح!

(١) البيهقي، دلائل النبوة: ٤ / ٢٤٦، وابن كثير، البداية والنهاية: ٤ / ٢٣٤ وروى حديث أسماء كل من البخاري في صحيحه في باب غزوة خيبر: ٣ / ٩٤ - ٩٥، الحديث: ٤٢٣٠ و ٤٢٣١، ومسلم في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة: ١٥ / ٦٤ - ٦٥ بشرح النووي.

٥ - قصة الشاة المسمومة التي قُدِّمت لرسول الله ﷺ

لقد كان بإمكان رسول الله ﷺ أن يقتل يهود خيبر بأجمعهم، وأن يبيد خضراءهم، وأن يسبي نساءهم وذرائعهم. . ولكنه تعامل معهم بمنتهى الإنسانية، وأقرهم في أرضهم، وكان ينبغي لهؤلاء اليهود أن يحفظوا هذا الجميل لرسول الله ﷺ. إلا أنهم ظلوا على ما هم عليه من خبث ومكر، ونكران للجميل، فعادوا يفكرون بالغدر والانتقام، ويتآمرون للقضاء على رسول الله ﷺ، من خلال امرأة من نساءهم الموتورات، فدبرت لذلك حيلة مكرة لتسميم النبي ﷺ وقتله.

روى ابن إسحاق والواقدي، واللفظ للأول: «فلما اطمأن رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، شاةً مَصْلِيَّةً^(١)، وقد سألت أيَّ عضو من الشاة أحبَّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فاكثرت فيها من السم، ثم سمّت سائر الشاة، ثم جاءت بها.

فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يُسْغِها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: إنّ هذا العظم ليُخبرني أنه مسموم، ثم دعا بها، فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخفَ عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحْتُ منه، وإن كان نبياً فسَيُخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ومات بشر من أكلته التي أكل.»

قال ابن إسحاق: «كان رسول الله ﷺ قد قال في مرضه الذي توفي فيه، ودخلت أم بشر بنت البراء تعودته: يا أمَّ بشر، إنّ هذا الأوان وجدتُ فيه انقطاع أبهر^(٢)، من الأكلة التي اكلتُ مع أخيك بخير.

(١) مصلية: مشوية .

(٢) الابهر: عرق إذا انقطع مات صاحبه، وهما ابهران يخرجان من القلب، ثم يتشعب منهما سائر الشرايين .

قال - ابن إسحاق - : كان المسلمون ليُرُون أنّ رسول الله ﷺ مات شهيداً، مع ما أكرمه الله به من النبوة» .

وفي رواية الواقدي حول مصير زينب قال : «فاختلف علينا فيها، فقال قائل رواية : أمر بها رسول الله ﷺ فقتلت ثم صلبت، وقال قائل رواية : عفا عنها»^(١) .

فإن صحت الرواية التي تقول أنّ النبي ﷺ قد عفى عن هذه المرأة اليهودية برغم ما أقدمت عليه من جريمة، فهذا ان دل على شيء فيدل على شيم النبي ﷺ وسعة صدره، وعفوه عند المقدرة .

٦ - إرجاع صحائف التوراة إلى اليهود

روى الواقدي وهو يتحدث عن الغنائم في خيبر، قال : «وجُمعت يومئذ مصاحفُ فيها التوراة من المغنم، فجاءت اليهود تطلبها وتكلم فيها رسول الله ﷺ - فأمر - أن تُردَّ عليهم»^(٢) .

وهذا التصرف من النبي ﷺ - على فرض صحة الرواية - له دلالات واضحة على مدى احترام النبي ﷺ للكتب السماوية كالتوراة على رغم ما دخلها من التحريف إلاّ أنّها على إجمالها فيها كلام الله عز وجل، وقد يكون ما عثر عليه هي الصحف الأولى التي لم يطالها أيدي التحريف والتزوير .

ويتوقف المستشرق اليهودي الدكتور ولفنسون ليعلق على هذا الحادث بقوله : «ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول ﷺ من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي ﷺ بالبنان، ويحفظون له هذه إليه، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٧ - ٣٣٨، والواقدي، المغازي: ٢ / ٦٧٧ - ٦٧٨ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٨٠ - ٦٨١ (مع إضافة كلمة - وأمر - ليستقيم المعنى) وهذه الكلمة موجودة في رواية الديار بكرى في تاريخ الخميس: ٢ / ٥٥ .

حين تغلبوا على اورشليم، وفتحوها سنة (٧٠ ب. م) احرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم. وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة. هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم، وبين رسول الإسلام^(١).

إلا أن أحد كتاب السيرة المحدثين رفض هذه القضية من الأساس، وقال: «ولا مجال لقبول ما زعموه من أن النبي ردّ على اليهود صحائف التوراة» معللاً ذلك بأنها «أما كتب ضلال لا يجوز الابقاء عليها، وعلى فرض المحال انها نسخ التوراة الحقيقية، فلا يصح تمكين اليهود منها.»^(٢).

إلا أننا عندما نستعرض سيرة الرسول ﷺ وخاصة في حروبه ومواجهاته مع اليهود بمختلف طوائفهم، لا نعهد من النبي ﷺ أنه عمد إلى كتبهم المقدسة فأتلفها، أو أنه منعهم من تداولها وقراءتها، بل نجده ﷺ كان يحتج عليهم بما هو موجود في كتبهم وانها تخبرهم عن نبوته ورسالته. فلا ندري من أين استنتج هذا الكاتب ما يجب على النبي ﷺ أن يفعله اتجاه الكتب السماوية؟!

٧ - نبي الرحمة

ينقل لنا المؤرخون لغزوة خيبر مشهداً من مشاهد ما بعد المعركة يحتوي على حالتين متباينتين في السلوك الإنساني: حالة القسوة، وقساوة القلب من جهة، وحالة الرحمة والرأفة من جهة ثانية، تمثلت الأولى في تصرف أحد أصحاب النبي ﷺ مع أسيرتين من أسرى اليهود، وتمثلت الثانية في موقف النبي ﷺ وردة فعله اتجاه موقف هذا الصحابي.

روى ابن إسحاق والواقدي: «ولما افتتح رسول الله ﷺ، حصن بني أبي الحقيق، أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حُيي بن أخطب، وبأخرى معها، فمرّ

(١) ولفنسون - إسرائيل، تاريخ اليهود في الجزيرة العربية: ٣١٢ .

(٢) الصحيح من سيرة النبي: ١٨ / ٨٠ .

بهما بلال . . على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت، وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ . . قال لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال؟ حين تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما؟ وعن الواقدي: «أذهبت منك الرحمة؟ تمرّ بجارية حديثة السن على القتلى! فقال بلال: يا رسول الله، ما ظننت أنك تكره ذلك، وأحببت أن ترى مصارع قومها»^(١).

لا أعتقد أنّ بلالاً كان قاصداً إيذاء الأسيرتين من خلال المرور بهما على مصارع قتلاهما من اليهود، وإنما قد يكون الطريق هو الذي أدى به إلى هذا المرور. كما أنّ كلام النبي ﷺ معه لا يدل بظاهره على إثبات قساوة القلب لبلال، وإنما كان من نوع التنبيه له ولغيره من الصحابة بأن يرفقوا بأسراهم ولا يعرضوهم لمثل هكذا مواقف. إلا أن في نفس هذه الحادثة درساً بليغاً نتوقف عنده لاحقاً.

زواج النبي ﷺ من صفية

نص المؤرخون على أنّ النبي ﷺ قد اصطفى صفية بنت حُيي بن أخطب لنفسه، وتزوجها. وكان والدها قد قتل سابقاً بعد معركة الأحزاب وفي غزوة بني قريظة، وقد مرّ بنا الحديث عنه في محله، أما زوجها فهو كنانة بن أبي الحقيق وقد قتل في هذه الغزوة أيضاً.

أما قصة زواج الرسول ﷺ منها، فقد تحدث عنه المؤرخون - وخاصة الواقدي - بأسهاب وتفصيل لا يهمنا كثيراً الوقوف عندها، بعد أن تحدثنا عن أزواج النبي ﷺ في الجزء الأول من هذا الكتاب^(٢).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٦، والواقدي، المغازي: ٢ / ٦٧٣ - ٦٧٤ .

(٢) للتوسع انظر: الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٧٣ - ٦٧٥ و٧٠٧ وما بعدها . وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٦ . وكتابتنا: دروس من السيرة النبوية، العهد المكي .

٨ - اهتمام قريش بنتائج غزوة خيبر

لقد كانت غزوة خيبر بالنسبة إلى قريش تعني الشيء الكثير، وكانت تعلق الآمال الكبيرة على نتائجها وتنتظر ذلك بفارغ من الصبر، وانقسمت قريش إلى فريقين: فريق يقول: «إن محمداً سيظهر عليهم، وفريق ثاني يقول: إن خيابر قد جمعت الجموع فمحمّد لا يفلت - وسوف - يظهر الحليفان أسد وغفار واليهود بخيبر، وذلك أن اليهود أوعبت في حلفائها، فاستنصروهم...».

وتحمس كل فريق لرأيه حتى كان بينهم على ذلك تراهن عظيم، وجعلوا يتطلعون إلى الأخبار، ويترقبون النتائج، ويقفون في أفواه طرق وسكك مكة يسألون كل قادم إليها عما أسفرت عنه معركة خيبر^(١).

قصة الحجاج بن علاط السلمي

كان هذا الرجل هو الذي حمل أخبار انتصار المسلمين إلى قريش في مكة، ولكن بطريقة ذكية وقصة طريفة ينقلها المؤرخون وكتاب السيرة النبوية.

يروى الواقدي وابن إسحاق:

«وكان الحجاج بن علاط... قد خرج يُغير بعض غاراته، فذَكَرَ له أَنَّ رسول الله ﷺ بخيبر، فأسلم وحضر مع رسول الله ﷺ خيبر. وكانت أم شيبه بنت عمير ابن هاشم أخت مصعب العبدى امرأته، وكان الحجاج مكثراً، له مال كثير... فقال: يا رسول الله، ائذن لي حتى أذهب فأخذ مالي عند امرأتي، فإن علمت بإسلامي لم آخذ منه شيئاً. فأذن له رسول الله ﷺ، وقال: لا بد لي يا رسول الله من أن أقول، فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء^(٢)!

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٠١ - ٧٠٢.

(٢) أي أن يقول خلاف الواقع على سبيل التورية، أو من باب الحرب خدعة فيقول ما شاء لخداع قريش.

قال الحجاج: فخرجت فلما انتهيت إلى الحرم . . وجدت رجالا من قريش يستمعون الأخبار ويسألون الركبان . . فلما رأوني قالوا: الحجاج بن علاط - ولم يكونوا علموا بإسلامي - عنده والله الخبر - أخبرنا يا أبا محمد - إنه قد بلغنا أن القاطع^(١) قد سار إلى خيبر، بلد اليهود وريف الحجاز.

قال: قلت: قد بلغني ذلك، وعندي من الخبر ما يسركم. قال: فالتبطوا بجنبي ناقتي^(٢)، يقولون: ايه يا حجاج أخبرنا. فقلت: لم يلق محمد وأصحابه قوما يحسنون القتال غير أهل خيبر، فهزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمد أسرا، وقالوا - أي اليهود - : لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة، فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم.

قال: فقاموا وصاحوا بمكة، وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم!

قال: قلت: أعينوني على جمع مالي على غرمائي، فأنا أريد أن أقدم فأصيب من محمد وأصحابه قبل أن تسبقني التجار إلى ما هنالك. فقاموا فجمعوا إليّ مالي كأحط جمع سمعت به، وجئت صاحبتني وكان لي عندها مال فقلت لها: مالي، لعلي الحق بخيبر فأصيب من - فرص - البيع قبل أن يسبقني التجار إلى من انكسر من المسلمين!

قال ابن إسحاق: قال: فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر، وجاءه عني، أقبل حتى وقف إلى جنبي وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج، ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: قلت: وهل عندك حفظ لما وضعتُ عندك؟ قال: نعم، فقلت: فاستأخر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني أجمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى أفرغ.

(١) القاطع: يعنون قاطع الأرحام، أي رسول الله ﷺ بحسب زعمهم .

(٢) التبط القوم به: أي أطافوا به ولزموه .

قال: حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، وأجمعت الخروج، لقيت العباس.

فقلت: احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت، قال: افعل.

قلت: فإني والله لقد تركت ابن أخيك عروساً على بنت مَلِكهم، يعني «صفية بنت حيي» ولقد افتتح خيبر، وانتثل^(١) ما فيها، وصارت له ولأصحابه. . فاكتم عني. . فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك، فهو والله على ما تحب.

قال: حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلّة له، وتخلّق^(٢) وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رآه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة! قال: كلاً، والله الذي حلفتهم به، لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه! قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءك بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مُسلماً، فأخذ ماله، فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه، فيكون معه. قالوا: يا لعباد الله! انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، فلم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك^(٣).

لقد كان وقع خبر هزيمة اليهود في خيبر شديداً على نفوس قريش، فأذهلهم وأفقدهم صوابهم، ولا شك أنه كان مذهلاً وعجيباً، فإن قريشاً وبحسب حساباتها المادية، ومن خلال الموازنة بين القوتين، لم تكن تتوقع أن تنهار خيبر بهذه السرعة العجيبة، وهي على ما هي عليه من القوة والمنعة والحصانة، ولم

(١) انتثل: استخرج وأخذ.

(٢) تخلّق: تطيب بالخلوق، وهو ضرب من الطيب.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٤٥ - ٣٤٧، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٠٢ - ٧٠٥.

تكن يخطر ببالها أن محمداً ﷺ وأصحابه يبلغون من القوة هذا الشأن العظيم، فسقط ما بأيديهم وأيقنوا حينها أن محمداً ﷺ سيظهر عليهم لا محالة. وقد أيقنوا ذلك عند صلح الحديبية إذ «كان حويطب بن عبد العزى يقول: انصرفت من صلح الحديبية وأنا مستيقن أن محمداً سيظهر على الخلق»^(١) إلا أنهم علقوا آمالهم على هذه الغزوة، فجاءت نتائجها المذهلة مخيبة لآمالهم.

٩ - عوامل انتصار المسلمين في خيبر

لقد انتصر رسول الله ﷺ والمسلمون في هذه الغزوة نصراً عظيماً، أذهل أعداء الإسلام والمنافقين، وقذف في قلوبهم الرعب، وأيقنوا معها أن هذا الدين الذي حاربوه وكادوا له المكائد سوف يظهره الله سبحانه على كل الجزيرة العربية، ومن ثم ينطلق نوره في آفاق العالم أجمع.

وقد كان لهذا النصر جملة من العوامل، اجتمعت فأثمرت نتيجتها عن هذا الانتصار الكبير، وها نحن نودع هذه الغزوة بكل تفاصيلها، لابد لنا من أن نتوقف عند هذه العوامل - وباختصار شديد - لنستعرضها، ونستفيد منها في حياتنا العملية.

أولاً: العامل العسكري:

لقد كان للتخطيط العسكري المنظم الذي خطّطه رسول الله ﷺ لهذه المعركة، وسار عليه أصحابه بدقة أثره الكبير في هذا الانتصار.

لقد استخدم النبي ﷺ عنصر المباغته للعدو فنزل قرب حصونهم ليلاً من دون أن تستطيع اليهود معرفة ذلك، رغم أنها كانت تحسب لغزوها من قبل المسلمين قبل ذلك ألف حساب، وكانت ترسل عيونها وجواسيسها لمعرفة أخبار تحرك المسلمين، إلا أنهم أصبحوا وإذا محمداً ﷺ والخميس على باب حصونهم

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٠١.

فولوا هاريين إلى داخلها .

كذلك نجد النبي ﷺ قبل وصوله إلى حصون خيبر يقطع طريق الامداد عنها، من خلال قطع طريق «الرجيع» الذي يربطها مع حلفائها من قبيلة غطفان، بالاضافة إلى إرسال مفرزة من أصحابه غير مرئية لهم ترسل أصواتاً كأنها تبعث من السماء لترهبهم وتخوفهم وتشلهم عن حركة لنجدة حلفائهم من اليهود .

ثم استخدام طريقة قتالية جديدة تختلف عن أسلوب (الكر والفر) في القتال، كان له دوره في سقوط حصون اليهود الواحدة بعد الأخرى، إذ كانت قوات المسلمين بين من يشاغل بعض الحصون بقوات صغيرة، وبين من يكون مع رسول الله ﷺ ليركز الهجوم على حصن واحد بقواته الرئيسية، حتى يتم الاستيلاء على ذلك الحصن، ثم ينتقل بهجومه المركز إلى حصن آخر .

«فهذه المباغته في المكان والزمان - وهذه الطريقة في حرب المدن والحصون - حالت دون تعاون اليهود مع حلفائهم وضمنت النصر للمسلمين عليهم، بالرغم من استقتالهم ورصانة حصونهم، وتيسر قضاياهم الادارية بشكل متميز للغاية»^(١) .

ثانياً: العامل الغيبي:

عندما نستعرض مفردات هذه الغزوة وحيثياتها، نجد أن هنالك تبايناً واضحاً بين الفئتين المتقاتلتين، تباين في العدد والعدة، وتباين في المنعة والقوة، وفارق كبير في تكافؤ الفرص والامكانات وتهيؤ الأسباب . . مع هذا كله انتصر المسلمون على هؤلاء اليهود هذا الانتصار الباهر وهم في أرضهم وحصونهم وبين أهلهم ونسائهم وذرايعهم مما يشكل عامل دفع كبير لهم للاستبسال والاستماتة . وقد يكون للعامل العسكري الذي تحدثنا عنه دور في هذا الانتصار،

إلا أنّ العامل الغيبي الذي نؤمن به كان له دوره الكبير في هذه المعركة الفاصلة.

لقد تمثل هذا العامل الغيبي في الرعب الذي قذفه الله في قلوب اليهود الذين كانوا من الثقة بأنفسهم إلى حد الانبهار «أبغزونا محمد؟» فلم يكن يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَطَّوْا أَنفَهُمْ مَّا نَعَتْهُمْ خُصُوفُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَانْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسَبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بَيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَكَاؤُلِيَ الْآبَصْرُ﴾^(١)، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقرأ هذه الحقيقة فيقول: «.. ونصرني بالرعب مسيرة شهر»^(٢).

ثالثاً: بطولة علي بن أبي طالب عليه السلام:

مما لا شك فيه أنّ هذه المعركة قد رصدت لنا في أحداثها القتالية أدوار المشاركين فيها، من حيث البطولة والإقدام والاستشهاد، حيث استشهد فيها من المسلمين خمسة عشر رجلاً^(٣)، أو من حيث التخاذل والفرار والتجبن! حيث كانت هنالك أيضاً بعض المواقف التي أشرنا إليها خلال البحث.

إلا أنّه يبقى لعلّي بن أبي طالب عليه السلام دوره الفريد والتميز في هذه الغزوة كما في غيرها من غزوات الرسول ﷺ. وروايات السيرة تقول: «فما رجع حتى فتح الله على يديه» أو «فلم يزل في يده - أي باب حصن خيبر - وهو يقاتل حتى فتح الله عليه»^(٤) أو «فانكشف المسلمون وثبت علي عليه السلام»^(٥).

وقد نقلنا سابقاً قوله عليه السلام في قلع باب خيبر قاله: «ما قلعتُ باب خيبر بقوة

(١) الحشر: ٢ .

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال: المجلد: ١١ الحديث رقم: ٣٢٠٦٧ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٠٠، وابن هشام: ٣ / ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٣٥ .

(٥) الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٥٤ .

جسمانية ولكن بقوة إلهية»^(١).

وهناك نص عنه عليه السلام ينقله الشيخ الصدوق في الخصال يتحدث فيه الإمام عن غزوة خيبر ودوره فيه فيقول: «وردنا مع رسول الله ﷺ خيبر على رجال من اليهود . . فتلقونا بأمثال الجبال من الخيل والرجال والسلاح، وهم في أمنع دار وأكثر عدد، كلُّ ينادي ويدعو ويبادر إلى القتال، فلم يبرز إليهم أحد إلا قتلوه، حتى إذا احمرّت الحديق، ودعيت إلى النزال، وأهّمت كلُّ امرئ نفسه . . وكلُّ يقول: يا أبا الحسن انهض . فأنهضني رسول الله ﷺ إلى دارهم، فلم يبرز إليّ منهم أحد إلا قتلته، ولا يثبت لي فارس إلا طحنته، ثم شددت عليهم شدة الليث على فريسته، حتى أدخلتهم جوف مدينتهم مسدداً عليهم، فاقتلعتُ باب حصنهم بيدي، حتى دخلتُ مدينتهم وحدي، اقتل من يظهر فيها من رجالها، وأسبي من أجد من نساءها، حتى افتتحتها وحدي، ولم يكن لي فيها معاون إلا الله وحده»^(٢).

١٠ - نتائج وآثار غزوة خيبر

لقد كانت لغزوة خيبر نتائج وآثار مهمة جداً على مختلف الأصعدة: الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية.

أولاً: الصعيد الاقتصادي:

فأما على الصعيد الاقتصادي والمعيشي للمسلمين، فإنَّ الغنائم التي تم الحصول عليها في هذه الغزوة كانت من الوفرة والكثرة إلى حد خارج عن الوصف والتعداد، من السلاح إلى الذهب والفضة ونُظُم من الجواهر والزمرد،

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٥١ .

(٢) الصدوق - محمد بن علي بن بابويه (القمي)، الخصال: ٣٦٩ باب السبعة، تحقيق: علي أكبر غفاري، طبعة جامعة المدرسين - قم .

بالإضافة إلى الأراضي الزراعية الغنية بمختلف المحاصيل وأنواع التمور، وقد وزعت كل هذه الغنائم على المسلمين الذين شاركوا في هذه الغزوة، من الرجال والنساء... وبقي هؤلاء المسلمون ومن بعدهم أولادهم وأحفادهم يعتاشون على النصف الذي يأخذونه من محاصيل هذه الأرض، وكان النصف كثيراً أيضاً^(١).

ثانياً: الصعيد العسكري:

لقد منيت اليهود في خيبر بهزيمة عسكرية نكراء تركت آثارها ليس فقط على اليهود أنفسهم - الذين لم تقم لهم قائمة بعد هذه الغزوة - بل على مستوى الجزيرة العربية بأكملها، فلم يبقَ هناك من يشكل خطراً أو تهديداً عسكرياً للدولة الإسلامية، لا قريش ولا حلفاؤها، ولا الشرذمة القليلة من أعراب البادية، الذين كانت تكفي سرية صغيرة من المجاهدين لتأديبهم وردعهم. ولهذا نجد أن وجهة الغزوات الكبرى لرسول الله ﷺ قد توجهت صوب ما وراء حدود الجزيرة العربية كما سوف يأتيها في غزوة مؤتة وغيرها.

ثالثاً: الصعيد السياسي:

لقد كان لليهود في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام كيان سياسي واقتصادي وديني كبير، وكانت لهم الهيمنة السياسية والفكرية والدينية والاقتصادية، ومع ظهور الإسلام، أخذت هيمنتهم الدينية تضمحل وتلاشى بعد كل واقعة من وقائعهم مع المسلمين، وهكذا نفوذهم السياسي والاقتصادي بدأ يضعف ويتضاءل.

وجاءت غزوة خيبر لتقضي قضاء تاماً على كل ما تبقى من تلك القوة السياسية والاقتصادية والدينية وتحولوا إلى أجراء وأيدي عاملة بيد المسلمين، حتى انمحت آثارهم بعد ذلك بالكامل.

(١) للتوسع في حجم هذه الغنائم وكثرتها انظر: الواقدي، المغازي: ٢ / ٦٧٣ و ٦٨٨ وما بعدها.

يقول ولفنسون: «وعلى كل حال، فقد قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود السياسي، في البلاد الحجازية قضاءً نهائياً، بعد أن قضوا عصوراً طويلة، وهم يتمتعون به ويتفأون ظلاله، فأخذت حالتهم الاقتصادية تتدهور شيئاً فشيئاً حتى وصلوا إلى الدرك الأسفل من الفقر والفاقة، وقد فقدوا ما كان لهم من تأثير ونفوذ على العرب في الجزيرة العربية»^(١).

وينبغي أن نذكر مرة أخرى بأن النبي ﷺ لم يحارب اليهود كمواطنين عاديين، وإنما حاربهم ككتل سياسية أو عسكرية لها برنامجها السياسي والعسكري المناوئ للدولة الإسلامية، ولهذا ظل اليهود في المدينة وخارجها بعد غزوة خيبر والوقائع التي سبقتها يمارسون حياتهم وحقوقهم في إطار الدولة الإسلامية، التي وفرت لهم الحماية والأمن والاستقرار، فلم يكن يجرأ أحد أن يمسهم بسوء أو يعتدي عليهم، بل في نص البلاذري في فتوح البلدان: «أنَّ رسول الله ﷺ كتب إلى معاذ بن جبل وهو باليمن . . «وإن لا يفتن يهودي عن يهوديته»^(٢) وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين إذ لم يكلفوا إلا بدفع الجزية، وبقوا متمسكين بدين آبائهم»^(٣).

مصير يهود خيبر وفدك بعد وفاة رسول الله ﷺ

ونحن نختم درسنا هذا لابد من الإشارة إلى أن يهود خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى، قد بقوا في أراضيهم حياة رسول الله ﷺ وفترة خلافة أبي بكر، وشطراً من خلافة عمر بن الخطاب، وبحسب ما تصالحو عليه مع رسول الله ﷺ من نسبة النصف من نتاج أرضهم ونخيلهم . . .

إلا أن عمر بن الخطاب قرر إجلاءهم عن جزيرة العرب، مستنداً إلى

(١) ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٣١٧ .

(٢) البلاذري، فتوح البلدان: ٨٢ .

(٣) المصدر نفسه: ٩٠ - ٩١ .

حديث قيل إن رسول الله ﷺ قاله وهو في مرضه الذي توفي فيه: «لا يجتمع بجزيرة العرب دينان» فأرسل على يهود الحجاز فقال: «من كان منكم عنده عهد من النبي ﷺ فإني مُجليه، فإن الله عز وجل قد أذن في جلائهم - هكذا - فأجلى عمر يهود الحجاز»^(١).

وفي رواية أخرى للواقدي عمن حدثه عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه عبد الله بن عمر، يذكر فيه أن سبب إجلاء اليهود هو اعتداؤهم على ولد عمر بن الخطاب وكسر يده من قبل اليهود، وهو عندهم يتعاهد أموال والده في خير، «فقدم ابن عمر المدينة فأخبر أباه بما صنع به.. فقام عمر خطيباً وقال: أيها الناس، إن اليهود فعلوا بعد الله ما فعلوا.. فمن كان له بها مال فليخرج فأنا خارج، فمقاسم ما كان بها من الأموال.. ومجلي اليهود منها..»^(٢).

وفي رواية الحلبي: «فأجلى - أي عمر - يهود خيبر.. وأجلى يهود فذلك.. ولم يُخرج يهود وادي القرى وتيماء لأنها من أرض الشام»^(٣).

ومهما يكن من أمر، فإن ما قام به عمر بن الخطاب قابل للمناقشة من جهات عديدة، فلا الحديث الذي نُسب لرسول ﷺ يمكن تصديقه والاستناد عليه، لأسباب كثيرة معروفة عند أهل الدراية والرواية للحديث، ولا الاعتداء على ولده عبد الله مبرّر لاجلاء اليهود ومعاقبتهم عقاباً جماعياً لجناية لا يعرف من ارتكبتها، هل هم اليهود أم غيرهم؟

والذي يبدو أن أمر اجلاء اليهود الذي اتخذه عمر بن الخطاب ما هو إلا أحد اجتهاداته التي انفرد بها وما أكثرها في هذا المجال^(٤).

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧١٧، وابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٧١٦ و ٣ / ٣٥٧.

(٣) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٨٥.

(٤) للتوسع انظر: الصحيح من السيرة: ٨ / ١٩١ إلى ٢١٥.

١١ - الدروس والعبر

بعد هذه الجولة الممتعة في واقعة غزوة خيبر، وما تمخضت عنها من نتائج وآثار، لابد لنا من التوقف عند بعض المقاطع لاستخلاص الدروس والعبر والعظات منها:

أولاً: اختيار الزمان والمكان والاستعداد للمواجهة:

لقد لاحظنا في هذه الغزوة - كغيرها من غزوات الرسول ﷺ - حسن الاستعداد واختيار الزمان والمكان المناسبين للمعركة، واستخدام كل الوسائل المتاحة لمباغطة العدو في عقر داره . . .

وفي كل خطوة من هذه الخطوات المحمدية النبوية درس كبير للقادة وللقاعدة حيث نجد البعض يختار المواجهة ولكنه لم يستعد لها، أو يستعد لها ولكن لا يحسن استخدامها، أو نجده يختار الزمان والمكان ومن دون أن يحسن هذا الاختيار . . أو أنه يستعجل قطف ثمار النصر قبل أوانها، فتأتي دائماً النتائج عكسية في شوط المواجهة الطويل مع العدو الذي قد يكون أكثر تخطيطاً واستعداداً وجهوزية للمواجهة. ونماذج ذلك شاخصة أمامنا في صراعنا الطويل مع الاستكبار العالمي، والعدو الاسرائيلي ولم ننتصر إلا في الحالات التي كنا فيها على مستوى الايمان والاستعداد وحسن الاختيار . . وهذا ما تحقق في مواجهة حزب الله لإسرائيل أخيراً.

ثانياً: عوامل وأسباب الانتصار:

عندما نستعرض عوامل الانتصار في هذه الغزوة ونتأمل فيها جيداً، نجدها عوامل مترابطة، لا يمكن التفكيك بينها، فالتخطيط الجيد، والتوكل على الله سبحانه، وشجاعة وبطولة الرجال، أو الافراد الذين يشكلون أمة في فردانيتهم كعلي عليه السلام، وفي المقابل نجد اليهود قد فككوا بين أسباب النصر وقطعوا

صلتهم بالله، واكلوا على حصونهم المنيعة في ذرى الجبال! فاندكت حصونهم على رؤوسهم ولم تفدهم شيئاً!

ثالثاً: اخلاص علي عليه السلام وتفانيه:

لقد سجلت هذه المعركة وغيرها من معارك الرسول صفحات عز وبطولة وتفاني واخلاص لعلي بن أبي طالب عليه السلام، كل ذلك حباً لله ولرسوله ﷺ واخلاصاً ووفاء لعقيدته ودينه، وابتعاداً عن كل شائبة رياء أو تظاهر أو حب للرياسة والزعامة. فأعطاه الله المكانة والمنزلة الرفيعة، وجعل محبته في قلوب المؤمنين راسخة لا تتزعزع، فهل لنا أن نفتدي بعلي في عملنا وجهادنا علناً نحصل على قبس من صفحات مجده. أو على الأقل نتشبه بعلي عليه السلام «فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم».

رابعاً: ترابط عناصر الدعوة إلى الله والجهاد وهداية الناس:

عندما نتأمل في كلمات الرسول الأكرم وهو يعطي راية الجهاد لعلي عليه السلام ليذكر حصون خيبر، نجده يقول له: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمُر النعم» أو «خير لك من الدنيا وما فيها».

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الترابط القوي بين عنصر الجهاد والقتال في سبيل الله، وبين الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهداية الناس وإرشادهم، بل إن الجهاد بنفسه صيغة أخرى من صيغ الدعوة إلى الله، ويخطأ من يتطرف ويسمي قتل الناس جهاداً، ويغفل عن عنصر الهداية والدعوة، أو أن يجعل بينها فواصل زمنية محددة!

خامساً: صفة الرحمة والإنسانية في شخصية النبي ﷺ:

لقد جسّد رسول الله ﷺ صفة الإنسانية والرحمة في مفردات حياته الكريمة، فكان بحق كما وصفه ربه «رحمة للعالمين» أو كما يقول ﷺ عن نفسه:

«أنا رحمة مهداة»^(١).

وقد لاحظنا ذلك في بعض المواقف التي سجلتها أقلام المؤرخين لهذه الغزوة، من تعامله مع اليهود وقرارهم في أرضهم، إلى ارجاع ما يعتزون به ويعتقدونه من كتبهم وتوراتهم إليهم، إلى تعامله الإنساني مع أسرائهم، التي سجل فيها كلمة خالدة ترددها الإنسانية المعذبة المقهورة على مدى الدهور والأزمان: «أنزعت منك الرحمة يا بلال...».

وفي هذا السلوك الأخلاقي العالي وهذه الإنسانية والرحمة، درس كبير لمن أراد أن يقتدي برسول الله ﷺ ليصل إلى سعادة الدنيا والآخرة (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ).

وهناك الكثير الكثير من الدروس والعبر في هذه الغزوة، وفي هذا الفتح الكبير العظيم الذي منَّ الله تعالى به على رسوله وعلى المسلمين فالتأمل فيها، ولناخذ منها زاد المسير إلى الله في طريق الكدح إليه سبحانه.

الأسئلة:

- ١ - متى وقعت غزوة خيبر؟ وما هي أهم أسبابها؟
- ٢ - ما هي الترتيبات والاستعدادات العسكرية التي اتخذها النبي ﷺ لهذه الغزوة؟
- ٣ - ما هو دور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذه الغزوة؟
- ٤ - كيف تهاوت حصون اليهود في خيبر؟
- ٥ - لماذا صالح النبي ﷺ يهود خيبر على البقاء في أرضهم ولم يجلبهم منها؟
- ٦ - كيف تصف المغانم التي حصل عليها المسلمون في خيبر؟
- ٧ - ما هو ملخص قصة فدك في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته؟
- ٨ - لماذا كانت قريش تهتم كثيراً وتتطلع إلى معرفة نتائج معركة خيبر؟
- ٩ - ما هي أهم عوامل انتصار المسلمين في خيبر؟
- ١٠ - ما هي أهم نتائج ومكاسب معركة خيبر؟
- ١١ - ما هي أهم الدروس والعبر التي تستفاد من غزوة خيبر؟ اذكرها باختصار.

الدرس الثاني والعشرون

أحداث السنة السابعة من الهجرة

عالمية الإسلام: مراسلة الملوك والأمراء

مباحث البحث:

تمهيد: عالمية الرسالة الإسلامية

- ١ - ملاحظات عامة حول مكاتيب النبي ﷺ ورسائله
 - ٢ - خصائص رسائل النبي ﷺ ومكاتيبه
 - ٣ - تاريخ رسائل النبي ﷺ ومكاتيبه إلى الملوك الستة
 - ٤ - نصوص رسائل النبي ﷺ إلى الملوك وردود أفعالهم
 - ٥ - الخارطة السياسية لرسائل ومكاتبات النبي ﷺ
 - ٦ - نتائج وآثار رسائل وكتب النبي ﷺ إلى الملوك
 - ٧ - الدروس والعبر
- الأسئلة

مراسلة الملوك والأمراء

تمهيد: عالمية الرسالة الإسلامية

لقد أمنت صلح الحديبية للمسلمين المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية (مكة وما حولها) والتي كانت قريش وحلفاؤها يشكلون مكنم الخطر فيها، إلا أن المنطقة الشمالية التي يسكنها اليهود وحلفاؤهم من غطفان وأسد كانت تمثل الخطورة الكبرى، ولم يمكن أن تأمن من خلال صلح أو ميثاق كما حصل مع قريش. ولهذا كانت غزوة خيبر ونتائجها التي أمنت المنطقة الشمالية بكاملها، وتحولت القوة اليهودية إلى تجمعات بشرية مسالمة لا تمتلك أي تأثير كبير في مناطق الجزيرة العربية، وكانت تحت سيطرة المسلمين بشرياً وجغرافياً.

ولهذا كله أصبحت الظروف الموضوعية مؤاتية ومهيأة لرسول الله ﷺ للانطلاق برسالة الإسلام والدعوة إلى التوحيد إلى خارج الجزيرة العربية، وإلى العالم كله حيث يعيش الناس في أهواء وديانات متفرقة، وتحت وطأة حكام الجور والاستبداد والعبودية، فلا بد من دعوتهم إلى التوحيد، وتحريرهم من نير عبودية الحكام.

ومن البديهي أن رسالة الإسلام رسالة عالمية لا تنحصر في رقة جغرافية محددة، كذلك رسالة النبي ﷺ ودعوته دعوة عالمية وللناس كافة، ولا يمكن حصرها بسكان الجزيرة العربية، وهذا ما جسده الآيات القرآنية التي تحدثت عن رسالة النبي ﷺ والمُرسل إليهم، ومحتوى هذا الدين الذي ختم الله به أديانه السماوية، وختم بهذا النبي ﷺ أنبياء ورسله إلى البشرية.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(١).

ويقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٢).

إلى غيرها من الآيات الكثيرة التي تشهد بعالمية الإسلام ودعوة النبي ﷺ.

ومن أجل ذلك كانت رسائل النبي ﷺ ومكاتيبه قد انطلقت من السنة السابعة من الهجرة وإلى أواخر أيام حياته الشريفة، لتشمل الملوك والأمراء ورؤساء القبائل، والرموز الدينية من اليهود والنصارى والمجوس، والشخصيات المؤثرة في مجتمعاتها.

وتشكل هذه الرسائل، وما وصلنا منها، وثائق تاريخية مهمة، ترسم لنا معالم الخطوط السياسية للمعاهدات والمواثيق التي انتهجها النبي ﷺ في سياسته الخارجية.

وسوف نتوقف عند بعض الملامح الأساسية لهذه الرسائل بشكل عام، ونتحدث بإيجاز عن أهم الرسائل التي بعثها ﷺ في السنة السابعة من الهجرة، والرقعة الجغرافية والسياسية والدينية التي شملتها هذه الرسائل.

١ - ملاحظات عامة حول مكاتيب النبي ﷺ ورسائله

هنالك جملة من الملاحظات حول هذه الرسائل من حيث مصادرها التاريخية، ودرجة وثاققتها، ومن حيث عددها التقريبي الذي وصلنا منها. .
وغيرها من الملاحظات التي لا بد من وقفة قصيرة عندها.

(١) سبأ: ٢٨ .

(٢) التوبة: ٣٣ .

أولاً: المصادر التاريخية لهذه المكاتيب والرسائل للنبي ﷺ:

لقد كانت ولا زالت رسائل النبي ﷺ وكتبه وعهوده ومواثيقه مورد عناية واهتمام المؤرخين وكتاب السيرة والمحدثين، بل حتى المستشرقين من غير المسلمين اهتموا بهذه الكتب والرسائل، فعملوا عليها كثيراً ونشروا نصوصها بعد اكتشافها من مصادرها وبعد تحقيقها وفق المنهج العلمي في تحقيق النصوص.

إلا أنّ هذه المصادر التاريخية تتفاوت في مقدار ما تنقله من هذه الرسائل، وفي دقتها في النقل.

ففي الوقت الذي لا نجد تلك العناية الكافية من قبل ابن إسحاق والواقدي في استيعاب هذه الرسائل والمكاتيب، فلا نجد فيها إلا بعض هذه الرسائل أو مقاطع منها، وذكرت استطراداً ضمن سياق بعض الغزوات والأحداث.

نجد ابن سعد، في كتاب الطبقات يوليها عناية فائقة ويفرد لها باباً من كتابه تحت عنوان: «ذكر بعثة رسول الله ﷺ الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوههم إلى الإسلام، وما كتب به رسول الله ﷺ للناس من العرب وغيرهم» فيروي عن مجموعة من الرواة العشرات من هذه الرسائل والكتب، بحسب تسلسلها الزمني^(١).

ولهذا يقول البروفيسور محمد حميد الله في كتابه القيم مجموعة الوثائق السياسية... «أكبر مصادرنا للوثائق النبوية هو «طبقات ابن سعد». . فقد اجتهد مؤلفه أن يجمع من المواد أكثر ما يمكن، ولكنه لم يعتنِ بالنقد والتنقيح»^(٢).

إلا أنّ ابن سعد أيضاً لم يستوعب جميع رسائل النبي ﷺ ومكاتيبه، وبقيت الكثير منها في الكتب التاريخية الأخرى، أو الكتب التي عنيت بالجانب

(١) انظر: طبقات الكبرى لابن سعد: ١ / ١٢٤ إلى ١٤١ .

(٢) حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي: ٢٩ .

الاقتصادي والذي كانت تعرف قديماً بكتب «الخراج» أو «الأموال» مثل كتاب الخراج لأبي يوسف، أو كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام.

وهذا لا يعني أنّ المؤرخين قبل ابن سعد المتوفى سنة (٢٣٠هـ) لم يولوا عناية بهذه الكتب والرسائل كتابة وتدويناً، «فإنّ الاعتناء بتلك الوثائق قديم جداً، وكثيراً ما ذكر الرواة والمؤلفون انهم نقلوا كتاب كذا من الأصل المحفوظ عند عائلة من كُتب إليه»^(١).

وقد وصلتنا بعض الكتب التي عنيت برسائل النبي ﷺ وهي سابقة على طبقات ابن سعد «وأظن أن أول تأليف خصّ بهذا هو مجموعة «عمرو بن حزم» من وضع أبي جعفر الدبيلي. . . وهناك كتاب آخر شاع في حياة الإمام الزهري (المتوفى سنة ١٢٤هـ) «فبعث به يزيد بن أبي حبيب المصري إلى ابن شهاب الزهري مع ثقة من أهل بلده فعرفه ولم ينكره»^(٢).

إلا أنّ هذه الكتب والمؤلفات لم يبقَ لنا منها أثر يذكر ويبقى المصدر الأساسي لهذه الرسائل هو ابن سعد في طبقاته، مع ملاحظة ما ذكرنا من عدم استيعابه لجميع الرسائل والمكاتيب النبوية، بالإضافة إلى عدم نقده وتقويمه لنصوصها.

أمّا المستشرقون فقد كانت لهم عناية خاصة بهذه الرسائل وعملوا على تحقيق قسم منها ونشرها وترجمتها وكتابة البحوث العلمية عنها «فقبل أن تنشر طبقات ابن سعد كاملة عني المستشرق ويلهاوزن بنشر الباين المشتملين على كتب النبي ﷺ، وذكر الوفود عليه مع ترجمتها إلى الألمانية والتعليق عليها، كما خصّ العهد الذي كتبه النبي ﷺ للمهاجرين والأنصار واليهود في المدينة ببحث

(١) المرجع نفسه: ٢٤ .

(٢) المرجع نفسه: ٢٥ نقلاً عن الطبري في تاريخ الأمم والملوك .

خاصّ، ونجد أيضاً في كتب تاريخ الإسلام الأوربية ترجمة عدّة من هذه الوثائق أو تذكّرة لها، كما في السيرة النبوية «لأشبرنكر» بالألمانية، أو في حوليات الإسلام لكيتاني (بالطليانية) وغيرهما. وقد بحث كيتاني بحثاً خاصاً في أمر رسائل النبي ﷺ إلى الملوك، وهناك عدّة من كتب أخرى باللغات الغربية»^(١).

ومن الجهود القيمة في مجال جمع هذه الرسائل والمكاتيب النبوية هو ما قام به البروفيسور الهندي محمد حميد الله الذي نشر ترجمة فرنسية لما جمعه من الوثائق التي ترجع إلى العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين، وقدم لها ببحث مطوّل عن قيمتها التاريخية وما يمكن أن يستنتج منها لفهم الأحوال السياسية في ذلك العصر، وقد حصل الباحث على درجة الدكتوراه من جامعة باريس في سنة (١٩٣٥م)، وكانت أطروحته نفس الوثائق النبوية التي جمعها وترجمها. ثمّ قام بعد ذلك بنشر النصوص الأصلية لهذه الوثائق وبنفس اللغة التي كتبت بها «العربية»، ثمّ أخذ يضيف عليها نصوصاً أخرى مما وجدته متأخراً، وقد طبع كتابه (مجموعة الوثائق السياسية للعصر النبوي والخلافة الراشدة) عدة طبعات آخرها الطبعة الخامسة عن دار النفائس في بيروت (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) والكتاب جهد قيّم ومن المصادر المهمة في موضوعه.

وهناك كتاب ثاني في موضوع مكاتيب الرسول ﷺ لا يقل أهمية عن كتاب حميد الله، بل يزيد عليه بجملة من البحوث والتحقيقات القيمة وإن كانت بعضها لا تدخل في موضوع الكتاب وإنما ذكرت استطراداً، والكتاب عنوانه «مكاتيب الرسول» للعلامة الشيخ علي الأحمد المياني. الذي بذل جهداً كبيراً في جمع هذه المكاتيب من مصادرها المتفرقة ونشرها سنة (١٣٧٩هـ). ثمّ أخذ بتتيممه وتكميله فجمع إليه بعد الطبع ماعثر عليه من رسائل ومكاتيب بالاضافه

إلى البحوث التاريخية والأدبية التي شحنت به كتابه الذي يقول عنه (رحمه الله): «ولئن قلت إنّ هذا الكتاب المتواضع حصيلة عمري منذ عام (١٣٦٩هـ) إلى (١٤١٨هـ) لم أقل جزافاً»^(١).

والكتاب جهد قيم، وفيه استدراكات كثيرة لما فات صاحب كتاب «الوثائق السياسية» كما أنّ صاحب كتاب «الوثائق السياسية» عثر على بعض النصوص التاريخية المتعلقة برسائل النبي ﷺ من جامعات ومتاحف العالم، لم تصل إليها يدا الشيخ الأحمدي (رحمه الله).

فهذان الكتابان القيّمان يكمل أحدهما الآخر ولا يستغنى عنهما في موضوعهما الأوحد وهو «رسائل النبي ﷺ ومكاتيبه» أو «الوثائق والمكاتيب النبوية». وهنالك بعض المؤلفات الأخرى التي تناولت الموضوع من بعض جوانبه.

ثانياً: ضياع الوثائق الأصلية لمكاتيب ورسائل النبي ﷺ:

لم يكن للإسلام قبل العهد المدني دولة، فضلاً من أن يكون لها روابط وعلاقات خارجية، والأمر الوحيد الذي تم في العهد المكي على مستوى السياسة الخارجية هو الرسالة التي بعثها النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، مع المهاجرين إليها بقيادة جعفر بن أبي طالب، حيث أوصى النبي ﷺ النجاشي بهم خيراً^(٢)، بالإضافة إلى ما تم في موسم الحج في السنتين الأخيرتين قبل الهجرة بما يعرف ببعتي العقبة اللتين مهدتا لقيام الدولة الإسلامية في المدينة، إلاّ انهما لم تكتب في قرطاس ولم تؤخذ إلاّ سرّاً، وما نقل لنا منهما اعتمد الرواية الشفوية.

(١) مكاتيب الرسول: ١ / ٦ من مقدّمة المؤلف للطبعة الجديدة المنقحة، دار الحديث - قم، الطبعة الأولى، (١٩٩٨م).

(٢) حميد الله، مجموعة الوثائق: ١٠٠.

إلاَّ أنَّ العهد المدني قد شهد تأسيس دولة إسلامية بقيادة النبي ﷺ ، والدولة تحتاج إلى عهود ومواثيق تنظم العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، فكانت وثيقة العهد المعروفة التي تمثل في حينها الدستور الأساسي للدولة الإسلامية ، وكان رسول الله ﷺ يحرص عليها ويحملها معه «إن وثيقة دستور دولة المدينة ، مع ذكر المعامل والديات ، كانت معلقة بسيف النبي ﷺ ، وبعد وفاته كان السيف وما عليها عند سيدنا علي بن أبي طالب»^(١) .

ثمَّ تطور الأمر شيئاً فشيئاً ، فاحتاج الأمر إلى تنظيم معاهدات ومواثيق بين المسلمين وقريش فكان صلح الحديبية ووثيقة الصلح التي تحدثنا عنها ، ثمَّ تطورت الأمور أكثر بعد الحديبية وخير ، فاحتاج الأمر إلى كتابة الرسائل وإرسال الدعاة إلى الملوك والأمراء . . وكان النبي ﷺ يحرص على كتابة جميع محالفاته ومعاهداته مع القبائل ، فضلاً عن رسائله إلى الملوك والأمراء والشخصيات ، إذ لم يعتمد الرسائل الشفهية ، وقد مرَّ بنا نموذج ذلك في صلح الحديبية؛ إذ كتب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وثيقة الصلح ، ووقع عليه جملة من الصحابة بعد توقيع رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو ، ثمَّ أعطى الرسول ﷺ نسخة من الوثيقة لسهيل بن عمرو واحتفظ بنسخة لنفسه .

إلاَّ أنَّ ما يؤسف له حقاً ضياع أصل هذه الوثائق الكثيرة ، ولم يصلنا منها سوى أصل اثنتين أو ثلاث من تلك الوثائق ، «يقال : إنَّ أمير المؤمنين ممن كانت عنده نسخ العهود والمواثيق ملء صندوق ، ولكنها احترقت حين احترق الديوان يوم الجماجم سنة (٨٢) للهجرة»^(٢) .

والذي نطمئن اليه أنها أُحرقت وليس احترقت!! كما أُحرقت من قبل

(١) المرجع نفسه ، المقدمة : ج .

(٢) حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية : ١٤ .

أحاديث رسول الله ﷺ كما هو معروف تاريخياً^(١) ثم جاءت صروف الزمن وغزوة التتار لتقضي على ما تبقى من آثار النبوة بالاضافة إلى تساهل المسلمين بعدم حرصهم على الاحتفاظ بهذه الوثائق، فنحن أمة لا تحترم تراثها الحضاري والفكري!!

والذي يدعوللعجب والدهشة حقاً أن نجد من غير المسلمين، ومن المستشرقين بالذات من هو أحرص من المسلمين على هذه الوثائق والرسائل، بل وأكثر حرصاً في الاحتفاظ بها ونشرها، وقد أشرنا إلى ذلك قبل قليل في النقطة الأولى، ونشير هنا إلى ما قاله صاحب كتاب مجموعة الوثائق السياسية: «والواقع انه لم يصل إلينا إلا أصل اثنين أو ثلاث من تلك الوثائق، أولها كتاب النبي إلى المقوقس، الذي وجده المستشرق الفرنسي بارتيملي في كنيسة قرب أخميم في مصر. والثاني كتاب النبي إلى المنذر بن ساوي، الذي كان المستشرق الألماني فلايشر نشر صورته. والثالث كتاب النبي إلى النجاشي، الذي ينوي المستشرق دنلوب الانكليزي نشره»^(٢).

ومن طريف ما ينقله هذا الباحث انه تم العثور على أصلين آخرين لرسائل النبي ﷺ وهما: رسالة النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، ورسالته ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عُمان.

أما كيفية العثور على هذين الأصلين فيقول الباحث: «أما أصل مكتوب «جيفر» فقد نشرت صورته الشمسية إحدى جرائد تونس، رأيتها عند بعض الاخوان في باريس في السنة (١٤٠٠هـ)، بدون أن أعرف اسم الجريدة أو تاريخ نشرها».

(١) للتوسع انظر: الجلاي، تدوين السنة النبوية.

(٢) حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية: ٢٤.

فهذا الأثر القيم الذي هو من آثار النبي ﷺ ، ووثيقة مهمة من وثائق العهد النبوي تتداولها الأيدي وتنشر في صحيفة من دون أن يعرف أحد من أين جاءت وكيف اختفت ومن الذي يحتفظ بها الآن!

وعن الرسالة الثانية فيقول الباحث: «وأما أصل مكتوبه ﷺ إلى هرقل فلا نعرف كيف وصل إلى الملك عبد الله - الأول - ملك الأردن، فكان عنده ثم عند بعض جواريه!! وبعد وفاته أخذته معها إلى سويسرا، وباعته من سلطان أبي ظبي، ولما علم ذلك الملك الحسين ملك الأردن، استدل بحق شفيعته، فقبله صاحب أبي ظبي . . ، فرجع أصل المکتوب الشريف إلى عمّان وهو محفوظ هناك»^(١).

والذي يبدو أن هذه الجارية المؤتمنة على ودائع النبوة!! لم تكن مسلمة إذ إنها سافرت إلى سويسرا بعد وفاة الملك حيث أرصدها المالية في بنوك ذلك البلد. كذلك يبدو أنها كانت تعرف القيمة المالية لهذه الوثيقة، ولهذا باعتها إلى سلطان أبي ظبي، ولا ندري كم دفع لها من المال مقابل هذه الوثيقة المهمة.

أليس هذا الأمر يدعو للعجب والاستغراب فكيف يودع ملك من الملوك المسلمين وثيقة مهمة من وثائق النبي ﷺ لجارية من جواريه من غير المسلمات على ما يبدو؟ ألم يكن من الأحرى حفظ هذا الأثر في مكانه اللائق به، أو إيداعه في أحد المتاحف؟ أو أحد بنوك الائتمان، كما يودعون أموالهم وذخائرهم!

ومهما يكن من أمر، فعدد الأصول الأولية التي عُثر عليها من رسائل النبي ﷺ لا تتجاوز هذا العدد الذي ذكره هذا الباحث ولا ندري إن كان عثر على غيرها بعد ذلك.

ثالثاً: رسائل النبي ﷺ ومكاتيبه من خلال رواية الرواة والمحدثين والمؤرخين:

بعد ضياع أصول رسائل النبي ﷺ إلا النزر اليسير منها، لابد من الرجوع إلى رواة الحديث والمؤرخين الذين أخذوا عنهم رواية هذه الرسائل، وهنا تبرز لدينا جملة من الاشكالات الفنية المعروفة في علم الرجال ودراية الحديث، في كيفية تقويم الرواية، ومدى وثاقة الراوي، وصحة نسبة الرسالة إلى النبي ﷺ وإلى غيرها من المشاكل الفنية التي لا يمكن لنا استيعابها في هذه السطور القليلة.

ورغم ما بذله الرواة والمؤرخون من جهود قيمة في رواية وتدوين هذه الرسائل، إلا أننا نجد الاختلاف الكبير في نصوصها من راوي إلى راوي آخر، ومن مصدر تاريخي إلى مصدر تاريخي آخر، وقد بذل الباحث حميد الله في كتابه «مجموعة الوثائق السياسية...» جهوداً كبيرة في جمع شتات هذه الروايات والاشارة إلى مصادرها، مع الاشارة إلى بعض الكتب المنسوبة إلى النبي ﷺ والتي لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها وعامل الوضع والاختلاف فيها قوي.

يقول الباحث في بيان منهجه في التعامل مع المصادر التي اعتمد عليها: «قد تصدينا... لا يراد كل وثيقة في هذه المجموعة على حسب رواية أقدم المصادر عسراً مع ضبط جميع الاختلافات اللفظية والترتيبية وغيرهما على حدة. وسيرى الناظر أن أكثر هذه الاختلافات تنتج من الرواية بالمعنى أو من استبدال حرف ربط بحرف آخر... ونجد أيضاً في بعض هذه الوثائق تقديماً وتأخيراً في رواية بعض كلمات. وهناك كثير من الوثائق لا تذكر كاملة إلا في بعض المصادر، وتكتفي المصادر الأخرى بذكر، بعضها أو الإشارة إلى الأحكام المندرجة فيها...»^(١).

هذا جزء يسير من الاشكالات العلمية في كيفية التعامل مع الروايات

(١) المرجع السابق: ٢٩، وانظر حديثه عن معيار الوضع والصحة في المصدر نفسه: ٣١.

الحاكية للرسائل والمكاتيب النبوية، وقد تكون هنالك اشكالات علمية أخرى أكثر تعقيداً من التي ذكرها هذا الباحث.

رابعاً: موضوعات وعدد ولغة مكاتيب الرسول ﷺ ورسائله:

تنقسم مكاتيب ورسائل النبي ﷺ من حيث الترتيب الموضوعي لها إلى قسمين رئيسين:

الأول: مكاتيبه في علومه ﷺ التي أملاها على عليّ أمير المؤمنين ﷺ، وكتبها عليّ ﷺ بخطه الشريف.

الثاني: مكاتيبه ﷺ في الدعوة إلى الإسلام، وإلى حكمه في بيان وظائفهم، وفي الوثائق وفي العهود والأمانات والإقطاعات، وكتبه ﷺ في المواضيع المختلفة.

يقول الأحمدي: «وقد بلغ ما عثرنا عليه في هذا القسم (٢٥٥) كتاباً مما لم تصل إلينا ألفاظها و(٢٩٩) مما وصلتنا ألفاظها هذا ما عدا ما نقلنا من الكتب المفتعلة المنسوبة إليه ﷺ والكتب التي لم تكتب»^(١).

وهذا العدد يفوق بكثير عما ذكره ابن سعد في الطبقات الذي لم تصل مرويات كتب ورسائل النبي ﷺ عنده إلى المائة. أما صاحب كتاب وثائق العهد النبوي فلم يتعرض إلى القسم الأول من هذه الرسائل التي تختص بعلومه التي خص بها أمير المؤمنين ﷺ وإنما جرى في تقسيمه على أساس عهدي رسالة النبي ﷺ العهد النبوي قبل الهجرة والعهد النبوي بعد الهجرة.

ثم قسم هذه الرسائل بكلا قسميها إلى سبعة أقسام بحسب ما تناولتها من موضوعات والتي منها موضوع الدعوة إلى الإسلام^(٢). ولم يذكر عدداً محدداً

(١) الأحمدي، مكاتيب الرسول: ٧، المقدمة.

(٢) حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية: ٥ و ٢٨.

لمجموع هذه الرسائل والمكاتيب التي يعبر عنها بالوثائق السياسية للعهد النبوي، إلا أنه بذل جهوداً كبيرة في البحث عن هذه الوثائق في متاحف العالم، والمكتبات العامة والشخصية.

أما اللغة التي استخدمت في كتابه الرسائل النبوية، فمما لا شك فيه أنها كانت اللغة العربية، ولم يكتب رسول الله ﷺ أي رسالة، أو عهد أو وثيقة بغير العربية، رغم أن بعضهم يقول إنه ﷺ: «كان يخاطب كل قوم بلسانهم على اختلاف لغاتهم، وتراكيب جملهم»^(١) وقد استدل على هذه المعرفة الواسعة باللغات بأنه ﷺ: «كان مبعوثاً إلى الناس كافة، فعلمه الله لغاتهم وعرفه كلماتهم لاتمام الحجة - ولله الحجة البالغة - وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾»^(٢).

ولكن على فرض صحة هذه الفرضية، وأن رسول الله ﷺ قد أعطي الكمالات التامة من ربه، إلا أن الوثائق التي تحكي لنا رسائله وكتبه وعهوده ومواثيقه لانجد فيها غير اللغة العربية، مما يجعلنا في شك من صحة الروايات القائلة بأن «زيد بن ثابت الأنصاري» - كان - يكتب إلى الملوك، ويجب بحضرة النبي ﷺ وكان يترجم للنبي ﷺ بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية»^(٣) فإن كانت كتب النبي ﷺ إلى غير الناطقين بالعربية وكان يعرف جميع اللغات، فما حاجته إلى المترجم العارف بتلك اللغات؟ أما لماذا كتب إلى غير الناطقين بالعربية من الملوك «كقيصر وكسرى والنجاشي» بالعربية، ولم يكتب لهم بلغاتهم الخاصة بهم؟

(١) الأحمدي، مكاتيب الرسول: ١ / ٨٠ .

(٢) إبراهيم: ٤ .

(٣) الأحمدي، مكاتيب الرسول: ١٣٠ عن المسعودي في التنبيه والإشراف .

فمن الواضح أن العربية هي لغة القرآن الكريم الذي نزل (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) - مع إنه كتاب هداية للناس كافة - ولغة الإسم ومفاهيمه وقيمه ومثله، ويمتلك قابلية التعبير عن هذه القيم والمفاهيم والمثل بما لا تمتلكه أي لغة أخرى من اللغات الحيّة.

ولهذا أراد النبي ﷺ - على ما يبدو - أن تسود هذه اللغة لتكون المعبر عن تعاليم هذا الدين وقيمه ومفاهيمه، وتكون القاسم المشترك بين الشعوب الإسلامية ومظهراً من مظاهر الدين الإسلامي الحنيف.

«وكأنه ﷺ يلاحظ جانب الإسلام وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وأن لغة القرآن لابد وأن تنتشر وتعمّ العالم، لأن القرآن كتاب للعالم، فعظمة القرآن وعموم دعوته وعظمة النبي الأقدس ورسالته العالمية تقتضي أن يكتب إليهم بلغة القرآن»^(١).

٢ - خصائص رسائل النبي ﷺ ومكاتيبه

لقد تميّزت كتب ورسائل النبي ﷺ بخصائص فريدة، لا نجدها في غيرها من رسائل الفصحاء والبلغاء الذين وصلتنا بعض آثارهم الأدبية والنثرية.

ومن أهم هذه الخصائص:

أولاً: بلاغتها وفصاحتها:

لقد كان رسول الله في القمة من البلاغة والفصاحة، بل كان ﷺ: «أفصح من نطق بالضاد» كما روي عنه. ولهذا نجد في كتبه ورسائله حسن الایجاز، وترك الاسهاب، وحذف الفضول من الكلام، لأنّ التطويل من دون ضرورة تقتضيه مخل في البلاغة.

وعندما نستعرض رسائل النبي ﷺ نجدها في غاية الایجاز مع تمامية المعنى، ولهذا يقول بعض الباحثين: «إذ رأينا في بعض المكاتبات المنسوبة إلى ذلك العصر - أي العصر النبوي - الصناعات اللفظية التي لا طائل تحتها زادت شبهتنا في صحتها»^(١).

وقد نجد في بعض رسائل النبي ﷺ ألفاظاً غريبة المعنى بالنسبة لنا، إلا أنها لم تكن كذلك في وقتها، فما هو غريب اللغة بالنسبة لنا، قد لا يكون كذلك بالنسبة للناطقين بها في حينها؛ لأننا قد ابتعدنا كثيراً عن اللغة وفصاحتها وبلاغتها من جهة، واللغة العربية كالكائن الحي تموت فيه ألفاظ وتحيا فيه ألفاظ أخرى.

ثانياً: الأدب العالي مع مخاطبيه:

لقد كان رسول الله ﷺ القدوة في الأخلاق والآداب العالية، وكيف لا يكون كذلك وهو القائل «أدبني ربّي، فأحسن تأديبي».

وقد انعكس هذا الأدب العالي على رسائله ومكاتيبه، فكان يراعي حرمة الأفراد ومكانتهم في قومهم، وإن لم يكونوا على دين الإسلام، وهذا ما سوف نلاحظه في رسائل الدعوة الأولى التي بعثها إلى ستة من الملوك والأمراء ورؤساء بعض القبائل.

ومن وجوه الأدب والبلاغة في رسائل النبي ﷺ أنك تجد: «التعبير عن نفسه بضمير المفرد، مثل أنا، ولي، وجائني، ووفد عليّ، ومخاطبة المكتوب إليه بكاف الخطاب، وتائه، والتعبير عن التثنية والجمع بلفظهما، كأنتما، وأنتم، وهم، إلغاء لما اعتبره الأعاجم، وتبعهم العرب بعد ذلك في عهد الأمويين والعباسيين»^(٢).

(١) حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية: ٣٠، وانظر: الأحمدى، مكاتيب الرسول: ٧٥ / ١ - ٧٧.

(٢) الأحمدى، مكاتيب الرسول: ١ / ٧٧.

ثالثاً: افتتاح كتبه بالبسملة:

لقد كانت العرب قبل الإسلام وفي أيام كفرها ووثنيها قبل أن تسلم تكتب عهودها ومواثيقها وتبدأ ذلك بعبارة «باسمك اللهم». وقد حدثنا التاريخ عن وثيقة القطيعة التي كتبها قريش ووضعها في جوف الكعبة، وأعلنت فيها الحصار على بني هاشم، ثم جاءت «الأرضة» وأكلت كل ما فيها إلا ما كان «اسماً لله» كذلك مر بنا اصرار سهيل بن عمرو على افتتاح وثيقة الصلح في الحديبية بكلمة «باسمك اللهم» بدلا من «بسم الله الرحمن الرحيم» التي طلب النبي ﷺ كتابتها أولا.

وقد زعم بعضهم أن رسائل النبي ﷺ كانت تفتتح بكلمة «باسمك اللهم» ثم صار يكتب «بسم الله» ثم صار يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم صار يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»^(١).

إلا أن هذه الرواية أو الروايات الواردة في هذا النحو من تطور الكتابة عند النبي ﷺ تكذيبها الكثير من الروايات الأخرى، التي تنص على أن بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» قد افتتح بها كل السور القرآنية منذ بعثته الشريفة، وإن المسلمين كانوا لا يعرفون انتهاء السورة السابقة، وبدء السورة اللاحقة، إلا بنزول «بسم الله الرحمن الرحيم».

بل روى عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما أنزل الله من السماء كتاباً إلا وفاتحته «بسم الله الرحمن الرحيم»»^(٢).

وروي عن النبي ﷺ: «لا صلاة لمن لا يقرأ بفاتحة الكتاب»^(٣) والبسملة

(١) انظر: الفخر الرازي، تفسير الكبير: ١ / ٢٠٠، والآلوسي، تفسير روح المعاني: ١ / ٢٧، والسيوطي، الدر المنثور: ٥ / ١٠٦.

(٢) جامع أحاديث الشيعة: ٥ / ١١٦ - ١١٧.

(٣) صحيح مسلم: ٩ / ٢.

جزء منها.

وما ادعاه بعضهم من أن رسول الله ﷺ كتب «باسمك اللهم» في أربعة كتب^(١) ليس له أي شاهد تاريخي يدل عليه، بل الشواهد التاريخية على عكس ذلك فإن رسول الله ﷺ كتب للدارين بمكة سنة خمس أو ست من البعثة أو قبلها وفيه «بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢).

وخلاصة الأمر: «الذي يتضح للمتدبر المنصف هو أن رسول الله ﷺ كان مستنأً بسنة الله تعالى في افتتاح جميع أموره وكتبه ومراسلاته بالبسملة وحسب، وما نقل عنه ﷺ من الكتب وليس فيها البسملة فمن آفات الرواة وتلخيص الناقلين وعدم اهتمامهم ببعض الأمور»^(٣).

والافتتاح بالبسملة أدب رباني علّمه الله سبحانه نبيه الأكرم ﷺ وصار سنة لجميع المسلمين، حيث يفتتحون كتبهم وأوائل نطقهم بهذه الأسماء الحسنى والحمد والابتهال، وقد روي عنه ﷺ: «كلُّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أبتَر»^(٤).

رابعاً: تقديم اسمه الشريف في رسائله وختمها بخاتمه:

والذي يسترعى الانتباه في رسائل النبي ﷺ وكتبه، أنه ﷺ كان يقدم اسمه الشريف، موصوفاً بوصف الرسالة أو النبوة، فيكتب مثلاً «من محمد رسول الله إلى فلان» أو «هذا كتاب من محمد النبي لفلان» وكان يصرح باسم المُرسَل إليه،

(١) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٠ .

(٢) الأحمدي، المكاتيب: ١ / ٦٥ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٦٥ .

(٤) المنتقى الهندي، كنز العمال: ١ / ٤٩٣ .

من قبيل: هرقل عظيم الروم، أو فلان، أو بني فلان، أو ملك الحبشة . . .

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه وهو: لقد عرف عن النبي ﷺ التواضع، وهي من السمات الشاحصة والبارزة في شخصيته ولها مصاديقها في حياته السياسية والاجتماعية والعائلية، ولها شواهدا كثيرة في كتب التاريخ والشمائل . . . فكيف يبدأ بنفسه في رسائله وكتبه؟! ألا يتنافى هذا مع ما عرف عنه ﷺ من تواضع؟

ثم إنه ﷺ يخاطب الملوك والأمراء ورؤساء القبائل والوجهاء، ويدعوهم إلى الإسلام والإيمان واتباع رسالته، ألم يكن من المناسب كسب ودهم واستمالتهم من خلال إبراز مكانتهم بتقديم أسمائهم في الرسائل والكتب التي يبعثها إليهم؟

والجواب عن هذا التساؤل واضح؛ إذ إن تواضع النبي ﷺ وأخلاقه الكريمة، قد شهد القرآن الكريم بها، وأشاد بها في جملة من الآيات القرآنية الكريمة، ولها مصاديق كثيرة في حياته الشريفة، إلا أنّ لكل مقام شأنه الخاص به، فمقام التعامل مع أصحابه من المسلمين، أو أهل بيته وحياته الأسرية، لها شأنها من التواضع والرحمة واللين والعطف . . أما مقام النبوة والرسالة فلها مكانتها المقدسة، التي يجب احترامها وتقديسها حتى من النبي ﷺ نفسه فضلا عن الآخرين مهما كان شأنهم ومكانتهم السياسية والاجتماعية .

يقول العلامة الأحمدي: «وكان ﷺ إذا كتب بدأ باسمه الشريف تعظيماً للنبوة وترفعاً لمقام الرسالة، ووضعاً له في موضعه، وصوناً عن الذلة؛ إذ كما يجب على غيره أن يعظم ساحتها المقدسة السامية يلزم على نفسه الكريمة أيضاً أن يحفظها ويصونها، وأن لا يضعها ولا يذلها، ألا ترى أنّه يجب عليه ﷺ أن يصلي على نفسه في الصلاة، وأن يشهد على نفسه بالنبوة فيقول: «أشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، اللهم صلّ على محمد وآل محمد». وليس ترفيعاً وإكباراً

وإعظماً في الحقيقة، بل هو وضع الشيء في موضعه، فيكون تركه خلاف العدل، وليس هذا كما يصنعه الجبابرة، ويفعله الفراعنة والقيصرية، تجبراً وتكبراً^(١).

فمقام النبوة أعظم من هرقل وعظمته عند الروم، وأشرف من كسرى ومملكة فارس، فليغضب كسرى ويمزق رسالة النبي ﷺ، وليستشط اتباع هرقل غضباً، إنها الصدمة التي توقظهم من سباتهم العميق وسكرة الملك التي انغمسوا فيها، وليعلموا أنّ مقام الأنبياء أعلى وأسمى وأشرف من مقامهم الزائف.

على أي حال، كان النبي ﷺ يبدأ باسمه في افتتاح كتبه ورسائله وذلك بعد البسملة التي لا بد من افتتاح كل شيء بها، وكان يختم رسالته بختم يحمل اسمه ورسالته «محمد رسول الله».

وقصة ختم الرسائل النبوية بخاتم معروفة، ولها أسبابها الأمنية فقد روي انه ﷺ: «عندما أراد أن يرسل رسله إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتاباً، قيل يا رسول الله: إنّ الملوك لا يقرأون كتاباً إلاّ مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة، نقشه ثلاثة أسطر: «محمد رسول الله»، وختم به الكتب»^(٢).

والذي يبدو تاريخياً أنّ طريقة ختم الكتب المرسلة، كانت معروفة آنذاك في الجزيرة العربية، إذ كانوا يطوون الكتب بعد كتابتها، ثم يجعلون عليها شيئاً رطباً كالطين ونحوه، فيختمون عليه، فلا يقرأ إلاّ بعد فضّ الخاتم، وذلك لئلاّ يطلع على ما في الكتاب غير المكتوب إليه، ولا يزداد فيه ولا يحزّف، ومن البعيد جداً أن يكون النبي ﷺ غير مطلع على هذه الطريقة العرفية العقلانية حتى يشير إليه

(١) الأحمدي، مكاتيب الرسول: ١ / ٦٧ - ٦٨ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٢٥ .

بعضهم بها فيتخذ خاتماً.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الثابت تاريخياً إنه ﷺ كان يطوي كتبه ويختمها ثم يدفعها إلى حاملها لا يصلها إلى من كتبت له، ولا يفض ختمها إلا على يديه، ونموذج ذلك ما رواه ابن سعد:

«وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص، إلى جَيْفَر وعبد ابني الجُلندي.. وكتب معه إليهما كتاباً وختم الكتاب، قال عمرو: .. فدخلتُ عليه - أي جَيْفَر - فدفعته إليه الكتاب مختوماً ففضّ خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته»^(١).

هذه أهم خصائص رسائل النبي ﷺ وكتبه، وهنالك بعض الخصائص الأخرى لا يسع المجال لذكرها.

يبقى أن نذكر بأنّ رسول الله قد أرخ لبعض كتبه بالتاريخ الهجري، مما يعني أنه ﷺ هو الذي وضع التاريخ الهجري، وأرخ به كتبه، وقد بحثنا ذلك سابقاً.

٣ - تاريخ رسائل النبي ﷺ

لا خلاف بين المؤرخين من أنّ رسول الله ﷺ قد بدأ بكتابة كتبه ورسائله إلى الملوك والأمراء قبل فتح مكة سنة ثمان للهجرة، وبعد الحديبية التي كانت سنة ستّ من الهجرة، وإنّما وقع الاختلاف في التاريخ الدقيق لبدء هذه الكتابة، هل كان في أواخر سنة ستّ أو بداية سنة سبع، أو انها كانت في ذي القعدة أو ذي الحجة أو محرم، أو في ربيع الأول..^(٢)

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٢٧ .

(٢) انظر هذه الأقوال ومصادرها، في مكاتيب الرسول للأحمدي: ١ / ١٨١ وما بعدها .

ولهذا نجد ابن هشام وابن إسحاق يقولان: إنّ مراسلة النبي ﷺ «كان ما بين الحديبية ووفاته...»^(١).

ويروي ابن سعد في الطبقات: «فكتب ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فخرج في يوم واحد ستة نفر وذلك في محرّم سنة سبع...»^(٢) وبما أن ابن سعد يروي أن واقعة خيبر وقعت في جمادى الأولى سنة سبع، فلا بد أن تكون بداية هذه الرسائل بعد صلح الحديبية وقبل واقعة خيبر.

إلا أنّ المسعودي في التنبيه والإشراف يروي: «اتخذ رسول الله ﷺ الخاتم في المحرم ونقش عليه: محمد رسول الله، وكاتب الملوك في شهر ربيع الأول، ونفذت كتبه ورسله إليهم يدعوهم إلى الإسلام»^(٣).

وعلى هذا القول تكون بداية رسائل النبي ﷺ إلى الملوك بعد الفراغ من واقعة خيبر لأنها وقعت في شهر محرم سنة سبع على أرجح أقوال المؤرخين^(٤).

وقول المسعودي هو الأنسب والأكثر انسجاماً مع تسلسل الأحداث، والظروف الموضوعية المحيطة بالدعوة الإسلامية، وتنجسم مع سلم الأولويات التي كان النبي ﷺ قد بنى استراتيجية نشر الإسلام عليها.

فبعد أن فتح الله سبحانه عليه ﷺ في صلح الحديبية، وأمن المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية، وكفي شرّ قريش وحروبها، ثم بعد ذلك تمّ تأمين شمال الجزيرة العربية بعد الانتصار في خيبر واندحار فلول اليهود فيها، عندها جاءت الفرصة المؤاتية لنشر الإسلام، وتبليغ الرسالة إلى الناس كافة، عربياً

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢٧٨/٤، وابن كثير، البداية والنهاية: ٢٦٢/٤ نقلاً عن ابن إسحاق.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١٢٥.

(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف: ٢٢٥، وللتوسع انظر: تاريخ الخميس للديار بكري: ٢ / ٢٩.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٣٢٨.

وأعجميها، فكتب إلى الملوك من العرب والعجم، ورؤساء القبائل، والأساقفة . . يدعوهم إلى الإسلام.

يقول أحد كتّاب السيرة: «أُفِرسل محمد رسله إلى هؤلاء الملوك وهو ما يزال يخشى غدر اليهود الذين لا يزالون مقيمين شمال المدينة؟ صحيح أنه عَهْدَ عَهْد الحديبية، فأَمِنْ قريشاً، وأَمِنْ الجنوب كلّهُ، لكنه لن يأمن من ناحية الشمال أن يستعين هِرقل أو أن يستعين كِسرى بيهود خيبر، وأن يحرك في نفوسهم ثاراتهم القديمة، وأن يذكرهم إخوانهم في الدين من بني قريظه وبني النضير وبني قَيْنُقاع . . واليهود أشد من قريش عداوةً له، لأنهم أحرص منهم على دينهم، ولأن فيهم ذكاء وعلماً أكثر من قريش . .»^(١).

على ضوء هذه المعطيات التي ذكرناها توجد رواية^(٢) تقول أن دحية بن خليفة الكلبي حضر خيبر، وهو الذي حمل رسالة النبي إلى هرقل، ومن البعيد أن يكون سار إلى هرقل في بلاد الروم، ثم رجع وشارك في خيبر!

فمن المرجح جداً، أن تكون بداية مراسلات وكتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء . . في السنة السابعة من الهجرة وبعد الفراغ من غزوة خيبر والقضاء على اليهود.

٤ - نصوص رسائل النبي ﷺ إلى الملوك وردود أفعالهم

يروى المؤرخون: «إن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم: إني بعثت رحمة وكافة، فأدّوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا عليّ كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم، قالوا: يا رسول الله وكيف كان

(١) هيكل، حياة محمد: ٣٨٥ - ٣٨٦، وانظر صفحة: ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣١٣ .

اختلافهم؟ قال: دعا إلى مثل ما دعوتكم إليه، فأما من قرب به فأحبّ وسليم، وأما من بعد به فكره وأبى، فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عزّ وجلّ، فأصبحوا من ليلتهم تلك؛ وكلّ رجل منهم يتكلّم بلغة القوم الذين بعث إليهم، فقال عيسى: هذا أمرٌ قد عزم الله لكم عليه فامضوا»^(١).

وفي نص آخر:

«أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: وأفوني بأجمعكم بالغداة.. وكان ﷺ إذا صلى الفجر حبس في صلاةٍ قليلاً يسبح ويدعو، ثمّ التفت إليهم، فبعث عدّة إلى عدّة وقال لهم: «انصحووا لله في عباده، فإنّه من استرعى شيئاً من أمور الناس، ثمّ لم ينصح لهم حرّم الله عليه الجنّة، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم..»^(٢).

والذي يبدو من هذا النص التاريخي أنّ هؤلاء الرسل كانت لديهم رهبة وخوف من المهمة التي أوكلت أو سوف توكل إليهم، فمن يجراً على مخاطبة هرقل عظيم الروم، أو كسرى ملك فارس.. وقد يكون تخوفهم في محله، فإنها النفس البشرية وضعفها وأهوائها، ولهذا نجد رسول الله ﷺ يذكرهم بمسؤوليتهم في الدعوة إلى الله، ويذكر لهم من سنن الأنبياء ما فيه موعظة وعبرة، ثمّ يوصيهم بالنصيحة لله ولرسوله وللمن أرسلوا إليهم من خلق الله وعباده.

كتب ستة، إلى ملوك ستة مع حملته

ينص المؤرخون على أنّ رسول الله ﷺ قد بعث كتباً ستة إلى ستة من الملوك، مع ستة نفر من أصحابه فخرجوا مصطحبين^(٣).

(١) و (٢) الطبري: ٢ / ٦٤٥، وطبقات ابن سعد: ١ / ١٢٧ - ١٢٨.

(٣) انظر: تاريخ الخميس للديار بكري: ٢ / ٢٩، والطبري: ٢ / ٢٨٨.

والملوك الستة الذين كتب إليهم ﷺ هم:

- ١ - النجاشي^(١)، ملك الحبشة، وحمل الرسالة: عمرو بن أمية الضمري.
 - ٢ - قيصر أو هرقل، عظيم الروم، وحمل الرسالة: دحية بن خليفة الكلبي.
 - ٣ - كسرى ابرويز، عظيم فارس، وحمل الرسالة: عبد الله بن حذافة السهمي.
 - ٤ - المقوقس، صاحب الاسكندرية، وحمل الرسالة: حاطب بن أبي بلتعة.
 - ٥ - الحارث الغساني، ملك تخوم الشام، وحمل الرسالة: الشجاع بن وهب الأسدي.
 - ٦ - ثمامة بن أثال، وهوذة بن علي، رئيسا اليمامة، وحمل الرسالة: سليط بن عمرو العامري.
- فانطلق هؤلاء الرسل جميعاً كل إلى حيث أرسله النبي ﷺ، ولكل واحد منهم قصة مع من أرسل إليه، تأتي الإشارة إليها.

كتب دعوة إلى الإسلام، وليست كتب حر

الذي يبدو من خلال مراجعة نصوص هذه الرسائل الست، أنها كانت ذات مضمون واحد، مع الاختلاف في بعض ألفاظها وفي أسماء من أرسلت إليهم ومناطق حكمهم ونفوذهم، وإنها كانت تحمل في مضمونها الدعوة إلى الإسلام

(١) النجاشي: كلمة للحبش تسمى بها ملوكها . وقيصر: لقب لكل من ملك الروم . وكسرى: لقب لكل من ملك فارس . والمقوقس: هو لقب لجريح بن مينا القبطي . (لسان العرب) .

والتوحيد، والإيمان برسالة النبي ﷺ .

وفيما يلي نماذج من هذه الرسائل^(١) :

جاء في نص رسالة النبي ﷺ إلى هرقل :
«بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من أتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ،
وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين^(٢) ، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٣) .

وفي نفس المضمون كتب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر
الغساني ، وهو ملك تخوم الشام من قبل هرقل ، وجاء في رسالة النبي ﷺ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر .

سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله وصدق ، فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله
وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك^(٤) .

(١) مرجعنا في نقل نصوص هذه الرسائل كتاب : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي لمحمد حميد الله .

(٢) الأريسيين : الخدم والحشم ، أو الاتباع وعامة الشعب .

(٣) حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية : ١٠٩ وما بعدها ، وانظر صورة الرسالة وخطوطها في المصدر نفسه : ١٠٨ .

(٤) المصدر نفسه : ١٢٦ .

أما رسالته ﷺ إلى كسرى عظيم فارس، فقد جاء فيها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس.

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأنت محمداً عبده ورسوله.

وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحقّ القول على الكافرين، فاسلم تسلم، فان أبيت فإن اثم المجوس عليك^(١).

أما مكاتبة النبي ﷺ إلى هوزة بن علي وثمامة بن أثال رئيسي اليمامة، فقد جاء فيها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سلام على من اتّبع الهدى، واعلم أنّ ديني سيظهر إلى منتهى الخفّ والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك^(٢).

والذي يبدو من رواية المقرئ في امتاع الاسماع أنّ هذه الرسالة نفسها بعثها النبي ﷺ إلى ثمامة بن أثال رئيس اليمامة، حيث لم يرو نصّاً خاصاً أرسل إليه^(٣).

أما رسالته ﷺ إلى المقوقس فقد جاء فيها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط.

(١) المصدر السابق نفسه: ١٤٠ .

(٢) المصدر نفسه: ١٥٧ .

(٣) المقرئ، امتاع الاسماع: ١ / ٣٠٨ .

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني ادعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت، فعليك إثم القبط (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ...) (١).

أما رسالته ﷺ إلى النجاشي، فالذي يبدو أنَّ النبي ﷺ قد بعث له أكثر من رسالة، كان أولها من مكة مع مهاجري المسلمين إلى الحبشة، ثم هذه الرسالة، ورسالة ثالثة يطلب منه أن يزوجه من أم حبيبة، ويحمل إليه من عنده من أصحابه. ونص الرسالة الثانية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة.

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنَّ محمداً عبده ورسوله.

وادعوك بدعاية الله، فإني أنا رسوله فأسلم تسلم، و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ...﴾ الآية، فإن أبيت فعليك إثم النصرارى من قومك (٢).

هذه هي الرسائل الست التي بعثها رسول الله ﷺ في السنة السابعة، ثم توالى رسائله في السنوات التي بعدها.

ردود الأفعال حول رسائل النبي ﷺ

لقد عاد رُسل النبي ﷺ إلى المدينة بسلام، ولم يتعرض أحد منهم لأذى

(١) حميد الله، مجموعة الوثائق: ١٣٥ - ١٣٦ وانظر صورة الرسالة صفحة: ١٣٧ من المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه: ١٠٣ - ١٠٤.

فضلاً عن أن يقتل أو يسجن، وحملوا معهم إجابات محددة تعكس ردود الأفعال الإيجابية والسلبية من أولئك الملوك والرؤساء والشيوخ، ولكل من هؤلاء الرسل قصة مع من أرسل إليه يطول بيانها.

لقد كانت رسائل النبي ﷺ إلى هؤلاء الحكام من ملوك ورؤساء تحمل لهم بشائر الخير والسعادة، وتدعوهم إلى دين الفطرة السليمة، والاحتكام إلى منطق العقل والوجدان والضمير، وليس فيها تهديد أو وعيد وإنما دعوة إلى التوحيد والایمان بالله ورسوله من دون أن يسلبهم ذلك ملكهم أو ينزع عنهم سلطانهم.

ولا نريد أن نتوقف طويلاً عند ألفاظ ومضامين هذه الرسائل النبوية ﷺ فهي قليلة بالفاظها، عالية بمضامينها، واضحة الدلالة، جزلّة الالفاظ، عميقة المعاني، تلامس شغاف القلوب.

إلا أنّ بعض من أرسلت إليهم تلك الرسائل تفاوتت ردود أفعالهم تجاهها؛ فبعض واجهها بعنجهية واستكبار، والبعض الآخر بأدب جم واحترام، وثالث بطريقة ملتوية مأكرة.

وعندما نستعرض كلمات المؤرخين التي سجلت لنا ردود الأفعال هذه نجد:

أولاً: موقف هرقل عظيم الروم

لقد وصل كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل، «وكان يومئذ عائداً يحف به النصر بعد أن تغلب على الفرس واستنقذ منهم الصليب الأعظم الذي أخذ من بيت المقدس، وأن له أن يتم نذره وأن يحج إلى بيت المقدس ماشياً ليرد الصليب الأعظم إلى مكانه، وكان قد بلغ من سياحته مدينة حمص حين حمل الخطاب إليه»^(١).

(١) هیکل، حياة محمد: ٣٩٣ .

ويروي ابن سعد «أن رسول الله بعث الكتاب مع دحية الكلبي وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذ بحمص، فقرأ الكتاب وأذن لعظماء الروم في دسكرة له بحمص فقال: يا معشر الروم: هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم؟ قالت الروم: وما ذلك أيها الملك؟ قال: تتبعون هذا النبي العربي!

قال: فحاصوا حيصة حُمر الوحش وتناحزوا ورفعوا الصليب، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وخافهم على نفسه وملكه فسكنهم ثم قال: إنما قلتُ لكم ما قلتُ اختبركم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيتُ منكم الذي أحب، فسجدوا له»^(١).

وهناك روايات أخرى أكثر تفصيلاً من رواية ابن سعد ذكرها أغلب المؤرخين منهم الطبري برواية طويلة عن ابن عباس نقل طرفاً منها، قال «حدثني أبوسفيان بن حرب قال: ... خرجت في نفر من قريش تجار إلى الشام.. فلما انتهى به - أي بدحية الكلبي حامل رسالة النبي ﷺ - إلى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه، سله، ما كان هذا الحدث الذي كان في بلاده.. فأخبره، ثم دعا - هرقل - صاحب شرطته فقال له: قُلْ لي الشام ظهراً وبطناً، حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل، يعني النبي ﷺ.

قال أبو سفيان: فو الله إنا بغزة، إذ هجم علينا صاحب شرطته،.. وانطلقوا بنا إلى الملك، فلما انتهينا إليه قال: أنتم من رهط هذا الرجل؟ قلنا: نعم، قال: فأيكم امس به رحماً؟ قال أبو سفيان: قلت: أنا. فقال: ادنه فأقعدي بين يديه، واقعد أصحابي خلفي، ثم قال: إني سأسأله، فإن كَذَبَ فردُّوا عليه. فقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي!

قال أبو سفيان: فجعلت أزهد له شأنه، واصغر له أمره، وأقول له: أيها الملك، ما يهّمك من أمره! إنّ شأنه دون ما يبلغك، فجعل لا يلتفت إلى ذلك.

ثم قال: انبئني عمّا أسألك عنه من شأنه، قلت: سلّ عمّا بدا لك.

قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: محض - أي خالص - أوسطنا نسباً.

قال: فأخبرني هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول، فهو يتشبه به؟ قلت: لا.

قال: فهل كان له فيكم مُلك فاستلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث لتردّوا عليه ملكه؟ قلت: لا.

قال: فأخبرني عن أتباعه منكم، من هم؟ قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه، فلم يتّبعه منهم أحد.

قال: فأخبرني عن تبعه، أيحبه ويلزمه، أم يقيه ويفارقه؟ قلت: ما تبعه رجل ففارقه.

قال: فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟ قلت: سجال يدال علينا ونдал عليه.

قال: فأخبرني هل يغدر؟ قال أبو سفيان: فلم أجد شيئاً ممّا سألني عنه أغمره فيه غيرها، قلت: لا، ونحن منه في هُدنة، ولا نأمن غدره. قال أبو سفيان: فوالله ما التفت إليها مني: ثم كرّ عليّ الحديث.

قال: سألتك كيف نسبه فيكم، فزعمت أنّه محض، من أوسطكم نسباً، وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه، لا يأخذ إلّا من أوسط قومه نسباً.

وسألتك: هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله، فهو يشبه به، فزعمت أن لا. وسألتك: هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه؟ فزعمت أن لا. وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين

والأحداث والنساء . وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان .

وسألتك عمن يتبعه أحبه ويلزمه أم يقلبه ويفارقه؟ فزعمت أنه لا يتبعه أحد يفارقه . وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلباً فتخرج منه .

وسألتك : هل يغدر؟ فزعمت أن لا . فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ، ولوددت أنني عنده فأغسل قدميه ، انطلق لشأنك . وفي رواية : فأخذ الكتاب فجعله بين فخذه وخاصرته .

قال أبو سفيان : فقممت من عنده وأنا أضرب احدى يدي بالأخرى ، وأقول : أي عباد الله ، لقد أمر أمر ابن أبي كبشة! أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه سلطانهم بالشام»^(١) .

وهنالك فقرات أخرى في هذا الحوار بين قيصر وأبي سفيان لم يذكرها الطبري وذكرها غيره ، منها هذه الفقرة المهمة : «قال - قيصر - : فهل كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان : قلت : لا . فقال قيصر : إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله»^(٢) .

وهنالك روايات أخرى لهذه القصة يرويها كل من الطبري والبيهقي وغيرهما من المؤرخين أعرضنا عنها خوف الاطالة .

وهكذا رد هرقل عظيم الروم رسالة النبي ﷺ ردًا حسنًا من دون أن يغضب منها أو تثور ثائرتة ، أو يتوعده بارسال الجيوش لغزوه ، ولهذا روى بعض المؤرخين - خطأ - أنه أسلم^(٣) .

(١) الطبري : ٢ / ٦٤٦ - ٦٤٩ (بتلخيص) .

(٢) البيهقي ، دلائل النبوة : ٤ / ٣٧٩ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات : ١ / ١٢٥ ، والطبري ، التاريخ : ٢ / ٦٤٦ وما بعدها .

وفي رواية أنه بعث بهدية وكتاب إلى رسول الله ﷺ جاء فيه: «إني مسلم ولكنني مغلوب! فقال رسول الله ﷺ: كذب عدو الله ليس بمسلم إنه على نصرانيته»^(١).

والذي يبدو ومن خلال مجريات الأحداث الآتية أن هرقل كان كاذباً ومراوغاً فيما إدعاه على فرض صحة ما روي عنه.

ورواية أبي سفيان فيها مبالغة واضحة، فكيف يمكن لنا أن نُصدق أن هرقل عظيم الروم يقول: ولوددت آتي عنده فأغسل قدميه!

والوقائع الآتية بين المسلمين والروم كغزوة مؤتة تثبت زيف وكذب ما نسب إلى هرقل من قول!

ثانياً: موقف الحارث بن أبي شمر الغساني

وكان هذا الرجل ملك على تخوم الشام من قبل هرقل ملك الروم، وكانت رسالة النبي ﷺ له، نفس مضمون رسالته ﷺ إلى هرقل، وكان في حينها في «غوطة دمشق»، وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطف لقيصر.

يقول شجاع بن وهب الأسدي - حامل كتاب رسول الله ﷺ إليه - : «دفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه ثم رمى به وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه..»

وأمر بالخيال تنعل.. وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر: أن لا تسير إليه وأله عنه ووافني بإيلياء.. ولما جاء جواب كتابه دعاني فقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك! فقلت غداً، فأمر لي بمائة مثقال ذهب.. فقدمت على رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: بادءاً ملكه»^(٢).

(١) السيرة الحلبية: ٣ / ٣٤٥ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٢٦ .

ثالثاً: موقف هوزة بن علي رئيس اليمام

قال ابن سعد: «وقرأ كتاب النبي ﷺ وردّ ردّاً دون ردّ، وكتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر اتبعك! وأجاز سليط - بن عمرو العامري - بجائزة. . . فقدم على النبي ﷺ، وأخبره عنه بما قال، وقرأ كتابه فقال ﷺ: لو سألني سيابة من الأرض ما فعلت، بادّ وبادّ ما في يديه! فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنّه قد مات»^(١).

رابعاً: موقف المقوقس صاحب الاسكندرية عظيم القب

يقول ابن سعد: «وأخذ الكتاب - أي كتاب رسول الله ﷺ - فجعله في حقّ من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته، وكتب إلى النبي ﷺ: «قد علمت أنّ نبياً قد بقي وكنت أظنّ أنّه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وقد أهديت إليك كسوة وبغلة تركبها» ولم يزد على هذا ولم يسلم. قبل رسول الله ﷺ هديته، وأخذ الجاريتين، مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وأختها سيرين، وبغلة بيضاء لم يكن في العرب يومئذ غيرها وهي دُلْدُل، وقال رسول الله ﷺ: ظنّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه. . .»^(٢).

خامساً: موقف النجاشي ملك الحبش

لقد ذكرنا سابقاً صلوات النجاشي بالمسلمين، وإيوائه للمهاجرين منهم وحمايته وإكرامه لهم، فمن الطبيعي أن يكون ردّه جميلاً.

يقول ابن سعد: «فكان أوّل رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي وكتب إليه كتابين يدعوه في أحدهما إلى الإسلام ويتلوا

عليه القرآن، فأخذ كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينيه، ونزل من سريره فجلس على الأرض تواضعاً، ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته، وكتب إلى رسول الله ﷺ باجابه وتصدقته وإسلامه، على يدي جعفر بن أبي طالب. . ودعا بحق من عاج فجعل فيه كتابي رسول الله ﷺ وقال: لن [هكذا] تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها^(١).

إلا أن ابن سعد لم يذكر نص رسالة النجاشي وما ذكر فيها لرسول الله ﷺ. والذي يبدو من كلمات المؤرخين أن هناك أكثر من رسالة لرسول الله ﷺ أرسلها إلى النجاشي، وهنالك أكثر من جواب من النجاشي على هذه الرسائل. مما جعل بعض المؤرخين يعتقد تعدد النجاشي الذي راسله النبي ﷺ^(٢) وأثارت طائفة من المستشرقين الشك حول إسلامه^(٣).

وقد ذكر صاحب كتاب مجموعة الوثائق السياسية ثلاث رسائل للنبي ﷺ إلى النجاشي، وثلاثة أجوبه من النجاشي عليها، جاء في الثانية منها: «بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى محمد رسول الله، من النجاشي الأصحم بن أبجر.

سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته.

أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت تُفروقاً^(٤)، إنه كما قلت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٢٥ .

(٢) انظر السيرة الحلبية: ٣ / ٣٤٨ - ٣٤٩، والصحيح من سيرة النبي: ١٧ / ٥٣ وما بعدها .

(٣) هیکل، حياة محمد: ٣٩٤ .

(٤) يقال: ما له تفروق، أي: ما له شيء، وأصله قمع التمر أو ما يلتزق به قمعها.

صادقاً مصداقاً، قد بايعتك وبايعتُ ابن عمك وأصحابه، وأسلمت على يديه لله رب العالمين.

وقد بعثتُ إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن أتيك فعلتُ يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق. والسلام عليك يا رسول الله»^(١).

وقد يكون هذا الجواب أكثر انسجاماً ومطابقة مع رسالة النبي ﷺ إليه، إلا أن فيه ذكر عيسى عليه السلام، ولم يذكره النبي ﷺ في الرسالة التي نقلناها سابقاً.

وهناك رواية تروى عن النبي ﷺ يقول فيها: «... وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقتها، والله مخرقه ومخرق ملكه»^(٢) ولا ندري أي نجاشي هذا الذي خرق كتاب رسول الله؟ هل هو الأول أم الثاني أم الثالث؟

أجاب بعضهم بأنه الثالث إذ الأول والثاني قد آمنا بالله ورسوله وأسلمنا، والثالث استولى على الحكم في أواخر السنة السادسة أو بداية السنة السابعة للهجرة^(٣).

إلا أنه بنى إجابته على الاستقراب والاستظهار؛ وبألفاظ: ربما ولعل، ويحتمل... ولم يأت بدليل يمكن الاستناد إليه.

سادساً: موقف كسرى من رسالة النبي ﷺ

لقد كان كسرى أبرويز من أشد من أرسل إليه النبي ﷺ برسائله عتواً واستكباراً وعنجهية، فما أن تلي عليه كتاب رسول الله حتى استشاط غضباً ومزق الكتاب.

(١) حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية: ١٠٥ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٢٨ .

(٣) الصحيح في سيرة النبي: ١٧ / ٥٥ .

يروى ابن سعد عن عبد الله بن حذافة التميمي - وهو الذي حمل رسالة النبي ﷺ إلى كسرى - قال: «فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأ عليه، ثم أخذه فمزقه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «اللهم مزق مملكه».

وكتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن: أن ابعث من عندك رجلين جَلدين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز فليأتاني بخبره، فبعث باذان قهرمانه ورجلا آخر وكتب معهما كتاباً، فقدموا المدينة فدفعوا كتاب باذان إلى النبي ﷺ، فتبسم رسول الله ﷺ، ودعاهما إلى الإسلام وفرائصهما ترعد وقال: «ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد فأخبركما بما أريد» فجاءاه من الغد، فقال لهما: «أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها، وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع، وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله» فرجعا إلى باذان بذلك، فأسلم هو والابناء الذين باليمن^(١).

وهناك رواية ينقلها اليعقوبي في تاريخه مفادها: «إن كسرى كتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً جعله بين سرقتي حرير وجعل فيهما مسكاً..» وهي رواية ينفرد اليعقوبي بها من بين المؤرخين ورواها أحمد بن حنبل في مسنده^(٢).

والذي يبدو أن باذان عامل كسرى على اليمن كان أكثر تعقلاً واتزاناً من سيده كسرى، فبعد أن رجع إليه رسوله من النبي ﷺ وأبلغوه بما قاله ﷺ لهم، ثم تبين له صدق ما قاله النبي ﷺ في مقتل كسرى، اذعن للحق ودخل في الإسلام، ودخل معه الأبناء من فارس من كان منهم في اليمن، وبقي في ملكه وأصبح عامل النبي ﷺ على اليمن. وأصبحت اليمن من ذلك التاريخ نقطة ارتكاز قوة الإسلام في جنوب شبه الجزيرة.

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٢٥ .

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٧٧ طبعة دار صادر - بيروت، ومسنند أحمد بن حنبل: ٩٦/١ .

٥ - الخارطة السياسية لرسائل ومكاتبات النبي ﷺ

عندما ننظر إلى الخارطة الجغرافية التي شملتها رسائل النبي ﷺ في هذه السنة، ثم ما أعقبها من رسائل في السنة الثامنة، نجد أنها تمتد لتشمل مساحات واسعة من العالم آنذاك، وتوزع على المساحة الجغرافية السياسية للدولتين العظيمتين ذلك الزمان. دولة فارس من الشرق والدولة البيزنطية من الغرب، ومناطق النفوذ التابعة لهاتين الدولتين، بالإضافة إلى الحبشة، مع ما تتصف به هذه الدول من تنوع حضاري وعرقي وديني.

«لقد كانت الدول العظمى البارزة في ذلك الحين هي الفرس والروم والحبشة، وكانت الفرس دولة مجوسية تدين بعبادة النار، وكانت الروم والحبشة نصرانيتين، وكان بين الفرس والروم تنافس شديد على سيادة العالم حينذاك. . . أما ما عدا هذه الدول الثلاث، فكانت دولا وإمارات صغيرة، بعضها خاضع للفرس، وبعضها خاضع للروم، وبعضها مستقل بنفسه؛ فكانت اليمن والعراق تحت نفوذ الفرس، وكانت الشام ومصر تحت نفوذ الروم، وكانت اليمامة وعمان والبحرين إمارات مستقلة، أما تهامة والحجاز ونجد والطائف وما يحيط بها في قلب الجزيرة، فلم تكن تربطها بهاتين الدولتين - الرومانية والفارسية - سوى الصلة التجارية»^(١).

لقد رمى رسول الله ﷺ ببصره إلى هذه الرقعة الجغرافية والسياسية الواسعة، ورسم لها استراتيجية سياسية واختار الزمان المناسب للبدء بتنفيذ هذه الاستراتيجية، وضمن مراحل متلاحقة.

فبعد أن بسط نفوذه نسبياً على جنوب وشمال الجزيرة العربية، بدأ في السنة السابعة، بتنفيذ الخطوات الأولى من استراتيجيته من خلال الرسائل الست إلى

(١) دويدار، صور من حياة الرسول: ٤٩٦ .

الملوك وشيوخ العشائر وأصحاب النفوذ الستة، ثم أعقبها في السنة الثامنة ليرسل رُسله إلى البحرين وعمان، ثم جاءت فتوحات الإسلام لتفتح مكة والطائف، بالإضافة إلى السيطرة الكاملة على بلاد اليمن وحضرموت

أما عامل الزمن الذي اختاره رسول الله ﷺ لإرسال رسائله فهو في حد ذاته يدل على عبقرية سياسية عميقة الغور اتصف بها رسول الله ﷺ بتسديد من الوحي الإلهي .

لقد اختار رسول الله ﷺ الفترة الزمنية التي أعقبت الحروب الطويلة بين الامبراطوريتين والتي انهكت قواهما، وانحدرت بهما إلى درك السقوط والهاوية، بالإضافة إلى ما تعيشه هاتان الدولتان من اضطراب عقائدي وديني بين وثنية ومجوسية، ومسيحية تحولت من نقائها وصفائها الروحي إلى مجرد رسوم وتقاليد فارغة يهيمن عليها القساوسة والرهبان، ويسيسونها لصالح الملوك والحكام لإستغلال السواد الأعظم وتسخيرهم تحت لافتة وشعار الدين!

لقد «كان هرقل وكسرى يومئذ على رأس دولتي الرومان والفرس، أقوى دول العصر وصاحبتي الإملاء في سياسة العالم وفي مصائر أممه جميعاً، وكانت الحرب سجالات بين الدولتين، وكانت الفرس صاحبة الغلب أول الأمر فاستولت على فلسطين وعلى مصر، ووضعت يدها على بيت المقدس، ونقلت منه الصليب الأعظم، ثم دارت على الفرس الدائرة، فعادت أعلام بزنطية تخفق مرة أخرى على مصر وعلى سوريا وفلسطين، واسترد هرقل الصليب بعد أن نذر، إن هو تم له النصر، أن يحجج إلى بيت المقدس ماشياً حتى يرد الصليب فيه إلى مكانه . . .»^(١).

هكذا كانت حالة الامبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا تزعمان تحضير عالم ذلك العصر، وكانت حضارتهما هي الغالبة على العالم كله، إنما كانتا تتنازعا الغلب المادي، على حين كانت القوة الروحية فيهما جميعاً قد انحلت

واضحلت^(١).

في ظل هكذا أوضاع متردية لهاتين الامبراطوريتين، انطلق رسول الله ﷺ بدعوته العالمية إلى هؤلاء الملوك، ليسمعهم صوت التوحيد والعدل والكلمة السواء، وليسمع من خلالهم كل الأمم والشعوب التي ترزح تحت نير سلطتهم، والتي تتطلع إلى من يجدد فيها حياتها، ويخلصها من استعباد حكامها، ويوقد فيها شعلة الايمان والعقيدة التي تنسجم مع فطرتهم التي فطرهم الله عليها، بدلا من تشتت الدين والعقيدة وانتشار الخرافات والمفاسد الدينية والأخلاقية.

٦ - نتائج وآثار رسائل وكتب النبي ﷺ إلى الملوك

لقد كان للخطوة السياسية التي قام بها الرسول ﷺ من خلال مكاتبة الملوك والعظماء والروساء آثار ايجابية كثيرة بعضها آنية، وبعضها الآخر مستقبلية ظهرت على المدى القريب جداً. ولا يمكننا أن نسع كل هذه الآثار بحثاً إلا أننا نتوقف قليلاً عند بعضها:

أولاً: اظهار عالمية الإسلام

لقد كانت رسالة الإسلام كدين خاتم للأديان السماوية، ونبوة النبي ﷺ ورسالته، التي ختمت به النبوات ورسالات السماء، من أول أمرها عالمية في أهدافها ومقاصدها وشعائرها، فالدعوة إلى التوحيد، وعدم تعدد الارباب، والعدل، وحصر الدين بالإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ كل هذه صبغتها صبغة عالمية، ومقاصدها تحرير البشرية من تعدد الآلهة والشرك والوثنية إلى كلمة التوحيد والعدل. كذلك رسالة النبي ﷺ كانت للناس كافة عربياً وأعجمياً، أسودها وأبيضها، فهي رسالة عالمية، إلا أن الظروف الموضوعية،

(١) المرجع نفسه: ٣٨٤.

ومعترك الصراع مع وثنية العرب حالت دون الاسراع في اظهار هذه العالمية على مستوى ملوك العالم وشعوبها المستضعفة .

والآن ، وبعد أن فرغ الرسول ﷺ - نسياً - من الصراع مع وثنية العرب ومن والاهم في جبهة الصراع ، توجه بدعوته إلى ملوك العالم ، ورجال الدين المسيحي ، وزعماء القبائل ، ليعرض عليهم دعوته ويدعوهم إلى الانضمام تحت لواء التوحيد ، والالتزام بالتعاليم الدينية والأخلاقية والإنسانية التي جاء بها الإسلام .

فهذه الرسائل النبوية ما هي إلا إظهار لعالمية الإسلام ، وإن دعوة الإسلام دعوة عالمية في ظهورها وفي استمراريتها وبقائها .

ومن الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها بعض المستشرقين قولهم : «إن موضوع عالمية الرسالة المحمدية قد ظهر وتبلور في ما بعد ، وأن محمداً اقتصر في دعوته من بدء رسالته إلى لحظة وفاته على العرب ، ولم يكن «محمد» يعرف أي مكان غير الجزيرة العربية»^(١) .

فإنّ اقتصار دعوة النبي ﷺ على عرب الجزيرة في بداية أمرها والتي كان لها أسبابها وظروفها الموضوعية ، من حيث ساحة الصراع التي واجهتها دعوة الإسلام منذ بدء ظهورها ، لا تعني عدم عالمية الإسلام ودعوته ، ولو ألقى هذا المستشرق وغيره نظرة سريعة على تعاليم الإسلام في خطوطها العامة ، لوجد هذه العالمية متجلية فيها بشكل واضح .

ثم إن رسائل النبي ﷺ وكتبه تدل بوضوح على أنّ الأحداث والأوضاع

(١) سبحاني ، سيد المرسلين : ٢ / ٣٥٤ نقلا عن المستشرق الإنكليزي «السير ويليم موير William

Muir « (1819-1905) مستشرق ومبشر إنجليزي ، انظر ترجمته في موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن

السياسية والاجتماعية والدينية التي كانت تسود تلك الممالك معروفة جيداً من قبل النبي ﷺ وإلا كيف يرسلهم النبي ﷺ وهو يجهل ما هم عليه من أوضاع يعكس بعض من أرسلت هذه الرسائل إليهم، حيث فاجأتهم دعوة النبي ﷺ وكأنهم لم يسمعوها بها وقد مضى عليها تسعة عشر عاماً؟!!

ثانياً: كسر حاجز الخوف والرهبة

عندما نستعرض أوجه العلاقة بين عرب الجزيرة وبين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية، لانجدها علاقة حميمة مبتنية على علاقات ود واحترام متبادل، وإنما كانت استعلاء وتجبراً وتعسفاً من جهة الامبراطوريتين للعرب، يقابلها خوف ورهبة ووجل من جانب العرب.

والشواهد التاريخية تعكس لنا بوضوح نظرة كل طرف إلى الطرف الآخر.

ولهذا نجد كسرى يغضب غضباً شديداً عندما يرى أن النبي ﷺ قد بدأ باسمه الشريف قبل اسم كسرى. فأخذ كتاب النبي ﷺ ومزقه وقال: «يكتب إليّ بهذا الكتاب وهو عبدي»^(١)! ولنفس السبب غضب أخ أو ابن عم لقيصر وضرب صدر الترجمان ضربة شديدة ونزع الصحيفة من يده وهو يقول لقيصر: «كيف تنظر في كتاب رجل بدأ بنفسه قبلك، وسماك قيصر صاحب الروم وما ذكر لك ملكاً»^(٢).

بل حتى أولئك الذين كانوا بدرجة أدنى من قيصر وكسرى وكانوا عملاء لهما، كانت نظرتهم إلى سكان جزيرة العرب نظرة دونية ملؤها الازدراء، فهذا الحارث بن أبي شمر الغساني، وهو عامل لقيصر على الشام، نجده يأخذ كتاب النبي ﷺ فيقرأه ثم يرمي به ويقول: «من ينتزع مني ملكي وأنا سائر إليه..» وهذا

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٣٤ - ٣٥ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٢٢ .

هوذة بن علي والذي كان يقال له المتوَج لأن كسرى توجه، نجده يساوم النبي ﷺ بعد أن يستعرض قوته^(١).

«فمن اليسير إذ نذكر مكان الدولتين الفارسية والرومانية، أن نقدر ما يبعثه اسمهما من الرهبة إلى النفوس ومن الهيبة إلى القلوب، حتى لا تفكر دولة في التعرض لهما، ولا يدور بخلد أحد أن يفكر في غير إستمالة ودّهما»^(٢).

ولكن رسول الله ﷺ لم يتردّد في دعوة هؤلاء الملوك إلى دين الحق، وأن يفتتح كتبه باسمه الشريف، وأن يخاطبهم بعزة وكرامة وعنفوان، من دون أن يصانعهم أو يستميل ودّهم أو يخشاهم... بل ان كتبه قد أدخلت الخوف في قلوب أولئك الجبابرة كما اعترف بذلك أبو سفيان بن حرب عندما قال: «لقد عظم أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر...»^(٣).

لقد كان لمراسلة النبي ﷺ لهؤلاء الملوك... أثره في كسر حاجز الخوف والرهبة في نفوس المسلمين، وسكان الجزيرة العربية، وما دار الزمن دورته حتى تهاوت تيجان كسرى وهرقل تحت أقدام الفاتحين، وارتفعت رايات الإسلام فوق شواهد قصورهم، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثالثاً: التمهيد لدخول شعوب تلك الممالك في الإسلام

لم يكن الإسلام وتعاليمه، ودعوة الرسول ﷺ ورسالته حكرأ على العرب، وإنما أرسل الرسول ﷺ وحمل رسالة السماء «للناس كافة».

إلا أنه ولأمر قدرة الله سبحانه ظهر الإسلام، ورسالة الله الخاتمة في جزيرة العرب، فكان من الطبيعي أن يكون أوائل من يدخل في الإسلام ويؤمن برسالة

(١) المصدر نفسه ٢ / ٣٩ - ٤٠ .

(٢) هيكل، حياة محمد: ٣٨٢ .

(٣) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٣٣ .

النبي ﷺ هم من العرب، بالإضافة إلى بعض الافراد القلائل من القوميات الأخرى ممن كانوا يسكنون في مكة، والذين سجل لنا تاريخ الدعوة الإسلامية أسماءهم وجهادهم وتضحياتهم.

أما الشعوب والأمم الأخرى، فكان بينهم وبين الإسلام وتعاليمه ألف حاجب وحاجب يحول دون وصول صوت الإسلام ونداء التوحيد إليهم، وضرب عليهم ملوكهم وحكامهم طوقاً من الخوف والرعبة والاستعباد لم يكن من السهل عليهم الخروج منه، فتحولوا إلى شعوب مسحوقة الارادة، وتتحكم فيها الخرافة والتقاليد البالية، فكانت تتطلع إلى من يعيد لها كرامتها ويحررها من قيودها وأطواقها، ويغذيها بشعلة الايمان والعقيدة، وجاءت دعوة الرسول ﷺ وتعاليم الإسلام لتبلي ما يتطلعون إليه، ويرمون بأبصارهم نحوه.

وعندما نعود إلى بعض الأمور التي حفت بالاشخاص الذين حملوا رسائل النبي ﷺ والتي سجلها المؤرخ على الهامش من دون أن يولها عنايته نجد: أن شجاع بن وهب الذي حمل رسالة النبي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وصل إلى دمشق وبقي على باب الحارث يومين أو ثلاثة من دون أن يتمكن من الوصول إليه، وفي هذه الاثناء يتعرف على حاجب للحارث، فيقول شجاع: «وجعل حاجبه وكان رومياً اسمه «مري» يسألني عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه، فكنْتُ احدثه عن صفته وما يدعو إليه، فيرق حتى يغلبه البكاء، ويقول: إني قرأت الانجيل فأجد صفته وما يدعو إليه بعينه، فكنْتُ أراه يخرج بالشام، وأراه قد خرج بأرض القراظ^(١) وأنا أؤمن به وأصدق، وأخاف من الحارث أن يقتلني! ثم يقول شجاع بن وهب: .. ووصلني حاجبه مري بنفقة وكسوة وقال: «اقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام وأخبره أنني متبع دينه» فقدمت على

(١) في مراد الاطلاع للبغدادى: ٣ / ١٠٧٢ . قُراضم: موضع في المدينة، وقراضية: موضع معروف .

النبي ﷺ وأقرأته من «مري» السلام وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: صدق»^(١).

كذلك نجد المقوقس عظيم القبط، ينفرد بحاطب بن أبي بلتعة، الذي حمل رسالة النبي ﷺ إليه، ويحجبه عن الناس، وتقول الرواية: «إن المقوقس أرسل إلى حاطب ليلة وليس عنده إلا ترجمان له يترجم العربية.. ثم يسأل حاطب عن صفات النبي ﷺ ورسالته.. ثم يقول لحاطب: ولا أحب أن تُعلم محاورتي إياك.. فارحل من عندي ولا يسمع منك القبط حرفاً واحداً»^(٢).

وعندما نتأمل في هاتين القصتين يتضح لنا مقدار الخوف الذي كان يعيشه ذلك العبد المؤمن الذي سمته الرواية «مري»، ومقدار ما كان يخشاه المقوقس من أن ينتشر ذكر النبي ﷺ بين القبط!!

ولهذا مهدت رسائل النبي ﷺ إلى ملوك ورؤساء تلك الشعوب المغلوب على أمرها، أن تتطلع إلى الإسلام، ثم تدخل فيه أفواجاً وتكون من حملته ودعائه والمدافعين عن حدوده ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.

رابعاً: رسائل النبي ﷺ مهدت لفتح مكة

مما لا شك فيه أن صلح الحديبية كان يتمثل سقوط مكة بيد المسلمين، وانتهاء ممانعة وعنجهية قريش ووثنية العرب، إلا أن قريشاً كانت تتطلع إلى ما يمنع هذا السقوط الحتمي، فرمت بأبصارها صوب خيبر واليهود فخاب ظنّها بعد أن انهزم اليهود شرّ هزيمة.

وهنا وجدوا فرصتهم في رسائل النبي ﷺ إلى هرقل، وكسرى، وقد مرّت

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٣٧ - ٣٨ .

بنا قصة أبي سفيان مع هرقل حينما سأل عن النبي ﷺ فأجابه بما أجابه به وفي آخرها يقول: «يقول عظم أمر ابن أبي كبشة إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام»^(١).

فأبو سفيان وهو طاغية قريش الأكبر، قد يئس من هرقل بعد أن أجاب على كل اسئلته التي اختارها بدقة وذكاء، ولم يترك فيها المجال لأبي سفيان لكي يفتعل الكذب، فأيقن أبو سفيان بأن النبي سيظهر، ولكن جاءت قضية كسرى وانزعاجه من رسالة النبي ﷺ وارساله لبازان أن يرسل رجلين لإلقاء القبض على النبي ﷺ أو لمعرفة خبره، فوجدتها قريش فرصة لبعث الأمل في نفوسها من جديد، تقول الرواية: «فخرجوا فلما بلغوا الطائف وكان فيها حينئذ جمع من أشراف قريش مثل أبي سفيان وصفوان بن أمية وغيرهما، فسألا عن النبي ﷺ، فقالوا إنه يثرب، فلما سمع أبو سفيان وصفوان بن أمية مضمون كتاب باذان فرحا وقالوا: «مثل كسرى قام بعداوته»^(٢).

إلا أن نهاية كسرى التي لم تكن سعيدة بالنسبة لقريش، اسقطت ما بأيديهم، وقتلت فيهم كل جذوة أمل في الحيلولة بين النبي ﷺ وبين فتح مكة، وما هي إلا فترة قصيرة لم تتجاوز السنة ونيف إلا وفتحت مكة أبوابها أمام المسلمين، ودخلها رسول الله ﷺ ترفرف فوق رأسه راية الإسلام، وانتهت أسطورة قريش، وسحقت تحت أقدام المسلمين أوثانها.

٧ - الدروس والعبر

هنالك جملة من الدروس والعبر يمكن استخلاصها من خلال التأمل في مفردات وأحداث هذا الدرس، منها:

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٣٣ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٣٥ .

أولاً: اختيار الزمان والمكان المناسبين:

لقد أشرنا إلى هذه الخصوصية في أكثر من مكان في هذه الدروس، وفي هذا الدرس أيضاً، حيث وجدنا النبي ﷺ يختار الوقت المناسب والتوقيت المناسب لانجاز مهمات الدعوة سواء في الحروب والغزوات أو في ارسال السرايا والأفواج الدفاعية من المقاتلين، وتوقيت النبي ﷺ لفترة ما بعد الحديبية والأرجح ما بعد خيبر لإرسال رسائله وكتبه إلى هؤلاء الملوك، لم يكن فقط التوقيت المناسب، وإنما كان الزمن الذي ينبغي للنبي ﷺ أن يقدم فيه على مثل هذه الخطوة الكبيره دون غيرها من المقاطع الزمنية لأنها لم تكن في صالح الدعوة. ومن يقرأ سيرة رسول الله في عهدها المكي والمدني يدعن بهذا الحقيقة.

والدرس الذي نستفيده - كدعاة إلى الله سبحانه - من هذه الخصلة النبوية الحميدة درس كبير يتعلق بعامل الزمن وكيفية التعامل مع مفرداته وتوقيتاته، فنختار الزمن المناسب والمكان المناسب والظروف المناسبة للانطلاق بالدعوة إلى الناس، ولانعيش حالة الارتجال، وعدم تقدير الظروف، وإساءة التقدير، والوقت السيء، لأنّ النتائج سوف لا تكون دائماً لصالح الدعوة بل قد تنقلب إلى ضدها.

ثانياً: الثقة المطلقة بالله سبحانه:

من العوامل المهمة في حياة الإنسان المؤمن، وفي خطوات تحرك الدعوة إلى الله أن يعيش الداعية عنصر الثقة المطلقة بالله، وأن يثق بمعية الله له وأن الله معه ويسدّد خطاه، ويعطيه العزم والقوة والبصيرة... ومع فقدان عامل الثقة المطلقة بالله فإنه سرعان ما ينهار أمام القوى العاتية، والاستكبار العالمي، والمشاكل التي تحيط بالدعوة.

وقد جسّد لنا رسول الله ﷺ هذه الخصلة وكان يفيض بها على أصحابه

بقوله ﷺ: «لا تَخَفَنَّ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا».

«لقد كانت ثقة النبي ﷺ وإيمانه بالنصر لا يتزعزع، وكان واثقاً وثوق اليقين من أن الإسلام سوف ينتشر ويسود، حتى يعم نوره كل فجاج العالم، فعلى الرغم من هذا الضعف البادي يدعو النبي ﷺ ملوك العالم الأقوياء إلى اعتناق دينه، وما كان ذلك إلا لثقتة وإيمانه بقوة ربه...»^(١).

ثالثاً: سمات العزة، والصلابة، والحزم، والحلم، والحنكة السياسية، في شخصية الرسول ﷺ:

فى الوقت الذي تتطلب سوح الجهاد، وقيادة الغزوات، والأعمال العسكرية، الصلابة والحزم والشعور بالعزة، كذلك تتطلب العملية السياسية - وهي فن قيادة المجتمعات البشرية، أو فن الممكن - الحلم والحنكة والحكمة.

وكان رسول الله ﷺ يجمع بين القيادتين العسكرية والسياسية، واجتمعت في شخصه الصفات اللازمة لهما، وهي نادراً تجتمع إلا في الأشخاص الذين يعتبرون من النوارى في تاريخ البشرية.

وقد رأينا الرسول القائد ﷺ وهو يخطط ويعبىء المسلمين ويقودهم بالغزوات والحروب، في شجاعة وعزم. ورأيناه وهو يقود دفة الدولة في سياستها فيخطط وينفذ ويحاور ويكتب المواثيق والعهود، بحكمة وحنكة سياسة عالية، وحلم كبير، وتوظيف للزمان والمكان لصالح الدعوة الإسلامية.

وهذا التوازن بين القيادتين العسكرية والسياسية والتي من الصعب جداً الفصل بينهما في أعمال رسول الله ﷺ قد جلبت انتباه الكتاب والمفكرين ممن درسوا شخصية رسول الله ﷺ بمنهجية علمية كالمستشرقين، لدرجة جعلت أحد

(١) دويدار، صور من حياة الرسول: ٥٠٣ .

الكتاب الغربيين المعاصرين يقول عنه ﷺ - بعد ما وضعه على رأس قائمة القادة الذين تركوا بصماتهم على التاريخ - : «فوق ذلك، فإن محمداً ﷺ يختلف عن المسيح بأنه كان زعيماً دنيوياً، فضلاً عن أنه زعيم ديني، وفي الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمداً ﷺ يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال»^(١).

وفي ذلك درس للدعاة إلى الله والساسة، فإن هذه الصفات التي جسدها النبي ﷺ في أعماله العسكرية والسياسية، وبرزت بشكل واضح في رسائله إلى الملوك والقادة، من الصفات اللازمة للقادة والدعاة الذين يحملون الدعوة، ويؤسسون دولة، ويتولون دفة السياسة والحكم والدعوة إلى الله، ومن دون توفر هذه الصفات في الداعية والسياسي والحاكم فإن الفشل نصيبه وبامتياز، وقد لا يعتبر فشله فشلاً شخصياً، إذ يحمل البعض أو عامة الناس فشله على الإسلام!

رابعاً: الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة:

إن الرسائل والمكاتيب النبوية التي بين أيدينا، والتي نقلنا نصوص بعضها تعلمنا طريقة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، من خلال اختيار الأسلوب الأمثل في التعامل مع الحاكمين والملوك والأمراء، وحسن اختيار الألفاظ والكلمات وإيجازها، مع تعبيرها عن الفكرة التي يراد إيصالها لهم، والتأكيد على العوامل المحركة روحياً ونفسياً لهم.

فجده ﷺ يطرح قضية وحدانية الله ورسالته كقاسم مشترك بين الجميع، والذي يلزم منه رفض عبادة الأوثان لمن يعبدها، ورفض عبادة الصليب لمن يعبد الصليب، مع التأكيد على مبادئ الإسلام الخلقية والتي يلتقي عندها الناس

(١) هارت - مايكل، المائة الأوائل: ٢٤، ترجمة خالد أسعد، وأحمد غسان، دار قتيبة، القاهرة،

جميعاً، ويستحسنها العقل قبل الشرع، بالإضافة إلى طمأنة هؤلاء الحكام إلى أمر يخشون منه وهو حاكميتهم وملكهم، فكانت رسل النبي ﷺ تطمئن هؤلاء الحكام على ملكهم، وإنه سيحفظ لهم إذا دخلوا في الإسلام، مع ما لهم من أجر على هداية شعوبهم وأممهم.

وعندما نتأمل في هذه المفردات نجد لها المصداق الواضح في أسلوب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

فأين نحن من هذا الأسلوب النبوي في الدعوة؟ وأين هؤلاء الذين يزعمون أنهم من حَمَلَةِ الإسلام والدعاة إلى الله، ولا نجد في أسلوبهم إلا السباب والشتائم والتكفير للمسلمين، أو رميهم بالشرك! فهل يلتقي أسلوبهم هذا مع أسلوب النبي ﷺ وطريقة دعوته لهرقل وصليبه، وكسرى وناره ومجوسيته؟

والعجيب في الأمر، أننا نرى الكثير من هؤلاء الذين يكفرون المسلمين ويرمونهم بالشرك، والجاهلية الأولى! بل ويصدرون الفتوى التي تبيح قتلهم وسلب أموالهم... نجدهم يداهنون الحكام على فسقهم وفجورهم، ويباركون الحكام على طغيانهم، ويتزلفون إليهم... مما يوحى إلى عوام الناس بأن الإسلام قد أقر هؤلاء الحكام على ظلمهم! ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

الأسئلة:

- ١ - ما هي أبرز الملاحظات العامة حول مكاتيب النبي ﷺ ورسائله؟
- ٢ - ما هي أهم السمات والخصائص التي تميزت بها رسائل النبي ﷺ؟
- ٣ - ما هو الزمان الذي اختاره النبي ﷺ لكي يبعث برسائله؟ ولماذا؟
- ٤ - ما هي الخارطة السياسية التي شملتها رسائل النبي ﷺ؟
- ٥ - ما هي أهم النتائج والآثار لرسائل وكتب النبي ﷺ؟
- ٦ - ما هي الدروس والعبر التي نستفيد منها من رسائل النبي ﷺ؟

الدرس الثالث والعشرون

أحداث السنة السابعة من الهجرة

(عمرة القضاء)

محاوّر البحث

- ١ - السرايا السابقة لعمرة القضاء وأحداثها
 - ٢ - تاريخ الخروج لعمرة القضاء وأسبابها
 - ٣ - كيفية خروج رسول الله ﷺ ومن معه ، وعددهم
 - ٤ - اخراج السلاح تحسباً من غدر قريش
 - ٥ - كيفية دخول رسول الله ﷺ إلى مكة لأداء العمرة
 - ٦ - كيفية عمرة رسول الله ﷺ كما نقلها المؤرخون
 - ٧ - مدة بقاء رسول الله ﷺ في مكة وتاريخ خروجه منها
 - ٨ - زواج النبي ﷺ من ميمونة بنت الحارث
 - ٩ - آثار ونتائج عمرة القضاء
 - ١٠ - الدروس والعبر
- الأسئلة

عمرة القضاء

١ - السرايا السابقة لعمرة القضاء وأحداثها

عاشت المدينة بعد غزوة خيبر المظفرة، فترة هدوء نسبية، لم تشهد خلالها أي غزوة كبيرة، وعاش المسلمون حينها فترة استراحة المقاتل الذي يعيش حالة اليقظة والتأهب تحسباً لكل طارئ.

وخلال هذه الفترة كان النبي ﷺ قد أرسل رُسله إلى الملوك والأمراء.. . وكان يتلقى أجوبتهم وردود أفعالهم من خلال عودة أولئك المبعوثين.

وفي نفس الوقت كان ﷺ يبعث بعض السرايا الصغيرة إلى الأطراف والنواحي لتأديب بعض أعراب البادية، أو لردعهم عن الاغارة على أطراف المدينة، فكانت بمثابة سرايا استباقية تستبق أي طارئ يحتمل حصوله، وفي نفس الوقت كانت هذه السرايا بمثابة الحركة الدورية التي تبعد عن المقاتلين الكسل والسأم والملل.

وقد أهمل ابن هشام في السيرة ذكر تفاصيل هذه السرايا سواء السابقة منها لعمرة القضاء أو اللاحقة لها، وإنما أشار إليها إشارة عابرة، إلا أن الواقدي ذكرها في مغازيه، وابن سعد في طبقاته^(١) وهي السرايا التي سبقت عمرة القضاء، وهنالك سرايا أخرى ذكرها بعد عمرة القضاء وقبل غزوة مؤتة.

وفيما يلي فهرسة مختصرة لهذه السرايا بحسب رواية الواقدي وابن سعد:

١ - سرية عمر بن الخطاب، في شعبان سنة سبع إلى عَجُز هوازن بترية،

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٢٢ - ٧٣١، ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٠٨ - ٣١٠.

على طريق صنعاء ونجران، ولم يقع فيها قتال، إذ أتى الخبر هوازن فهربوا.

٢ - سرية أبي بكر إلى بني كلاب بنجد، في شعبان سنة سبع، إلى فزارة، ووقع فيها قتال يسير وغنم المسلمون بعض الغنائم.

٣ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك، في شعبان سنة سبع ولم يقع في أولها قتال، وغنم المسلمون غنائم من النعم والشاء وانحدروا إلى المدينة، إلا أن بني مرة لحقوا بهم وحملوا عليهم وقتلوه، ولم ينج من المسلمين إلا رجلين فقط، وكان عدد المسلمين بحسب الرواية ثلاثين رجلاً.

٤ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى المَفِيفَةِ بناحية نجد في رمضان سنة سبع، وخرج غائب في مائتي رجل بحسب رواية الواقدي، أو في مائة وثلاثين رجلاً، بحسب رواية ابن سعد، ووقع فيها قتال، حيث قتل المسلمون من أشرف لهم من بني عُوال وبني ثعلبة واستاقوا نَعَمًا وشاءً وانحدروا إلى المدينة.

وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد الرجل الذي قال: «لا إله إلا الله» وعندما عاد إلى المدينة قال له رسول الله قتلته يا أسامة، وقد قال لا إله إلا الله؟ فقال أسامة: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً من القتل! فقال رسول الله ﷺ: «ألا شققت قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب».

٥ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى اليمن وجبار، في شوال سنة سبع، وغنم فيها المسلمون من دون قتال^(١).

٢ - تاريخ الخروج لعمره القضاء^(٢) وأسبابها

كانت إحدى شروط صلح الحديبية، أن يعود رسول الله ﷺ ومن معه إلى

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٢٥، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٠٩.

(٢) سميت هذه العمرة، بعمرة القضاء، وعمرة القصاص، وعمرة الصلح. (انظر السهيلي في الروض الأنف: ٤ / ٧٦).

المدينة في سنتهم تلك ولا يدخلوا مكة، على أن يعودوا إليها بعد عام وليس معهم سلاح إلاّ سلاح المسافرين، وهو السيوف في القرب، وأن تكون مدة إقامتهم في مكة ثلاثة أيام ولا تزيد على ذلك.

وبعد مرور سنة من صلح الحديبية، جاء الموعد المتفق عليه لأداء هذه العمرة فكانت عمرة رسول الله القضية، في ذي القعدة سنة سبع من مهاجرة^(١).

قال ابن إسحاق: «... ثم خرج ﷺ في ذي القعدة في الشهر الذي صدّه فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء، مكان العمرة التي صدّوه عنها... ويقال لها عمرة القصاص، لأنهم صدّوا رسول الله في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست فاقتصر رسول الله منهم، فدخل مكة في ذي القعدة، في الشهر الحرام الذي صدّوه فيه، من سنة سبع، وبلغنا عن ابن عباس أنّه قال: فانزل الله في ذلك: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾^(٢)

فالملاحظ من النص التاريخي أن خروج النبي ﷺ في سفرته هذه، ما هو إلاّ خروج سلبي عبادي، وسببه ما ذكره النص وهو أداء العمرة التي كان ينبغي أن يؤديها في العام الماضي، إلاّ أن خروج النبي ﷺ في الموعد المحدد في وثيقة الصلح له دلالاته التي سوف نتوقف عندها في نهاية الدرس.

٣ - كيفية خروج رسول الله ﷺ ومن معه، وعددهم

قال الواقدي: «أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمروا قضاءً لعمرتهم، وألاّ يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف أحد شهداها إلاّ رجال استشهدوا بخير ورجال ماتوا، وخرج مع رسول الله ﷺ قوم من المسلمين سوى أهل الحديبية ممن لم يشهد صلح الحديبية عُمَاراً، فكان المسلمون في عمرة القضية ألفين».

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٠ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٧٠ .

ثم يذكر الواقدي: «فقال رجال من حاضر المدينة من العرب، والله يا رسول الله ما لنا من زاد، وما لنا من يطعمنا، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا في سبيل الله، وأن يتصدقوا، وألا يكفوا أيديهم فيهلكوا، قالوا: يا رسول الله، بِمَ نتصدق وأحدنا لا يجد شيئاً؟ قال رسول الله ﷺ: بما كان، ولو بشق تمر، ولو بمشقص^(١) يحمل به أحدكم في سبيل الله، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٢) عن حذيفة قال: نزلت هذه الآية في ترك النفقة في سبيل الله»^(٣).

إلا أن ما ذكرته الرواية من عدم وجود زاد لدى رجال من المدينة، وعدم وجود ما ينفقونه في سبيل الله، فيه تأمل! فإن عمرة القضاء جاءت به واقعة غزوة خيبر التي غنم فيها المسلمون من الأموال والأنعام والذهب والفضة.. والذي فاق ما غنموه في كل غزواتهم السابقة، فكيف يشكون الفقر، وعدم وجود الطعام، وعدم وجود ما يُطعم؟! وهل كُتب على المسلمين أن يعيشوا حالة الفقر والتسول إلى آخر عمرهم؟

ثم إن الآية الكريمة - التي جعلوا هذه القضية سبباً لنزولها - من سورة البقرة، وسورة البقرة من أوائل السور التي نزلت في المدينة، أو أول سورة نزلت في المدينة^(٤)، فهل بقيت هذه الآية معلقة في الهواء إلى السنة السابعة حتى جاء سبب نزولها؟

والذي يبدو، أن الآية الكريمة لها مناسبة أخرى، وسبب نزول آخر، وقد تكون في بعض الوقائع التي سبقت واقعة غزوة خيبر، حيث كان المسلمون في

(١) المَشَقَص: نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض (النهاية لابن الأثير).

(٢) البقرة: ١٩٥.

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣١ - ٧٣٢. وانظر أسباب النزول للواحي: ٣٤ - ٣٥.

(٤) السيوطي، الدر المنثور: ١ / ٤٢، وأسباب النزول للواحي: ١٢.

المدينة يعانون الفقر والفاقة وبالشكل الذي وصفته الرواية، وليس لها صلة بعمرة القضاء ولهذا لم يذكرها ابن إسحاق، ولا ابن سعد في وقائع هذه العمرة.

ومهما يكن من أمر، فقد ذكر الواقدي وابن سعد، أن رسول الله: «قد ساق ستين بَدَنَةً وجعل على هديه ناجية بن جندب الأسلمي، يسير بالهدي أمامه يطلب الرعي في الشجر، معه أربعة فتیان من أسلم»^(١).

٤ - اخراج السلاح معهم تحسباً من غدر قريش

ومن الاجراءات الاحترازية التي اتخذها النبي ﷺ في خروجه إلى مكة معتمراً، هو حمله السلاح معه، تحسباً من أي طارئ قد يحصل هناك.

روى الواقدي وابن سعد: «حمل رسول الله ﷺ السلاح والبيض والدروع والرماح، وقاد مائة فرس، فلما انتهى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه، وهي مائة فرس عليها محمد بن مسلمة، وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد. فقيل: يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا علينا ألا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافرين، السيوف في القرب! فقال ﷺ: إنا لا ندخلها عليهم الحرم، ولكن تكون قريباً منا، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا.

قيل: يا رسول الله، تخاف قريشاً على ذلك؟ فأسكت (هكذا) رسول الله ﷺ وقدم البدن»^(٢).

هذه العبارة الأخيرة التي ذكرها الواقدي، لم يذكرها ابن سعد في الطبقات، أما ابن اسحاق فلم يتعرض لقضية حمل السلاح من قبل النبي ﷺ.

وقد وردت العبارة بلفظة «فأسكت رسول الله!» وفيها نوع من اساءة الأدب في الحديث مع رسول الله ﷺ ولعل الكلمة فيها نوع من التصحيف فتكون

(١) (٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٢، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٠.

«فَسَكَتَ رسول الله»، فيكون معناها أن رسول الله ﷺ لم يرَ فائدة في الاسترسال في الأجوبة على الأسئلة المتتالية لهذا السائل والذي يبدو أنه شخص واحد لم تذكر الرواية اسمه.

ومهما يكن من أمر: تقول الرواية: «ومضى محمد بن مسلمة بالخييل إلى مرّ الظهران»^(١)، فيجد بها نفراً من قريش، فسألوا محمد بن مسلمة، فقال هذا رسول الله، يصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله. فأرأوا سلاحاً كثيراً مع بشير بن سعد، فخرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً فأخبروهم بالذي رأوا من الخيل والسلاح، ففزعت قريش فقالوا: والله ما أحدثنا حدثاً، ونحن على كتابنا ومدتنا، ففيم يغزونا محمد في أصحابه؟ ونزل رسول الله ﷺ مرّ الظهران، وقدم السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى انصاب الحرم وبعث قريش مكرز بن حفص ونفر من قريش حتى لقوه بطن يأجج، ورسول الله ﷺ في أصحابه والهدي والسلاح.

فقالوا: يا محمد! والله ما عُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلاّ بسلاح المسافر، السيوف في القُرب! فقال رسول الله: لا ندخلها إلاّ كذلك.

ثم رجع - مكرز - سريعاً بأصحابه إلى مكة، فقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح وهو على الشرط الذي شرط لكم»^(٢).

وهكذا التزم رسول الله ﷺ بما اتفق عليه مع قريش في الحديبية، فلم يدخل مكة مع أصحابه إلاّ بالسيوف في قربها، «وخلف مائتي رجل على السلاح، عليهم أوس بن خولي»^(٣).

(١) موضع قريب من مكة .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٤ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٧٣٥ .

٥ - كيفية دخول رسول الله ﷺ إلى مكة لأداء العمرة

سجل الواقدي وغيره من المؤرخين الهيئة التي دخل فيها رسول الله ﷺ إلى مكة مع أصحابه لأداء العمرة، إلا أن رواياتهم تداخلت بين التي تحكي لنا هيئة الدخول وكيفيته، وبين التي تتحدث عن أداء مناسك العمرة. والذي يهمنا هو معرفة كيفية أداء الرسول ﷺ لمنسك العمرة، باعتبار أن عمله ﷺ حجة شرعية يستند إليها في أداء العبادات، وقد روي عنه ﷺ: «خذوا عني مناسككم».

أما كيفية دخوله إلى مكة فقد روى الواقدي: «وخرج رسول الله ﷺ وأصحابه رحمهم الله ورسول الله ﷺ على راحلته القَصَواء، وأصحابه محدقون - به - متوشحوا السيوف يُلَبُّون، فلما انتهى إلى ذي طوى، وقف رسول الله ﷺ على راحلته القَصَواء والمسلمون حوله، ثم دخل من الثنية التي تطلعه على الحَجَّون على راحلته القَصَواء وابن رواحه أخذ بخطام ناقته - وهو - يقول:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فَكُلَّ الْخَيْرِ مَعَ رَسُولِهِ
نَحْنُ ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيَذْهَلُ الْخَلِيلُ عَنْ خَلِيلِهِ^(١)
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

هنا تدخل عمر بن الخطاب، عندما رأى في أبيات ابن رواحه نذير حرب وقد تستفز مشاعر قريش بحسب تصوره! إلا أنه قد غفل أن ابن رواحه أخذ بناقة النبي ﷺ وهو يسمع ما يقوله من شعر، ويفهم جيداً مضامينها!!

تقول الرواية: «فقال عمر: يا ابن رواحه إيها! فقال رسول الله ﷺ: يا عمر، إني اسمع! فأسكت عمر، وقال رسول الله ﷺ: إيها يابن رواحة، قل: «لا إله

(١) ابن هشام، سيرة النبوة: ٤ / ٣٧١، وابن سعد، الطبقات ٢ / ٣١٠، والواقدي، المغازي: ٧٣٦/٢ مع اختلاف وتقديم وتأخير في الأبيات الشعرية.

إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده» فقالها ابن رواحه، فقالها الناس^(١).

بهذه الكيفية دخل رسول الله ﷺ مكة، وهي كيفية تنم عن عزة وصلابة إيمان واحتجاج إلى وقفة تأمل تأتينا في نهاية الدرس.

وقبل أن ندخل في تفاصيل كيفية أداء رسول الله ﷺ لعمرته - وهي نقطة مهمة كما أسلفنا - لا بد أن نتوقف عند أبيات عبد الله بن رواحه، فقد سجل ابن هشام تحفظه عليها من حيث نسبتها، ومن حيث مضمونها فقال: «نحن قتلناكم على تأويله..» إلى آخر الأبيات، لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم، والدليل على ذلك أن ابن رواحه إنما أراد المشركين، والمشركون لم يقرّوا بالتنزيل، وإنما يقتل على التأويل، من أقرّ بالتنزيل^(٢).

وتحفظ ابن هشام في محله، إذ إن الأبيات قد قالها عمار بن ياسر في يوم صفين، كما أشار إلى ذلك ابن هشام، وأيده السهيلي في «الروض»^(٣) وذكرها نصر بن مزاحم في كتابه وقعة صفين^(٤).

وقد احتمل الحلبي أن يكون ما قاله عمار بن ياسر يوم صفين، هو من كلام عبدالله بن رواحه، وتمثل به عمار^(٥)! إلا أنّ هذا الاحتمال وإن كان ممكناً في نفسه، إلا أنه لا يحل الاشكال الذي أشار إليه ابن هشام، إذ خطاب ابن رواحه للمشركين، والمشركون لم يقرّوا بالتنزيل فكيف يحاربون ويقاتلون على التأويل؟

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٠ - ٣١١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣ / ٣٧٢.

(٣) السهيلي، الروض الأنف: ٤ / ٧٧.

(٤) المنقري - نصر بن مزاحم، واقعة صفين: ٣٤١.

(٥) الحلبي، سيرة الحلبي: ٣ / ٩٣.

بقي أننا لم نفهم سبب انزعاج عمر بن الخطاب من الأبيات التي كان يرددها ابن رواحه، حتى قال له: «يا ابن رواحه إيها!» وهو نوع من النهي الذي قد يستبطن الوعيد والتهديد، وفي رواية الحلبي، قال له عمر: «مه يا ابن رواحه.. فقال رسول الله ﷺ: خلّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل»^(١).

وربما يكون عمر قد قدّر أن هذه الأبيات لا تتناسب مع الأجواء العبادية والطواف حول الكعبة! أو أنها تستفز المشركين! أو أنه لم يستأذن النبي ﷺ انشاد الشعر! إلا أن كلّ هذه الاحتمالات لا يمكن الركون إليها، لأنّ الأبيات قد قيلت في محضر رسول الله ﷺ ولم يردع عنها، بل إنه ﷺ قد أيد مضمونها لأنها أسرع فيهم من نضح النبل، كما ورد في الرواية.

٦ - كيفية عمرة رسول الله ﷺ كما نقلها المؤرخون

إن أعمال العمرة، كعمل عبادي توقيفي، يبدأ بالاحرام، وينتهي بالتقصير أو الحلق الذي هو بمثابة الاحلال من العمرة، ويتخلل ذلك بعض الأعمال العبادية.

وعندما نعود إلى روايات المؤرخين لأول عمرة لرسول الله ﷺ نجدهم لا ينقلون جميع الأعمال العبادية التي قام بها رسول الله ﷺ في هذه العمرة، بالإضافة إلى تداخل الروايات الحاكية لأعمال العمرة مع روايات أخرى جاءت في سياق الأحداث المتسلسلة.

ولهذا حاولنا أن نجمع الروايات الحاكية عن أعمال العمرة التي قام بها النبي ﷺ بدءاً من احرامه من المدينة إلى إحلاله منه في مكة، وذلك من خلال ضم الروايات بعضها إلى جانب بعض بحسب تسلسلها العبادي لنخرج بصورة

- ولو مجملة - لعمل النبي ﷺ في عمرته باعتبارها حجة علينا.

يروى الواقدي: «وأحرم رسول الله ﷺ، من باب المسجد ولبنى والمسلمون معه يلبنون»^(١) ولا ندري أي مسجد تقصده الرواية هل هو المسجد النبوي في المدينة؟! أم أنه مسجد الشجرة في ذي الحليفة، والذي هو ميقات أهل المدينة ومن يمرّ عليها، والذي أحرم منه رسول الله ﷺ في خروجه إلى الحُدَيْيَةِ كما مرّ بنا سابقاً؟

والتعليل الذي يذكره الواقدي بقوله: «أحرم رسول الله ﷺ من باب المسجد، لأنه سلك إلى طريق الفرع، ولولا ذلك لأهلّ من البداء»^(٢) لا يوضح لنا بشكل دقيق مكان احرام رسول الله ﷺ لأن الفرع من أعراض المدينة ونواحيها^(٣) ولا ندري أن طريق الفرع في ذلك الوقت هل كان يمرّ على ذي الحليفة أم لا؟ والذي يبدو من ابن سعد أن رسول الله ﷺ قد مرّ بذي الحليفة، فلا بد أن يكون احرامه منها، أي من باب مسجد ذي الحليفة وليس من باب المسجد النبوي، يقول ابن سعد: «فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه وعليها محمد بن مسلمة.. وأحرم رسول الله ﷺ من باب المسجد ولبنى، والمسلمون معه يلبنون»^(٤) فهذه الرواية يمكن أن نستفيد منها أن احرام رسول الله ﷺ وتلييته كان من باب مسجد الشجرة في ذي الحليفة، وليس من المسجد النبوي، إذ ليس من المعقول أن يخرج رسول الله ﷺ إلى ذي الحليفة ولا يحرم منه، ثم يعود إلى المدينة ليحرم من باب مسجدّها!!

ومهما يكن من أمر، فإنّ أول عمل عبادي لأداء العمرة قام به النبي ﷺ هو

(١) ابن سعد، طبقات: ٢ / ٣١٠ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٣ .

(٣) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة (فرع) .

(٤) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٠ .

الاحرام والتلبية، وساق معه الهدى ستين بدنة، وفي الرواية: «قَلَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يديه بيده هو بنفسه»^(١).

ثم تحدثنا الرواية عن استمرار تلبية النبي ﷺ ومن معه حتى دخوله إلى مكة أو إلى البيت الحرام، ففي رواية الواقدي: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقْطَعْ التَّلْبِيَةَ حَتَّى جَاءَ عُروْشَ مَكَّةَ»^(٢).

وفي رواية أخرى عن أسامة بن زيد: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَبَّى حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ»^(٣) واستدامة التلبية من الأمور التي ينص الفقهاء على استحبابها.

أما طواف رسول الله ﷺ حول البيت الحرام، فالروايات مجملة في هذا المجال، ولا تعطينا صورة واضحة عن عدد الأشواط التي طافها، ولا عن كيفية طوافه ولا يوجد ذكر لركعتي الطواف!!..!!

في رواية أم عمارة قالت: «شَهِدْتُ عَمْرَةَ الْقُضَيْيَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . . . فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ انْتَهَى إِلَى الْبَيْتِ . . . حِينَ دَنَا مِنَ الرُّكْنِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِ، فَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ بِمَحْجَنِهِ مُضْطَبِعاً»^(٤) بثوبه - وطاف - على راحته والمسلمون يطوفون معه، قد اضطبعوا بثيابهم»^(٥).

ويحدثنا ابن إسحاق عن طواف رسول الله ﷺ بإضافة بعض التفاصيل فيقول: «وَتَحَدَّثْتُ قَرِيشَ بَيْنَهَا أَنْ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فِي عُسْرَةٍ وَجَهْدٍ وَشِدَّةٍ . .

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٣ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٧٣٥، عروش مكة: أي بيوتها .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٥، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٠ .

(٤) الاضطباع: هو أن يأخذ الإزار أو البرد فيجعل وسطه تحت ابطنه الأيمن، ويلقي طرفيه على كتفه الأيسر (النهاية) .

(٥) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٥ - ٧٣٦، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٠ .

وعن ابن عباس، قال: صَفُّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطجع بردائه، ثم استلم الرُّكن، وخرج يهرول^(١)، ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراها البيت منهم، واستلم الركن اليماني، مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هروا كذلك ثلاثة أطواف^(٢). والذي يبدو أن كيفية الاحرام من خلال الكشف عن العضد الأيمن، والذي يصطلح عليه «الاضطباع» وكذلك كيفية الطواف من خلال الهرولة. . لم يكن اجراءً تشريعياً تعبدياً، وإنما هو اجراء لظهار القوة أمام قريش المجتمعة في دار الندوة، وهم ينظرون إلى المسلمين، قد أشاعوا قبلها أنهم أصابهم الوهن والضعف والشدة، وهذا هو مغزى قول رسول الله ﷺ: «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة».

إلا أن بعضهم استفاد من هذه الكيفية في طواف الرسول ﷺ كتشريع مستمر من بعده ﷺ ولو على نحو الاستحباب^(٣).

إلا أن المروي عن أهل البيت ﷺ: «إنه ﷺ قد اكتفى بالرمل، وبكشف عضده، وإنه فعل ذلك في عمرة القضاء» ثم حجَّ رسول الله ﷺ بعد ذلك فلم يرمل، ولم يأمرهم بشيء بذلك^(٤).

أما بقية أعمال عمرة النبي ﷺ فقد أوجزها المؤرخون من دون أن يذكروا أي تفاصيل.

فقد روى الواقدي، عَمَّن حدثه عن ابن عباس قال: «طاف رسول الله ﷺ بالبيت، وبين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الطواف السابع عند المروة

(١) الهرولة: فوق المشى ودون الجرى، ويسمى أيضاً الرَّمْل.

(٢) السيرة النبوية: ٤ / ٣٧١.

(٣) الزحيلي - وهبة، الفقه الإسلامي وأدلته: ٣ / ١٥٣.

(٤) انظر: وسائل الشيعة، كتاب الحج: ٣ / ٣٥٣، الحديث ١٧٩٢٦.

عند فراغه، وقد وقف الهدي عند المروة، فقال رسول الله ﷺ: هذا المنحر، وكلُّ فِجَاجٍ مَكَّةَ منحر، فنحر عند المروة، وقال ابن واقد: وكان قد اعتمر مع النبي ﷺ قوم لم يشهدوا الحديبية فلم ينحروا، فأما من كان شهد الحديبية، وخرج القضية - أي عمرة القضاء - فإنهم شركوا في الهدي... وفي رواية: إن خِراش بن أمية حلق رأس رسول الله ﷺ عند المروة، وفي رواية أخرى: إن الذي حلقه ﷺ معمر بن عبد الله العدوي^(١).

هذه هي الصورة المجملّة لأعمال العمرة التي أداها رسول الله ﷺ في هذه الرحلة والتي أطلق عليها تاريخياً بـ«عمرة القضية» وقد جمعنا شتات رواياتها واستخلصناها من بين الروايات التاريخية الأخرى، إلا أنها روايات مجملّة لا تعطينا فكرة واضحة وتفصيلية عن أعمال العمرة التي أداها رسول الله ﷺ في هذه السنة.

إلا أن الذي يهون الخطب، أن أعمال الحج والعمرة التي أداها رسول الله ﷺ في آخر حج له والتي تعرف بـ«حجة الوداع» قد سجلت تفاصيلها بدقة، ورويت عن أهل البيت ، ورواها مسلم في صحيحه^(٢): تحت عنوان (صفة حجة النبي ﷺ عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه الباقر ) برواية جابر بن عبد الله الأنصاري، «وهو حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد، ونفائس من مهمات القواعد، وأحكام الفقه التي بلغت نيفاً وخمسين نوعاً كما ذكر الإمام النووي»^(٣).

وسوف يأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن حجة الوداع إن شاء الله.

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٦ - ٧٣٧، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١١.

(٢) صحيح مسلم: ٨ / ١٧٠ - ١٩٥.

(٣) زحيلي، الفقه الاسلامي وأدلته: ٣ / ٢١٣٧.

٧ - مدة بقاء رسول الله ﷺ في مكة وتاريخ خروجه منها

أنهى رسول الله ﷺ مناسك العمرة، وحلّ من احرامه، ولم يخرج من الكعبة - بيت الله الحرام - وإنما بقي فيها «فلم يزل فيها إلى الظهر» حيث دخل وقت صلاة الظهر، فلا بد من أداء هذه الصلاة، في الكعبة وبمظهر احتفالي عبادي يؤدي فيه رسول الله ﷺ والمسلمون فريضتهم، وتظهر للمشركين عظمة الإسلام وجلالة شعائره الدينية، وعلى مرأى ومسمع منهم.

ولابد من الإشارة إلى تهافت الروايات واضطرابها حول بقاء أهل مكة فيها عندما دخلها رسول الله ﷺ أو خروجهم منها، ففي بعض الروايات: «وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال، وخلّوا مكة» وقالوا: «ولا ننظر إليه ولا إلى أصحابه»^(١).

وفي رواية ابن إسحاق: «... فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه، وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه في عُسرة وجهد وشدة» إلا أنه يروى بعدها مباشرة عن ابن عباس قوله: «صَفُّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطجع بردائه، وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة»»^(٢).

والذي يبدو من خلال الجمع بين هذه الروايات أن قريشاً قد خرجت من مكة وأخلتها لرسول الله ﷺ، ليس حباً بالنبي ومن معه، أو احتراماً له، بل حقداً وغيضاً وكرهية، فهم لا يحتملون أن يروا النبي ﷺ والمسلمين بين أظهرهم سالمين ولا يعترض لهم أحد بمكروه، ويؤدون شعائرتهم بحرية تامة.

ثم بدا لهم بعد ذلك العودة إلى مكة ليشيعوا بين أهلها ضعف المسلمين

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٠، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٧٠ - ٣٧١.

وأنهم أوهنتهم حمى يثرب، وأنهم ما يتباعثون من العجف^(١)، فصدقوا كذبتهم واشاعتهم التي كذبوها واشاعوها بأنفسهم، فصَفُّوا له عند دار الندوة لينظروا، فعلم رسول الله ﷺ ما أشاعوه حول المسلمين - وهو العارف بنفسية قريش وكيدها - فأظهر لهم القوة من نفسه ومن أصحابه، من خلال الاضطباع والهرولة، فأسقط ما بأيدي قريش، وانكشف كذبهم وتضليلهم فجاءهم الاعتراض من قبل أولئك الذين أرادوا تضليلهم، عندما شاهدوا مظاهر القوة في المسلمين فقالوا: «هؤلاء الذين زعمتم: أن الحمى قد أوهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا (أو أجلد منا)، (أو ما يرضون بالمشي) أما إنهم لينفرون نفر الطيبي»^(٢).

ومهما يكن من أمر، فعندما دخل وقت صلاة الظهر، ورسول الله ﷺ وأصحابه الذين بلغ عددهم الألفين حاضرون في الكعبة «أمر بلالا فأذن على ظهر الكعبة»^(٣).

نعم بلال بن رباح، العبد الأسود الحبشي، الذي كان يُعَذَّب بأيدي قريش، وكانت سياطهم تتلوى على ظهره، هاهو الآن في مكة، بل على سطح الكعبة، أشرف بقعة على وجه الأرض، ثم إنه يرفع صوته بفصول الأذان من التوحيد، إلى الرسالة، إلى الدعوة للفلاح... ويردد معه المسلمون هذه الفصول الإيمانية، والكلمات الإلهية النورانية، بجلال وخشوع وروحانية.

فكيف تحتمل قريش ذلك؟ وهي التي خاضت حرباً ضروساً من أجل القضاء على التوحيد والرسالة والحفاظ على الشرك وعبادة الأصنام والأوثان؟

ولهذا كانت ردود أفعالهم النفسية شديدة، عكستها كلماتهم التي سجلها

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٣ / ٤٣٧ .

(٢) الصحيح من سيرة النبي: ١٩ / ١٧٧ - ١٧٨ وانظر مصادره في هامش الصفحة .

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١١، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٧ .

المؤرخون من أفواه بعض عتاتهم ومتجبريهم، فقال: «عكرمة بن أبي جهل: لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول!»!

وقال صفوان بن أمية: «الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا!»!

وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم! حين يقوم بلال بن أم بلال ينهق فوق الكعبة! وقال الحارث بن هشام: وا ثكلاه! ليتني مت قبل هذا اليوم...».

وأما سهيل بن عمرو ورجال معه، فحين سمعوا ذلك غطوا وجوههم^(١).

هكذا مات رجال قريش بغيضهم وهم أحياء، وأخذوا يترحمون على موتاهم الذين لم يشهدوا هذا اليوم! وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾^(٢).

ويذكر المؤرخون أن رسول الله ﷺ بعد أن انتهى من مناسك العمرة «أمر مائتين من أصحابه حين طافوا بالبيت أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا»^(٣).

وبقي رسول الله ﷺ وأصحابه في مكة ثلاثة أيام بحسب ما كان لهم من شرط الحديبية، وكانوا خلافها يغدون ويروحون في أرجاء مكة آمنين، ويذكر المؤرخون بأن رسول الله ﷺ وخلال هذه الفترة لم ينزل في بيت من بيوت مكة، وبحسب تعبير الواقدي: «وكان رسول الله ﷺ لم ينزل بيتاً، وضربت له قبة من الأدم بالأبطح، فكان هناك حتى خرج منها، ولم يدخل تحت سقف بيت من

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٧ - ٧٣٨، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٧ / ٢٨٤.

(٢) آل عمران: ١١٩.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٧٤٠.

بيوتها»^(١).

ولعل هذا الاجراء الذي اتخذه النبي ﷺ أراد به أن يفهم قريشاً بأنه لا ينوي البقاء في مكة، وإلاّ لو كان يريد البقاء لنزل في بيوت أهله وهي كثيرة.

أو لعله لدواعي أمنية، فإنّ سكّنه في الأبطح - وهي منطقة مكشوفة - وبين أصحابه، أكثر أماناً من أن ينزل في بيت من بيوت مكة الضيقة والتي يمكن أن تدبر قريش خطة لاغتياله فيها!

ومهما يكن من أمر، فإنّ قريشاً قد أخرجت كثيراً من وجود رسول الله ﷺ وأصحابه في مكة، وكان وجوده وأصحابه ثقيلاً عليها، فكانت تحسب الأيام والساعات واللحظات لخروجه، فما كادت الأيام الثلاثة أن تنتهي حتى بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أخرج من أرضنا فقد انقضى أجلك!

وفي رواية أن رجال قريش «أتوا عليّاً عليه السلام فقالوا له: قل لصاحبك يخرج عنا فقد انقضى «الأجل»»^(٢).

وفي رواية أن الواقدي: «فلما كان الظهر يوم الرابع، أتى سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى - ورسول الله في مجلس من مجالس الأنصار يتحدث، ومعه سعد بن عبادة - فقالا: قد انقضى أجلك، فأخرج عنا! فقال النبي ﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعاماً؟ فقالا: لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنا! ننشدك الله يا محمد والعهد الذي بيننا وبينك إلاّ خرجت من أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت!.. فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظة كلامهم للنبي ﷺ فقال لسهيل: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا أرض أبيك، والله لا يبرح منها إلاّ طائعاً راضياً.

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٧٤٠ .

(٢) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٦٣ .

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: يا سعد، لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا»
وأسكت الرجلان عن سعد.

ثم أمر رسول الله ﷺ أبا رافع بالرحيل، وقال: لا يمسين بها أحد من المسلمين، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل سرف، وتأم الناس...»^(١).

٨ - زواج النبي ﷺ من ميمونة بنت الحارث

ذكر المؤرخون أن رسول الله ﷺ قد تزوج في سفره هذا بآخر زوجة له، وهي ميمونة بنت الحارث، وهي آخر من توفيت منهن بحسب رواية المؤرخين^(٢).

وقد اختلفت الروايات في كيفية زواجه ﷺ من ميمونة، هل خطبها قبل أن يصل إلى مكة؟ أم أنه خطبها في مكة؟ وهل تزوجها في حالة الاحرام؟ أم بعد الاحلال من احرامه؟

ففي رواية الواقدي: «عن ابن عباس، أن النبي ﷺ خطب ميمونة وهو مُحرم، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، فزوّجها النبي ﷺ وهو مُحرم!» ثم ينقل رواية عن سعيد بن المسيّب قال: «لما حلّ رسول الله ﷺ تزوّجها»^(٣).

وفي رواية ابن إسحاق: عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث في سفره ذلك وهو حرام، وكان الذي زوّجها إياها العباس بن عبد المطلب.

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٩ - ٧٤٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٧٢.

(٢) الديار بكري: تاريخ الخميس: ٢ / ٦٥.

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٨، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٦٤.

قال ابن هشام: وكانت - أي ميمونة - جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل، وكانت أم الفضل تحت العباس - أي زوجته - فجعلت أم الفضل أمرها إلى العباس، فزوجه رسول الله ﷺ بمكة، وأصدقها عن رسول الله ﷺ أربعمائة درهم^(١). ثم يذكر كل من الواقدي وابن إسحاق: «فخرج رسول الله ﷺ - من مكة - وخلف أبا رافع موله على ميمونة، حتى أتاه بها بسرف^(٢) فبنى بها رسول الله ﷺ هناك، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة في ذي الحجة^(٣)».

وهناك روايات تشير إلى أن رسول الله ﷺ قد أوكل إلى أبي رافع موله في أمر خطبة ميمونة وقال بعضهم، الصحيح هو: أن جعفر بن أبي طالب هو الذي خطبها له ﷺ وكان النبي ﷺ قد بعث جعفرأ بين يديه من أجل ذلك^(٤).

وقد وقع كلام طويل بين المؤرخين والمحدثين والفهاء حول زواج رسول الله ﷺ وهو محرم! - كما في رواية ابن عباس - إذ من المعروف فقهيًا، أن المتلبس بالاحرام لا يحل له الزواج، فكيف أقدم رسول الله ﷺ على ذلك؟

وحاول بعضهم حل هذا الاشكال الفقهي بجعل ذلك من خصائص النبي ﷺ^(٥) التي انفرد بها من دون أمته، وعليه فلا يوجد اشكال فقهي كي نسعى إلى حله!

إلا أن ثبوت هذه الخصوصية للنبي ﷺ تحتاج إلى إثبات، وليس لدينا ما يثبت ذلك! ولهذا حاول بعض آخر أن يحل الاشكال بقوله: تزوجه وهو محرم،

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٧٤. والديار بكري: تاريخ الخميس: ٢ / ٦٤.

(٢) سرف: موضع قرب التنعيم.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٧٢، والواقدي: ٢ / ٧٤٠ - ٧٤١.

(٤) انظر: السيرة الحلبيه: ٣ / ٩١، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٦٤.

(٥) المصدر نفسه: ٣ / ٩٢، والسنن الكبرى للبيهقي: ٧ / ٥٨.

وبنى بها وهو حلالاً^(١)!

وهذا يعني انه خطبها وعقد عليها في حال الاحرام، ثم دخل بها وهو محل! وهذا أيضاً لا يحل الاشكال الفقهي، لأن المحرم لا يجوز له الخطوبة ولا العقد وهو في احرامه!

إلا أن الصحيح في هذه القضية هو ما ذكرته رواية سعيد بن المسيب: «لما حلّ رسول الله ﷺ تزوجها».

ولهذا يقول القاضي عياض: «لم يرو أنه ﷺ تزوجها محرماً إلا ابن عباس وحده، حتى قال سعيد بن المسيب: ذهل ابن عباس، وإن كانت - أي ميمونة - خالته، ما تزوجها رسول الله ﷺ، إلا بعد ما حل، ذكره البخاري»^(٢).

«وروت ميمونة وأبو رافع وغيرها: أنه ﷺ تزوجها حلالاً، وهم أعرف بالقضية لتعلقهم به، خلاف ابن عباس، ولأنهم اضبط من ابن عباس وأكثر»^(٣).

وعلى هذا ينتفي الاشكال الفقهي المزعوم، ولا نحتاج إلى التكلف في ايجاد مخرج له!

هل خرج من مكة أحد من أهلها مع النبي ﷺ

بعد صلح الحديبية رفعت قريش الحضر على سفر أهل مكة إلى المدينة، فلم تمنع أحداً من السفر إليها، لغرض التجارة أو الزيارة، إلا أن هناك شرطاً في اتفاقية الصلح يقتضي بأن يرد رسول الله ﷺ إلى قريش من جاءه مسلماً من مكة،

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٣ / ٤٣٩ .

(٢) الصنعاني - محمد ابن اسماعيل المعروف بالأمر، سبل السلام في شرح بلوغ المرام، من جمع أدلة الأحكام: ٢ / ١٩٢، ط . دار احياء التراث العربي - بيروت، ط . الرابعة، (١٩٦٠م) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: ٩ / ١٩٤ .

وقد رفع هذا الشرط بعد ذلك أيضاً، كما مرّ بنا .

فلم يكن هناك ما يمنع من خروج من شاء أن يخرج مع النبي ﷺ عند خروجه من مكة إلى المدينة، إلا أنه لم يخرج أحد من أهل مكة معه ﷺ عند خروجه ﷺ، إلا عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب، وهي من أرحام النبي ﷺ وطلبت من النبي ﷺ أن يخرجها معه، أو أن الإمام علي بن أبي طالب استأذن رسول الله في اخراجها!

ففي رواية ابن سعد: «وأخرج ﷺ عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب من مكة، وأمّ عمارة سلمى بنت عيسى» .

وفي رواية الواقدي: «كَلَّمَ عليّ ﷺ النبي ﷺ فقال: علامَ نترك بنتَ عمنا يتيمة بين ظهري المشركين؟ فَلَمْ يَنْهه النبي ﷺ عن إخراجها، فخرج بها..»^(١).

وفي رواية ثالثة: إنها حين خرج النبي ﷺ من مكة تبعته وهي تنادي: «يا عم، يا عم»^(٢).

ولهذه الروايات تتمة تتحدث عن شجار ومنازعة بين زيد بن حارثة، وعليّ ﷺ وجعفر بن أبي طالب ﷺ فيمن يكون المتكفل لهذه الطفلة!! ولم نجد فائدة في ذكر هذا النزاع وسببه وكيف انتهى! ولا في الدخول بالمناقشات الجانبية حول هذه القضية التي اتعبَ بعض الكتاب نفسه في مناقشتها^(٣).

٩ - آثار ونتائج عمرة القضاء

تعتبر عمرة القضاء في السنة السابعة، من الاجزاء المتممة لصلح الحديبية من حيث الآثار والنتائج التي أسفرت عنها هذه العمرة. فما كان ينبغي أن تثمر

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١١، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٨ .

(٢) السيرة الحلبية: ٣ / ٩٥ .

(٣) انظر الصحيح من سيرة النبي: ١٥ / ٢٣١٥ وما بعدها .

عنه من نتائج لو قدر للنبي ﷺ أن يدخل مكة في عامه السادس، ظهرت نتائجها وثمارها في السنة السابعة وفي عمرة القضاء هذه.

وهذا لا يعني عدم وجود ثمرات ونتائج لصلح الحديبية في حينها، فإن نتائجها وثمراتها كانت كثيرة وكبيرة كما بينا ذلك في حينها.

وهنا نتوقف قليلا في نهاية هذا الدرس لنستخلص بعض النتائج والآثار والثمرات لعمرة القضاء، ثم نستخلص الدروس والعبر منها.

أولا: فتح قلوب المشركين على الإسلام:

لقد كان مشهد دخول المسلمين مع رسول الله ﷺ إلى مكة، وبذلك الأبهة والعظمة والروحانية وهم يرددون بصوت واحد، وبخضوع وخشوع وتضرع «لييك اللهم لييك..» من مشاهد التاريخ التي اهتزت لها أرجاء مكة، إذ لم تشهد مكة في تاريخها مثل هكذا مشهد فذ، إذ لم يكن قبله وفي مواسم الحج والعمرة إلا «المكاء والتصدية»، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾^(١). ولم يكن يسمعون ويشاهدون عندها إلا صغيراً وضرباً بالأكف وخلعاً للملابس وطواف العرة!

وإذا بأهل مكة يفتحون أعينهم على أناس منهم، خرجوا من بين أظهرهم، ولكن عادوا إليهم بروحانية الملائكة وبنور الايمان، فكان حقاً عليهم أن تخفق قلوبهم، وأن ينجذب إلى الإسلام قلوب أشدهم صلابة وقساوة وعناداً.

كذلك رأى الناس من أخلاق النبوة والرسالة وما جسده رسول الله ﷺ بقوة نفسه، وجميل بيانه وعظيم أخلاقه فهفت قلوبهم إلى الإسلام، والإيمان برسالة النبي ﷺ، فلم تبق إلا حواجز ضعيفة واهية، أزاحتها بعد ذلك دخول المسلمين فاتحين إلى مكة بعد فترة قصيرة، فدخل الناس في دين الله أفواجا.

ثانياً: إظهار شعائر الإسلام العبادية:

لقد عملت قريش جاهدة على الحيلولة دون وصول صوت الإسلام إلى مكة، وضربت طوقاً من التعتيم على تعاليم الإسلام وشعائره، وحالت دون وصوله إلى أهل مكة، ولم تكن يومها وسائل اعلام مرئية أو صوتية تعكس ما يقوم به المسلمون في المدينة من شعائر دينية، فكانت هذه العمرة وما جرى فيها من إظهار للشعائر والصلاة.. أول مشهد يشهده أهل مكة لشعائر المسلمين، وبهذه الكثافة البشرية، وبهذه الروحانية العظيمة.

ولهذا حرص رسول الله ﷺ على أن يظهر مناسك الحج لأهل مكة ومن خلال القيام بهذه الاعمال على مرأى ومسمع منهم، وبشكل جماعي ومنظم، بالإضافة إلى إقامة الصلاة جماعة في ذلك المشهد العظيم الذي «علا فيه بلال سقف الكعبة وأذن في الناس لصلاة الظهر عندها، وصلى النبي ﷺ يومئذ بألفين من المسلمين صلاة الإسلام، عند البيت الذي كان يُصدّ من سبع سنين عن الصلاة عنده»^(١).

ثالثاً: إظهار قوة الإسلام والمسلمين:

لقد كان من الضروري إظهار قوة المسلمين أمام قريش بعد أن أشاعوا وتحذّثوا أن محمداً وأصحابه في عُسر وشدة وجهد ووهن، وإذا بهم يرونهم يهرولون بدلاً من أن يمشوا الهويناً، ويرفعون أصواتهم بالتلبية والتكبير والتلهيل.. بدلاً من أن يهمسوا بها مع أنفسهم.

وجاءت أبيات عبد الله بن رواحة لترفع من حماس المسلمين وعزيمتهم، والنبي ﷺ يسمعه جيداً لأنه قريب منه وأخذ بزمام ناقته القصواء، فلم ينهه النبي ﷺ عن قوله، لأنّه رسالة قوة لقريش لا بد أن تسمعها، وسمعتها جيداً

(١) هیکل، حیاة محمد: ٤٠٠ (بتصرف) .

ووعتها نفوسهم وأيقنوا معها أنّ لا قوة لهم تواجه قوة محمد ﷺ، وأصحابه، ومهما كبرت قوتهم إلاّ أنّها مقابل قوة الايمان والعقيدة سوف تنهزم لا محالة.

ولم يكن رسول الله وهو يظهر قوة المسلمين ويقول لهم: «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة» داعية حرب، وإنما الموقف كان يملي عليه ﷺ أن يتخذ هذا الاجراء، ولهذا عندما تصوّر أحد أصحابه بأن عبد الله بن رواحه يقذف في وجه قريش بصيحة حرب، فصده عن ذلك! اسكته رسول الله ﷺ لأنّ تصويره للأمر لم يكن صحيحاً، وإلاّ لسكته رسول الله ﷺ قبل ذلك، ولكنه ﷺ بقي يستمع إليه وقد يكون ردّها معه إلى نهايتها حيث سكت، وسكت معه المسلمون، ولكنّ رسول الله ﷺ أراد أن يرسل رسالة قوة أخرى، أكثر بلاغة وفصاحة من أبيات ابن رواحة، وأكثر عمقاً من حيث مضمونها، فقال له ﷺ: قل يا ابن رواحة: «لا إله إلاّ الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده» فقالها ابن رواحة، «وردّها المسلمون من بعده، فتجاوبت بأصدائها جوانب الوادي، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تسّموا الجبال حوله»^(١).

رابعاً: القضاء على روح العناد والمقاومة في قريش:

لقد لجّت قريش في عنادها وعتوها ونفورها كثيراً، وبقيت على هذه المكابرة والطغيان لا تحيد عنه قيد أنملة، إلاّ أنّها سرعان ما انهارت أمام «ما رأوا من تضامن المسلمين وتعاونهم وتعاطفهم، وحسن نظامهم والتفاهم بينهم، واقتدائهم بنبيهم ﷺ، ما جعلهم يدركون أن مثل هذه الجماعة لا يمكن الوقوف بوجهها، وليس من أمل في التغلب عليها.

لقد كانت عمرة القضاء تمثل القضاء التام على روح العناد والمقاومة والمكابرة في قريش، وأدرك معها أشدّ ناسها عداوة لله ولرسوله ﷺ أنّ من الخير

لهم الانضمام إلى ركب رسول الله ﷺ من أمثال خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن أبي طلحة - سادن الكعبة - وأسلم بعدهم العدد الكبير من أهل مكة. وأصبحت مكة في حكم البلد الذي فتح أبوابه للدعوة الإسلامية، ولم يبق إلا أن تفتح أبوابها وتسلم القياد المسلمين.

ولهذا يمكن اعتبار فتح مكة قد تم للمسلمين من يوم عمرة القضاء، لأن هذه العمرة، أثرت على معنويات قريش أعظم الأثر، «إن عمرة القضاء فتحت أبواب قلوب أهل مكة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكة نفسها بعد حين»^(١).

فكانت هذه الرحلة الايمانية العبادية بمثابة غزوة كبرى لقلوب أهل مكة العصية التي لم تكن لتفتح من قبل.

وكان لعمرة القضاء عظيم الأثر في نفوس قريش وفي نفوس أهل مكة جميعاً، ونشأ عنها ومنها آثار مستقبلية كثيرة، صبت جميعها في صالح الإسلام والمسلمين والدعوة الإسلامية.

١٠ - الدروس والعبر

لقد تجلت لنا في ثنايا أحداث عمرة القضاء، هذه الكثير من الدروس والعبر والعظات نتوقف قليلاً عند بعضها:

أولاً: تحقق الوعد الإلهي:

«هذه العمرة تعتبر تصديقاً إلهياً لما وعد به ﷺ أصحابه من دخولهم مكة والطواف بالبيت، وقد رأيت كيف سأل عمر رسول الله ﷺ أثناء صلح الحديبية: «أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ فأجابه ﷺ: بلى أفأخبرت أنك تأتيه عامك هذا؟ قال: لا، قال ﷺ: فإنك آتية ومطوف به» فهذا هو مصداق

(١) خطاب، الرسول القائد: ٣١٥ (مرجع سابق).

وعد رسول الله ﷺ^(١).

وقد نبه الله عز وجل عباده إلى هذا التصديق في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَبَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا﴾^(٢).

ثانياً: الدعوة الصامتة:

لقد ورد في الأثر عن أهل البيت عليه السلام عن جدهم ﷺ: «كونوا لنا دعاة بغير السنتكم...». والدعوة من دون استخدام اللسان «دعوة صامتة» تترجمها أفعال الإنسان المؤمن وسلوكه السوي الذي يجسد تعاليم الدين والعقيدة.

ولقد كانت عمرة القضاء هذه من أوضح مصاديق الدعوة الصامتة، فلم يسجل لنا المؤرخون أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى المشركين في هذه العمرة يدعوهم إلى الإسلام من خلال خطبة، أو لقاء، أو مناسبة أو نصيحة، وكذلك لم يصدر مثل هذا الشيء من أصحابه.

إلا أن قريشاً وأهل مكة وجدوا في هؤلاء المسلمين وعلى رأسهم النبي الأكرم ﷺ كل معاني الخير والإيمان ينعكس على أفعالهم وتصرفاتهم، ووجدوهم قد سمو بأنفسهم إلى أقصى غايات السمو الأخلاقي، فكان لسلوكهم أعظم الأثر في نفوس أولئك القوم الذين انطوت نفوسهم على غير هذه الصفات الكريمة وجف فيهم كل ينباع الخير والعطاء، فجاءت هذه النفحة الالهية من خلال سلوك عباده المؤمنين لتحيي تلك الارواح والنفوس الميتة مرة أخرى، وتبعث فيها شحنات الايمان والخير.

(١) البوطي، فقه السيرة: ٣٧٨ .

(٢) الفتح: ٢٧ .

وما أحوجنا اليوم إلى مثل هذه الدعوة الصامتة التي نجسّد من خلالها للناس أخلاق الإسلام الحقيقية ومبادئه العظيمة وخاصة ان كنا نعيش بين غير المسلمين ومن أهل الأديان والمذاهب الأخرى . فإن «أصدق المقال ما نطق به لسان الحال» .

ثالثاً: الوفاء بالعهد:

وصفة الوفاء بالعهد من أعظم الصفات التي نادى بها القرآن الكريم، وأثنى على القائمين بها، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(١) وقال تعالى بيان صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾^(٢) .

وقد جسّد رسول الله ﷺ هذه الصفة الكريمة من خلال ما تعاهد عليه مع المشركين في صلح الحديبية، وكان أولئك المشركون يعرفون هذه الصفة في رسول الله ﷺ جيداً، وأنه ﷺ إذا عاهد وفي، إذ ليس في قاموس حياته شيء اسمه الغدر وعدم الوفاء، ولهذا يقول له ﷺ مكرز بن حفص: «يا محمّد! والله ما عُرِفْتُ صغيراً ولا كبيراً بالغدر!!» . ثم يعود إلى قريش بعد أن طمأنه رسول الله بأن لا يدخل مكة إلا كما شرط لهم، ليقول لهم: إن محمّداً لا يدخل بسلاح، وهو على الشرط الذي شرط لكم»^(٣) .

ثم ما كادت أن تنتهي الأيام الثلاثة حتى طُلبَ من النبي ﷺ - وبطريقة فجّة - أن يخرج من مكة، فيستجيب لهم على الفور!

ألم يكن باستطاعة رسول الله ﷺ أن ينقض عهده مع هؤلاء الوثنيين من قريش؟ إلاّ أنّه ﷺ لم يقدم على ذلك مع استطاعته! ولهذا بهرهم النبي ﷺ بوفائه بعهده الذي عاهدهم عليه في صلح الحديبية .

(١) الإسراء: ٣٤ .

(٢) المؤمنون: ٨ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٣٤ .

وما أحوجنا إلى الالتزام بهذه الخصلة الحميدة التي جسدها رسول الله ﷺ مع أعدائه وأعداء رسالته، فكان المثل الأعلى للإنسانية في سموها الأخلاقي.

رابعاً: الحلم وسعة الصدر في سلوك رسول الله ﷺ:

من الأهداف الرئيسية التي انطلق رسول الله ﷺ لتحقيقها من خلال رسالته الإسلامية السامية هو جمع الأشتات الاجتماعية المتفرقة والمنضوية تحت منظومات القبيلة والعشيرة، وجعلها قوة متماسكة قوية، أساسها العبودية لله وحده، والاخلاص له وتوحيده، وقوامها التعاطف والتكاتف والتساند، وهدفها الخير والصلاح والمحبة والتعاون بين الأفراد.

واستطاع ﷺ وبتسديد من الله سبحانه، وبما وهبه الله من كمالات وأخلاق عالية، أن يخلق نواة هذا المجتمع ونموذجه في المدينة من خلال الوحدة الاجتماعية بين المهاجرين والأنصار والأقليات الدينية التي كانت تسكن المدينة.

وأراد رسول الله ﷺ أن يوسع رقعة هذه التجربة الفريدة إلى خارج المدينة، ومن أولى بها من أهل دار السلام وحرم الله الآمن، مكة المكرمة، ولهذا قال كلمته المعروفة وهو يتوجه في حينها إلى مكة وانتهى به المطاف في الحديبية، قال ﷺ: «... لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطّة يسألوني فيها صلّة الرحم إلّا أعطيتهم إياها»^(١).

إلّا أنها قريش وأشرافها، وما يحملون من روح جاهلية، وتعنت وتمنع وعنجهية، والتي يحتاج في التعامل معها وليّها إلى صبر، وسعة صدر، وحلم كبير، وأخلاق كريمة، تتجاوز وتغض الطرف عن هفواتهم وفضاضة أخلاقهم.

ولا يستطيع ذلك إلّا رسول الله ﷺ الذي اجتمعت في شخصه كل الصفات

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٣١٠.

اللازمة لهذا الأمر كما وصفه الله سبحانه بذلك ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).

ومن مصاديق هذا الحلم واللين وسعة الصدر ما جاء في إحدى مفردات أحداث عمرة القضاء، وفي آخر ساعاتها إذ جاءه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ليقولا له وبطريقة متعجرفة: «قد انقضى أجلك فاخرج عنا» وأراد رسول الله ﷺ أن يتألف قلوبهما، وأن يستميلهما إلى الإسلام من خلال جو من المحبة والألفة فقال لهما: «وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟» إلا أنهما أدركا ما يريده رسول الله ﷺ وكانت النتيجة شاخصة أمام أبصارهما لو اجتمعوا مع محمد ﷺ في جو الوليمة الهادئ، ونشوة الأنس وأجواء العرس، فإنهم لا محالة سوف ينهزمون نفسياً وتسقط عنهم مقاومتهم وتمنعهم، ولسوف تتهاوى كل الحواجز التي صنعوها بأنفسهم... ولهذا بادرا على الفور على ردّ هذه الدعوة الكريمة، وبطريقة أكثر فجاجة من أولها، فقالا: «لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنا»، أو «اخرج عن أرضنا».

فتحمل رسول الله ﷺ بسعة صدره وحلمه هذه الغلظة والبذاءة، إلا أنها أثارت سيد الأنصار سعد بن عبادَة فردّ عليهم بنفس الأسلوب... فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن بادر إلى تتويج مبادرته الكريمة الأولى، بمبادرة أخرى أكثر تأثيراً، فقال ﷺ لسعد: «يا سعد، لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا».

إنه لدرس عملي كبير لنا كمؤمنين، وحملة رسالة، ودعاة إلى الله، إذ إن أساس العمل الدعوتي والاجتماعي هو الصبر والحلم وسعة الصدر وحسن الأخلاق، فلننلّم من رسول الله ﷺ ذلك، فهو المنار الذي ينير لنا الدرب، سلام الله عليه.

الأسئلة:

- ١ - ما هي أهم السرايا السابقة لعمرة القضاء؟ وما هي أهم أهدافها؟
- ٢ - متى خرج رسول الله ﷺ لعمرة القضاء؟ وما هو سببها؟
- ٣ - كيف كان خروج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة؟ وكم كان عدد الذين خرجوا معه؟
- ٤ - لماذا أخرج رسول الله ﷺ معه السلاح والخيول وهو خارج لأداء العمرة؟
- ٥ - كيف أدى رسول الله ﷺ عمرة القضاء؟ وهل يمكن أن تعكس لنا كيفية عمرة الرسول على إجمالها؟
- ٦ - ما هي أهم الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ بعد أداء العمرة؟
- ٧ - ما هي أهم آثار ونتائج عمرة القضاء؟
- ٨ - ما هي أهم الدروس والعبر التي يمكن أن نستفيد منها من أحداث عمرة القضاء؟

الدرس الرابع والعشرون

أحداث السنة الثامنة من الهجرة

غزوة مؤتة

مباحرات البحث

- ١ - رسائل النبي ﷺ التي بعثها في هذه السنة
 - ٢ - سرايا سبقت غزوة مؤتة
 - ١ - سرية ذات السلاسل
 - ٢ - سرية الخبيط
 - ٣ - سرية خضرة
 - ٤ - سرية ابي قتادة
 - ٣ - غزوة مؤتة ؛ تاريخها وخلفياتها وأسبابها
 - ٤ - أمراء غزوة مؤتة
 - ٥ - أحداث غزوة مؤتة
 - ٦ - بطولات ومآثر شهداء غزوة مؤتة وإخبار النبي ﷺ المسلمين بشهادتهم
 - ٧ - مصير جيش المسلمين بعد مقتل الأمراء
 - ٨ - عودة المسلمين من غزوة مؤتة وردود أفعال أهل المدينة
 - ٩ - النبي ﷺ يخبر عائلة جعفر باستشهاده ويعزيهم
 - ١٠ - غزوة مؤتة نصر أم هزيمة؟
 - ١١ - نتائج وأثار غزوة مؤتة
 - ١٢ - الدروس والعبر من غزوة مؤتة
 - ١٣ - سرايا سبقت فتح مكة
- الأسئلة

غزوة مؤتة

عاد رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة بعد أن أدوا مناسك عمرة القضاء وذلك في أواخر ذي الحجة من السنة السابعة للهجرة، «فأقام ﷺ بها بقية ذي الحجة، ومحرم وصفرًا وشهري ربيع، وبعث في جمادى الأولى بعثه إلى الشام الذين أصيبوا بمؤتة»^(١).

لقد كان أمام رسول الله ﷺ - بعد أن فرغ من عمرة القضاء - مجموعة من المهام داخل الجزيرة العربية، وهنالك مهام أخرى خارجها لا بد من القيام بها.

فهناك مهمة الحفاظ على أمن المدينة من خلال مراقبة القبائل والأعراب المحيطين بها، والذين كانت تصل أخبار تحرك بعضهم وإعدادهم العدة للإغارة على أطراف المدينة. وذلك من خلال العيون التي كان يبثها رسول الله ﷺ لمراقبة هذه التحركات، فلا بد من إرسال بعض سرايا الصغيرة لمباغته هذه القبائل قبل أن تستكمل إعداد نفسها وتجميع قواها.

وهناك أيضاً مهمة الدعوة إلى الإسلام من خلال إرسال الكتب والرسائل، والتي بدأها النبي ﷺ في السنة السابقة من خلال إرسال ست رسائل إلى ستة من الملوك والأمراء ورؤساء القبائل ورجال الدين المسيحي... فلا بد من استكمال هذه المهمة من خلال إرسال رسائل أخرى وإلى شخصيات أخرى لهم مكانتهم القيادية أو الدينية في مجتمعاتهم، ولهم امتداد سياسي وجغرافي واسع ومهم.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٧٣.

ومع بداية السنة الثامنة من الهجرة بدأ الرسول الأكرم ﷺ العمل لانجاز كلا المهمتين معاً، فكان يرسل رسله إلى خارج الجزيرة العربية حاملين رسائل الدعوة إلى ملوكها ورؤسائها وشخصياتها، وفي نفس الوقت كان يرسل السرايا إلى أطراف الجزيرة وخارجها للقيام بالمهام العسكرية الموكلة إليهم.

فلا بد لنا - ونحن نستعرض أحداث السنة الثامنة من الهجرة - أن نتحدث عن كلا المحورين أو المهمتين اللتين بدأ بهما رسول الله ﷺ سنته هذه.

ولهذا سوف نستكمل ذكر رسائله التي بعثها ﷺ في هذه السنة، ثم نشير بايجاز إلى السرايا التي بعثها قبل سرية أو غزوة مؤتة، ثم نتحدث عن هذه الغزوة وملاساتها وأحداثها ونتائجها بشيء من التفصيل.

١ - رسائل النبي ﷺ التي بعثها في هذه السنة

بعد تلك الرسائل الست التي بعثها في السنة السابعة واصل النبي ﷺ إرسال رسائله الكثيرة، والتي لم تنقطع إلى حين وفاته ﷺ، إلا أن هذه الرسائل لم تُورخ جميعها حتى نطلع على تسلسلها الزمني، والتي أُورخ منها هي الرسائل الست الأولى ورسالتان أو ثلاث من رسائل السنة الثامنة للهجرة.

ومن أهم الرسائل التي بعثها النبي ﷺ في هذا السنة:

أولاً: رسالته إلى ملكي عُمان:

وجاء في نص رسالة رسول الله ﷺ إلى ملكي عمان: «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجُلندي:

السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوكمَا بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تُقرا

بالإسلام، فإن ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما»^(١).

قال ابن سعد: «وبعث رسول الله عَمَرَ بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد الجلندي، وهما من الأزد، والملك منهما جيفر، يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه إليهما كتاباً وختم الكتاب.

قال عمرو: فلما قدمت «عمان» عمدت إلى «عبد» وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً، فقلت: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ، إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك.

يقول عمر: فمكثت أياماً ببابه، ثم إنه دعاني فدخلت عليه فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففرض خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أنني رأيت أخاه أرق منه، فقال: دعني يومي هذا وارجع إليّ غداً، فلما كان الغد رجعت إليه.

قال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إذا ملكت رجلاً ما في يدي!

قال عمرو، قلت: فإني خارج غداً فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل إليّ فدخلت عليه فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدّقاً بالنبى ﷺ وخلياً بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني، فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها في فقرائهم، فلم أزل مقيماً فيهم حتى بلغنا وفاة رسول الله ﷺ»^(٢).

وقد أورد المؤرخون نص رسالة النبي ﷺ وذكروا بعض التفاصيل الأخرى

(١) الأحمدي، مكاتيب الرسول: ٢ / ٣٦١ وما بعدها .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ١٢٦ - ١٢٧ .

التي أهملها ابن سعد^(١).

ثانياً: رسالته إلى المنذر بن ساوي العبدي ملك البحرين:

نص رسالة رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوي العبدي، عامل كسرى على البحرين:

«بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله، إلى المنذر بن ساوي:

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني ادعوك إلى الإسلام، فأسلم تسلم يجعل الله لك ما تحت يديك، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر»^(٢).

قال ابن سعد: «وبعث رسول الله ﷺ منصرفه من الجعرانة^(٣)، العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي العبدي وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام وكتب إليه كتاباً. فكتب إلى رسول الله ﷺ باسلامه وتصديقه - وقال - «واني قد قرأت كتابك على أهل هجر، منهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إليّ في ذلك أمر!»

فكتب إليه رسول الله ﷺ: «إنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن قام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية».

(١) انظر: السيرة الحلبية: ٣ / ٢٨٤، والمواهب اللدنية: ٣ / ٤٠٤، ومجموعة الوثائق السياسية: ١٤٥، ومكاتيب الرسول للأحمدي: ٢ / ٣٦١ وما بعدها .

(٢) حميد الله، مجموعة الوثائق: ١٤٥، وانظر صورة لرسالة ثانية في المرجع نفسه: ١٤٧، والأحمدي: ٢ / ٣٥٤ وما بعدها .

(٣) الجعرانة: «موضع بين مكة والطائف» وهذا يعني انه ﷺ كتب إليه حين انصرف من محاصرة الطائف وكان ذلك سنة ثمان .

وكتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا أخذت منهم الجزية، وبأن لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم... وكتب رسول الله ﷺ للعلاء - بن الحضرمي - «فرائض الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال، فقرأ العلاء كتابه على الناس وأخذ الصدقة»^(١).

وهناك كتب ومراسلات أخرى للنبي ﷺ إلى المنذر بن ساوي جعلت بعض الباحثين يتردد في تعيين السنة التي راسل فيها رسول الله المنذر بن ساوي^(٢).

وقد تكون هناك رسائل وكتب أخرى بعثها رسول الله ﷺ في هذه السنة، لم يذكرها المؤرخون، أو لم نطلع عليها، إلا أنّ هاتين الرسالتين من أهمها، ثم بعث ﷺ رسائل مهمة أخرى لاحقة لها، سوف نشير إلى بعضها في محلها إن شاء الله.

٢ - سرايا سبقت غزوة مؤتة

نص المؤرخون على مجموعة من السرايا التي بعثها رسول الله ﷺ بعد عودته من عمرة القضاء في أواخر ذي الحجة سنة سبع من الهجرة.

وكان الغرض من هذه السرايا: «توطين الأمن في المنطقة الشمالية للمدينة المنورة بصورة خاصة، ومنع غارات الأعراب على المدينة، وحماية الدعاة من غدر القبائل»^(٣).

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ١٢٧، والأحمدي مكاتيب الرسول: ٢ / ٣٥٤ وما بعدها، وحميد الله، مجموعة الوثائق: ١٤٨.

(٢) الأحمدي، مكاتيب الرسول: ٢ / ٣٥٨، وحميد الله، مجموعة الوثائق: ١٤٨ وما بعدها.

(٣) خطاب، الرسول القائد: ٣٠٠.

وفيما يلي فهرسة موجزة لهذا السرايا :

١ - سرية ابن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم : وذلك في أواخر ذي الحجة سنة سبع ، وقد خرج في خمسين رجلا ، إلا أن أخبار خروجهم قد وصل إلى بني سليم ، فجمعوا قواهم وقاتلوا المسلمين ، «فقاتل القوم حتى قتل عامتهم ، وأصيب ابن أبي العوجاء ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ في أول يوم من صفر سنة ثمان»^(١).

٢ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بالكديد : في صفر سنة ثمان من الهجرة ، وكانوا بضعة عشر رجلا ، فشنوا عليهم غارة واستاقوا النعم ، وعادوا إلى المدينة^(٢) وهناك بعض التفاصيل المبالغ فيها في هذه السرية تركنا ذكرها .

٣ - سرية غالب بن عبد الله الليثي (أيضاً) إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك ، «وكانت في صفر سنة ثمان من الهجرة حيث بعثه ﷺ في مائتي رجل ، فأصابوا منهم نِعْماً وقتلوا منهم قتلى»^(٣).

٤ - سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى بني عامر بالسّي (من نجد) : وكانت في شهر ربيع الأول سنة من الهجرة ، بعثه ﷺ في أربعة وعشرين رجلا إلى جمع من هوازن . . وأمره أن يغير عليهم ، فأغاروا عليهم ، فأصابوا نِعْماً كثيراً وشاء واستاقوا ذلك إلى المدينة^(٤).

٥ - سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح : وكانت في شهر ربيع الأول سنة ثمان من الهجرة ، بعثه ﷺ في خمسة عشر رجلا حتى انتهوا إلى ذات

(١) ابن سعد ، الطبقات : ٢ / ٣٧ ، والواقدي ، المغازي : ٢ / ٧٤١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢ / ٣١٢ و ٢ / ٧٥٠ .

(٣) و(٤) المصدرين معاً .

أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً، فدعوههم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل، فقاتلوهم حتى قتلوا، وأفلت منهم رجل جريح فتحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فشق ذلك عليه وهم بالبعث إليهم فبلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر فتركهم»^(١).

هذه أهم السرايا التي سبقت مؤتة، والتي كان لها نتائج ايجابية كثيرة من أهمها:

١ - توطيد هيبة المسلمين في المنطقة الشمالية (شمال المدينة).

٢ - حماية الدعاة من غدر القبائل بهم.

٣ - انتشار الإسلام بين القبائل الشمالية.

ولكن ذكرت في هذه السرايا بعض الأحداث والوقائع المبالغ فيها، بالإضافة إلى تشابه أحداثها مما يجعل للشك والمناقشة فيها مجال واسع^(٢).

٣ - غزوة مؤتة، تاريخها وخلفياتها وأسبابها

اتفق المؤرخون على أنَّ هذه الواقعة، حصلت في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة، حيث بعث رسول الله ﷺ قوة قتالية قوامها ثلاثة آلاف رجل، وجعل قيادة الجيش إلى ثلاثة من أصحابه على التناوب.

وقد سميت هذه الواقعة بـ«غزوة مؤتة»: ومؤتة: «قرية من أرض البلقاء من الشام، أو في حدود الشام، وهى قرية من قرى «كرك» ولما كان كرك بداية مقاطعة مؤاب، فهي من مؤاب»^(٣).

(١) ابن سعد، البطقات: ٢ / ٣١٣، المغازي: ٢ / ٧٥٣.

(٢) للتوسع انظر: الصحيح من سيرة النبي: ١٩ / ٢٣٠ وما بعدهما.

(٣) انظر: معجم البلدان للحموي.

وقد سماها ابن إسحاق، والواقدي، والبخاري^(١) «غزوة مؤتة» لكثرة جيش المسلمين فيها، وإن لم يخرج فيها النبي وتسمى أيضاً «غزوة جيش الأمراء» وذلك لكثرة جيش المسلمين فيها، ولما لا قوه من الحرب الشديد مع الكفار^(٢).

أما أسباب هذه الغزوة وخلفياتها:

لم تكن غزوة مؤتة أول بعث يرسله النبي ﷺ إلى خارج الجزيرة العربية، وفي عمق الأراضي الشامية التابعة للإمبراطورية الرومانية، ولا أرض الشام وبلادها ببعيدة كل البعد عن الجزيرة العربية، ولا أهلها ببعيد عن القبائل العربية، وإنما كانت بلاد الشام محاذة للجزيرة العربية جغرافياً، وكان يسكنها بعض القبائل العربية كالغساسنة وكتب، كما أن لعرب الجزيرة - وخاصة قريش منها - صلات تجارية تمثلها رحلة الصيف المعروفة تاريخياً.

وعندما نعود إلى سجل الأحداث التي سبقت غزوة مؤتة، نجد سلسلة من الوقائع تشكل خلفيات هذه الواقعة.

لقد «أشعل عرب الشام فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، فقد دأبت قبيلة كلب من قضاة، التي كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين، وحاولت أن تفرض عليهم نوعاً من الحصار الاقتصادي عن طريق إيذاها للتجار الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة، ولذلك غزا رسول الله قبيلة كلب بدومة الجندل سنة خمس من الهجرة»^(٣).

كما أن رجالاً من جذام، ولخم قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٧٣، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٥٥، والبخاري: المجلد الثالث، الجزء الخامس: ١٠٢ باب غزوة مؤتة.

(٢) خطاب الرسول القائد: ٣٠٤.

(٣) الواقدي، المغازي: ١ / ٤٠٢ ما بعدها.

عند مروره بجسمى بعد انجازه لمهمة أناطها به رسول الله ﷺ واستلبوا كل ما معه، فكانت سرية زيد بن حارثة إلى جسمى في السنة السادسة من الهجرة^(١).

ثم بعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدواني يأخذ منحى أكثر خطورة، فقد لاحظنا ردود فعل الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق، الذي أساء استقبال مبعوث رسول الله ﷺ ورمى بكتابه، وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه، وأمر بالخيول، وأعدّ العدة، فمنعه قيصر من المسير^(٢).

ثم جاء الاعتداء على السرية التي بعثها رسول الله ﷺ بقيادة عمرو بن كعب الغفاري، والتي كانت مهمتها الدعوة إلى الإسلام، فأحاط بهم أهل منطقة (ذات اطلاق) من الشام، وقتلواهم حتى قتلوا جميعاً، إلا أميرهم الذي كان جريحاً فتحامل على جرحه ووصل إلى المدينة كما مرّ بنا قبل قليل.

بالإضافة إلى ما ذكره بعض الباحثين بقوله: «كان من عرب الشام من دخل في الإسلام.. وأولئك المسلمون، وإن كانوا عدداً قليلاً ضاقت بهم صدور النصارى حرجاً، فقتل والي الشام من قبل الرومان من أسلم من عرب الشام.. وقتلوا والي معان حين أسلم»^(٣).

كانت هذه سلسلة من الحوادث والوقائع التي سبقت غزوة مؤتة والتي تشكل خلفيات لهذه الغزوة.

إلا أنّ السبب الرئيسي لهذه الغزوة هو مقتل الحارث بن عمير الأزدي، الذي كان رسول رسول الله ﷺ إلى حاكم (بصرى) التابع لحاكم الروم.

روى الواقدي، وابن سعد: «بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي

(١) المصدر نفسه: ١ / ٥٥٥ وما بعدها .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ١٢٦ .

(٣) انظر: الصلابي - علي محمد، السيرة النبوية: ٢ / ٤٦٠، وأبو زهرة، خاتم النبیین: ١١٣٩ / ٢ .

إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فقال: أين تريد؟ قال: الشام. قال: لعلك من رُسل محمد؟ قال: نعم، أنا رسول رسول الله ﷺ، فأمر به فأوثق رباطاً، ثم قدّمه فضرب عنقه صبراً، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر فاشتد عليه^(١).

لقد كانت القاعدة الأساسية التي تسير عليها المجتمعات البشرية آنذاك، وسادت في المجتمعات البشرية بعد ذلك كعرف سياسي واجتماعي «أن الرُّسل لا تُقتل»، «فإن الرسول ليس إلا مبلغاً عمن أرسله، فليس لأحد أن يسيء إليه مهما تضمنت الرسالة التي يحملها». وعلى أساس هذه القاعدة بعث رسول الله ﷺ إلى الملوك والعظماء من حوله، ولم يقتل أحد منهم، غير أن شرحبيل الغساني، شذ عن هذه القاعدة. وكان شذوذه جافياً خشناً، مهيناً للكرامة جارحاً للشعور. فساء ذلك رسول الله واشتد عليه، واعتبره تحدياً صريحاً، وأمرأ لا يحسن السكوت عليه، لا سيما والإسلام لا يزال يركز دعائمه في أنحاء الجزيرة، ولا يزال في أشد الحاجة إلى الاحتفاظ بكل ما له هبة. . . فكان لابد من عمل يحفظ على الإسلام هيئته، ويُشعر الناس في داخل الجزيرة وخارجها أن الإسلام قوة لا يستهان بها، ومن أجل هذا قرر رسول الله ﷺ أن يبعث سرّيته هذه إلى الشام، حيث قُتل الحارث بن عمير، لتأديب ذلك المعتدي، وغسل ما لحق بدولة الإسلام من مهانة في شخص سفيرها إلى أمير بصرى^(٢).

لقد كان من الممكن أن لا تقع هذه الغزوة أو أن هرقل عظيم الروم، أو ملك بصرى، قد بادرا أو أحدهما إلى تأديب شرحبيل بن عمرو الغساني لاقدامه على قتل حامل رسالة الرسول ﷺ إليهم، والتي أساء فيها إلى سمعة الدولة

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٥٥ - ٧٥٦، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٤.

(٢) دويدار، صورة من حياة الرسول: ٥١٥ - ٥١٦.

الرومانية، قبل أن يسيء إلى الدولة الإسلامية والرسول الأعظم ﷺ، علماً بأن شرحبيل كان أحد أمراء قيصر^(١)، وكان يمكن تأديبه والاعتذار لرسول الله ﷺ وإنهاء القضية.

إلا أن قيصر، وملك بصرى أثرا السكوت على فعلة شرحبيل واغتياله لرسول رسول الله ﷺ وهو ما أثار حفيظة النبي ﷺ والمسلمين، فأقدم رسول الله ﷺ على تجهيز جيش مؤتة لتأديب القبائل العربية من عرب الشمال القاطنين في بلاد الشام والموالين للبيزنطيين، والذين كانوا يرون في الحماية البيزنطية سبباً يدفعهم إلى الجرأة والعدوان.

٤ - أمراء غزوة مؤتة

أما النص التاريخي لهذه الغزوة - والذي يرويه، ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد - فيقول الواقدي: «بلغ رسول الله ﷺ الخبر، فاشتد عليه، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجرف^(٢) - وهم ثلاثة آلاف - فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر جلس وجلس أصحابه. . فقال رسول الله ﷺ: زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليترض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم. . فلما أجمعوا المسير وقد عقد رسول الله ﷺ لهم اللواء ودفعه إلى زيد بن حارثة مشى الناس إلى أمراء رسول الله ﷺ يودعونهم ويدعون لهم. . فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين».

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٧٠ .

(٢) موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

ثم إن رسول الله ﷺ «أوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله، وقاتلوهم، وخرج مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف وودعهم...»^(١).

فهذا النص التاريخي وغيره من نصوص وكلمات المؤرخين تعطينا فكرة واضحة عن أمراء هذه الغزوة وتسلسل قيادتهم في هذه المعركة، ثم تعرج النصوص التاريخية إلى بيان ما جرى في هذه الواقعة.

وقبل أن نمضي في بيان وقائع هذه الغزوة، لابد أن نتوقف قليلاً عند نقطة في هذا النص أثارت خلافاً تاريخياً بين السنة والشيعة، فالمصادر التاريخية والمؤرخون تكاد أن تجمع كلمتهم على الترتيب الذي نقلناه عنهم في أمراء هذه الغزوة، وإن زيدا كان هو الأمير أولاً، وهو الذي خرج براية رسول الله ﷺ إلى مؤتة، إلا أن الروايات الشيعية تقول إن جعفرأ كان هو الأمير الأول لها!

يقول ابن أبي الحديد: «اتفق المحدثون على أن زيد بن حارثة كان هو الأمير الأول، وأنكرت الشيعة ذلك وقالوا: كان جعفر بن أبي طالب هو الأمير الأول، فإن قتل فزيد بن حارثة، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، ورووا في ذلك روايات، وقد وجدتُ في الأشعار التي ذكرها محمد بن إسحاق في كتاب المغازي ما يشهد لقولهم...»^(٢).

ولا نريد أن نبدي في هذه القضية رأياً محدداً، فالقضية قد توقف في ابداء الرأي فيها من المؤرخين المصنفين على الشيعة كاليقوبي حيث يقول عند حديثه

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٥٦، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥ / ٦٢، والمقصود من كتاب المغازي لابن إسحاق، هو نفس كتاب السيرة النبوية لابن هشام، الذي هو مثابة التهذيب لمغازي ابن إسحاق.

عن «غزاة مؤتة»: «ووجه جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبدالله بن رواحة فى جيش إلى الشام لقتال الروم سنة (٨)، وروى بعضهم أنه قال: أمير الجيش زيد بن حارثة، فإن قتل . . فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل . . فعبدا لله بن رواحة، فإن قتل . . فليترض المسلمون من أحبوا. وقيل: بل كان جعفر المقدّم ثم زيد بن حارثة، ثم عبد الله بن رواحة».

ثم أخذ بالرواية المشهورة بين المؤرخين فقال: «... فأخذ زيد الراية فقاتل حتى قتل، ثم أخذها جعفر . . ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقتل»^(١).

فالملاحظ انه يستند إلى الرواية في أنّ أمانة الجيش كانت أولا بيد زيد بن حارثة، ثم ينقل بلفظ، وقيل: بل كان جعفر المقدّم . . ولفظ «قيل» معروفة مدلولاتها عند المؤرخين والكتاب إذ تدل على التضعيف، ولهذا أخذ في سرد الأحداث بحسب الرواية المشهورة عند المؤرخين، فلا يمكن أن نستظهر من مقدمة كلام اليعقوبي أنّه يتبنى ما قيل في أمانة جعفر لجيش مؤتة أولا.

أما شيخ الطائفة، محمد بن الحسن الطوسي، فقد أجاب في كتابه «تلخيص الشافي» عن شبهة تقديم المفضول على الفاضل التي قال فيها المستشكل:

«وقد ورد السمع بخلاف ذلك، لأننا نعلم أن النبي ﷺ ولّى عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، على أبي بكر وعمر وكذلك ولّى زيد بن حارثة على جعفر بن أبي طالب، ونحن نعلم أنهما كانا أفضل من خالد وعمرو، وكذلك كان جعفر أفضل من زيد، وإذا ثبت ذلك فلم يكن ذلك إلاّ بجواز تقديم المفضول على الفاضل».

فأجاب الشيخ بجوابين، الثاني منهما: والجواب الآخر: إنا قد بينّا: أنّه لا يجوز أن يقدم المفضول على الفاضل فيما هو أفضل فيه، وليس يمتنع أن يكون

(١) اليعقوبي - أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٦٥، طبعة دار صادر .

المقدم أفضل فيما تقدم فيه، وخالد . . . وعمرو . . . إنما قدما على أبي بكر وعمر في أمر الحرب وسياسة الجند وتدبير العسكر، وليس يمتنع أن يكونا أفضل منهما في ذلك .

ثم قال الشيخ الطوسي: وكذلك الجواب عن تقديم زيد على جعفر بن أبي طالب سواء، فلا فرق بين المسألتين .

ثم استدرك الشيخ وقال: على أنه قد اختلفت الرواية في تقديم زيد على جعفر، فروي أن جعفرأ كان أميراً أولاً، وانشدوا في ذلك أبياتاً لحسان بن ثابت وهي ثم قال: وإذا كان الأمر على ذلك سقطت المعارضة بذلك^(١) .

وهو نفس جواب السيد المرتضى في الشافي في خصوص تقديم خالد وعمرو ولم يتعرض لقضية زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب^(٢) .

والذي نستفيده من هذا النص أن السائل يعترف بأفضلية جعفر بن أبي طالب على زيد بن حارثة، يستدل بذلك على جواز تقديم المفضل على الفاضل، والشيخ «يجيب عن ذلك بجوابين، ثانيهما: انه لا يمتنع أن يكون المقدم أفضل فيما قُدم فيه، وخالد وعمرو أفضل من أبي بكر وعمر في أمر الحرب، ثم يقول وكذلك الجواب في تقديم زيد على جعفر، فلا فرق بين المسألتين .

وهذا يعني أن الشيخ الطوسي يرى أفضلية جعفر بن أبي طالب فيما يمتلك

(١) الطوسي - محمد بن الحسن، تلخيص الشافي: ١ / ٢١٤ - ٢٣٠، تحقيق: حسين بحر العلوم، طبعة الدار الإسلامية - قم، طبعة الثالثة، (١٩٧٤م) . وانظر: أمالي الشيخ الطوسي: ٢٢٤ - ٢٢٥، المجلس الخامس حيث يقول: وكان اللواء يومئذ مع زيد بن حارثة، فقاتل به حتى . . . ثم أخذه جعفر فقاتل به . . . ثم أخذ اللواء عبدالله بن رواحة

(٢) المرتضى - علي بن الحسين، الشافي في الامامة: ٢ / ٥٢ - ٥٣، تحقيق: عبدالزهراء الخطيب، طبعة مؤسسة الصادق - إيران، (١٤١٠هـ) .

من مزايا إيمانيه وعقائدية إلا أن هذا لا يمنع أن يتقدم عليه زيد بن حارثة لأنه أفضل فيما تقدم فيه، وهو أمر الحرب في غزوة مؤتة، ثم يستدرك الشيخ ويقول: إنه اختلفت الرواية في تقديم زيد على جعفر، فروي أن جعفر كان أميراً أولاً، وانشدوا في ذلك أبياتاً لحسان بن ثابت.

ولكن الشيخ لم يذكر لنا هذه الرواية واكتفى بذكر الأبيات الشعرية والمعلق على الكتاب ذكر في الهامش^(١) مصدرين هما كتاب سليم بن قيس، وطبقات ابن سعد، إلا أننا وجدنا في طبقات ابن سعد خلاف ذلك.

وقد نقلنا عبارة الطبقات سابقاً، والرواية الثانية التي يرويها عن أبي عامر^(٢) ليست واضحة الدلالة، وفيها مجال للمناقشة، فمن هو أبو عامر هذا؟ وما هي مهمته في الشام؟ ولماذا أخذ دور المتفرج وهو ينظر إلى مقاتل المسلمين من أصحابه...؟

كذلك نجد المؤرخ السعودي (ت ٣٤٥هـ) وهو من المصنفين على الشيعة أيضاً يذكر في كتابه «التنبية والإشراف» رواية غزوة مؤتة وأمراءها بنفس التسلسل المشهور بين المؤرخين^(٣).

أما السيّد عبد الحسين شرف الدين، فقد ذكر في كتابه «النص والاجتهاد» المورد الثالث غزوة مؤتة فقال: استعمل على الجيش فيها زيد بن حارثة... (ثم ذكر رواية الواقدي والطبري) ثم قال: هذا ما يقوله جمهور المسلمين كافة، ولعلّ الصواب ما يقوله أصحابنا الإمامية: إنّ الأول من هؤلاء الأمراء إنما هو جعفر... وأخبارها في هذا متظافرة من طريق العترة الطاهرة، ويشهد لهذا ما

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٢٧.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٥.

(٣) السعودي، التنبية والإشراف: ٢٣٠، تصحيح عبد الله الصاوي، سلسلة المنابع الثقافية، أُنست على طبعة القاهرة.

رواه محمد بن إسحاق في مغازيه عن كل من حسان بن ثابت وكعب بن مالك من شعرهما في رثاء جعفر . . (١).

ولم يذكر السيد شرف الدين ولا رواية واحدة من هذه الروايات المتظافرة .
ولعل الروايات المتظافرة التي أشار إليها السيد شرف الدين ولم يذكرها، هي تلك الروايات التي ذكرها العلامة المجلسي في بحار الأنوار .

فقد نقل رواية الشيخ المفيد عن أماليه، وفيها: « . . وكان اللواء يومئذ مع زيد ابن حارثة فقاتل به حتى شاط في رماح القوم، فأخذه جعفر فقاتل . . حتى قتل . . ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقتل . . ثم ذكر أنّ رسول الله ﷺ قال: أخذ اللواء زيد فقاتل به فقتل . . ثم أخذ اللواء جعفر وقاتل وقتل . . ثم أخذ اللواء بن رواحة وقاتل وقتل » .

ثم نقل روايتين عن خرائج الراوندي: في الرواية الأولى عن النبي ﷺ، قال: قتل زيد وأخذ الراية جعفر . . وفي الرواية الثانية: لما بعث النبي ﷺ عسكرياً إلى مؤتة ولّى عليهم زيد بن حارثة ودفع الراية إليه، وقال: «إن قتل زيد فالوالي عليكم جعفر بن أبي طالب . . .» .

وفي رواية أخرى يرويها عن الطبرسي في اعلام الوری: «وكانت غزوة مؤتة . . وأمر على الجيش زيد بن حارثة، ثم قال ﷺ: فإن أصيب زيد فجعفر . . .» .

ثم قال: وفي رواية أبان بن عثمان، عن الصادق عليه السلام أنه استعمل عليهم جعفرًا فإن قتل فزيد فإن قتل فابن رواحة . . .

ثم نقل رواية ابن الأثير في جامع الأصول التي يقول فيها: أمر النبي ﷺ في

(١) شرف الدين - عبد الحسين، النص والاجتهاد: ٢٢ - ٢٣، موسوعة السيد شرف الدين، المجلد الثاني، طبعة دار المؤرخ، ط . الأولى، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م) .

مؤتة زيد بن حارثة فقال: إن قتل زيد فجعفر . . وبعد ذلك نقل عبارة ابن أبي الحديد في شرح النهج والتي نقلناها سابقاً ولم يعلّق عليها^(١).

هذه هي روايات المجلسي في البحار حول غزوة مؤتة وأمرائها، وليس فيها إلا رواية واحدة يرويها أبان بن عثمان عن الصادق عليه السلام تنص على أنّ رسول الله ﷺ استعمل عليهم جعفرأ.

وأبان بن عثمان مردد بين شخصين، الأول: أبان بن عثمان بن عفان وهو ابن الخليفة الثالث، وكان حاكماً على المدينة لعدة سنوات، وكان من المهتمين بالسيرة النبوية، وبعض الأخبار المروية عنه قد وردت في تاريخ يعقوبي كما يقول فؤاد سزكين^(٢). إلا أنه من المستبعد أن يكون هو المقصود في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام لأنه كان من المناوئين لأهل البيت وكان إلى جانب عائشة في حرب الجمل، ومن المستبعد أن يكون قد أدرك عصر الإمام الصادق عليه السلام لفارق السن بينهما.

أما الثاني: فهو أبان بن عثمان الأحمر البجلي، وهو الذي يروي عن الإمام الصادق عليه السلام فقد قال عنه الكشي انه «كان من الناوسية»^(٣) وقال عنه العلامة الحلي - بعد أن نقل عبارة الكشي - : «والأقرب عندي قبول روايته، وإن كان فاسد المذهب»^(٤)، وأشار ابن داود الحلي في كتاب الرجال إلى أن أبان من أصحاب الاجماع وقال: «ذكر أصحابنا أنه كان ناووسياً، فهو بالضعفاء

(١) انظر: المجلسي، بحار الانوار (الطبعة الحديثة): المجلد التاسع / ٢٥٦ - ٢٦٦، الباب ٢٤، والطبعة القديمة: المجلد ٢١ / ٥١ - ٦٤ .

(٢) سزكين - فؤاد، تاريخ التراث العربي، قسم التدوين التاريخي: ٧٠ .

(٣) رجال الكشي: ٣٥٢ .

(٤) خلاصة الأقوال في المعرفة الرجال: ٧٤ .

أجدر .^(١) ونسبه العلامة الحلبي في المنتهى إلى الواقعة وفي موضع آخر إلى الفطحية^(٢).

فهذا هو أبان بن عثمان وهذه عقيدته، وحتى لو قبلنا ما قيل في الدفاع عنه، وإنه من أهل الاجماع، فإن رواية واحدة لا تصمد أمام روايات كثيرة على خلافها.

وأما ما استدل به من الشعر على تقدّم جعفر بن أبي طالب على غيره في جيش مؤتة، وهو عمدة الأدلة لديهم بعد الروايات التي استعرضناها وتبين عدم دلالتها، أو معارضتها للروايات الكثيرة الدالة على خلافها.

قال ابن إسحاق: وكان مما بُكي به أصحاب مؤتة من أصحاب رسول الله ﷺ حسان بن ثابت:

فلا يُبْعِدَنَّ الله قتلى تَتَابَعُوا بمؤتة منهم ذوالجناحين جَعْفَرُ
وزيد وعبدالله حين تَتَابَعُوا جميعاً وأسبابُ المنية تخطرُ
غداة مَضُوا بالمؤمنين يَفُودُهُمْ إلى الموت ميمون النقيبة أزهَرُ
أغرُ كضوء البدر من آل هاشم أبي إذا سيمَ الظُّلَامَةُ مَجَسَّرُ
إلى آخر القصيدة^(٣).

فقد استدل أحد كتّاب السيرة المحدثين بعد ذكر الأبيات أعلاه فقال: «حيث لم يكتف في هذا الشعر بذكر التابع: جعفر، فزيد، فابن رواحة . . بل صرح: بأن القائد لهم إلى الحرب ميمون النقيبة أزهَرُ أغر، من آل هاشم، وهو

(١) رجال ابن داود: ٣٠ .

(٢) انظر: بهجة الآمال في شرح زبدة المقال: ١ / ٢٩٤ .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٨٤ .

جعفر، رضوان الله تعالى عليه»^(١).

إلا أن هذا الكاتب الجليل، قد شكك في الشعر المنسوب لحسان بن ثابت وفي نفس كتابه هذا! إلا أن مناسبة الأبيات هناك تختلف عنها هنا! فقال هناك:

«... وعلى هذا... فلا يستبعد أن تكون هذه القصيدة منحولة لحسان..»

وقد قال الأصمعي عن حسان: «تنسب له أشياء لا تصح عنه» وشن حملة على حسان ورد على من قال بقبول توبته في قضية الافك فقال: «ومع ذلك كله هم يقولون: إن لقاذف زوجة النبي توبة، لماذا؟ لكي يصح قولهم بتوبة حسان واضرابه، ممن لهم بهم هوى سياسي أو غيره! ما عشت أراك الدهر عجباً!» ويقول: «... نراهم يسارعون إلى بذل محاولات تبرئته بكل وسيلة كما كان الحال بالنسبة لحسان، حينما اتضح لهم انحرافه عن علي عليه السلام»^(٢).

فإذا كان شعر حسان بهذه المثابة، وإنه منحول، وتنسب له أشياء لا تصح عنه؟ وإذا كان حسان ممن لا تقبل له توبة؟ فكيف يستدل بشعره هنا، ويرد شعره هناك؟!

ومما استدل به من شعر أبيات كعب بن مالك الأنصاري:

وكأتما بين الجوانح والحشى مما تأؤبني شهاب مُدْخَلُ
وجداً على النَّفَرِ الَّذِينَ تَتَابَعُوا يوماً بمؤتة أسندوا لم يُنْقَلُوا
إلى أن يقول:

فَمَضُوا أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ فُتِقَ عَلَيْهِنَ الْحَدِيدُ الْمُرْفَلُ^(٣)

(١) الصحيح من سيرة النبي: ١٩ / ٣١٢، الطبعة الحديثة لدار الحديث.

(٢) المرجع نفسه: ١٣ / ٢٢٤ و ٢٩٦.

(٣) الفتق: الفحول من الابل، الواحد: فينق، والمرفل: الذي تنجر أطرافه على الأرض، يريد: أن دروعهم سابعة.

إذ يهتدون بجعفر ولوائه قدام أولهم فنعيم الأول
حتى تفرجت الصفوف وجعفر حيث التقى وعث الصفوف مجدل
إلى آخر القصيدة^(١).

فقد استدل بعضهم بقول هذا الشاعر فقال: «وقد صرح هو أيضاً: يتتابع
القواد، وبأن جعفر كان هو القائد، وكان هو ولواؤه أولهم، فنعيم الأول...»^(٢).

ولا ندري، أنصدق اجماع المؤرخين على الترتيب الذي ذكره في أمراء
غزوة مؤتة؟ أم نصدق قول هذا الشاعر في أبياته التي ذكرها ابن إسحاق في سيرته
وأعرض عن ذكرها الواقدي في مغازيه، وابن سعد في طبقاته، والطبري في
تاريخه، والبيهقي في دلائل النبوة، والديار بكري في تاريخ الخميس والحافظ
مغلطاي، والحلي... وغيرهم من المؤرخين! ومن ذكرها من المتأخرين
فمصدره الوحيد مغازي ابن إسحاق، الذي لم يذكر سنداً لروايته!

أما استدلال هذا المحقق بشعر هذا الشاعر، فهو أمر عجيب حقاً ولا ينقضي عنه
العجب أبداً! فهل كان كعب بن مالك من الثقات الذين يؤخذ بقولهم عند هذا المستدل؟

نعود لما كتبه هذا المستدل في موسوعته: «الصحيح في سيرة النبي
الأعظم» نلتقط بعض الشذرات عن كعب بن مالك وبقلم هذا المستدل نفسه.
يقول في الجزء العاشر (ص: ٢٣٨): «إن حساناً - ابن ثابت - وكعب بن مالك،
لم يلتزما بالضوابط الإنسانية والإسلامية فيما قالاه وأنشدها، بل هما قد تجاوزا
الحد، وأغضبا الآخرين...».

ويقول في (ص: ٢٤٠) من نفس الجزء «وذلك يجعلنا نطمئن إلى حدوث
تجاوز منهما للحد أوجب أن يقف النبي الأكرم ﷺ منهما هذا الموقف الحازم
والحاسم».

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) الصحيح من سيرة النبي: ١٩ / ٣١٢ - ٣١٣ .

ثمّ يقول: فليتأمل في تاريخ حياة هذين الرجلين، فقد يجد المتتبع فيها الكثير مما لا يحسن ولا يجل..».

ونجده في الجزء السادس (ص: ٦١) يناقش في الأحاديث المنسوبة لرسول الله ﷺ في أهل بدر أن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم: أو «لن يدخل النار أحد شهد بدرًا» وهو نقاش في محله، إلا أنه في (ص: ٦٤) وتحت عنوان: من هم أفضل من أهل بدر، يستشهد بقول كعب بن مالك - وهو من المتخلفين عن بدر وشهد العقبة - «وإنه يفضل ليلة العقبة على بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها» ولا يعلق على ذلك بشيء! إلا أنه في الجزء: ٢٩ (ص: ٢٣٥ - ٢٣٦) يقول: «أما تفضيلبيعة العقبة على غزوة بدر فهو غير مسموع.. ولا ينفع تبجح كعب بن مالك بنفس البيعة، فإن الأمور مرهونة بخواتيمها..».

أما ما هي خاتمة كعب بن مالك عند هذا المستدل بشعره، فهو يحدثنا عن ذلك بأسهاب في الجزء: ٢٩ من موسوعته الذي خصّصه للحديث عن غزوة تبوك، وخصص الحديث في الفصل الخامس عن الثلاثة الذين خلفوا، وقصة كعب بن مالك - الذي هو أحدهم - فنقل القصة من (ص: ٢١٥) إلى (ص: ٢٢٨) ثم أخذ في المناقشة إلى (ص: ٢٥٧)! فجرد الرجل من كلّ فضيلة قد تحسب له!! ولو أردنا أن ننقل كلّ ما قاله في حق كعب بن مالك الأنصاري الشاعر لطلال بنا المقام، فهو - بحسب قول هذا المحقق - منافق ويريد التأكيد على براءته من النفاق.. ولو بصنع كذبة حتى على رسول الله ﷺ (ص: ٢٣٨). وإن كعباً ادّعى أنّ الله قبل توبته ولكننا - والقول للمستدل - نشك في صحة قوله!

ويقول (ص: ٢٤٢): وهذا يدعونا إلى عدم الوثوق بما زعمه من ندم..

وذلك يمنع من الوثوق بنزاهة الرجل!

ويقول (ص: ٢٤٥): إن قول كعب لرسول الله ﷺ: «أمن عندك، أم من عند الله؟» يتضمن اتهاماً للنبي ﷺ بأنه يقول أشياء من عند نفسه.. ولا يمكن أن يصدر هذا من مؤمن صحيح الإيمان!

ويقول (ص: ٢٥٢): «كعب.. خالف أمر رسول الله ﷺ وأصبح في جملة العصاة.. ولم تتحقق له توبة»!

ويقول (ص: ٢٥٥) عن كعب بن مالك: «فإنه كان عثمانياً لم يبايع علياً عليه السلام وكان عثمان قد استعمله على صدقة مزينة، وترك ما أخذ منهم له! وقد رثى عثمان بأمر منكراً! وربما لأجل ذلك كان النبي ﷺ قد آخى بينه وبين الزبير أو بينه وبين طلحة! فإنه ﷺ كان يوأخي بين كل ونظيره، وكان كعب بن مالك وحسان بن ثابت.. عثمانين!

هذه شذرات مما ذكره هذا المستدل بحق من استدلال بشعره! فهو متجاوز للحد والأخلاق الإسلامية، منافق كذاب على رسول الله ﷺ! لا يوثق به ولا بنزاهته، ومن جملة العصاة الذين لم تتحقق لهم توبة وعثماني...

فإذا كان الرجل بهذه المثابة ومن يوم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فقرنه إلى نظيره! فكيف جاز الاستدلال بشعره، وشعر حسان من قبله؟ أليس ذلك بعجيب؟!

ولا ندري هل نصدق دعوى هذا المحقق فيما قاله بحق «كعب بن مالك» في عدم قبول تبوته؟! أم نصدق القرآن الكريم الذي يقول: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

وقد تواترت الروايات التفسيرية في قبول توبتهم؛ وسوف يأتي الحديث عن ملابسات تخلفهم وتوبتهم عند الحديث عن غزوة تبوك إن شاء الله .

ومهما يكن من أمر، فقد أطلنا الوقوف عند هذه القضية، وإن كان لابد من تسجيل كلمة فيها فنقول :

مما لا شك فيه أنّ لجعفر بن أبي طالب (رضوان الله تعالى عليه) فضله وهجرته وجهاده ولم ينكر فضله أحد، بل حتى الذين رووا تقدّم غيره عليه في هذه الواقعة اعترفوا بأفضليته عليهما، واستدلوا بذلك على قضية تقديم المفضول على الفاضل، كما مرّ بنا سابقاً .

أما لماذا قدّم رسول الله ﷺ غيره عليه في هذه الواقعة؟ فجوابه ما قاله الشيخ الطوسي كما مرّ بنا في قوله : «إنّه لا يجوز أن يقدم المفضول على الفاضل فيما هو أفضل فيه، وليس يمتنع أن يكون المقدم أفضل فيما تقدم فيه . . . وكذلك الجواب عن تقديم زيد على جعفر بن أبي طالب سواء، فلا فرق بين المسألتين»^(١) .

فجعفر بن أبي طالب ﷺ رغم فضله وهجرته وجهاده في سبيل الله، إلّا أنّه قد قضى فترة طويلة في مهجره من أرض الحبشة، ولم يشهد مع رسول الله ﷺ وقائع الإسلام الكبرى، وعاد من هجرته مع انتصار المسلمين في خيبر، ولم يشهد مع رسول الله ﷺ إلّا عمرة القضاء، ولم يكلف بقيادة سرية قبل واقعة مؤتة فكانت هذه الواقعة أول واقعة له وآخرها حيث مضى إلى ربه شهيداً وأكرمه الله سبحانه بكرامات عزّ نظيرها .

أما زيد بن حارثة فقد شهد كلّ وقائع ومعارك رسول الله ﷺ وقاد أكثر من سرية قبل مؤتة، ولعلّ رسول الله ﷺ وجد هذه الخصوصية في زيد، فقدّمه على جعفر بن أبي طالب ﷺ فيكون من باب «كون المقدم أفضل فيما تقدم فيه، وليس

من باب تقديم المفضل على الفاضل فيما هو أفضل فيه» بحسب تعبير الشيخ الطوسي في الشافي .

وهذا الأمر لا يُنقص من فضل جعفر الله ﷺ وجهاده ومكانته في دنيا الإسلام، ولهذا لم يعترض جعفر على هذا التقديم بل رحب بذلك كما في الرواية التي يرويهها جملة من المؤرخين والمحدثين عن أبي قتادة . . قال : «بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال : «عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفر، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة . قال : فوثب جعفر ﷺ ، فقال : يا رسول الله ﷺ : ما كنت أرهب أن تستعمل زيدا عليّ» فقال ﷺ : امض، فإنك لا تدري أي ذلك خير»^(١) .

وهذا يدل على قبول جعفر بتأثير زيد عليه . . ولكنه كان بحاجة إلى توضيح السبب في ذلك، فأفهمه النبي ﷺ بأن الوقت لا يسمح بالتصريح، فقال له : «امض، فإنك لا تدري أي ذلك خير»^(٢) .

ويعتبر هذا الموقف من المواقف المشرفة لجعفر بن أبي طالب، ومفخرة أخرى له، تسجل إلى جانب مواقفه ومفاخرة المشرفة الأخرى .

٥ - أحداث غزوة مؤتة

وصايا رسول الله لجيش مؤتة

بعد أن عيّن رسول الله ﷺ أمراء هذه الغزوة، خرج لوداعهم، وقبل أن

(١) انظر: البيهقي، دلائل النبوة: ٤ / ٣٦٧، والطبري، تاريخ الأمم والملوك: ٣ / ٤١ وقد جاء فيه بدل كلمة «ارهب» كلمة «ارغب» وهو تصحيف للكلمة، إذ لم تسجل على جعفر (رضي الله عنه) إنه خالف أمر رسول الله ﷺ .

(٢) الصحيح من سيرة النبي: ١٩ / ٣٠٨ - ٣٠٩ .

يفارقهم أوصاهم بجملة من الوصايا سجلها الواقدي، ومنها:

«أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا بسم الله وفي سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلّوا ولا تقتلوا وليداً. .».

وفي رواية أخرى: «اغزوا بسم الله، فقاتلوا عدوّ الله وعدوّكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصّوامع معتزلين للنّاس، فلا تعرّضوا لهم، وستجدون آخرين للشياطين في رؤوسهم مفاحص^(١) فاقلعوها بالسّيف، ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مرضعاً ولا كبيراً فانياً، لا تغرقن نخلاً ولا تقطعن شجراً، ولا تهديموا بيتاً».

وفي رواية عطاء بن أبي مسلم قال: لمّا ودّع رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة، قال ابن رواحة: «يا رسول الله ﷺ، مُرني بشيء أحفظ عنك! قال ﷺ: «انك قادم غداً بلداً، السجود به قليل، فأكثر السجود» قال عبد الله زدني يا رسول الله، قال ﷺ: «اذكر الله، فإنّه عون لك على ما تطلب».

فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع إليه فقال: يا رسول الله، إنّ الله وتر يحبُّ الوتر!

قال ﷺ: «يا ابن رواحة، ما عجزت فلا تعجزنّ إن أسأت عشراً أن تحسن واحدة».

فقال ابن رواحة: «لا أسألك عن شيء بعدها»^(٢).

استعدادات العدو لمواجهة المسلمي

كانت خطة المسلمين التي ساروا على أساسها في غزواتهم وسراياهم هو مفاجأة العدو ومباغتته قبل أن يكمل استعداداته للمواجهة، وذلك من خلال

(١) مفاحص: جمع مفحص، ومفحص القطاة موضعها التي تجشم فيه وتبيض، أي أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له كما تستوطن القطا مفاحصها. (النهاية: ٣ / ١٨٥).

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٥٧ - ٧٥٨.

الكتمان والتعمية على الوجهة التي يتوجهون إليها واحاطة ذلك بالسرية التامة، ثم الحركة السريعة والمباغتة للعدو وأخذه على غرة.

إلا أن هذه الغزوة قد اختلفت عن غيرها من الغزوات من ناحية كثافة جيش المسلمين الذي بلغ ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أمر لم يعهد مثله في الغزوات والسرايا السابقة، ولم يكن بالامكان كتمان الأمر أو إبهام الوجهة التي يتوجهون إليها، ثم المدة الزمنية التي يستغرقها اعداد الجيش بهذا العدد الكبير، مما يعني تسرب الأخبار إلى العدو، بالإضافة إلى السبب الظاهري لهذه الغزوة وهو قتل مُرسَل رسول الله ﷺ غدرًا من قبيل شرحبيل الغساني، والذي لا يمكن معه اخفاء وجهة الجيش الإسلامي في مسيره.

يضاف إلى ذلك بُعد المسافة بين المدينة والشام والتي يحتاج الجيش الإسلامي لأيام كثيرة يقطعها وهو ما يسهل وصول خبره إلى العدو.

ثم إنَّ الطرف المقابل كان يتوقع من المسلمين القيام بحركة عسكرية لردِّ الاعتبار وتأديب الجناة، ومن الطبيعي أن يستعد لذلك استعداداً عسكرياً ضخماً يتناسب مع حجم الخطر المحدق به من المسلمين.

ولهذا تقول الرواية: «فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم، قبل أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير، وقام فيهم شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف وقدم الطلائع أمامه، وقد نزل المسلمون «مُعان» من أرض الشام، وبلغ الناس أنَّ هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام»^(١).

موقف المسلمين من جموع العدو

لقد كان استعداد العدو للمعركة بالغاً غاية في عدد الرجال وآلات الحرب،

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٥٩ - ٧٦٠، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٤، وابن هشام، السيرة

وفي كل ما يَبْهَرُ ويروع من مظاهر القوة والغنى والأبهة، حتى ذهل رجال من المسلمين من هول ما رأوا من كثرة الروم، فيقول أحدهم: «شهدت مؤتة، فلما رأينا المشركين رأينا ما لا قِبَلُ لنا به من العدد والسلاح والكُراع والذِباب والحرير والذهب، فبرق بصري..»^(١).

هذا بالإضافة إلى الروح المعنوية العالية التي كان يتمتع بها جيش الروم حيث كان حديث العهد بانتصاره على الفرس واستعادة الصليب الأعظم وارجاعه إلى بيت المقدس، فهو لا زال يعيش نشوة الانتصار الذي زاد من معنوياته.

ولهذا كان على المسلمين التريث قليلا لاتخاذ الموقف المناسب لهذا المستجد الذي واجههم وإن لم يكن مستبعداً لهم من أول الأمر.

يقول ابن إسحاق: «فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين، يفكرون في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يُمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له!»

وفي رواية الواقدي: «فإما يردنا وإما يزيدنا رجالا. فبينما الناس على ذلك من أمرهم جاءهم ابن رواحة فشجعهم ثم قال: «والله، ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيول - ما نقاتلهم - إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، انطلقوا فقاتلوا! - والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد - وإنما هي إحدى الحُسنيين، إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله، ووعدنا نبينا، وليس لوعده خُلف، وإما الشهادة فلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان» فشجع الناس على مثل قول ابن رواحة»^(٢).

لم يطل تريث وتردد المسلمين كثيراً، حيث حُسم الموقف بمواجهة العدو ومهما كانت النتيجة فهي لا تخلو من إحدى الحسنين إما النصر أو الشهادة.

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٧٦٠ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٧٥، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٦٠ .

ولهذا تحرك جيش المسلمين من منطقة معان باتجاه عدوه وهو مصمم على المواجهة، وتحرك العدو باتجاه جيش المسلمين.

يقول ابن إسحاق: فمضى الناس، حتى إذا كانوا بتخوم^(١) البلقاء لقيتهم جموعُ هرقل، من الروم والعرب، بقرية من قرى البلقاء يقال لها «مشارف» ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها «مؤتة» فالتقى الناس عندها، فتعباً لهم المسلمون..»^(٢).

٦ - بطولات ومآثر شهداء غزوة مؤتة

استشهد من المسلمين في غزوة مؤتة اثنا عشر رجلاً^(٣)، بعد أن سجلوا أروع البطولات في أرض المعركة، وأمام جيش يفوقهم في العدد والعدة ويقا تل على أرضه وبالقرب من امداداته.

إلا أننا لا نجد ذكراً في كتب المؤرخين لغير الأمراء الثلاثة الذين استشهدوا ضمن هذا الجمع، وكأنّ مقتل هؤلاء الثلاثة ولما لهم من مكانة ولما سجلوه من بطولات أنست المؤرخين مآثر غيرهم، ومما لا شك فيه أنّ هؤلاء الصفوة كانت لهم مواقفهم البطولية التي توجوها بالشهادة. وكان ينبغي أن تسجل لهم!

ومهما يكن من أمر، فإنّ أمراء وقادة غزوة مؤتة قد سجلوا ملحمة بطولية وكان كل تركيز جيش الروم عليهم لقتلهم لأنّ في قتل القادة هزيمة سريعة للجيش.

قال ابن إسحاق: «ثم التقى الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية

(١) التخوم: الحدود الفاصلة بين أرض وأرض، وهي: تخم (لسان العرب).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٧٧.

(٣) المصدر نفسه: ٤ / ٣٨٨، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٦٩.

رسول الله ﷺ حتى شاط^(١) في رماح القوم».

ثم أخذها جعفر فقاتل بها، حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قتل، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام.

-قال الراوى - : والله لكأنني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له ..

ثم قاتل حتى قتل وهو يقول :

بَا حَبَا الْجَنَّةُ وَاقْتَرَابُهَا طَيِّبَةٌ وَبَارِدًا شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رَوْمٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بِعِيدَةُ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إِذْ لَاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

قال ابن هشام: «وحدثني من أثق به من أهل العلم: أن جعفر بن أبي طالب، أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ﷺ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء، ويقال إن رجلاً ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين».

وفي رواية الواقدي: «.. فوقع أحدُ نصفيه في كَرَمٍ، فوجد في نصفه ثلاثون أو بضْعُ وثلاثون جُرْحًا».

وعن ابن عمر: وُجد في بدن جعفر ما بين منكبيه اثنان وسبعون ضربةً بسيف أو طعنة برمح.

قال ابن إسحاق: .. فلما قُتل جعفر أخذها عبد الله بن رواحة، ثم تقدّم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردّد بعض التردّد، ثم قال:

يَا نَفْسِ إِنْ لَأَتَقَتِّلِي مَوْتِي هَذَا حِمَامِ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ
وَمَا تَمْنَيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فَعَلِمَا هُدَيْتِ
يريد صاحبيه: زيداً وجعفرأ، ثم نزل .. فقاتل حتى قُتل.

(١) يقال شاط الرجل: إذا سال دمه فهلك (عن أبي ذر الخشني في شرحه للسيرة).

النبی ﷺ يخبر بشهادة قادة مؤتة

وروى المؤرخون معجزة لرسول الله ﷺ سجلت كمنقبة خالدة لشهداء معركة مؤتة، فقد روى الواقدي: «لما التقى الناس جلس رسول الله ﷺ على المنبر وكُشف له ما بينه وبين الشام، فهو ينظر إلى مُعتركهم...».

وقال ابن إسحاق: ولما أُصيب القوم قال رسول الله ﷺ: «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، قال - الراوي - : ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال ﷺ: ثم أخذها عبد الله ابن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم قال: لقد رُفِعوا إليّ في الجنة، فيما يرى النائم، على سُرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً^(١)، عن سريري صاحبيه، فقلت: عمّ هذا؟ ف قيل لي: مَضيا وتردّد عبد الله بعض التردّد، ثم مضى».

وفي رواية الواقدي عن النبي ﷺ بحق جعفر بن أبي طالب: «استغفروا لأخيكم فإنه شهيد، دخل الجنة فهو يطير في الجنة بجناحين من ياقوت حيث شاء من الجنة. وفي رواية أخرى: رأيت جعفرأ ملكاً يطيرُ في الجنة تدمى قادمته»^(٢).

٧ - مصير جيش المسلمين بعد مقتل الأمراء

لقد ركّز جيش الروم قتالهم على قيادة جيش المسلمين وعلى من يحمل الراية منهم، فاستطاعوا أن يقتلوا القادة الواحد بعد الآخر.

وكان رسول الله ﷺ قد ترك الخيار للمسلمين لكي يصطلحوا على من يروونه

(١) ازورار: ميلا وعوجاً .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٨٠، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٦١ - ٧٦٢ .

مناسباً لقيادة الجيش بعد مقتل الأمراء الثلاثة .

وهنا تختلف روايات المؤرخين في تصوير موقف المسلمين بعد مقتل آخر أمرائها عبد الله بن رواحة، وفي النهاية التي انتهت إليها هذه الغزوة أهى الهزيمة للمسلمين أم النصر لهم...؟

أما السؤال عن كون هذه المعركة هزيمة أم نصر، فسوف نجيب عنه لاحقاً، وأما موقف المسلمين بعد مقتل ثالث قادتهم فهنا نجد الروايات المختلفة التي تحدثنا عن ذلك .

ففي رواية ابن سعد عَمَّنْ شهد المعركة، قال: «.. حتى قتل - أي ابن رواحة - ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى لم أر اثنين جميعاً، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار، ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ثم قال: إِلَيَّ أيها الناس! فاجتمع إليه الناس حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد، فقال له خالد: لا أخذه منك أنت أحقّ به، فقال الأنصاري: والله ما أخذته إلا لك، فأخذ خالد اللواء ثم حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا...» .

فهذه الرواية تتحدث عن هزيمة للمسلمين بعد مقتل آخر قادتهم، ثم نصر لهم بعد أن استجمعوا قواهم وأخذ الراية خالد بن الوليد... .

إلا أنّ روايات الواقدي تشير إلى هزيمة نكراء مُني بها المسلمون آنذاك بعد قتل ابن رواحة .

ففي رواية شبيهة برواية ابن سعد جاء في آخرها: «.. فأخذه - أي اللواء - خالد فحمله ساعة، وجعل المشركون يحملون عليه، فثبت حتى تَكَرَّر^(١)

(١) تكر كر الرجل في أمره، أي تردد (الصحاح) .

المشركون، وحمل بأصحابه ففضّ جمعاً من جمعهم، ثم دهمه منهم بشر كثير، فانحاش المسلمون فانكشفوا راجعين^(١).

ففي هذه الرواية والتي هي نفس الرواية السابقة على ما يبدو، نجد الهزيمة، ثم العودة إلى أرض المعركة والقتال، ثم الانسحاب...

إلا أنّ الروايات التي يرويها الواقدي بعد ذلك تشير كلّها إلى هزيمة خالد بن الوليد بجيش المسلمين!

ففي رواية: «.. لما أخذ اللواء - أي خالد - انكشف بالناس فكانت الهزيمة وقُتل المسلمون، واتّبعهم المشركون، فجعل قُطبة بن عامر يصيح: يا قوم، يُقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يُقتل مدبراً! يصيح بأصحابه فما يثوب إليه أحد، هي الهزيمة، ويتبعون صاحب الراية منهزماً».

وفي رواية أخرى: «.. فأخذه - أي اللواء - خالد فانكشف بالناس».

وفي رواية داود بن سنان: «سمعت ثعلبة بن أبي مالك يقول: انكشف خالد ابن الوليد يومئذ حتى غيّرُوا بالفرار، وتشاءم الناس به».

وفي رواية ينتهي سندها إلى أبي سعيد الخدري، قال: «أقبل خالد بن الوليد بالناس منهزماً..»^(٢).

فهذه الروايات التاريخية تتحدث عن هزيمة خالد بن الوليد بالمسلمين بعد أن استلم اللواء وليس قبل ذلك.

إلا أنّ بعض المحدثين روى عن رسول الله ﷺ خلاف ذلك، ففي رواية البخاري عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «حتى أخذ الراية سيف من

(١) (٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٦٣ .

سيوف الله، حتى فتح الله عليهم»^(١).

وفي رواية الواقدي عن عبد الله بن فضيل، عن أبيه، قال: لَمَّا أَخَذَ خَالِدُ الرَايَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الآن حَمِيَ الْوُطَيْسُ...»^(٢).

إِلَّا أَنَّ الْوَاقِدِي الَّذِي تَبْنَى رَوَايَاتِ انْهْزَامِ خَالِدٍ بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ اللَّوَاءَ، سَجَلَ اعْتِرَاضَهُ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ فَقَالَ: «قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَالْأَوَّلُ أَثْبَتَ عِنْدَنَا، إِنَّ خَالِدًا انْهَزَمَ بِالنَّاسِ...»^(٣).

وسوف نتوقف لاحقاً لنحدث عن هذه المعركة من حيث كونها هزيمة أم انتصار.

خالد بن الوليد يضع خطة الانسحاب من المعركة

ومهما يكن من أمر، فقد قام خالد بن الوليد بدوره في المعركة من خلال وضع خطة عسكرية للانسحاب منها بخسائر قليلة ومن دون أن يتمكن العدو من الالتفاف عليهم وملاحقتهم.

روى الواقدي: «لَمَّا قُتِلَ ابْنُ رَوَاحَةَ مَسَاءً بَاتَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَعَلَ مُقَدِّمَتَهُ سَاقَتَهُ، وَسَاقَتَهُ مُقَدِّمَتَهُ، وَمِيمَتَهُ مِيسِرَتَهُ، وَمِيسِرَتَهُ مِيمَتَهُ، فَأَنْكَرُوا مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ رَايَاتِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، وَقَالُوا: قَدْ جَاءَهُمْ مَدَدٌ! فَرُعِبُوا فَانْكَشَفُوا مُنْهَزِمِينَ، فَقَتَلُوا مَقْتَلَةً لَمْ يُقْتَلْهَا قَوْمٌ»^(٤).

(١) البخاري، صحيح البخاري، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، المجلد الثالث، الجزء الخامس: ١٠٢ - ١٠٣، الحديث (٤٢٦٢).

(٢) أي الآن اشتدت الحرب (القاموس)، وتنقل هذه الكلمة عن النبي ﷺ في غزوة حنين!

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٦٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٧٦٤.

وهكذا استطاع خالد بن الوليد أن يموه على جيش العدو، من خلال تغيير مواقع الجيش وراياتهم فتصوروا أن المدد قد جاءهم، فلقى الله في قلوبهم الرعب، فتأمن انسحاب المسلمين «من دون أن يتكبدوا في انسحابهم خسائر تذكر على الرغم من أنّ حركة الانسحاب من أصعب الحركات العسكرية لاحتمال انقلاب الانسحاب إلى هزيمة، والهزيمة كارثة تؤدي إلى خسائر فادحة بالمنهزمين»^(١).

٨ - عودة المسلمين وردود أفعال أهل المدينة اتجاههم

لقد كانت أخبار غزوة مؤتة قد وصلت المدينة قبل عودة جيش المسلمين إليها، فهي الغزوة الوحيدة التي جاء خبرها من قبل الرسول ﷺ قبل عودة مقاتليها، فلقد نعى رسول الله ﷺ استشهاد الأمراء الثلاثة على الجيش، وأخبر ﷺ عن أحداثها، ولهذا لم يفاجئ عودة جيش مؤتة إلى المدينة أهلها.

ومن المؤكد أن جيش مؤتة قد عاد وأفراده في حالة نفسية ومعنوية صعبة للغاية بعد مقتل قادتهم وأمرائهم وكذلك كانت حالتهم الجسدية متعبة بعد رحلة مضنية قطعوا خلالها المسافات الطويلة بين المدينة وتخوم الشام ذهاباً وإياباً.

إلا أنّ أهل المدينة الذين عزّ عليهم عودة جيشهم من دون قادتهم، فاعتبروا عودتهم هزيمة واستنكروا عليهم انسحابهم من المعركة واعتبروها هزيمة، وفراراً من أرض المعركة!

قال ابن إسحاق: «لما دنوا من حول المدينة تلقّاهم رسول الله والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشْتَدُّون، ورسول الله ﷺ مُقبل مع القوم على دابة، فقال ﷺ: «خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر، فأُتي بعبد الله، فأخذه فحمله

(١) خطاب، الرسول القائد: ٣٠٨ .

بين يديه، قال: وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله! فيقول رسول الله ﷺ: ليسوا بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله»^(١).

وروى الواقدي، عن أبي سعيد الخدري قال: «أقبل خالد بن الوليد بالناس مُنهزماً، فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقَّوهم بالجُرف، فجعل الناس يحثون في وجوههم التراب ويقولون: يا فُرَّار، أفررتم في سبيل الله؟ فيقول رسول الله ﷺ: ليسوا بفُرَّار، ولكنهم كُرَّار إن شاء الله».

وفي رواية ثانية عن الواقدي عن عبدالله بن عتبة يقول: «ما لقي جيش بُعثوا معنا ما لقي أصحاب مؤتة من أهل المدينة، لقيهم أهل المدينة بالشر حتى أن الرجل لينصرف إلى بيته وأهله، فيدقّ عليهم الباب، فيأبون أن يفتحوا له، يقولون: ألا تقدّمت مع أصحابك؟ فأما من كان كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ فجلس في بيته استحياء، حتى جعل النبي ﷺ يرسل إليهم رجلاً رجلاً، يقول: أنتم الكُرَّار في سبيل الله».

وبقيت آثار غزوة مؤتة تلاحق من اشترك فيها فكانوا يعيرون على هزيمتهم ولا يردون جواباً، روي عن أبي هريرة: «كنا نخرج ونسمع ما نكره من الناس، لقد كان بيني وبين ابن عمّ لي كلام، فقال: إلّا فرارك يوم مؤتة، فما دريتُ أي شيء أقول له»^(٢).

والذي يبدو من خلال أجواء بعض الروايات أن هذا الضغط الاجتماعي من أهل المدينة على أصحاب مؤتة قد كان شديداً وقاسياً وأخذ فترة طويلة من الزمن مكث خلالها أصحاب مؤتة في بيوتهم، ففي رواية ينقلها ابن إسحاق والواقدي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٨٢ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٦٤ - ٧٦٥ .

بتصوير دقيق لحجم الضغط الاجتماعي الذي تلقاه أصحاب مؤتة .

قال الواقدي : «عن عبد الرحمن بن حارث بن هشام قال : كان في ذلك البعث سلمة بن هشام بن المغيرة ، فدخلت امرأته على أم سلمة زوج النبي ﷺ فقالت أم سلمة : ما لي لا أرى سلمة بن هشام ؟ اشتكى شيئاً ؟

وفي رواية ابن إسحاق : «ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين ؟» .

قالت امرأته : لا والله ، ولكنه لا يستطيع الخروج ، إذا خرج صاحوا به ، وبأصحابه : «يا فُرَّار ، أفررت في سبيل الله» ، حتى قعد في البيت ! فذكرت ذلك أم سلمة لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «بل ، هم الكُرَّار في سبيل الله فليخرج ، فخرج»^(١) .

وهناك روايات أخرى بهذا المضمون ذكر طرفاً منها ابن كثير في سيرته مع مناقشة له لمضمونها فلتراجع في محلها^(٢) .

٩ - النبي ﷺ يخبر عائلة جعفر باستشهاده ويعزيهم

لقد أولى رسول الله ﷺ الشهداء في معاركه عناية فائقة ، فنراه يترحم عليهم ، ويتولى دفنهم بنفسه - كما في شهداء أحد - ويعزي أهلهم وذويهم ، ويرعى عوائلهم وأيتامهم الرعاية اللازمة ، وصور ذلك كثيرة في عهد رسول الله ﷺ في المدينة .

ومعركة مؤتة لها ميزتها الخاصة إذ استشهد فيها ثلاثة من قادة المسلمين وممن كان لهم من رسول الله ﷺ مكانة خاصة ، وعلى رأس أولئك جعفر بن أبي

(١) الواقدي ، المغازي : ٢ / ٧٦٥ ، وابن هشام ، السيرة النبوية : ٤ / ٣٨٣ .

(٢) ابن كثير ، السيرة النبوية : ٣ / ٤٦٧ وما بعدها .

طالب ﷺ فهو بالاضافة إلى قرابته النسبية من رسول الله ﷺ إلا أن له معه ﷺ قرابة روحية عبّر عنها رسول الله ﷺ بفرحة لقائه به في خبير بعد غيبة طويلة قضاها مهاجراً في سبيل الله تعالى في أرض الحبشة .

ولهذا نعه رسول الله ﷺ على المنبر ونعى صاحبيه وترحم عليهم جميعاً، وبقي عليه ﷺ أن يحمل الخبر إلى زوجه وأولاده ويواسيهم بهذه المصيبة ويشعرهم بأبوته ورعايته لهم .

والروايات التي يرويها الواقدي تعبر بنفسها عن عمق مضمونها ومدى حزن رسول الله ﷺ على ابن عمه وناصره جعفر بن أبي طالب ﷺ .

روى الواقدي بسنده المتصل عن أسماء بنت عميس - زوج جعفر بن أبي طالب ﷺ - قالت : «أصبحت في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه فأتاني رسول الله ﷺ . . فقال : يا أسماء ، أين بنو جعفر؟ فجئت بهم إليه فضمتهم وشمتهم ، ثم ذرفت عيناه فبكى ، فقلتُ : أي رسول الله ، لعلك بلغك عن جعفر شيء؟ فقال : نعم ، قُتل اليوم ، قالت : فقمْتُ أصبح ، واجتمع إلي النساء .

قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا أسماء لا تقولي هُجراً^(١) ولا تضربي صدرًا!

قالت فخرج رسول الله ﷺ حتى دخل على ابنته فاطمة وهي تقول : وا عمّاه! فقال رسول الله ﷺ : على مثل جعفر فلتبك الباكية .

ثم قال رسول الله ﷺ : اصنعوا لآل جعفر طعاماً ، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم» .

وفي رواية عبد الله بن جعفر - ابن الشهيد - قال الراوي : سمعتُ عبد الله بن جعفر يقول : أنا احفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أُمّي فنعى أبي ، فأنظر

(١) الهجر : الأفحاش في المنطق (الصحيح للجوهري) .

إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي، عيناه تُهراقان الدموع حتى تقطر لحيته. ثم قال ﷺ: اللهم، إن جعفرأ قد قَدِمَ إليَّ أحسن الثَّواب، فأخلفه في ذريته بأحسن ما خلفتُ أحداً من عبادك في ذريته، ثم قال ﷺ: يا أسماء، ألا أبشرك؟ قالت: بلى، بأبي أنت وأمي.

قال ﷺ: فإن الله عز وجل جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة.

قالت: بأبي وأمي - أنت - يا رسول الله، فأعلم الناس بذلك.

يقول عبد الله بن جعفر: فقام رسول الله ﷺ وأخذ بيدي، يمسح بيده رأسي حتى رقي على المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يعرف عليه، فتكلم فقال: إن المرء كثير بأخيه، وابن عمه، ألا إن جعفرأ قد استشهد، وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة.

ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته وأدخلني، وأمر بطعام فصنع لأهلي وأرسل إلى أخي فتغذَّيناه عنده والله غداء طيباً مباركاً. فأقمنا ثلاثة أيام في بيته، ندور معه كلما صار في إحدى بيوت نسائه، ثم رجعنا إلى بيتنا، فأتى رسول الله ﷺ وأنا أساوم بشاة أخ لي، فقال: اللهم بارك في صفقته، قال عبد الله: «فما بعثُ شيئاً ولا اشتريتُ إلَّا بورك فيه»^(١).

١٠ - غزوة مؤتة نصر أم هزيمة؟

لقد كانت غزوة مؤتة أثراً من آثار الدعوة الإسلامية في وجهتها العالمية، باعتبارها رسالة سامية للإنسانية كافة، فكان لابد لها من أن تنطلق إلى مشارق الأرض ومغاربها فتتلقى الاستجابة من هنا، والصدود والاعراض من هناك،

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٦٦ - ٧٦٧. وروى ابن إسحاق الحديث الأول: ٤ / ٣٨٠ مع

والحرب والقتال من بينهما .

وما قام به الحارث الغساني من قتل مُرْسَل رسول الله ﷺ غدرًا لا يمكن السكوت عنه، إلاّ أنّها لم تكن مواجهة سهلة في الحسابات العسكرية، وما نقله لنا المؤرخون من أوجه المقارنة بين الجيش الإسلامي من جهة، وجيش الروم والقبائل العربية المتحالفة معها أو العميلة لها، شاهد على صعوبة المعركة من الناحية العسكرية .

ولهذا قد يكون توقف المسلمين في معان ولمدة يومين ليتداولون الأمر فيما بينهم، له مبرراته من الناحية العسكرية، فجيش قوامه ثلاثة آلاف كيف له أن يواجه جحافل الروم وحلفائها وهم في عدد فاق المائتي ألف مقاتل!

ثمّ إن جيش الروم ومن حالفهم يحاربون على أرضهم ولهم المدد الكافي من خلفهم، بالإضافة إلى خبرتهم القتالية التي كسبوها من خلال معاركهم مع الدولة الساسانية في إيران، والتي كانوا يعيشون نشوة انتصاراتهم الأخيرة فيها .

أما الجيش الإسلامي الفتى فكانت تنقصه الاعداد الكافية من المقاتلين، وأسلحتهم بدائية، بالإضافة إلى بعدهم عن أرضهم وقلة خبرتهم وشحة معلوماتهم عن عدوهم .

فما نتوقع من الجيش الإسلامي في هذه المعركة بعد هذه المقارنة البسيطة لكلا الجيشين؟ فهل من الممكن أن يسحق الجيش الإسلامي هذه القوات الهائلة ويسقط الامبراطورية الرومانية ويسيطر على الشام بأكمله؟ وهل كان من أهداف خروج الجيش الإسلامي ذلك؟ وهو ما عجزت عنه الدولة الساسانية في فارس مع ما تمتلك من قوة قد تفوق قوة الدولة الرومانية؟

لقد كانت مهمة الجيش الإسلامي في خروجه إلى مؤتة مهمة محدودة بحدود تأديب الأعراب الذين يتعرضون للدعاة ويغدرون بهم، وإظهار قوة

المسلمين، وعدم السكوت على اعتداء.. ولم يكن في الحسبان أن يواجه هذا الجيش - الذي أعد بسرعة وعجل - تلك القوات المدججة بالسلاح وبذلك الحجم الكبير.

ولكن ومع ذلك كله سجل الجيش الإسلامي أروع صور المواجهة ولم ينهزم أو ينكل من أول الأمر وإنما اختار المواجهة رغم معرفتهم بالنتائج مسبقاً.

ولكن تبقى النفس البشرية وتعلقها بالحياة الدنيا وحبها للبقاء، تملي عليه موقفى الاقدام أو التردد والنكول عندما يحمرّ لباس ويشدّ وطيس المعركة.

ولا ننسى مقتل الأمراء والقواد الثلاثة في يوم واحد قد فتّ في عضد المسلمين، إذ إنّ الجيش بقيادته، فإذا قتل القائد تصبح سائبة تهيم على وجهها، إلى أن يقوم من يمسك بأزمه قيادتها، وتجميع قواها، ورص صفوفها من جديد، وخلال هذه الفترة تسجل مواقف الفرار والانهازم بوضوح. وإلى جانبها مواقف الصمود والثبات والشجاعة والاقدام. وكلا الموقفين سجلتها أقلام الرواة لوقائع هذه المعركة، فكان فيها شجاعة واقدام واقتحام على الموت من دون مبالاة أو تردد، وشاهد ذلك ومصادقه في هذا العدد من الطعنات التي وجدت في جسد جعفر بن أبي طالب.

إلا أن كلّ الجيش لم يكن بمثابة جعفر في شجاعته واقدامه واستماتته وتفانيه في سبيل الدفاع عن دينه وعقيدته، فمن الطبيعي أن نجد فيهم الهارب والمنهزم الذي لا يلوي على شيء.

أما موقف خالد بن الوليد بعد أن استلم قيادة الجيش وقرّر الانسحاب من المعركة فبغض النظر عن كلّ ما قيل أو يقال عن شخصية خالد وما سجل عليه من مواقف لاحقة، فإنّ ما قام به من تدبير وخطة للانسحاب بالجيش الإسلامي من أرض المعركة لم يكن أمامه بديل غير ذلك «فإنّه إذا صحت الإحصائية

المتعلقة لجيش العدو، فليس للمسلمين حلّ إلاّ الرجوع مع أنّه ينبغي أن يقول: لو أنّ حرباً شاملة قد شُنت يومئذ، وكانت الهزيمة للمسلمين فإنّ عدد شهداء المسلمين يزداد أكثر من العدد المذكور»^(١).

وخلاصة الأمر، لم تكن معركة مؤتة هزيمة للمسلمين بالمعنى المطلق للهزيمة، ولا انتصاراً لهم بالمعنى الكامل للانتصار، وإن كانت في بعض جوانبها وآثارها ونتائجها المستقبلية نصرٌ للمسلمين.

١١ - نتائج وأثار غزوة مؤتة

رغم النتيجة التي انتهت إليها واقعة مؤتة، وما شعر به رسول الله ﷺ والمسلمون من حزن وأسى على فقد القادة والأمرء الثلاثة ومن معهم من شهداء في هذه المعركة، إلاّ أنّ هذه الغزوة قد حققت بعض النتائج الهامة، وكان لها آثار مستقبلية تُصَبُّ في مصلحة الإسلام والمسلمين ودعوتهم المباركة.

ومن أهم هذه النتائج والآثار:

أولاً: لقد واجه جيش المسلمين في هذه الغزوة جيشاً منظماً له حشوده الهائلة ومدجج بال سلاح والذخيرة وله مدد من خلفهم، وهو جيش الدولة الرومانية التي كانت تمثل آنذاك الدولة الكبرى التي يمتد نفوذها إلى بلاد الشام المتاخمة لحدود الحجاز والجزيرة العربية. . . «إلاّ إنه لم ينهزم من أول وهلة وإنما أثر المواجهة وأعطى التضحيات والشهداء وترك أثراً عميقاً في نفوس أولئك الحكام الذين كانوا يتصورون أنّ بإمكانهم القضاء على محمد ﷺ وأصحابه متى أرادوا. . . لقد أيقنوا بعد تلك الغزوة أنّ محمداً ﷺ وأتباعه قد أصبحوا قوة بين القوى الموجودة في العالم، وإنهم بإيمانهم وإخلاصهم لعقيدتهم ومبادئهم

(١) جعفریان - رسول، سيرة سيد الأنبياء والمرسلين: ٧٨٧ - ٧٨٨، تعريب: علي هاشم .

يطمحون إلى إخضاع الدول الكبرى، ولا يهابون العدة والعدو مهما بلغ شأنها، وقد رأوا من إقدامهم بهذا العدد اليسير على تلك الحشود الهائلة واستبسالهم في القتال، ومرونتهم في إدارة المعارك ما بهر عقولهم، وزرع في قلوبهم الرعب والخوف، وأصبحوا يحذرون ويتهيبون هذه الدولة الفتية الناشئة . . .»^(١).

ثانياً: إن هذه الغزوة قد أمنت للمسلمين الحدود المتاخمة لبلاد الشام، فلم تحاول الدولة الرومانية ولا أتباعها من القبائل العربية أن يهاجموا المسلمين والدولة الإسلامية بعد هذه الغزوة، مما يعني أن هذه الغزوة قد تركت أثرها في النفوس، وظل هذا الأثر إلى يوم غزوة «تبوك» حيث ذهب رسول الله ﷺ بأصحابه لملاقاة الروم بعد عام - من هذه الغزوة - فلم يستطيعوا مجابهة المسلمين يومئذ، وآثروا السلامة^(٢) بأنفسهم على المواجهة كما سوف يأتينا لاحقاً.

ثالثاً: كما أن هذه الغزوة قد تركت أثرها في نفوس القبائل الضاربة على أطراف الشام والعراق، مما جعل كثيراً من بني سليم وأشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة يدخلون في الإسلام طائعين^(٣).

رابعاً: ثم لا ننسى أثر هذه الغزوة في نفوس المسلمين من الناحية العسكرية والتعبوية، حيث عرفتهم بحجم قوة عددهم، وأسلوبه في القتال . . . ولهذا يقول أحد الخبراء العسكريين عن هذه الغزوة: «كانت معركة «مؤتة» معركة استطلاعية أفادت المسلمين كثيراً في معرفة خواص قوات الروم وأساليب قتالهم، وخواص حلفائهم من القبائل وأساليب قتالهم وقوتهم، فأفادوا من هذه المعلومات في قتالهم بعد ذلك ضد الروم. ولا تعدّ خسائر المسلمين الطفيفة شيئاً يذكر بجانب

(١) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٢) دويدار، صور من حياة الرسول: ٥٢٧ .

(٣) المصدر نفسه: ٥٢٧ .

الفائدة العسكرية التي أفادوها من الاطلاع على خواص قوات الروم وحلفائها وتنظيمها وتسليحها وأساليب قتالها، مما سنرى أثره في المعارك التي خاضها المسلمون فيما بعد...»^(١).

١٢ - الدروس والعبر من غزوة مؤتة

عندما نستعرض وقائع غزوة مؤتة تتجلى أمامنا جملة من الدروس والعبر والعظات نتوقف عند بعضها:

أولاً: عندما نتأمل في موقف المسلمين الذين شاركوا في هذه المعركة التي لم تتكافأ فيها موازين القوى بين الفريقين، تتجلى لنا صور الصبر، والثبات، والتضحية، والاستقامة في أروع أشكالها وخاصة عند الأمراء الثلاثة الذين جادوا بأنفسهم في سبيل الله، ومضوا على بصيرة من أمرهم برفقة النبين والصديقين، والشهداء، وحسن أولئك رفيقاً.

ثانياً: وعندما نستعرض موقف النبي ﷺ وهو يتابع عن كثب أخبار هذه الغزوة، نجده ﷺ يوليها عناية خاصة قد لا نجد لها في السرايا والغزوات الأخرى، فهو ﷺ يخبر عن أحداثها ووقائعها للمسلمين قبل أن يعود الجيش من أرض المعركة، وهو ﷺ ينعي استشهاد قاداته الثلاثة ويخبر عن مكانتهم في جنان الخلد ويواسي أهلهم وذويهم وعيناه تذرفان بالدموع... وهذه الأمور وغيرها مما تميز هذه المعركة عن غيرها من معارك الإسلام الخالدة في عصر الرسالة، وتدل على أهميتها ونتائجها المستقبلية.

ثالثاً: ومن صور المواساة التي قدمها النبي ﷺ لآل جعفر عليه السلام يمكن أن نستفيد الكثير من الدروس والعبر، فهو ﷺ يذهب بنفسه لمواساة زوجة جعفر

وأولاده، ولا يستنكر على أسماء زوجة جعفر بكاءها وعويلها على زوجها، ويأمر أن يصنعوا لهم الطعام؛ لأنهم قد شغلوا بمصيبتهم، ثم يصطحب معه أولاد جعفر ويحوطهم بعطفه وحنانه الأبوي ليعوضهم بذلك عن حنان وعطف والدهم

فكل هذه الخطوات المباركة ترسم للمسلمين منهجاً نبوياً كريماً، في رعاية حق الميت، وخاصة الشهيد منهم، وتكريم أبنائهم، وفي هذا كله جواب واضح على من يستنكر هذه الأمور ويعتبرها من الأمور المخالفة للشريعة، أو من البدع التي نهى الإسلام عنها! ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

رابعاً: لم تكن المقاييس المادية تشجع المسلمين على خوض معركة غير متكافئة في مؤتة، ولهذا توقفوا في «معان» لمناقشة الأمر، وفيما يجب عليهم أن يتخذوا من تدبير! إلا أن قوة الإيمان والعقيدة والتي عبّر عنها بعضهم بقوله: «... وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسنيين إما ظهور وإما شهادة... فمضى الناس»^(١)، وهكذا تغلب صوت الإيمان والعقيدة على المقاييس المادية، واستطاع المسلمون تجاوز الهزيمة النفسية والروحية أمام عددهم.

وما أحوجنا لهذه الخصوصية في زماننا هذا الذي أظهر فيه أعداء الله تفوقهم العسكري والتكنولوجي، وهزمونا نفسياً وروحياً قبل أن نهزم عسكرياً!

خامساً: قد تكون هنالك أسباب موضوعية دعت رسول الله ﷺ إلى عدم الخروج بنفسه واتخاذ قرار تعدد القيادة في هذه الغزوة، مما يدل على حكمته القيادية وبعد نظره ﷺ في الأمور، «ومن السذاجة أن يتبادر إلى الأذهان أنه ﷺ كان يعلم مسبقاً المصير الذي كان ينتظر أعز أصحابه! فلم يعرف عنه ﷺ

أبدأ أنه ساق أتباعه إلى حتوفهم، أو رمى بهم في عمليات ينتحرون فيها، كل ما هنالك أن كثرة مشاغله منعتة من قيادة الجيش بنفسه، ومن أجل ضمان وحدة قواته ومنعاً للفوضى والاضطراب في أرض متطرفة شمالاً، عيّن هؤلاء القادة^(١).

هذه أهم الدروس والعبر من هذه الواقعة، وهنالك دروس أخرى أشرنا إليها.

١٣ - سرايا سبقت فتح مكة

ذكر بعض المؤرخين أن رسول الله ﷺ قد بعث بعض السرايا عقيب غزوة مؤتة وقبل فتح مكة، ومن هذه السرايا:

سرية ذات السلاسل

وهي من السرايا التي اختلفت الروايات فيها اختلافاً عجبياً، فحسب الرواية التي يرويها الواقدي وابن سعد وغيرهما من كتاب السيرة، إن هذه السرية كان قائدها عمرو بن العاص ولم يسبقه أحد في قيادتها، إلا أن الرواية الشيعية لهذه السرية تذكر أن قائدها هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد سبقه في قيادتها جمع من الصحابة منهم عمرو بن العاص فعجزوا عن الانتصار فيها على عدوهم فكان النصر على يد علي عليه السلام.

روى ابن سعد قال: «ثم سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، وهي وراء وادي القرى وبينها وبين المدينة عشرة أيام، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان من هجرة رسول الله ﷺ. قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قضاة قد تجتمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمرو ابن العاص ف عقد له لواء، وجعل معه راية سوداء وبعثه في ثلاثمائة من سراة

(١) خليل - عماد الدين، دراسة في السيرة: ٢٩٥.

المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن يمر به من (قبائل) بليّ وعُدرة وبلقين، فسار الليل وكمن النهار فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء، وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يلحق بعمر، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلحق بعمر فأراد أبو عبيدة أن يؤمّ الناس فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مدداً وأنا الأمير، فأطاع له بذلك أبو عبيدة، وكان عمرو يصلي بالناس، وسار حتى وطىء بلاد «بليّ» ودوّحها^(١)، حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عُدرة وبلقين، ولقي في آخرها جمعاً فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرّقوا، ثم قفل، وبعث عوف بن مالك بريداً إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقولهم وسلامتهم وما كان في غزاتهم^(٢).

وفي رواية الواقدي وابن هشام بعض التفاصيل والجزئيات الأخرى ليست بذات أهمية كبيرة^(٣).

أما الرواية الشيعية لهذه الغزوة فهي قد اعتمدت على بعض الروايات ومن أبرزها رواية علي بن إبراهيم القمي، وهو من أعلام القرن الثالث الهجري، وينسب إليه التفسير المعروف بتفسير القمي.

فقد ذكر هذا المفسر عند تفسيره سورة «العاديات» رواية طويلة نسبها إلى الإمام الصادق عليه السلام تبين شأن نزول هذه السورة، وإنها نزلت بشأن علي بن أبي طالب عليه السلام لما بعثه النبي ﷺ إلى ذات السلاسل^(٤).

(١) دوح البلاد: قهرها واستولى على أهلها. (الصحيح للجوهري).

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٥.

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٦٩ - ٧٧٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٢٣ وما بعدها.

(٤) انظر تفسير القمي: ٧٣١ طبعة ذوي القربى، والميزان: ٢٠ / ٣٤٧.

وأغلب مفسري ومحدثي الشيعة الذين ذكروا هذه الواقعة وشأن نزول السورة كان مصدرهم - غالباً - رواية القمي في تفسيره مع وجود اختلاف يسير بينهم في نقل الرواية^(١).

وتلتقي رواية القمي مع رواية فرات الكوفي في تفسيره^(٢) في كثير من مفرداتها، بل قد تكون رواية فرات الكوفي هي الأصل الذي اعتمد عليه القمي في تفسيره من دون الإشارة إلى ذلك.

وفيما يلي خلاصة لهذه الروايات:

١ - روي الشيخ الطوسي في أماليه عن إبراهيم الأحمري عمّن حدثه عن الحلبي قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: وجه رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب في سرية فرجع منهزماً يجئن أصحابه ويجبنونه أصحابه، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال لعلي: أنت صاحب القوم... فوجه رسول الله ﷺ فقال له: اكنم النهار وسر الليل ولا تفارقك العين، قال: فانتهى عليّ إلى ما أمره به رسول الله ﷺ فصار إليهم، فلما كان عند وجه الصبح أغار عليهم، فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ إلى آخرها»^(٣).

٢ - وفي رواية المجلسي في البحار عن الخرائج للراوندي: «أن النبي ﷺ لما بعث سرية ذات السلاسل، وعقد الراية وسار بها أبو بكر، حتى إذا

(١) للتوسع انظر: تفسير البرهان: ٤ / ٤٩٥ وما بعدها، والصابي: ٥ / ٣٦١ وما بعدها، ونور الثقلين: ٥ / ٦٥٢ وما بعدها، ومجمع البيان: ١٠ / ٤٢٢، وبحار الأنوار: ٢١ / ٦٨ وما بعدها.

(٢) انظر تفسير فرات الكوفي: ٥٩٠ بتحقيق: محمد كاظم، طبعة وزارة الإرشاد - طهران، الطبعة الأولى، (١٩٩٠م).

(٣) أمالي الطوسي: ٦١١، والبحار: ٢١ / ٢٧٤.

صار بها بقرب المشركين اتصل خبرهم فتحزّزوا ولم يصل المسلمون إليهم، فأخذ الراية عمر، وخرج فاتصل بهم خبرهم فتحزّزوا ولم يصل المسلمون إليهم، فأخذ الراية عمرو بن العاص فخرج في السرية فانهزموا، فأخذ الراية لعلّي وضّم إليه أبا بكر وعمر وعمرو بن العاص ومن كان معه في تلك السرية . . . فكان يسير بهم بين الجبال في الليل ويكمن في الأودية بالنهار . . . إلى أن كبس المشركين وهم غازون آمنون وقت الصبح فظفر بالرجال والذاري والأموال . . . وشدّ الرجال في الجبال كالسلاسل، فلذلك سميت غزاة ذات السلاسل . . .»^(١).

٣ - وجاء في البحار أيضاً: «أنّ أعرابياً جاء عند النبي ﷺ . . . وقال: قوم من العرب قد اجتمعوا بوادي الرمل وعملوا على أن يبيتوك بالمدينة . . .»^(٢).

٤ - وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ هذه السورة ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ نزلت في أهل وادي اليابس . . . اجتمعوا اثني عشر ألف فارس . . . فنزل جبرئيل على محمد فأخبره بقصتهم وأنّ رسول الله خطب المسلمين وقال: إنّ جبريل أخبرني أنّ أهل وادي اليابس اثنا عشر ألفاً قد استعدوا وتعاهدوا . . . حتى يقتلونني وأخي عليّ بن أبي طالب، وأمرني أن أسيّر إليهم أبا بكر في أربعة آلاف فارس . . .»^(٣).

٥ - أما رواية القمي الطويلة فهي لا تصرح باسم من أرسلهم النبي ﷺ قبل علي عليه السلام وإنما يكتفي بقوله: فلان . . . «وأمر فلان بأمره . . . أنه إذا رأيهم أن يعرض عليهم الإسلام فإن تابعوه وإلاّ واقعههم، فيقتل مقاتليهم ويسبي ذراريهم ويستبيح أموالهم ويخرب ضياعهم وديارهم! - وعندما رجع فلان - قال له

(١) بحار الأنوار: ٢١ / ٧٦ - ٧٧، والمجلد: ٩ / ٢٧٤ - ٢٧٥ الطبعة الحديثة .

(٢) بحار الأنوار: ٢١ / ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه: ٢١ / ٦٨ - ٧٤ وهي رواية القمي بفارق يسير فيهما . وبنفس المضمون تجد الرواية عند فرات الكوفي: ٥٩٩ - ٦٠٣ .

رسول الله: يا فلان خالفت أمري ولم تفعل ما أمرتك وكنت والله عاصياً فيما أمرتك. . فقام النبي ﷺ وصعد المنبر ثم قال: يا معشر المسلمين إني أمرت فلاناً أن يسير إلى أهل وادي اليابس. . وإنه سار إليهم وخرج إليه منهم مائتا رجل فإذا سمع كلامهم. . انتفخ صدره، ودخله الرعب منهم وترك قولي ولم يطع أمري! وإن جبرئيل أمرني عن الله أن أبعث إليهم فلاناً مكانه في أربعة آلاف فارس فسر يا فلان. . ولا تعمل كما عمل أخوك فإنه عصى الله وعصاني. . فخرج إليهم مائتا رجل. . فنزل جبرئيل فأخبر محمداً بما صنع هذا. . فصعد النبي ﷺ المنبر وأخبر بما صنع هذا وإنه قد انصرف وانصرف المسلمون معه مخالفاً لأمرى عاصياً لقولي. . فقدم عليه - فلان - فقال ﷺ له: يا فلان عصيت الله في عرشه وعصيتني وخالفت قولي وعملت برأيك ألا قبح الله رأيك!! وإن جبرئيل قد أمرني أن أبعث عليّ بن أبي طالب عليه السلام في هؤلاء المسلمين، وأخبرني أنّ الله يفتح عليه وعلى أصحابه، فدعا علياً وأوصاه بما أوصى به الأول والثاني وأصحابه الأربعة آلاف فارس وأخبره أن الله سيفتح عليه وعلى أصحابه. .»^(١).

والذي نلاحظه في هذه الروايات:

أولاً: ضعف مصدر هذه الروايات: فإنّ مصدرها تفسير فرات الكوفي، وتفسير القمي، ومن جاء بعدهما من المتأخرين أخذ عنهما، وهنالك كلام طويل حول هذين التفسيرين ومدى الاعتماد عليهما بين علماء الرجال^(٢)، وخاصة تفسير القمي الذي يقول فيه أحد الباحثين: «إنّ الاعتماد على هذا التفسير بعد هذا الاختلاط مشكل جداً، خصوصاً مع ما فيه من الشذوذ في المتون».

ويقول عنه محقق التفسير نفسه: «بلغ الاسناد من ضعف ووهن،

(١) القمي، التفسير: ٧٣١ - ٧٣٢ .

(٢) انظر: مقدمة تفسير فرات الكوفي: ٩ - ٤١ بقلم المحقق: محمد كاظم، طبعة الإرشاد، ومقدمة تفسير القمي: ٩ - ١٣ بقلم الصالحى الأنديمشكى، طبعة ذو القربى - قم .

واضطراب في المتن . . فنراه يذكر بعض المناكير مما ترفضه العقول، ويتحاشاه الأئمة الأطهار^(١).

ثانياً: الاضطراب في متون الروايات: فقد لاحظنا الاختلافات الكثيرة والمتباينة في متون هذه الروايات، فنجد الاختلاف فيمن أخبر رسول الله ﷺ بجموع الأعداء هل هو جبريل، أو أنه الأعرابي؟ ونجد الاختلاف فيمن تولى قيادة الجيش أولاً، هل هو أبو بكر؟ ثم عمر بن الخطاب؟ وفي بعض الروايات إضافة خالد بن الوليد إليهما!

كذلك نجد الاختلاف في موقع المعركة هل هو وادي اليبس؟ أم إنه وادي الرمل؟ والاختلاف كذلك في عدد القتلى من المشركين ما بين العدد ستة أو سبعة أو مائة وعشرين رجلاً؟

كذلك نجد الاختلاف في عدد أفراد السرية، فنجد رواية تقول إنه ﷺ أرسل علياً في ثمانين رجلاً من أهل الصفة، أخرجهم القرعة، ورواية أخرى تقول: كانوا سبعمائة مقاتل، وفي رواية القمي: إنَّ العدد قد بلغ أربعة آلاف مقاتل!! فهذا التفاوت في العدد بين الثمانين، والسبعمائة، والأربعة آلاف مقاتل، يدعو للعجب! ثم من أين اجتمع لرسول الله ﷺ عدد أربعة آلاف مقاتل! ورسول الله لم يخرج في خيبر - وقبل سنة من هذه الواقعة - إلا بألف وخمسمائة مقاتل!

ثالثاً: التّقول على رسول الله ﷺ: فنلاحظ في رواية القمي أنها تنسب إلى رسول الله ﷺ أقوالاً لم تعهد عنه في أحلك الظروف وأشدّها قسوة، بل إنه ﷺ لم يستخدم هذه المصطلحات والألفاظ حتى مع المنافقين الذين هم أشدّ أعداء رسالته ودعوته، فضلاً عن استخدامها مع أصحابه لأنهم عادوا من أرض المعركة خائبين، من قبيل ما تنسبه إليه ﷺ الرواية: «انتضخ صدره ودخله الرعب» أو «فسر يا فلان ولا تعمل كما عمل أخوك، فإنه عصى الله وعصاني»، أو «يا فلان،

(١) انظر: السبحاني: كليات في علم الرجال: ٣١٠ - ٣٢٠، ومقدمة تفسير القمي: ١٣ .

عصيت الله في عرشه، وعصيتني، وخالفت قولي، وعملت برأيك، ألا قَبَّحَ الله رأيك».

فهل تنسجم هذه الألفاظ، والمواجهة الكلامية الحادة مع سلوك رسول الله ﷺ مع ما نعرفه عنه من الأخلاق العالية؟ ولماذا لم ينقل أحد من المؤرخين هذه المواقف والكلمات عن رسول الله ﷺ مع خطورتها وعظيم شأنها؟

رابعاً: الاختلاف في شأن نزول سورة العاديات: فما قيل في شأن نزول سورة العاديات محل خلاف بين المفسرين، «ف قيل: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حي من كنانة فاستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري . . فتأخر رجوعهم فقال المنافقون: قتلوا جميعاً فأخبر الله عنها بقوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ وقيل: نزلت السورة لما بعث النبي ﷺ علياً إلى ذات السلاسل»^(١).

بل إن كثيراً من المفسرين اعتبر سورة العاديات من السور المكية استناداً إلى قصر مقاطع الآيات، واستنادها إلى القسم، وتناولها موضوع المعاد . . وكل هذه الأمور تشكل قرائن تدل على مكيتها!

إلا أن بعض استند إلى قرائن أخرى من قبيل ارتباطها بمسائل الجهاد، ووجود الرواية القائلة بنزولها بعد غزوة «ذات السلاسل» فرجح مدنيته، إلا أنه قال: «وقيل: إن هذه الواقعة - أي غزوة ذات السلاسل - من المصاديق البارزة للآية وليست سبباً لنزولها»^(٢) إلى ما شاء الله من الاختلافات والتناقضات في هذه الروايات والتي تصل إلى حد التباين الذي يسقطها عن الاعتبار.

وما أشرنا إليه هي أهم الملاحظات التي يمكن تسجيلها على المرويات الشيعية لهذه الواقعة، وهنالك ملاحظات أخرى يمكن تسجيلها على هذه

(١) الطباطبائي، الميزان: ٢٠ / ٣٤٧ عن مجمع البيان للطبرسي، وانظر: أسباب النزول للواحدي:

الروايات من خلال ملاحظة مجموع الروايات التي جمعها المجلسي في بحاره حول الواقعة .

والذي يبدو أن الواقعة التي تحدثت عنها الروايات الشيعية هي غير الواقعة التي تحدثت عنها كتب التاريخ والتي سمتها بغزوة ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص !

ولهذا سماها الشيخ المفيد - بحسب الرواية الشيعية للغزوة - غزوة وادي الرَّمْل، فقال: «وقد كان من أمير المؤمنين عليه السلام في غزوة وادي الرَّمْل، ويُقال: إنها كانت تسمى بغزوة السِّلْسَلَة .»^(١) ومصدر روايته - كما في حاشية محقق الكتاب - تفسير القمي^(٢)، إلا أن رواية المفيد تختلف كثيراً عن رواية القمي في كثير من ألفاظها، وجاء في آخرها قول النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «يا عليّ، لولا أنني أشفقُ أن تقول فيك طوائف ما قالت النصارى في عيسى بن مريم، لقلتُ فيك اليوم مقالا، لا تمرُّ بملاً منهم إلا أخذوا التراب من تحت قدميك»^(٣).

ومهما يكن من أمر، فإن القول بتعدد الواقعة وإن ما تتحدث عنه الروايات الشيعية غير ما تتحدث عنه الرواية التاريخية عن غزوة ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص عند المؤرخين، وإن بعض الناقلين والرواة ظنوا أنها واقعة واحدة لوجود بعض التشابه في بعض مفردات وقائعهما، قد يحل لنا هذا التباين الواضح بين الروايتين .

إلا أن الملاحظات والاشكالات التي تبرز واضحة في مجمل الروايات الشيعية للحادثة تبقى بحاجة إلى حلول فنية حاول بعضهم معالجتها بتكلف واضح^(٤).

(١) انظر: بحار الأنوار للمجلسي: ٢١ / ٧٤ وما بعدها .

(٢) المفيد، الإرشاد: ١ / ١١٣ و ١١٧ .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١١٧ .

(٤) انظر: الصحيح من سيرة: ٢٠ / ٢٠٢ - ٢٢١، طبعة دار الحديث - قم .

يبقى أن نشير إلى أنَّ من ذكروا غزوة ذات السلاسل من المؤرخين لم يشيروا من قريب ولا من بعيد إلى أي اختلاف في وقائعها وقيادتها ونتائجها، وحتى من يحسب على الشيعة من المؤرخين من أمثال المسعودي واليعقوبي قد أهملوا ذكر هذه الواقعة في كتابيهما.

فلو كان هنالك تعدد أقوال في تفاصيل هذه الواقعة من حيث قيادتها ووقائعها لأشار إليها ولو بعض المؤرخين، مع ما يذكر فيها من أمور خارقة - بحسب الرواية الشيعة - والتي لا يمكن إهمالها عند المؤرخين الذين حرصوا على تسجيل أدق الجزئيات والتفاصيل! فكيف أهمل المؤرخون ذكر واقعة يروي فيها القمي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قوله: «ما غنم المسلمون مثلها قط إلا أن تكون خيراً، فإنها مثل خبير»^(١).

فهذا قد يؤيد تعدد الواقعة وأن ما ذكره عامة المؤرخين عن ذات السلاسل، هي غير الواقعة التي تتحدث عنها الروايات الشيعية، وأهملها عامة المؤرخين، فتأمل.

سرية الحَبْط

قال ابن سعد: «ثم سرية الحَبْط أميرها أبو عبيدة بن الجراح وكانت في رجب سنة ثمان من مُهاجِر رسول الله ﷺ وسمّاها البخاري غزوة «سيف البحر»^(٢).

وقد لخص لنا ابن سعد أمر هذه السرية بقوله: «بعث رسول الله ﷺ، أبا عبيدة ابن الجراح في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار، وفيهم عمر بن الخطاب إلى حيٍّ من جُهيّنة بالقبيلة مما يلي ساحل البحر، وبينهما وبين المدينة

(١) تفسير القمي: ٢ / ١٣ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٥، والبخاري، الصحيح: المجلد الثالث: ٥ / ١٣٣ .

خمس ليل، فأصابهم في الطريق جوع شديد فأكلوا الخبط، وابتاع قيس بن سعد جُزْراً ونحرها لهم، وألقى البحر حوتاً عظيماً فأكلوا منه وانصرفوا ولم يلقوا كيداً».

وقد ذكر كل من ابن هشام والواقدي بعض الجزئيات المتعلقة بهذه السرية تراجع في محلها من المصدرين^(١).

سرية خُضْرَة

قال ابن سعد: «ثم سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى خُضْرَة، وهي أرض مُحارب بنجد، في شعبان سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ».

قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا قتادة ومعه خمسة عشر رجلاً إلى غطفان وأمره أن يشن عليهم غارة، فسار الليل وكمن النهار، فهجم على حاضر^(٢) منهم عظيم فأحاط بهم فصرخ رجل منهم: يا خُضْرَة! وقاتل منهم رجال، فقتلوا من أشرف لهم واستاقوا النعم، فكانت الإبل مائتي بعير والغنم ألفي شاة وسبوا سبياً كثيراً، وجمعوا الغنائم فأخرجوا الخمس فعزلوه وقسموا ما بقي على أهل السرية. . وغابوا في هذه السرية خمس عشرة ليلة^(٣).

سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى بطن إضم

قال ابن سعد: «ثم سرية قتادة. . إلى بطن إضم في أول شهر رمضان سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ. قالوا: لما هم رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٣١٥ - ٣١٦. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٣٢ - ٦٣٣، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٧٤ - ٧٧٧.

(٢) حاضر: من رمال الدهناء، والحاضر في الأصل خلاف البادي، والحاضر: الحي العظيم. (معجم البلدان).

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣١٦، والمغازي للواقدي: ٢ / ٧٧٧ - ٧٨٢.

أبا قتادة . . في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم، وهي فيما بين ذي حُشب وذي المروة، وبينها وبين المدينة ثلاثة بُرد، ليظُن ظاناً أنَّ رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار . . فمضوا ولم يلحقوا جمعاً فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي حُشب فبلغهم أنَّ رسول الله ﷺ قد توجه إلى مكة فأخذوا على بين حتى لقوا النبي ﷺ السُّقيا»^(١).

هذه أهم السرايا التي سبقت غزوة فتح مكة، وكانت بمثابة الاعداد اللازم لهذه الغزوة، وفي نفس الوقت صرفت أذهان قريش - التي كانت تراقب تحركات المسلمين - عن المهمة الأساسية التي كان النبي ﷺ يعد لها وهي فتح مكة، وهذا ما نلاحظه جلياً في سرية أبي قتادة، والتي كانت بمثابة التموية اللازم عسكرياً لصرف الأنظار عن الوجهة الحقيقية لجيش المسلمين، حسبما أكدت ذلك رواية ابن سعد.

الأسئلة:

- ١ - ما هي الأسباب الحقيقية لغزوة مؤتة؟
- ٢ - كيف نناقش مسألة تعدد القيادة في هذه الغزوة؟
- ٣ - كيف واجه المسلمون جحافل الروم في هذه الغزوة؟
- ٤ - ما هو موقف الرسول ﷺ من جيش غزوة مؤتة؟
- ٥ - لماذا واجه أهل المدينة العائدين من مؤتة بطريقة سلبية؟
- ٦ - ما هي الضغوط النفسية والاجتماعية التي تعرّض لها العائدون من مؤتة؟
- ٧ - ما هي أهم آثار ونتائج غزوة مؤتة؟
- ٨ - ما هي أهم الدروس والعبر المستفادة من غزوة مؤتة؟
- ٩ - متى وقعت سرية ذات السلاسل؟ وما هي الرواية التاريخية المشهورة بين المؤرخين حول هذه السرية؟
- ١٠ - ما هي الأهداف المتوخاة من ارسال سرايا قبل فتح مكة؟

الدرس الخامس والعشرون

أحداث السنة الثامنة من الهجرة

«فتح مكة»

محاوَر البحث

- عهد الحديبية وحرص النبي ﷺ على الوفاء به
- ١ - خلفيات وأسباب فتح مكة
 - ٢ - قبيلة خزاعة تستنصر النبي ﷺ
 - ٣ - أبو سفيان وفشل محاولته تدارك الموقف
 - ٤ - عزم النبي ﷺ على فتح مكة وكتمانه الأمر
 - ٥ - حاطب بن أبي بلتعة وخيانتة لله ولرسوله
 - ٦ - رسول الله ﷺ والمسلمون في طريقهم إلى مكة
 - ٧ - حرص رسول الله ﷺ على كتمان الأمر وفتح مكة من دون قتال
 - ٨ - العباس بن عبد المطلب يجير أبا سفيان بن حرب ويصحبه إلى النبي ﷺ
 - ٩ - أبو سفيان في مكة يبلغهم قول رسول الله ﷺ : «من دخل دار . . .»
 - ١٠ - رسول الله ﷺ يدخل إلى مكة مع شعار : «اليوم يوم المَرَحمة . . .»
 - ١١ - بعض أحداث مكة عند فتحها
 - ١٢ - آثار ونتائج فتح مكة
 - ١٣ - الدروس والعبر
- الأسئلة

فتح مكة

عهد الحديبية وحرص النبي ﷺ على الوفاء به

لقد أتاح صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش في أواخر السنة السادسة من الهجرة، للطرفين فرصة ترتيب أوضاعه، وجدولة سُلّم أولوياته.

فها هي قريش - بعد أن اعترفت لمحمد ﷺ بدولته ورئاسته عليها - اتجهت إلى تجارتها وتحالفاتها مع القبائل. . وهي تراقب عن كثب تحركات دولة الإسلام في يثرب ونتائج صراعاها مع أعدائها من اليهود والمشركين والروم.

واتجه رسول الله إلى تصفية الوجود اليهودي الذي اتخذ من خيبر وأطرافها معقلا له، بالإضافة إلى تصفية بعض جيوب الوثنية المتمثلة بالقبائل المجاورة للمدينة أو النائية عنها، وذلك من خلال إرسال السرايا لشن هجمات سريعة مباغتة عليهم لتشتيت شملهم وتفتيت قواهم، ثم اتجه ﷺ إلى مراسلة الملوك والأمراء ورجال الدين والوجهاء يدعوهم إلى الإسلام، فاستجاب منهم من استجاب، وأعرض من أعرض، فكانت سرية مؤتة وذات السلاسل مع جيش الروم.

ولم تكن مكة وهي أم القرى وقبلة المسلمين، وفي نفس الوقت معقل الوثنية القرشية في الجزيرة العربية غائبة عن وعي ووجدان النبي ﷺ منذ أن أرغمته قريش إلى الهجرة عنها وتركها.

وكان النبي ﷺ يقدر جيداً أهمية فتح مكة، فهي معقل قريش الحصين، ومجمع أصنام الوثنيين، مع ما لقريش من رئاسة وسيادة وما للأصنام المنصوبة

في الكعبة وحولها من قدسية مزيفة في نفوس الوثنيين، وفي نفس الوقت تعتبر الكعبة أقدس بقعة على وجه الأرض ومظهر توحيد الله، وقبله المسلمين، فكان لابد من فتحها وتطهيرها من دنس الوثنية الحاكمة عليها.

وكانت وثيقة صلح الحديبية أول خطوة نحو هذا الهدف، وأول مفتاح يفتح أبواب مكة أمام المسلمين، ثم جاءت عمرة القضاء لتكون بمثابة المفتاح الثاني لذلك الحصن.

فها هي قريش تنزل عن كبريائها وتعاضمها وغلطستها وتعترف لمحمد ﷺ بالسيادة والرئاسة، وها هي جموع المسلمين بعد سنة من صلح الحديبية في رحاب بيت الله يؤدون مناسكهم على مرأى ومنظر من المشركين والوثنيين.

فلم يبقَ أمام رسول الله ﷺ إلا خطوة ثالثة لتخليص الكعبة من براثن الشرك والوثنية، وإنهاء سيطرة قريش عليها، ومن ثم بسط سيادة الإسلام وكلمة الله على الجزيرة العربية كلها، ليشع منها نور الإسلام إلى العالم كله.

إلا أن صلح الحديبية وحرص رسول الله والمسلمين على الالتزام بنودها حال دون الاسراع بهذه الخطوة.

١ - خلفيات وأسباب فتح مكة

لقد كانت من نتائج صلح الحديبية أن اتاحة الفرصة أمام القبائل للدخول في تحالفات سياسية جديدة، لم تكن متاحة لهم قبل هذا الصلح ووثيقته التي امضاهما طرفا النزاع، فدخلت قبيلة خزاعة في حلف رسول الله ﷺ، ودخلت قبيلة «كنانة» في حلف قريش، وكان الصراع بين هاتين القبيلتين على أشده قبل صلح الحديبية، فأتاح هذا التحالف الجديد أمام القبيلتين الفرصة للعيش بسلام وأمن فهدأت الحرب بينهما وأمن كل فريق جانب الآخر.

إلا أن بعض رجال قريش وعتاتهم ممن لم يتفاعلوا مع صلح الحديبية،

وكانت نزعة العدوان والحرب تسيطر على وجودهم، باتوا يراقبون أوضاع المسلمين العسكرية عن كثب، ويبحثون عن فرصة مناسبة - في نظرهم - لنقض صلح الحديبية، فوجدوها في غزوة «مؤتة» إذ تصوروا أن المسلمين قد فقدوا قوتهم على المواجهة وانطفأت فيهم روح الاقدام والشجاعة، وهو تصور خاطئ بلا شك؛ إذ لم تكن غزوة مؤتة هزيمة مطلقة للمسلمين كما بينا في محله من البحث، إلا أن بعض متطرفي قريش ودعاة الحرب فيهم هكذا تصوروا، أو هكذا خُيِّلَ لهم، فاندفعوا لنقض عهد الحديبية بصورة غير مباشرة من خلال اعانة قبيلة «بكر» من بني كنانة على قبيلة «خزاعة» حليفة رسول الله ﷺ، بل قد تدخل بعض رجال قريش في هذه المعركة وقاتلوا إلى جانب قبيلة بكر المعتدية!

قال ابن إسحاق: «فلما كانت الهدنة - أي هدنة الحديبية - اغتتمها بنو الدليل من بني بكر من خزاعة، وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأراً. . فخرج نوفل بن معاوية الديلي في بني الدليل. . حتى بيَّت خزاعة وهم على الوتير، ماءً لهم، فأصابوا منهم رجلاً، وتحاوزوا واقتتلوا، ورفدت بني بكر قريش بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم. . فلما دخلت خزاعة مكة، لجأوا إلى دار بُدِيل بن ورقاء^(١)، ودار مولى لهم يقال له رافع»^(٢).

وفي رواية الواقدي: «كان آخر ما كان بين خزاعة وبين كنانة أن أنس الديلي هجا رسول الله ﷺ، فسمعه غلام من خزاعة فوقع به فشجّه، فخرج إلى قومه فأراهم شجّته فثار الشرُّ مع ما كان بينهم، وما تطلب بنو بكر من خزاعة من دمائها. . . .

وعن مشاركة قريش يقول الواقدي: «ثم اتعدت قريش الوتير موضعاً بمن

(١) كان بدیل بن ورقاء من شخصیات «خزاعة» ومن ذوي السن والشرف فيهم، وكان يعيش في مكة وكان له من العمر آنذاك (٩٧) عاماً . انظر: الاصابة لابن حجر العسقلاني: ١ / ١٤١

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٩٤ .

معها، فوافوا للميعاد، فيهم رجال من قريش من كبارهم متنكرون مُتَنَقِبُونَ.. فبيتوا خزاعة ليلاً وهم غارون آمنون من عدوهم.. فلم يزالوا يقاتلوهم حتى انتهوا بهم إلى انصاب الحرم.. فلما انتهت خزاعة إلى الحرم، دخلت دار بديل بن ورقاء، ودار رافع الخزاعيين، وانتهوا بهم في عمارة الصبح، ودخلت رؤساء قريش في منازلهم وهم يظنون ألا يعرفوا، وألا يبلغ هذا محمداً ﷺ.. قال: قتلوا منهم - أي من خزاعة عشرين رجلاً، وأصبحت خزاعة مقتلين على باب بديل ورافع مولى خزاعة»^(١).

ومهما كان سبب الصراع بين خزاعة وكنانة فإن قريشاً قد ورطت نفسها في هذا النزاع ونقضت بذلك عملياً صلح الحديبية.

٢ - قبيلة خزاعة تستنصر النبي ﷺ

لم يكن أمام خزاعة بعد هذا الاعتداء والغدر الذي قامت به قبيلة بكر بمعاوضة ومساندة وتحريض ومشاركة رجال قريش، سوى أن تلجأ إلى حليفها رسول الله ﷺ والمسلمين مناشدينهم النصر.

يقول الواقدي: «وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم، وما ظهرت عليه قريش بالرجال والسلاح.. ورسول الله جالس في المسجد في أصحابه ورأس خزاعة عمرو بن سالم، قام ينشد رسول الله ﷺ فأذن له واستمع منه.

فقال:

اللهم إني ناشدُ محمداً حلفَ أبينا وأبيه الأتلا^(٢)

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٨٣ - ٧٨٤ .

(٢) الأتلا: القديم .

إِنَّ قَرِيشاً أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَ وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكِدَ
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصراً أَعْتَدَا وَاذْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
هُمْ بَيِّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجْدَا وَقَتْلُونَا رُكْعاً وَسُجْدَا
وَأَخْذُ يَكْرَرُ: «قَتَلْنَا وَقَدْ أَسْلَمْنَا».

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم . . وقام ﷺ يجرّ طرف رداءه وهو يقول: «لانصرت إن لم أنصر بني كعب ممّا أنصر منه نفسي»^(١).

ثمَّ إِنَّ خِزَاعَةَ قَدْ أُرْسِلَتْ وَفَدَا آخِرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَأْسِهِمْ بَدِيلُ بْنُ وَرْقَاءَ: «فَأَخْبَرُوهُ بِمَا أُصِيبَ مِنْهُمْ، وَبِمُظَاهَرَةِ قَرِيشِ بْنِ بَكْرٍ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ انصرفوا راجعين إلى مكة»^(٢).

وهكذا ثبت عند رسول الله ﷺ نقض قريش لعهدها، وبحسب تعبير رسول الله ﷺ كما في رواية الواقدي: «ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى بهم - فقليل - خيرٌ أو شرٌّ يا رسول الله؟ قال: خيرٌ»^(٣).

٣ - أبو سفيان وفشل محاولته تدارك الموقف

لقد أَحَسَّتْ قَرِيشٌ بِخَطَرِهِ مَا قَامَ بِهِ بَعْضُ دُعَاةِ الْحَرْبِ وَالْمُتَطَرِّفِينَ مِنْهُمْ وَأَخَذُوا يَلْقَوْنَ بِاللُّومِ عَلَى مَنْ اشْتَرَكَ فِي قِتَالِ خِزَاعَةَ مِنْ رِجَالِهِمْ، ثُمَّ أَخَذُوا يَتَلَاوَمُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَبْحَثُونَ عَنْ مَخْرَجِ الْوَرُطَةِ الَّتِي أَوْقَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا.

قال الواقدي: «وجاء الحارث بن هشام، وابن أبي ربيعة إلى صفوان بن أمية، وإلى سهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، فلاموهم فيما صنعوا من

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٨٩، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٩٤ - ٣٩٥، ورواية هذه الآيات الشعرية في المغازي تخالف روايتها عند ابن هشام وغيره تقدماً وتأخيراً وزيادة وحذفاً.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٩٥.

(٣) الواقدي: ٢ / ٧٨٨.

عونهم بني بكر - وقالوا لهم - : إنّ بينكم وبين محمد مدّة، وهذا نقض لها . .
 - ومشيا - إلى أبي سفيان فقالا: هذا أمر لا بدّ له من أن يصلح، والله لئن لم
 يصلح هذا الأمر لا يروعكم إلّا محمد في أصحابه . . فقال أبو سفيان: . . والله
 ليغزونا محمد إن صدقني ظني وهو صادقي، ومالي بدّ أن آتي محمداً فأكلمه أن
 يزيد في الهدنة ويجدد العهد قبل أن يبلغه هذا الأمر. فقالت قريش: قد والله
 أصبت الرأي .

فخرج أبو سفيان، وخرج معه مولى له على راحلتين، فأسرع السير وهو
 يرى أنه أوّل من خرج من مكة إلى رسول الله ﷺ^(١).

وفي رواية ابن إسحاق: «وقد قال رسول الله ﷺ للناس: كأنكم بأبي سفيان
 قد جاءكم ليشدّ العقد، ويزيد في المدّة»^(٢).

وفي الطريق التقى أبو سفيان ببديل بن ورقاء وأصحابه «بعسفان» فخاف أبو
 سفيان أن يكون بديل ومن معه قد جاؤوا رسول الله ﷺ وأخبروه بما حصل،
 ولهذا ابتدرهم بالسؤال عن وجهتهم التي كانوا فيها فقال لبديل: «من أين أقبلت يا
 بديل؟ . . قال: تسيرت في خزاعة في هذا الساحل، وفي بطن هذا الوادي،
 قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا، فلما راح بديل إلى مكة، قال أبو سفيان:
 لئن جاء بديل المدينة لقد علف بها التّوى، فأتى مَبْرُك راحلته، فأخذ من بعرها
 ففتّه، فرأى فيه التّوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً»^(٣).

لقد ايقن أبو سفيان أنّ مهمته محكومة بالفشل بعد أن وصل خبر عدوانهم
 على خزاعة إلى المدينة، إلّا أنه واصل سيره إلى المدينة على أمل أن يحصل على

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٨٤ - ٧٨٦ (بتلخيص).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٩٥ .

(٣) المصدر نفسه: ٤ / ٣٩٦، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٩١ - ٧٩٢ «بتفصيل أكثر» .

وعد من رسول الله ﷺ فيصالح ما أفسدته رجال قريش وبنو بكر!

قال ابن إسحاق: ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان^(١).

فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ! قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر!

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يردّ عليه شيئاً.

وفي رواية الواقدي: «وأقبل أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على النبي ﷺ فقال: يا محمد، إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا في المدة، فقال رسول الله ﷺ: هل كان قبلكم حدث؟ قال: معاذ الله! فقال رسول الله ﷺ: فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية، لا نغيّر ولا نبدل.

فذهب إلى بعض أصحاب رسول الله ﷺ علّهم يشفعون له عند رسول الله ﷺ بتجديد وثيقة الصلح وإطالة المدة، إلا أنه فشل في اقناعهم حتى من أقرب الناس به رحماً كعثمان بن عفان فأنتهى به المطاف إلى دار علي وفاطمة عليهما السلام.

فدخل على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ (رضي الله عنها)، وعندها حسن بن علي، غلام يدبّ بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمسّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعنّ كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ.

فقال علي عليه السلام: «ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على

(١) وعند الواقدي: ٢ / ٧٩٢ انه ابتداء برسول الله ﷺ قبل الذهاب إلى ابنته .

أمر ما نستطيع ان نكلّمه منه . فالتفت إلى فاطمة عليها السلام فقال : يا بنة محمد، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس ! فيكون سيّد العرب إلى آخر الدهر؟
 قالت عليها السلام : والله ما بلغ بنيّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

قال : يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحنني !
 قال عليه السلام : والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيّد بني كنانة، فقم فأجز بين الناس، ثم الحق بأرضك .
 قال : أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال : لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس، إني قد أجزت بين الناس، ثم ركب بعيره وانطلق!

وفي رواية الواقدي : فقام - أبو سفيان - بين ظهري الناس فصاح : ألا إني قد أجزت بين الناس، ولا أظنّ محمداً يُخفّرني ! ثم دخل على النبي ﷺ فقال : يا محمّد، ما أظنّ أن تردّ جوارِي ! فقال رسول الله ﷺ : أنت تقول ذلك يا أبا سفيان^(١) !

عاد أبو سفيان إلى مكة وقد طالت مدت غيبته عنها، وكانت قريش تنتظر قدومه حتى انها اتهمته وظنت به الظنون، إلاّ أنه عاد إليهم بالخيبة، فقالت له زوجته هند لما دخل عليها ليلاً : «إن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل ! . . ما صنعت؟ فأخبرها الخبر وقال : لم أجد إلاّ ما قال لي عليّ . فضربت برجلها في صدره وقالت : قبحت من رسول قوم!

(١) ابن هشام، السيرة النبوية : ٤ / ٣٩٦ - ٣٩٧، والواقدي، المغازي : ٢ / ٧٩٢ - ٧٩٤ .

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال جئت محمداً فكلّمته، فوالله ما ردّ عليّ شيئاً، ثمّ جئت فلاناً، وفلاناً. . ثمّ جئت علياً. . وقد أشار عليّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمداً؟ قال: لا.

قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجل (ويقصدون علياً) على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت، قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك»^(١).

٤ - عزم النبي ﷺ على فتح مكة وكتمانه الأمر

«أمر رسول الله ﷺ أصحابه بانجاز استعداداتهم للحركة والحرب، وأرسل من يخبر قبائل المسلمين خارج المدينة بانجاز استعداداتهم للحركة والحرب أيضاً كما أمر أهله أن يجهزوه».

وكان رسول الله ﷺ حريصاً جداً أن يدخل مكة ويفتح اغلاقها من دون حرب أو إراقة دماء ولهذا «لم يخبر أحداً بنياته الحقيقية، ولا باتجاه حركته، ولا بالعدو الذي ينوي قتاله، بل أخفى نيته حتى عن أقرب المقربين إليه، ثمّ أرسل سرية أبي قتادة الأنصاري إلى بطن (إِصَم) ليزيد من إسدال الستار الكثيف على نيته الحقيقية»^(٢).

ومن مظاهر كتمانها أمر فتح مكة ما نقله المؤرخون من مفردات تدل على هذا الكتمان، فهو ﷺ يأمر وفد خزاعة عند عودتهم إلى مكة: «ارجعوا وتفرّقوا في الأودية. . .»^(٣) من أجل أن لا يشعر أحد من قريش بوفودهم على رسول الله ﷺ وإخبارهم إياه بما جرى لهم على أيدي بني بكر وقريش.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٩٧، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٩٥ .

(٢) خطاب، الرسول القائد: ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٩١ .

وينقل الواقدي أيضاً: «لَمَّا وَلَّى أَبُو سَفِيَانٍ رَاجِعاً قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَائِشَةَ: جَهِّزِينَا وَأَخْفِي أَمْرَكُمْ. وَقَالَ ﷺ: اللَّهُمَّ خُذْ عَلَيَّ قَرِيشَ الْأَخْبَارِ وَالْعِيُونَ حَتَّى نَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً، اللَّهُمَّ خُذْ عَلَيَّ قَرِيشَ أَبْصَارِهِمْ فَلَا يَرُونِي إِلَّا بَغْتَةً، وَلَا يَسْمَعُونَ بِي إِلَّا فَجْأَةً».

بل إنه ﷺ شدد في اجراءات الكتمان حتى إنه منع الخروج من المدينة باتجاه مكة: «وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَنْقَابِ^(١)، فَكَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَطُوفُ عَلَى الْأَنْقَابِ قِيَمًا بِهِمْ فَيَقُولُ: لَا تَدْعُوا أَحَدًا يَمُرُّ بِكُمْ تَنْكُرُونَهُ إِلَّا رَدَدْتُمُوهُ، إِلَّا مَنْ سَلَكَ إِلَى مَكَّةَ فَإِنَّهُ يَتَحَقَّقُ بِهِ وَيَسْأَلُ عَنْهُ..»^(٢).

وهذا يعني أن رسول الله ﷺ أغلق جميع منافذ وأفواه الطرق والمداخل المؤدية إلى المدينة أمام الداخلين إليها فيردون الغرباء عنها، ويمنعون الخارجين منها وخاصة من كانت وجهته مكة.

ولهذا كان أبو بكر يحاول أن يكتشف وجهة النبي ﷺ من خلال ابنته عائشة زوج النبي ﷺ!

ينقل الواقدي: «دخل أبو بكر على عائشة فقال: يا عائشة، أهم رسول الله ﷺ بغزو؟ قالت: ما أدري. قال: إن كان رسول الله ﷺ همَّ بسفر فأذنينا نتهيأ له، قالت: ما أدري، لعلّه يريد بني سليم، لعلّه يريد ثقيفاً، لعلّه يريد هوازن! فاستعجمت عليه حتى دخل رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: يا رسول الله، أردت سفراً؟ قال رسول الله ﷺ: نعم، قال: أفأتجهز؟ قال: نعم، قال أبو بكر: وأين تريد يا رسول الله؟ قال ﷺ: قريشاً، وأخف ذلك يا أبا بكر!.. قال: أو ليس بيننا وبينهم مدة؟ قال ﷺ: إنهم غدروا ونقضوا العهد، فأنا غازيهم، وقال لأبي بكر:

(١) الانقباب: جمع نقيب: شاهد القوم وضمينهم، كالأمين والكفيل . . . وهو كالعريف على القوم؛ المُقَدَّم عليهم، الذي يَعْرِفُ أخبارهم وَيَقْبُ عَنْ أحوالهم أي يُفْتِش (لسان العرب مادة نقب) .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٧٩٦ .

إطو ما ذكرت لك»^(١)!

ولا ندري ما الذي دفع أبو بكر إلى تجسس أخبار هذه الغزوة مع حرص رسول الله ﷺ على كتمانها؟ ولماذا يخرج ابنته عائشة ويلج عليها بالسؤال علّها تفصح عن ذلك، أو تفلت منها كلمة تكشف عن هذا الأمر؟ ثم لماذا تكرر الأسئلة على رسول الله ﷺ واللاحاح بذلك؟

وما معنى أن يسأل النبي ﷺ: أردت سفرأ؟ أفأتجهز؟ أو لم يكن يرى أن عائشة تعد له جهاز السفر؟ ثم إنه بعد أن أخرج رسول الله ﷺ بأسئلته، والسؤال عن وجهة سفره - مما حمل رسول الله ﷺ إلى الإفصاح عن ذلك - نجده يسأل عن المبرر لغزو قريش! فمن المستبعد أن لا يكون حاضراً عندما حضر وفد خزاعة وهو يخبر النبي ﷺ عن نقض قريش للعهد، فلماذا يسأل رسول الله ﷺ؟

وعندنا نتأمل في حوار أبي بكر مع عائشة ومع رسول الله ﷺ نلاحظ شدة الاحراج الذي سببه لابنته والنبي ﷺ من خلال كثرة الأسئلة التي أطلقها، ثم نجد النبي ﷺ يشدد عليه بكتمان واخفاء الأمر مما يعني أن النبي ﷺ كان متخوفاً من تسرب الخبر وهذا ما حصل فعلا.

٥ - حاطب بن أبي بلتعة وخيانتة لله ولرسوله

سادت أجواء الكتمان عن وجهة رسول الله ﷺ الحقيقية في المدينة، وأخذ الناس يخمنون ويظنون الظنون، «فظانّ يظن أنّ رسول الله ﷺ يريد الشام، وطانّ يظن ثقيفاً، وطانّ يظن هوازن، وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة في ثمانية نفر إلى إصم، ليظنّ ظانّاً أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار»^(٢).

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٧٩٦ .

(٢) المغازي، الواقدي: ٢ / ٧٩٦ - ٧٩٧ .

وهكذا بقيت المدينة حصينة وأمينة أمام تسرب الأخبار منها إلى مكة، ولم يخطر ببال أحد من أهلها أن رسول الله يقصد مكة، بل ذهبت أوهامهم إلى مناطق شتى، مع استبعاد أن يكون وجهة رسول الله مكة لوجود المدة والعهد بين أهل مكة ورسول الله ﷺ.

واخفاء الأمر إلى حين تجهيز عشرة آلاف مقاتل أمام أجواء ضاغطة يعد من الانجازات العسكرية المهمة، ويكشف عن حسن تدبير، وحكمة في التصرف من قبل رسول الله ﷺ.

إلا أن الأمر لم يبق في طي الكتمان إلى نهايته، فقد أفشي السر من قبل بعض لأغراض لسنا بصدد إحصائها والتي منها المصالح الشخصية الدنيوية! ووصل ببعضهم إلى حد الخيانة لله ولرسوله من خلال مكاتبة قريش بوجهة رسول الله ﷺ ولو على نحو الاحتمال، لكي تستعد للمواجهة، في الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يكتُم أخبار خروجه من أجل أن يباغت قريشاً في عقر دارها. فيجردها عن روح المبادرة والمواجهة والقتال، فتفتتح حينئذ مكة من دون قتال وإراقة دماء.

والذي يبدو من خلال بعض النصوص التاريخية، أن سر وجهه خروج رسول الله ﷺ في غزوته قد تفسى من خلال مصادر متعددة، ولكن لم يبادر أحد منهم إلى مكاتبة قريش سوى الصحابي حاطب بن أبي بلتعة، الذي يعتبر من المهاجرين، ومن البدرين، وأوكل إليه رسول الله ﷺ بعض المهام العسكرية بعد الحديبية، وحمل رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس. . إلا أنها النفس الإنسانية وضعفها أمام المغريات، والدنيا وزينتها. . . أسقطت هذا الصحابي من عليائه، وأصبح في مصاف الخائنين لله ولرسوله ﷺ.

روى ابن إسحاق والواقدي: «لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في المسير إليهم، ثم أعطاه امرأة. . وجعل لها جُعلا على أن

تبلغه قريشاً، فجعلته في رأسها، ثم قتلت عليه قرونها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب عليه السلام والزبير ابن العوام فقال ﷺ: ادركا امرأة قد كتبت معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش، يحذّرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم.

فخرجوا حتى ادركاها بالخليلة^(١)، فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها، فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي بن أبي طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجنّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجدّ منه، قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه...»^(٢).

وفي رواية المفيد في الإرشاد: «فمضيا - علي والزبير - فأدركا المرأة، فسبق إليها الزبير، فسألها عن الكتاب الذي معها فأنكرت، وحلفت: أنه لا شيء معها، وبكت. فقال الزبير: ما أرى يا أبا الحسن معها كتاباً، فارجع بنا إلى رسول الله ﷺ بخبر براءة ساحتها!

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: يخبرني رسول الله ﷺ أن معها كتاباً ويأمرني بأخذه منها، وتقول أنت: إنه لا كتاب معها؟! ثم اخترط السيف، وتقدم إليها فقال: أما والله لئن لم تخرجي الكتاب لأكشفنك، ثم لأضربن عنقك، فقالت: كما في الرواية السابقة»^(٣).

جاء علي عليه السلام بكتاب ابن أبي بلتعة إلى رسول الله ﷺ: «فدعا رسول الله ﷺ حاطباً فقال: يا حاطب، ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله، أما

(١) من منازل الطريق بين المدينة ومكة .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٩٨ - ٣٩٩، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٩٩ .

(٣) المفيد، الإرشاد: ١ / ٥٦ وما بعدها .

والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرت ولا بدّلت، ولكني كنت امرأاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم!! فقال عمر ابن الخطاب: يا رسول الله، دعني فلاضرب عنقه، فإن الرجل نافق، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر، لعل الله قد أطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم!! فانزل الله في حاطب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾^(١) إلى آخر الآية^(٢).

إلا أن الشيخ المفيد في الإرشاد يذكر أن رسول الله ﷺ بعد أن وقع في يده كتاب حاطب أمر أن ينادي: «الصلاة جامعة» فنودي في الناس، فاجتمعوا إلى المسجد حتى امتلأ بهم، ثم صعد النبي ﷺ إلى المنبر، وأخذ الكتاب بيده وقال: «أيها الناس إني كنت سألت الله عزّ وجل أن يخفي أخبارنا عن قريش، وإن رجلاً منكم كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب وإلا فضحه الوحي».

فلم يقم أحد، فأعاد رسول الله ﷺ مقالته ثانية.. فقام حاطب بن أبي بلتعة وهو يرعد كالسعفة... فقال: أنا يا رسول الله صاحب الكتاب، وما أحدثت نفاقاً بعد إسلامي، ولا شكاً بعد يقيني، فقال له النبي ﷺ: «فما الذي حملك على أن كتبت هذا الكتاب»؟ قال: يا رسول الله، إن لي أهلاً بمكة، وليس لي بها عشيرة، فأشفقت أن تكون دائرة لهم علينا، فيكون كتابي هذا كفاً لهم عن أهلي، ويداً لي عندهم، ولم أفعل ذلك للشك في الدين.

فقام عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله مرني بقتله، فإنه نافق.

فقال رسول الله ﷺ: «إنه من أهل بدر، ولعل الله تعالى أطلع عليهم فغفر

(١) الممتحنة: ١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٩٨ - ٣٩٩، والواقدي، المغازي: ٢ / ٧٩٨.

لهم، أخرجه من المسجد». فجعل الناس يدفعون في ظهره حتى أخرجه، وهو يلتفت إلى النبي ﷺ ليرق له، فأمر رسول الله ﷺ برده، وقال له: «قد عفوت عنك وعن جرمك، فاستغفر ربك، ولا تعد لمثل ما جنيت»^(١).

هكذا جاء في رواية الشيخ المفيد، ومن الواضح أنها تتضمن نقض الغرض من كتمان خبر خروجه على أهل مكة، فكيف يعلن به؟ ولعل هذا هو السر في إعراض الشيخ الطبرسي في مجمع البيان عن هذه الرواية التي رواها الطوسي في التبيان^(٢).

ومهما يكن من أمر، فإن أمر هذه الغزوة بقي في طي الكتمان على أهل مكة، بل وحتى على المسلمين والقوات التي خرجت مع النبي ﷺ إلى حين الوصول إلى مشارف مكة كما سوف يأتيها روايته.

ثم إن هنالك بعض الجزئيات المتعلقة بقصة ابن أبي بلتعة ذكرها الواقدي وغيره منها ما يتعلق باسم المرأة التي حملت كتاب حاطب ف قيل إن اسمها: «كنود» وقيل: «سارة»، وقيل: «أم سارة واسمها كنود» كذلك اختلفت الروايات في مقدار ما جعل لها من مال، ف قيل: ديناراً، وقيل عشرة دنانير، وقيل: عشرة دراهم^(٣).

أما نص رسالة حاطب إلى أهل مكة، فقد اختلفت فيها الروايات حذفاً وازدادة وتقديمًا وتأخيرًا.

ففي رواية الواقدي: كتب حاطب إلى ثلاثة نفر: صفوان بن أمية، وسهيل

(١) المفيد، الإرشاد: ١ / ٥٦ - ٥٩ .

(٢) اليوسفي الغروي - محمد هادي، موسوعة التاريخ الإسلامي: ٣ / ١٨٤ - ١٨٥ طبعة مجمع الفكر - قم. وانظر: تفسير التبيان للطوسي: ٩ / ٥٧٥، ومجمع البيان للطبرسي: ٩ / ٤٠٥ .

(٣) انظر الصحيح من سيرة النبي: ٢١ / ١٦٣ - ١٦٦ .

بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل: «إنَّ رسول الله قد أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد بكتابي إليكم»^(١).

وتختلف هذه الرواية عن رواية السهيلي في الروض حيث قال: «وقد قيل: إنه كان في الكتاب: «أن النبي ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم فإنه منجز له ما وعده»، وفي تفسير ابن سلام إنه كان في الكتاب الذي كتبه حاطب: «إنَّ النبي محمداً قد نفر إما إليكم وإما إلى غيركم فعليكم الحذر»^(٢).

٦ - رسول الله ﷺ والمسلمون في طريقهم إلى مكة

استكمل رسول الله ﷺ تعبئة المسلمين في المدينة، «وأرسل إلى أهل البادية وإلى مَنْ حوله من المسلمين يقول لهم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة» وبعث رسولا في كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ، أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، واشجع، وبعث إلى بني سليم، فأما بنو سليم فلقيته بقديد، وأماسائر العرب فخرجوا من المدينة»^(٣).

وذكر الواقدي وابن إسحاق تفاصيل كثيرة في عدد مقاتلي القبائل وعدد الرايات والخيال والرجال. قال الواقدي: «وخرج رسول الله ﷺ يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان بعد العصر، وخرج المسلمون... وكانوا عشرة آلاف»^(٤).

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٩٨ .

(٢) السهيلي، الروض الأنف: ٤ / ٩٧ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٩٩ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٨٠١ .

أما ابن إسحاق فقد أوجز خبر خروج رسول الله ﷺ بحسب رواية ابن عباس، قال: «ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبا رهم، كلثوم بن حُصين. . الغفاري^(١)، وخرج لعشر مضيمن من رمضان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكُديد، بين عُسفان وأَمَج أفطر.

ثم مضى حتى نزل مرَّ الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، فسبعت سليم (أي كانت سبعمائة) وبعضهم يقول: ألفت سليم (أي كانت ألفاً) وألفت مزينة، وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد، فلما نزل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتهم خبر عن رسول الله ﷺ، ولا يدرون ما هو فاعل، وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به. . .»^(٢).

٧ - حرص رسول الله ﷺ على كتمان الأمر وفتح مكة من دون قتال

والذي يبدو من رواية ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على كتمان وجهة خروجه، وبقي هذا الأمر طي الكتمان على قريش فأخذوا يتحسسون الأخبار عَْلَهُم يجدون خبراً أو يسمعون به!

ويضيف الواقدي بعض التفاصيل على هذا الكتمان الذي حرص عليه رسول الله ﷺ فلم يفصح بوجهته حتى على من خرج معه من المهاجرين والأنصار والقبائل الأخر.

ومن طريف ما ينقله الواقدي رواية عن أبي سعيد الخدري قال: «فلما نزل

(١) وفي رواية ابن سعد في الطبقات: ٢ / ٣١٧ استخلف عبد الله بن أمّ مكتوم .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣٩٩ - ٤٠٠ .

رسول الله ﷺ العرج^(١)، والناس لا يدرون أين توجه رسول الله ﷺ، إلى قريش، أو إلى هوازن، أو إلى ثقيف، فهم يحبون أن يعلموا، فجلس ﷺ في أصحابه بالعرج وهو يتحدث، فقال كعب بن مالك: «أتي رسول الله ﷺ فأعلم لكم علم وجهه» فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على ركبته، ثم قال:

قَضِينَا مِنْ تَهَامَةٍ كُلِّ رَيْبٍ وَخَيْبَرٍ ثُمَّ أَجْمَعْنَا^(٢) السُّيُوفَا
نُسَائِلُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ دُوسًا أَوْ ثَقِيفَا
فَلَسْتُ لِحَاضِرٍ إِنْ لَمْ تَزُوهَا بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِنْهَا أَلُوفَا
فَنَنْتَزِعُ الْخِيَامَ بِبَطْنِ وَجٍّ^(٣) وَنَتْرِكُ دُورَهُمْ مِنْهُمْ خُلُوفَا

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ولم يزد على ذلك، فجعل الناس يقولون:

والله ما بين لك رسول الله ﷺ شيئاً، ما ندري بمن يُبدي، بقريش أو ثقيف أو هوازن^(٤).

وعندما سأله عيينة: فأين وجهك يا رسول الله ﷺ؟ قال ﷺ: «حيث يشاء الله!» وعندما رأى عيينة أن رسول الله ﷺ نزل «قُديد»^(٥) سأل أبا بكر: فأين يريد محمد يا أبا بكر؟ قال: حيث يشاء الله.

ولهذا كانت القبائل المتحالفة مع قريش كثيفة وهوازن تتوجس خيفة أن يكون رسول الله ﷺ قد قصدهم، فأخذوا يبثون العيون لاستجلاء وجهة رسول الله ﷺ، وأخذوا يستجمعون قواهم، ويستنفرون القبائل المتحالفة معهم، وهم

(١) العرج: عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج . . (معجم البلدان للحموي: ٣٠٩/٦).

(٢) أجمنا: أرحنا.

(٣) وج: موضع بالطائف (معجم ما استعجم للبكري: ٨٣٨).

(٤) الواقدي، المغازي: ٨٠٢/٢.

(٥) قُديد: اسم موضع قرب مكة (الحموي، معجم البلدان: ٢٣/٧).

خائفون وجلون.. كما يروي ذلك مفصلاً الواقدي في مغازيه^(١).

٨ - العباس بن عبد المطلب يجير أبا سفيان بن حرب ويصحبه إلى النبي ﷺ

يقول الواقدي: «واجتمع المسلمون بمَرِّ الظَّهران^(٢)، ولم يبلغ قريشاً حرف واحد من مسير رسول الله ﷺ إليهم، فقد اغتموا وهم يخافون [أن] يغزوهم رسول الله ﷺ. فلما نزل رسول الله ﷺ مَرِّ الظَّهرانِ عِشاءً، أمر أصحابه أن يوقدوا النيران، فأوقدوا عشرة آلاف نار...»^(٣).

أحسن العباس بن عبد المطلب - الذي التحق برسول مهاجراً ولقيه مع عياله في الجحفة - بالخطر الذي يهدد قريشاً إن دخل عليهم رسول الله ﷺ عَنوة، فعمل على تدارك الموقف، من خلال الذهاب إلى بعض مداخل مكة علّه يعثر على من يخبر قريشاً بجموع المسلمين، فيبادروا إلى طلب الاستئمان منه حفظاً لأرواحهم.

ولا تحدثنا الرواية التاريخية عن تفاصيل حيثية ما قام به العباس، هل كان يطلب من النبي ﷺ أو أنه شاور النبي ﷺ في ذلك فأذن له، أم إنها كانت بمبادرة شخصية منه لتدارك الموقف؟ إلا أن استخدامهم لبغلة رسول الله ﷺ قد يشير إلى الاحتمال الأول أو الثاني، فلم يكن تصرفاً شخصياً منه.

يقول ابن إسحاق: «فلما نزل رسول الله ﷺ مَرِّ الظَّهران، قال العباس بن عبد المطلب: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر!

قال: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها، حتى جئت

(١) الواقدي، المغازي: ٨٠٣ - ٨٠٥ .

(٢) مَرِّ الظَّهران: موضع على أميال من مكة (لسان العرب) .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨١٤ .

الأراك^(١)، لعلّي أجد بعض الحطّابة أو ذي حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ، ليخرجوا إليه فيستأمنوه، قبل أن يدخلها عليهم عنوة».

قال: «فوالله إني لأسير عليها، وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: «ما رأيت كالأليلة نيراناً قط ولا عسكرياً.. فيقول بديل: هذه والله خزاعة حشمتها الحرب^(٢)»، فيقول أبو سفيان: خزاعة أذلّ وأقلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال - العباس - : فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: ما لك؟ فذاك أبي وأمي؟ قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قریش والله! قال: فما الحيلة؟ فذاك أبي وأمي قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك، فاركب في عجز هذه البلغة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فاستأمنه لك. قال: فركب خلفي ورجع صاحبه».

يقول العباس: «فجئت به، وكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها، قالوا عمّ رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان.. قال: أبو سفيان عدوّ الله الحمد لله الذي امكن منك.. ثم خرج يشتد نحو رسول الله..».

ثم ينقل ابن إسحاق تدخل عمر بن الخطاب وقوله لرسول الله ﷺ: «فدعني

(١) الأراك: موضع قرب مكة، ينبت فيه الشجر المعروف بشجر الأراك الذي يستاك بفروعه (لسان العرب).

(٢) حشمتها الحرب: أحرقتها، ويروى: حشمتها الحرب (بالسين المهملة) أي: اشتدت عليها، وهو مأخوذ من الحملة وهي الشدة والشجاعة.

أضرب عنقه» وهي كلمة صدرت من عمر في مواطن كثيرة ولا ندري مقدار جديته في الأمر، إذ لم يمتحن ولا مرة واحدة...!

على أي حال، قال العباس لرسول الله: «إني قد أجرته - أي أبا سفيان - : فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به» فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح عُدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

قال ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟»

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً! فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم!

قال العباس: قلت: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً.

قال ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

قال العباس: فلما ذهب - أبو سفيان - لينصرف، قال رسول الله ﷺ: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل^(١)، حتى تمرّ به جنود الله فيراها».

قال: فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي، حيث أمرني رسول الله ﷺ أن

(١) خطام الجبل: أنف الجبل، وهو شيء يخرج منه، يضيق به الطريق.

احبسه ، ومَرَّت القبائل على راياتها ، كلما مَرَّت قبيلة قال : يا عَبَّاس ، مَنْ هذه؟ فأقول : سُليم ، فيقول : مالي ولسُليم ، ثم تمر القبيلة ، فيقول : يا عباس مَنْ هؤلاء؟

فاقول : مُزينة ، فيقول : مالي ولمُزينة ، حتى نفذت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنها . . حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء . . فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحَدَق من الحديد ، فقال - أبو سفيان - : سبحان الله :

يا عباس من هؤلاء؟ قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، قال :

ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً!

قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعنم إذن»^(١) .

٩ - أبو سفيان في مكة ليبلغهم قول رسول الله ﷺ

عاد أبو سفيان إلى مكة مرعوباً خائفاً مما رأى من جحافل جيش المسلمين وعددهم وعدّتهم من خلال الاستعراض العسكري الذي مرّ به في خط الجبل ومضيقة ، حيث أمر رسول الله ﷺ العباس أن يحبسه فيه لهذا الغرض ، فما أن وصل إلى مشارف مكة - بعد أن قال له العباس : النجاء^(٢) إلى قومك - صرخ بأعلى صوته :

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية : ٤ / ٤٠٢ - ٤٠٤ ، وقارن برواية الواقدي في المغازي : ٢ / ٨١٦ - ٨٢١ .

(٢) النجاء : السرعة ، تقول : نجا ينجو نجاء : إذا أسرع .

«يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبيل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة - زوجه - فأخذت بشاربه! فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس^(١) قُبْح من طليعة قوم!! قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبيل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله! وما تُغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتنفّرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد»^(٢).

١٠ - رسول الله ﷺ يدخل مكة مع شعار: «اليوم يوم المرحمة»

فرق رسول الله ﷺ جيشه من ذي طوى، إلى أربع فرق، كل فرقة تدخل من ناحية من نواحي مكة، «فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدَى، وأمر سعد بن عبادَةَ أن يدخل في بعض الناس من كَدَاء، وأمر خالد بن الوليد فدخل من اللَّيْط، أسفل مكة، وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر، حتى نزل بأعلى مكة، وضربت له هنالك قبته»^(٣).

قال ابن إسحاق: «فزعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وُجِه داخلاً، قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرمة، فسمعها رجل من قريش فقال:

يا رسول الله: اسمع ما قاله سعد بن عبادَةَ، ما نأمن أن يكون له في قريش

(١) الحميت: زق السمن، والدسم: الكثير الودك، والأحمس: شديد اللحم، والمعنى: تشبيهه بالزق لسمنه!

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٠٤ - ٤٠٥. وقارن برواية الواقدي في المغازي: ٢ / ٨٢٢ - ٨٢٣.

(٣) المصدر نفسه: ٤ / ٤٠٦ - ٤٠٧.

صولة، فقام رسول الله ﷺ لعلّي بن أبي طالب: أدركه، فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها».

وفي رواية الواقدي: «وأعطى رسول الله ﷺ رايته سعد بن عبادة وهو أمام الكتيبة، فلما مرّ سعد براءة النبي ﷺ نادى: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة! اليوم تستحل الحُرمة! اليوم أذل الله قريشاً.

فقال أبو سفيان لرسول الله ﷺ: يا رسول الله امرت بقتل قومك؟ زعم سعد كذا وكذا... واني انشدك الله في قومك، فانت أبرّ الناس، وارحم الناس، وأوصل الناس....

فقال رسول الله ﷺ: اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزّ الله فيه قريشاً، وأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فعزله، وجعل اللواء إلى قيس بن سعد!

ثم قال الواقدي: ويقال إنّ رسول الله ﷺ أمر علياً (رضي الله عنه) فأخذ اللواء، فذهب عليّ عليه السلام بها حتى دخل بها مكة فغرزها عند الركن^(١).

وفي رواية الشيخ المفيد في الإرشاد: «إنّ العباس - بعدما سمع مقالة سعد بن عبادة - قال للنبي ﷺ: «أما تسمع يا رسول الله ﷺ ما يقول سعد بن عبادة؟ إني لا آمن أن يكون له في قريش صولة، فقال النبي ﷺ: لأمر المؤمنين عليه السلام: أدرك - يا علي - سعداً فخذ الراية منه، وكُن أنت الذي يدخل بها مكة» فأدركه أمير المؤمنين عليه السلام فأخذها منه، ولم يمتنع عليه سعد من دفعها».

فالملاحظ في هذه الروايات الثلاث: أنّ ابن إسحاق ذكر أن رسول الله ﷺ أرسل علياً وأمره أن يدرك سعداً ويأخذ منه الراية ويدخل بها مكة، بينما نجد في رواية الواقدي انه يذكر أولاً أن رسول الله ﷺ عزل سعداً، وجعل اللواء إلى ولده قيس بن سعد! ثم يقول: ويقال إنّ رسول الله ﷺ أمر علياً فأخذ اللواء. ورواية المفيد

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٠٦ - ٤٠٧، والواقدي، المغازي: ٢ / ٨٢١ - ٨٢٢.

- الأكثر تفصيلاً - تنص على أنالذي أخذ الراية بأمر رسول الله ﷺ هو أمير المؤمنين .

فلو استبعدنا رواية الواقدي الأولى - وهو استبعاد له مبرراته إذ لا يمكن لسيد الخزرج سعد بن عباد أن يسلم اللواء لولده - فتكون عندنا الروايات جميعاً تنص على تولي علياً أخذ الراية والدخول بها إلى مكة وبأمر من رسول الله ﷺ .

ولهذا عقب الشيخ المفيد على هذه القضية - ونعم ما عقب به - بقوله : «فكان تلافي الفارط من سعد في هذا الأمر بأمر المؤمنين ﷺ ، ولم ير رسول الله ﷺ أحداً من المهاجرين والأنصار يصلح لأخذ الراية من سيد الأنصار سوى أمير المؤمنين ﷺ ، وعلم أنه لو رام ذلك غيره لامتنع سعد عليه ، فكان في امتناعه فساد التدبير ، واختلاف الكلمة بين الأنصار والمهاجرين ، ولما لم يكن سعد يخفض جناحه لأحد من المسلمين وكافة الناس سوى النبي ﷺ ، ولم يكن وجه الرأي تولي رسول الله ﷺ أخذ الراية بنفسه ، ولّى ذلك من يقوم مقامه ولا يتميز عنه . . . »^(١) .

١١ - بعض أحداث مكة عند فتحها

سجل المؤرخون أحداث مكة وما جرى فيها عند فتحها من حين دخلها رسول الله ﷺ وجيش الإسلام إلى حين خروجه منها ، وقد اسهبوا كثيراً في ذكر الجزئيات ، وفيما يلي ملخص لأهم هذه الأحداث :

أولاً: النهي عن القتال:

نص المؤرخون على أن رسول الله ﷺ قد نهى عن القتال في مكة عند فتحها ، وحرص على أن يكون دخوله سلمياً ومن دون إراقة دماء .

(١) المفيد، الإرشاد: ١ / ١٣٥ .

قال ابن إسحاق: «وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين، حين أمرهم أن يدخلوا مكة، أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نفر سَمَاهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة»^(١).

إلا أن بعض دعاة الحرب من قريش قد جمعوا أناساً ليُقاتلوا، فحصلت مواجهة بينهم وبين كتيبة من كتائب المسلمين سرعان ما انهزم المشركون شرَّ هزيمة.

قال الواقدي: «وقد كان صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، قد دَعَوْا إلى قتال رسول الله ﷺ، وضوى إليهم ناس من قريش وناس من بني بكر وهذيل، وتلبَّسوا السلاح، ويقسمون بالله لا يدخلها محمد عنوة أبداً»^(٢).

وحصلت المواجهة مع كتيبة خالد بن الوليد حيث منعه من الدخول، فقاتلهم المسلمون وبحسب رواية الواقدي: «فقتلوا من قريش أربعة وعشرين رجلاً، وأربعة من هذيل، وانهزموا أقبح الانهزام حتى قتلوا بالحزورة»^(٣)، وهم مُولَّون، وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال، واتَّبَعَهُم المسلمون...».

إلا أن ابن إسحاق يقول: «وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلاً، أو ثلاثة عشر رجلاً، ثم انهزموا»^(٤)، «ولم يقتل من المسلمين أحد إلا رجلاً من أصحابه ﷺ أخطأ طريقهما فسلكا غيرها فقتلا»^(٥).

وعندما دخل رسول الله مكة رأى آثار المعركة وبارقة السيوف فسأل عن

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٠٩، والواقدي، المغازي: ٢ / ٨٢٥.

(٢) كلا المصدرين: ٤ / ٤٠٧ و ٢ / ٨٢٣.

(٣) الحزورة: سوق مكة وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٠٨.

(٥) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٢٥ - ٨٢٦.

ذلك فأخبر بما جرى . قال الواقدي : «ولمّا ظهر رسول الله ﷺ على ثنية أذاخر نظر إلى البارقة، فقال : ما هذه البارقة، ألم أنّه عن القتال؟ قيل : يا رسول الله، خالد بن الوليد قُوتل، ولو لم يقاتل ما قاتل! فقال ﷺ : قضى الله خيراً»^(١).

ثانياً: أسماء من أمر رسول الله ﷺ بقتلهم وسبب ذلك:

في الوقت الذي نهى رسول الله ﷺ عن القتال والمواجهة المسلحة في مكة، أمر بقتل عدد من الرجال والنساء من أهلها، ممن ثبت في حقهم جرائم جنائية، حيث روي أنه ﷺ أمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة.

ولكل واحد وواحدة ممن أمر رسول الله ﷺ بقتلهم قصة فيما ارتكبه من أعمال إجرامية، دعت رسول الله ﷺ إلى إصدار أمره بقتلهم، إلا أنهم لم يقتلوا جميعاً، فقد قتل بعضهم وعفي عن البعض الآخر.

قال الواقدي : «وأمر ﷺ بقتل ستّة نفر وأربع نسوة : عكرمة بن أبي جهل، وهبّار بن الأسود، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس بن صُبابة، والحوريث ابن نُقيذ، وعبد الله بن هلال بن خطل، وهند بنت عتبة بن ربيعة، وسارة مولاة عمرو بن هاشم، وقَيْتَيْن لأبي خطل : قُرَيْنا وقُرَيْية، ويقال : فَرْتنا، وأرنبه»^(٢)، وتوسع الواقدي كثيراً في قصة من قُتل منهم ومن هرب ومن عفي عنه.

إلا أنّ ابن إسحاق قد أوجز الكلام في السبب الذي دعى النبي ﷺ للأمر بقتلهم، والمصير الذي انتهى إليه كلّ واحد منهم^(٣).

(١) المصدر نفسه : ٢ / ٨٢٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢ / ٨٢٥ و ٨٤٧ - ٨٦٠ .

(٣) انظر ابن هشام، السيرة النبوية : ٤ / ٤٠٩ - ٤١١ . وانظر : الروض الأنف للسيهلي : ٤ / ١٠٢ - ١٠٤، ودلائل النبوة للبيهقي : ٥ / ٤٢ - ٤٣ الهامش ٥ / ٥٩ وما بعدها .

واختلفت روايات المؤرخين في عدد من أمر رسول الله بقتلهم حتى وصل العدد إلى أكثر من عشرين رجلاً وامرأة، ولسنا بصدد احصاء عددهم، ولا ذكر من قُتل منهم أو عفي عنه.

إلا أن أبرز من أمر رسول الله بقتله، ولم يقتل هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فهذا الرجل أسلم قبل الفتح، وكان يكتب لرسول الله ﷺ إلا أنه خان الله ورسوله وكان إذا أُملي عليه رسول الله ﷺ: عليمًا حكيمًا، كتب غفوراً رحيمًا، وكان يقول: إنَّ محمداً لا يعلم شيئاً.. وكانت عاقبته أن ارتد ولحق بمكة، ولما كان يوم الفتح، وعلم باهدار النبي ﷺ دمه لجأ إلى عثمان بن عفان - أخيه من الرضاعة -.. فغيبه عثمان، ثم استأمن له حيث أتى به إلى النبي ﷺ فأعرض عنه النبي ﷺ فصار عثمان يقول يا رسول الله، أمنت؟ والنبي يعرض عنه.. ثم قال ﷺ: نعم فبسط يده فبايعه.

فلما خرج مع عثمان قال ﷺ لمن حوله: «أعرضت عنه مراراً ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه! فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إليّ يا رسول الله. فقال ﷺ: إنَّ النبي ﷺ لا ينبغي أن يكون له خاتنة الأعين»^(١).

ثالثاً: صفة دخول رسول الله ﷺ إلى مكة:

روى الواقدي عن أبي هريرة قال: «دخل رسول الله ﷺ يومئذ وعليه عمامة سوداء، ورايته سوداء، ولواؤه أسود، حتى وقف بذِي طُوًى، وتوسط الناس وإن عَثْنُونَهُ»^(٢) ليمسّ واسطة الرُّحْل أو يقرب منه، تواضعاً لله تعالى حين رأى من فتح الله وكثرة المسلمين»^(٣).

(١) انظر: الصحيح من سيرة النبي: ٢٣/ ٥٠ وما بعدها، وانظر مصادره في المصدر نفسه: ٥٢/ ٢٣ - ٥٣.

(٢) العثنون: اللحية (النهاية: ٣ / ٦٩).

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٢٤.

وفي تاريخ الخميس للديار بكري: «وفي رواية، دخل رسول الله ﷺ مكة حين ارتفعت الشمس على ناقته القصوى.. وقد طأطأ رأسه تواضعاً لله وهو يقرأ سورة الفتح»^(١).

وروى البيهقي في الدلائل، عن أنس، قال: «دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشعاً».

وروى عن ابن مسعود: «أن رجلاً كلم النبي ﷺ يوم الفتح فأخذته الرعدة فقال النبي ﷺ: «هون - عليك - فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»^(٢).

وروى الواقدي: «ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة فرآها، ومعه المسلمون، تقدّم على راحلته فاستلم الركن بمحجنه^(٣)، وكبر فكبر المسلمون لتكبيره، فرجعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً.. ثم طاف رسول الله ﷺ بالبيت على راحلته، أخذ بزمامها محمد بن مسلمة، وحول الكعبة ثلاثمائة صنم، وستون صنماً مرسّعة بالرصاص، وكان هبل أعظمها، وهو وُجاء الكعبة على بابها، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح، فجعل رسول الله ﷺ كلما مرّ بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(٤) فيقع الصنم لوجهه.

.. فطاف رسول الله ﷺ سبعاً على راحلته، يستلم الركن الأسود بمحجنه في كل طواف.. ثم انتهى إلى المقام، وهو يومئذ لاصق بالكعبة، فصلّى

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٨٤ .

(٢) البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٦٩ .

(٣) المحجن: عود معوج الطرف، يمسكه الراكب للبعير في يده .

(٤) الإسراء: ٨١ .

ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها.. فنزع له العباس بن عبد المطلب دلوفا فشرب منه.. وأمر بهبل فكسر وهو واقف عليه.. ثم أرسل إلى عثمان بن طلحة يأتيه بمفتاح الكعبة..».

وتم أمر رسول الله ﷺ أن تكسر الأصنام التي في الكعبة، وأن لا يدعوا صورة إلا محوها...

وروي عن علي عليه السلام قال: «حين أتينا الكعبة قال لي رسول الله ﷺ.. اصعد على منكبي فصعدت على منكبيه فنهض بي وانه يخيل إليّ أني لو شئت لنلت أفق السماء حتى صعدت البيت. وفي شواهد النبوة سأل رسول الله ﷺ علياً حين صعد منكبه: كيف تراك؟ قال علي: أراني كأن الحجب قد ارتفعت ويخيل إليّ أني لو شئت لنلت أفق السماء، فقال رسول الله ﷺ: طوبى لك تعمل للحق، وطوبى لي أحمل للحق.

قال علي عليه السلام: فصعدت البيت وكان عليه تمثال صفر أو نحاس وهو أكبر أصنامهم، وتنحى رسول الله ﷺ فقال لي: ألق صنمهم الأكبر، وكان موتداً على البيت بأوتاد حديد إلى الأرض، فقال رسول الله ﷺ: عالجها، جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، فجعلت أعالجها.. حتى استمكنت منه، قال لي رسول الله ﷺ: اقذف به، فقفزت به فتكسر كما يتكسر القوارير ثم نزلت.. ويروى: أن علياً أراد أن ينزل فألقى بنفسه من صوب الميزاب تأديباً وشفقة على النبي ﷺ، ولما وقع على الأرض تبسم، فسأله النبي ﷺ عن تبسمه فقال: لأنني ألقيت نفسي من هذا المكان الرفيع، وما أصابني ألم! قال ﷺ: كيف يصيبك ألم، وقد رفعك محمد وأنزلك جبريل.

وأشار الإمام الشافعي، أو حسان بن ثابت إلى هذه القصة بهذه الأبيات:

قيل لي قل في علي مدحاً ذكره يُحمد نأراً مؤصده
قلت لا أقدم في مدح امرء ضلّ ذو اللب إلى أن عبده

والنبي المصطفى قال لنا ليلة المعراج لما صعد
وضع الله بظهري يده فأحسَّ القلبُ أن قد برده
وعلي واضح أقدامه في محل وضع الله يده^(١)

وأمر رسول الله بالكعبة فغلقت عليه - فمكث فيها ما شاء الله . . ثم صلى ركعتين ثم خرج - فأشرف على الناس وقد ليط بهم حول الكعبة فهم جلوس، قال ﷺ: «الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده! ماذا تقولون وماذا تظنون؟ قالوا: نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت! فقال رسول الله ﷺ، فإني أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٢)».

وفي رواية ابن إسحاق: قال ﷺ: «إذهبوا فأنتم الطلقاء» وزاد البيهقي في الدلائل: فخرجوا كأنما نشروا من القبور» فدخلوا في الإسلام.

ونقل الواقدي وابن إسحاق خطبة لرسول الله ﷺ وفيها بعض الأحكام الشرعية، والوصايا الأخلاقية والاجتماعية.

وجاء في بعض مقاطعها بحسب رواية ابن إسحاق: «... ألا كل مأثرة أو دم يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . . يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾^(٣)».

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٨٦ - ٨٧، والقندوزي الحنفي، ينابيع المودة: ١٦٥ (طبعة الحيدرية) .

(٢) يوسف: ٩٢ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٣١ - ٨٣٥، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤١١ - ٤١٢، ودلائل النبوة للبيهقي: ٥ / ٥٨ .

رابعاً: حرمة مكة الأبدية:

تصوّر بعض رجال قبيلة خزاعة أنّ حرمة مكة قد أزيلت بعد أن غزاها رسول الله ﷺ ، ولهذا أباحوا لأنفسهم قتل أحد مناوئهم، فعدت في اليوم الثاني من فتح مكة على رجل من هذيل فقتلته وهو في مكة، فسمع بذلك رسول الله ﷺ فلم يقرهم على ذلك، رغم أن خزاعة حليفة رسول الله ﷺ ، وأراد ﷺ أن يصحح للناس الخطأ الذي توهمته خزاعة، فقام فيهم خطيباً فقال:

«أيها الناس، إنّ الله قد حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر، ووضع هذين الجبلين، فهي حرام إلى يوم القيامة، لا يحلّ لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد فيها شجرة، لم تحلّ لأحد كان قبلي، ولا تحلّ لأحد بعدي، ولم تحلّ لي إلا ساعة من النهار، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ شاهدكم غائبكم. فإن قال قائل: قد قاتل فيها رسول الله ﷺ ، فقولوا: إنّ الله قد أحلّها لرسوله ولم يحلّها لكم! يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثّر القتل، إن نفع، وقد قتلتم هذا القتيل، والله لأديننّه، فمن قُتل بعد مقامي هذا فأهله بالخيار، إن شاؤوا قدّم قتلهم، وإن شاؤوا فعقله»^(١).

وهذه الخطبة وسابقتها قد وردت في مصادر كثيرة من مصادر التاريخ والسيرة النبوية، إلا أنها تتفاوت من حيث التقديم والتأخير في بعض عباراتها ومقاطعها، وبعض المؤرخين اختصر الخطبتين، وبعض آخر أطال في نقلها.

خامساً: النبي لا يدخل بيوت مكة والأنصار تتخوف من عودة النبي ﷺ إلى مكة:

لقد كانت مكة المكرمة من أحب بقاع الأرض إلى قلب رسول الله ﷺ ، وقد

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٤٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤١٥ - ٤١٦ .

عبر عن مكنون حبه لهذا البلد عندما أخرج منها مهاجراً حيث التفت ﷺ إلى جهة مكة وقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أخرجت منك لما خرجت»^(١). وفي رواية الواقدي إنه ﷺ كرر العبارة نفسها يوم فتح مكة^(٢).

ومن الطبيعي أن يشترك رسول الله ﷺ لمكة والبيت الحرام، وأن تشترك له مكة كذلك كما عبر عن ذلك صاحب الهمزية بقوله:

ونحا المصطفى المدينة واشتاقت إليه من مكة الأنحاء

وعندما فتح الله سبحانه على رسوله مغالقة مكة ولاحت له رسوم ديارها هاجت برسول الله ﷺ أشواقه، وتذكر تلك الأيام الخوالي في مكة، وخاصة شعب أبي طالب حيث ضُربَ الحصار الجائر عليهم من قبل قريش.

روي عن جابر بن عبد الله، قال: «كنت ممن لازم رسول الله ﷺ، فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر، فلما أشرف على أذاخر نظر إلى بيوت مكة، ووقف عليها فحمد الله وأثنى عليه، ونظر إلى موضع قبته فقال: «هذا منزلنا يا جابر، حيث تقاسمت - أي أقسمت - علينا قريش في كُفْرها».

قال جابر: «فذكرت حديثاً كنت اسمعه منه ﷺ قبل ذلك بالمدينة: «منزلنا غداً إن شاء الله إذا فتح الله علينا مكة في الخيف حين تقاسموا عليّ الكفر».

ثم قال جابر: وكنا بالأبطح وجاء شعب أبي طالب حيث حُصر رسول الله ﷺ وبنو هاشم ثلاث سنين».

(١) المتقي الهندي - علاء الدين: كنز العمال: ١٢ / ١٩ حديث (٣٤٦٥٣). وأخرجه الترمذي في

المناقب، باب فضل مكة، رقم (٣٩٢٥).

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٦٥.

ولمصلحة قدرها النبي ﷺ لم ينزل في بيت من بيوت مكة لا في هذه الرحلة ولا في سابقتها عام عمرة القضاء، ولا في لاحقتها عام حجة الوداع! وإنما ضربت له خيمة في الحجون من أبطح مكة، وقد روي عن أبي رافع قال: «قيل للنبي ﷺ: ألا تنزل منزلك من الشعب؟ قال: فهل ترك لنا عقيلَ منزلاً؟ .. . فقيل لرسول الله ﷺ: فنزل في بعض بيوت مكة .. . فأبى رسول الله ﷺ وقال: «لا أدخل البيوت»، فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً، وكان يأتي إلى المسجد من الحجون».

وفي رواية أخرى: «ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يدخل بيوت مكة، فاضطرب بالأبطح في عمرة القضية، وعام الفتح، وفي حجته»^(١).

وكان من المفروض أن تبعث قصة امتناع النبي ﷺ من دخول بيوت مكة ونزوله في الأبطح، رسالة واضحة الدلالة إلى الأنصار - الذين كانوا يعتزون بوجود النبي ﷺ في ديارهم - تدل على أن النبي ﷺ عائد معهم إلى المدينة ولا يروم الاستقرار في مكة.

إلا أن بعض الأنصار أبدى تخوفاً من أن يكون النبي ﷺ قد قرر الاستقرار في مكة، فطمأنهم النبي ﷺ بأنه معهم محياً ومماتاً.

رُوي أنّ رسول الله ﷺ بعد أن انتهى من طوافه وصلاته خلف المقام انطلق حتى أتى الصفا فعلا منه حتى يرى البيت، وجعل يحمد الله ويدعوه، والأنصار عنده يقولون: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

وجاء الوحي، وكان الوحي إذا جاء لم يخف علينا، فلما رفع الوحي، قال ﷺ: «يا معشر الأنصار! قلت: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة في

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٢٨ - ٨٢٩ .

عشيرته، كلاً فما اسمي إذاً (ثلاث مرات) كلاً! إني عبد الله ورسوله، المحيا محياكم، والممات مماتكم» فأقبلوا بيبكون، وقالوا: يا رسول الله، والله ما قلنا إلا الظن بالله وبرسوله، فقال رسول الله: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَصَدِّقَانَكُمْ وَيَعْذِرَانَكُمْ»^(١).

وفي رواية ثانية: «... فلما قضى الوحي قال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار. قالوا: لبيك رسول الله، قال: قلت أماً الرجل فأدركته رغبة في قريته، قالوا: قد كان ذاك، قال ﷺ: كلاً إني عبدُ الله ورسوله هاجرتُ إلى الله وإليكم...»^(٢).

سادساً: جلوس النبي ﷺ للبيعة:

بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من فتح مكة، جاءه الناس أفواجاً أفواجاً للدخول في الإسلام وللبيعة، وقد تحدث المؤرخون وكتاب السيرة عن هذه البيعة بأسهاب، فأوردوا بيعة رموز قريش وساداتهم، وبيعة عامة الناس، وبيعة النساء.

أما إسلام رموز قريش وساداتهم فقد مرّ بنا كيفية إسلام أبي سفيان بن حرب، ويروي لنا الواقدي خبر إسلام سُهيل بن عمرو، وابن الزُبَيري (الشاعر)، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وحكيم بن حزام، ومَخرمة بن نوفل... وغيرهم^(٣).

أما عن بيعة الناس فقد روى من حضر النبي ﷺ وهو يبايع الناس يوم الفتح، فقال: «جلس رسول الله عند قَرْنِ مَسْفَلَةٍ.. فجاءه الناس: الصغار، والكبار، والرجال والنساء، فبايعوه على الإسلام والشهادة، قال الراوي: قلت:

(١) البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه: ٥ / ٥٧ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٤٧ - ٨٤٨ و ٨٥١ - ٨٥٥ .

ما الشهادة؟ قال: إنه بايعهم على الإيمان وشهادة أن لا إله إلا الله»^(١).

وفي المجمع عن الحسن البصري: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة، قالت العرب: أما إذا ظفر محمد ﷺ بأهل الحرم، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان - أي طاقة - فكانوا يدخلون في دين الله أفواجا، أي: جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً، أو اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام..»^(٢).

أما عن مبايعة النساء لرسول الله ﷺ فقد روى الواقدي عن حذته عن عبدالله بن الزبير، قال: لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة، وأسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام، امرأة عكرمة بن أبي جهل، وأسلمت امرأة صفوان بن أمية، وأسلمت فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وأسلمت هند بنت منبه ابن الحجاج، وهي أم عمرو بن العاص، في عشر نسوة من قريش، فأتين رسول الله ﷺ بالأبطح، فبايعنه، فدخلن عليه.. فتكلمت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله: الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، ليمسني رحمتك يا محمد، إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة. ثم كشفت عن نقابها فقالت: هند بنت عتبة. فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بك! فقالت: والله يا رسول الله، ما على الأرض من أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، وقد أصبحت وما على الأرض من أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من أهل خبائك. فقال رسول الله ﷺ: «وزيادة أيضاً». ثم قرأ رسول الله ﷺ عليهن القرآن وبايعهن، فقالت هند من بينهن: يا رسول الله، نُماسحك. فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أصافح النساء، إن قولي لمائة امرأة مثل قولي لامرأة واحدة».

(١) البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٩٤، وأخرج الحديث الإمام أحمد في مسنده: ٣ / ٤١٥.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ١٠ / ٤٦٧.

ثم ينقل الواقدي بعض الأقوال الأخرى في كيفية مبايعته للنساء فقال: ويقال: وضع على يده ثوباً ثم مسح على يده يومئذ، ويقال: كان يؤتى بقدر من ماء، فيدخل يده فيه ثم يدفعه اليهنّ فيدخلن أيديهنّ فيه. ثم يرجع الواقدي القول الأول فيقول: والقول الأول أثبتها عندنا: «إني لا أصافح النساء»^(١). والقول الأول هو كونبيعة النساء بالقول فقط من دون مماسة في البين.

وفي السيرة الحلبية: «ولما فرغ رسول الله ﷺ منبيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة. . . متنبهة متكررة خوفاً من رسول الله ﷺ، فلما دين من رسول الله ﷺ قال لهن: «بايعني على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن. . .»^(٢) ثم ينقل الحلبي طرفاً من حوار ومداخلات من هند بنت عتبة مع رسول الله ﷺ تدل على جرأتها في محضره ﷺ حيث كانت تعقب على كل كلمته أو شرط يقول به رسول الله ﷺ.

هذه أهم الأحداث التي وقعت في مكة أيام فتحها، وهنالك أمور جزئية أخرى تركنا ذكرها، أما لأنها ذكرت في واقعة أخرى مثل أذان بلال على ظهر الكعبة حيث ذكرناها في عمرة القضاء، وإما لأنّ تركها لا يحدث خللاً في سياق الأحداث، أو أنها من الأمور التي لم يثبت صحتها كالحديث عن أسطورة اساف ونائلة، وغيرها من الأمور التي أقحمت في سياق أحداث فتح مكة.

٢ - آثار ونتائج فتح مكة

مما لا شك فيه أن غزوة فتح مكة من أكثر غزوات رسول الله ﷺ خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين، فهي في الوقت الذي لم يكن فيها قتال - إلاّ

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٥٠ - ٨٥١ .

(٢) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ١٣٧ وما بعدها .

الشيء اليسير - ولم يغنم فيها المسلمون شيئاً مما اعتادوا أن يغنموه في غزواتهم وسراياهم، إلا أن نتائجها وآثارها كانت أكثر نفعاً وبركة من الغنائم المادية.

وفيما يلي بعض هذه الآثار والنتائج:

أولاً: توحيد الجزيرة العربية:

يقول أحد الباحثين: «كان لفتح مكة أكبر الأثر في توحيد شبه الجزيرة العربية كلها تحت لواء الإسلام. . فأصبحت شبه الجزيرة قوة موحدة ذات عقيدة واحدة وهدف واحد، وتعمل بقيادة واحدة، ولم يبق على الشرك إلا قسم من القبائل كقبيلتي هوزان وثقيف. ومن الواضح أن قضية إسلام هذه القبائل أصبحت قضية وقت ليس إلا، لإنهيار أكبر حصن للشرك: مكة، ولانهيار أكبر عدو للإسلام: قريش»^(١).

ثانياً: دخول أعداد كثيرة في الدين الإسلامي:

لقد مرت بنا رواية الحسن البصري، وهي تصور لنا دخول الناس في الإسلام ما قبل فتح مكة وما بعدها، ففي الوقت الذي كان يدخل إلى الإسلام قبل فتحها أفراد معدودة والشخص والشخصان، وإذا بهؤلاء الناس يدخلون الإسلام أفواجا، وقبائل. فكان لفتح مكة أثره المعنوي في نفوس الناس.

وهذا لا يعني بالضرورة أن هؤلاء الناس قد دخلوا الإسلام عن قناعة وجدانية، أو أن الإيمان قد لامس شغاف قلوبهم. . . فهذا أمر غير ممكن في مرحلته الأولى، فإن الكثير من هؤلاء قد دخل الإسلام إما خوفاً ورهبة بعد الفتح، أو طمعاً في مغنم دنيوية، أو أنه رأى أن الإسلام لا يقهر بعد فتح مكة كما أشارت إلى ذلك الروايات التاريخية.

والرسول الأكرم قد قبل إسلام الجميع، وكان يكفيهم النطق بالشهادتين

(١) خطاب، الرسول القائد: ٣٦١.

والبيعة له على ذلك، على أمل أن تتصاعد عندهم الروح الإيمانية والعقائدية بعد تجاوز مرحلة الشرك والوثنية.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾^(١).

ثالثاً: إنهاء سيادة وزعامة قريش:

لقد كانت لقريش مكانتها وزعامتها وسيادتها بين القبائل العربية، وكان لها الثقل الأكبر في مجريات الأحداث، إذ إن كل القبائل الأخرى كانت تمُدُّ ببصرها إلى نتائج الصراع بين محمد ﷺ وبين قريش، فمادامت قريش على قوتها وعنفوانها ومواجهتها لمحمد ﷺ، فهذا يعني عند هذه القبائل أن ساحة الصراع لازالت مفتوحة على كل الاحتمالات، وكانت بعض القبائل تتوقع أن ينتهي الصراع بين محمد وقريش لصالح قريش ولهذا كانت تترث في اتخاذ قراراتها وترتيب أولوياتها تحسباً من كل طارئ.

فجاءت غزوة فتح مكة لتنتهي سيادة وزعامة قريش، فليس لقريش ورجالها اليد الطولى في مكة بعد فتحها، وليست لها السيادة المطلقة والأمر والنهي بعد ذلك، فهم ما بعد فتح مكة حملوا مصطلح الطلقاء، ولهذا عندما كان يتصدى أحد هؤلاء الطلقاء لأمر من الأمور كان يجابه بهذا المصطلح ويقال له: «ما لك وهذا الأمر وأنت من الطلقاء».

ففتح مكة قد أنهى سيادة قريش المطلقة، وفتح الطريق أمام القبائل الأخرى لكي تتخذ ما تراه مناسباً من موقف من دون أن تدخل في حساباتها قريشاً ومكانتها وصراعها مع النبي ﷺ.

رابعاً: فتح القلوب المغلقة:

لقد كان فتح مكة فتحاً جغرافياً من جهة، حيث أضاف إلى رقعة الإسلام رقعة جغرافية مقدسة وهي أم القرى ومن حولها، وهي قبلة المسلمين ومطمح أنظارهم، وأقدس بقعة على وجه الأرض، فظهرت من مظاهر الشرك والعقائد الخرافية، وعادت إلى كونها مظهراً للتوحيد والعبودية الخالصة لله وحده.

وفي نفس الوقت كان هذا الفتح فتحاً معنوياً، فتح تلك القلوب الصلدة التي لم يكن يتصور أحد أن تفتح قلوبها على الإسلام في يوم من الأيام! وأصبح هؤلاء من المؤلفة قلوبهم نحو الإسلام بعد أن كانوا من أعداء الإسلام والمحاربين له.

فمن كان يتصور أن يأتي اليوم الذي يدخل فيه أبو سفيان، وزوجه هند بنت عتبة، وعكرمة ابن أبي جهل وصفوان بن أمية - ولو ظاهراً - إلى الإسلام، ويعلنون أمام رسول الله ﷺ بيعتهم له، وينطقون بكلمات لم يكن لها أي وجود في مصطلحاتهم التي كانت تعبر عن المفاهيم التي تطوي عليها نفوسهم.

١٣ - الدروس والعبر

انطوت أحداث فتح مكة على كثير من الدروس والعبر والعظات التي لا بد من الوقوف عند بعضها واستجلاء كنهها لتكون لنا منهجاً ودرساً عملياً في حياتنا الإيمانية والجهادية والسياسية وذلك من خلال الالتزام بها وتطبيقها في مفردات ووقائع حياتنا العملية.

أولاً: إنَّ هذا الفتح من ثمرات الهجرة والجهاد:

يعتبر فتح مكة الثمرة الطيبة لهجرة وجهاد رسول الله ﷺ والثلة المؤمنة من الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، وممن ضحوا بالأرض والوطن والمال

والأهل والعشيرة، ومن ثم جادوا بأنفسهم في سبيل دعوة الحق، فأثابهم الله سبحانه، وأكرمهم بهذا الفتح العظيم، فلم تذهب جهودهم سُدى، ولم ترق دماء شهداءهم هدرًا، وإنما أثمرت وأينعت وآتت أكلها بعد حين بإذن ربها.

ومن هنا لا بد أن نعي هذا الدرس جيداً، ونستحضر ذلك في عمق وعينا ووجداننا، ونأخذ منه العبرة والعظة، فلا نصر من دون بذل الجهود وتحمل المشاق والتضحية في سبيل الله والتوكل عليه سبحانه.

ثانياً: إنَّ هذا الفتح من ثمرات صلح الحديبية:

ويعتبر هذا الفتح أيضاً من ثمرات صلح الحديبية التي لم يستوعب آثارها المستقبلية بعض الصحابة!! ووقف مدهوشاً منها ومعتزلاً عليها وعلى من قام بها! وهو المسدد من السماء وتحفه رعاية الله تعالى، ومن هنا يتجلى لنا إدراك القيمة الكبرى لصلح الحديبية الذي اصطلح عليه المولى عز وجل اسم الفتح في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

وقد يكون السر في قراءة النبي ﷺ لسورة الفتح حين دخوله مكة هو التذكير برعاية الله سبحانه للمسلمين، وتحقيق ما وعدهم به من نصر، فيزداد المؤمنون إيماناً مع إيمانهم، وفي نفس الوقت علّها تزيل الشك وتذهب بدهشة من لم يستوعب كنه صلح الحديبية وابعادها المستقبلية، بالاضافة إلى ما تحدثه آيات هذه السورة من هزة عنيفة في شخصية أهل الكفر والوثنية، تدعوهم إلى التأمل والتفكير فيما حصل قد ينتهي بهم هذا التفكير إلى ترك حالة الجحود والعصيان والدخول في رحاب الإيمان والانقياد والطاعة لله ولرسوله.

ثالثاً: إنَّ هذا الفتح من ثمرات الصراع بين الحق والباطل:

لقد كانت مرحلة الصراع في عصر رسول الله ﷺ - وهي مرحلة التنزيل - صراعاً واضح المعالم بين الحق والباطل! الحق الذي يمثل هذا الدين القيم، بما

يمتلك هذا الدين من قيم ومبادئ ومفاهيم ونظرة ربانية للكون والحياة، والباطل الذي تمثله وثنية قريش وأعراب الجزيرة، وبما تمتلك هذه الوثنية من خرافات وعقائد فاسدة، وفهم جاهلي لمفردات الحياة الدينية والاجتماعية.

فكان هذا الفتح الأعظم ثمرة لهذا الصراع بين الجبهتين، جبهة أهل الحق والدين والقيم الإنسانية، وجبهة أهل الباطل والوثنية والقيم والأعراف الجاهلية.

والدرس الذي نستوحيه من هذا الفتح الأعظم ونحو نعيش حالة الصراع بين الحق والباطل وعلى مختلف الأصعدة هو: أنَّ النصر سوف يكون لأهل الحق، وأنَّ الحق مهما حُورب ومهما أُبعد وأقصي . . لا بدَّ له أن يظهر وبقوة، وأنَّ الباطل مهما كانت له من الصولات والجولات فهو في النهاية سوف يقهر ويندحر أمام سلطان الحق وقوته، وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾^(١).

رابعاً: إِنَّ هَذَا الْفَتْحَ لَمْ يُزِدْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَّا تَوَاضِعاً وَشُكْراً لله:

لقد نقل لنا المؤرخون ورواة السيرة كيفية دخول رسول الله إلى مكة، فقد كان ﷺ يضع رأسه ويطأطأ به حتى تكاد لحيته الشريفة أن تلمس واسطة رحله، تواضعاً وشكراً لله سبحانه الذي أنعم عليه وعلى المسلمين بنعمة هذا الفتح العظيم.

وهذه الحالة - كما يصورها بعض الباحثين - تعني: «إِنَّهُ ﷺ كَانَ مُسْتَغْرِقاً فِي حَالَةِ شُهُودٍ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى أَثْنَاءَ دُخُولِهِ مَكَّةَ فَمَا كَانَتْ لِنَشْوَةِ الظَّفَرِ وَالنَّصْرِ الْعَظِيمِ إِلَى نَفْسِهِ مِنْ سَبِيلٍ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنَ التَّعَاضُطِ أَوْ التَّجْبِرِ يَسْتَوْلِي عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَشَاعِرِهِ، إِنَّمَا هُوَ الْانْسِجَامُ التَّامُ مَعَ شُهُودِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالشُّكْرُ عَلَى

نصره وتأيده»^(١).

خامساً: إِنَّ هَذَا الْفَتْحَ مَظْهَرُ لِرَحْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ:

لقد تجلت الرحمة الإلهية في هذا الدين الحنيف بأوضح صوره ومعانيه، فالله سبحانه هو الرحمن الرحيم، وهو الذي: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ..﴾^(٢) وهو الذي قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٣) وهو الذي أرسل رسوله بالرحمة فقال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤) وأنزل عليه قرآنًا يصفه مُنْزَلُهُ سبحانه: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٥).

وإذا أردنا أن نصف هذا الدين بوصف جامع شامل فهو دين الرحمة، وإذا أردنا أن نعت النبي ﷺ بأكمل صفاته فهو: «الرحمة المهداة» كما عبّر ﷺ عن نفسه.

ومن هذا المنطلق نجد النبي ﷺ في هذه الواقعة قد جسّد هذه الرحمة بأروع صورها، فلا دم يسفك، ولا عزيز يُذل، ولا حرمة تُنتهك، ولا الأموال تُسلب.. بل الكلّ مصان بصيانة الإسلام وحفظه.

وعندما يرفع شعار يتنافى مع مبدأ الرحمة نجد النبي ﷺ يعيد هذا الشعار إلى نصابه الصحيح. فيوم الفتح العظيم، ليس اليوم الذي تسفك فيه الدماء وتنتهك الحرمات وتذل فيه قريش، وإنما هو اليوم الذي يصان به المال والعرض والنفس، وتعزّ به قريش والعرب بالإسلام وبالنبي ﷺ، فتخرج من ذل عبودية

(١) البوطي، فقه السيرة: ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٢) الأنعام: ٥٤ .

(٣) الأعراف: ١٥٦ .

(٤) الأنبياء: ١٠٧ .

(٥) الأعراف: ١٥٤ .

الأوثان والأصنام ومعصية الله، إلى عز طاعته وعبوديته .

سادساً: إن هذا الفتح تثبتت لحدود الله سبحانه:

وحُدود الله الذي ورد في القرآن وفي أكثر من آية منها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾^(١) هي: أوامر الله ونواهيه، التي لا بد من الالتزام بها في حياة الإنسان، وفي كل حركاته وسكناته .

إلا أن هذه الحدود التي قد أرسى أسسها وشيّد دعائمها شيخ الأنبياء والموحدين إبراهيم الخليل عليه السلام في مكة، فأقام هذا البيت العتيق ليكون مثابة للناس ومظهراً لعبوديته وتوحيده، وإذا بهذه الحدود تنتهك وتصبح الكعبة مجمعاً للأوثان والأصنام، وتتحول العبادة فيها إلى شكليات فارغة سخيصة في محتواها ومظهرها، كما يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾^(٢) .

فكان هذا الفتح تطهيراً للبيت من كل وثنية أو صنم يعبد من دون الله، وإظهاراً لشعائر الله في وجهها العبادي من خلال ما رسمه النبي ﷺ لأُمَّته من أعمال عبادية . وبيان واضح من النبي ﷺ لهذه الأمة لما تختص به هذه البقعة من أحكام وحدود لا يجوز تعديها فيقول ﷺ: «إِنَّ مَكَةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يَحْرَمْهَا النَّاسُ، وَلَا يَحِلُّ لِمَرءٍ يَوْمُنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرُ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضُدَ بِهَا شَجَرًا . . .» وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس . . . وغيرها من الكلمات النبوية التي استند إليها الفقهاء في بيان حدود الله وأحكامه المختصة بحرم الله مكة المشرفة .

(١) البقرة: ٢٢٩، وانظر الآيات: ١٨٧ - ٢٣٠ من نفس السورة، والنساء: ١٣ - ١٤، والتوبة:

٩٧، ١١٢، والمجادلة: ٤، والطلاق: ١ .

(٢) الأنفال: ٣٥ .

سابعاً: إِنَّ هَذَا الْفَتْحَ إِرْسَاءٌ لِدَعَائِمِ الْمَجْتَمَعِ الْجَدِيدِ فِي مَكَّةَ:

وعندما نعود لخطاب رسول الله في مكة لنتأمل في بعض فقراته نجد أن الرسول الأكرم ﷺ بعد أن يستهل خطابه بالثناء والشكر لله وحده . . «يعلن أمام الملأ الذين تجمعوا من قريش وغيرهم عن ولادة مجتمع جديد في مكة، يحمل قيماً ومفاهيم وأعرافاً جديدة، يجمعها قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِيَّاَنَا خَلْقًا نَّكَرًا مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾^(١)».

«إذن فلتدفن تحت أقدام المسلمين تلك المآثر الجاهلية العتيقة من التفاخر بالآباء والأجداد، والتباهي بالقومية والقبلية والعصبية، والاعتداد بفوارق الشكل واللغة والأنساب، فالناس كلهم لآدم، وآدم من تراب.

لقد طويت منذ اللحظة جاهلية قريش، فلتطوَّ معها سائر عاداتها وتقاليدها، ولتدفن في غياهب الماضي الذي أدبر، ولتغتسل قريش من بقية أدرانها لتنظم إلى القافلة وتسير مع الركب . . . فإن مكة ستصبح بعد اليوم مشرق حضارة ومدنية جديديتين تلبس منهما الدنيا كلها حِلَّةً من السعادة الإنسانية الشاملة.

. . وهكذا دُفنت فعلاً في تلك الساعة بقايا المآثر الجاهلية تحت الأقدام، وبايعت قريش رسول الله ﷺ على الإسلام، على أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وعلى أنه لا تعاضم إلا بحلة الإسلام، ولا مباهاة إلا بالتمسك بنظامه»^(٢).

ثامناً: إِنَّ هَذَا الْفَتْحَ مَصْدَاقٌ لِلْعَفْوِ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ:

لقد تجلت لنا في هذه الغزوة صوراً رائعة من أخلاق رسول الله ﷺ وسعة

(١) الحجرات: ١٣ .

(٢) البوطي، فقه السيرة: ٤١٤ .

صدره، وتجاوزوه وعفوه عن رجال ونساء قد آذوه كثيراً، من خلال ما صدر منهم من أفعال إجرامية، وأقوال بذيئة.

فنجده - وهو لا زال في المدينة - يعفو عن حاطب بن أبي بلتعة الذي كتب لقريش يخبرهم بوجهة رسول الله ﷺ، وهو بذلك خان الله ورسوله ﷺ وثبتت خيانه وجريمته، ولهذا اقترح بعضهم متسرعاً في حكمه بقتل حاطب لأنه نافق! إلا أن رسول الله ﷺ وبنظرته الحكيمة للأُمور، وبما له من ولاية على الناس كلهم وجد أن العفو عنه خير وسيلة لإصلاحه وتأديبه.

وكذلك نجد الرسول ﷺ يعفو عن أناس قد أمر بقتلهم ولو كانوا تحت أستار الكعبة، إلا أنه لم يقتل منهم سوى ثلاثة وعفى عن الباقين بعد أن تمكن رسول الله منهم، وأعلنوا ظاهر إسلامهم، ومن أولئك هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، التي ارتكبت الأفاعيل الشنيعة في أحد، وكانت من أشد المحرضين على قتال رسول الله ﷺ حتى اللحظات الأخيرة التي سبقت فتح مكة، إلا أنها عندما جاءت إلى رسول الله معلنة إسلامها قبل ﷺ ذلك منها وردّ على أسئلتها وتحمل مداخلاتها واعتراضاتها.

فكان هذا السلوك النبوي المصدق العملي لقوله ﷺ: «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة»^(١).

فأين هذا السلوك النبوي من سلوك الفاتحين الذين تُسكرهم نشوة النصر، فتغطس قوائم فرسانهم في بحر دماء الضحايا، وتدوس أقدامهم على جماجم وأجساد القتلى، ولا يدعون حرمة إلا انتهكوها، ولا أموالاً إلا ونهبوها، كما قرر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا

(١) الري شهري، ميزان الحكمة: ٦ / ٢٦٦٧ .

أَعَزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةٌ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿١﴾.

ولعل أبا سفيان كان يتصور أن رسول الله ﷺ من أولئك الملوك عندما قال للعباس: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» ولعل الله سبحانه قد أجرى هذه الكلمة على لسان العباس - وهو جديد عهد بالإسلام - «إنها النبوة». نعم إنها نبوة نبي الرحمة الذي يعفو عند المقدرة.

نكتفي بهذا القدر من الدروس والعبر التي تؤخذ من فتح مكة، وهنالك الكثير الكثير من الدروس الأخرى يمكن استفادتها من مفردات ووقائع هذا الفتح العظيم، لم نتعرض لها خوف الإطالة - وقد أطلنا فعلا في هذا الدرس - وقد يكون لنا بعض الحق في ذلك.

الأسئلة:

- ١ - ما هي الأسباب الواقعية التي دعت الرسول ﷺ لفتح مكة؟
- ٢ - ما هي الخطة العسكرية والأمنية التي وضعها النبي ﷺ لفتح مكة؟
- ٣ - كيف عالج رسول الله ﷺ مشكلة حاطب بن أبي بلتعة الذي أراد إخبار قريش بوجهة النبي ﷺ؟
- ٤ - لماذا حرّص النبي ﷺ على فتح مكة سلماً؟
- ٥ - ما هي المهمة التي جاء من أجلها أبو سفيان إلى المدينة؟ ولماذا فشل في مهمته؟
- ٦ - كيف كان إسلام أبي سفيان؟ وما هو دوره في مكة قبل دخول الرسول ﷺ إليها؟
- ٧ - كيف كانت صفة دخول رسول الله ﷺ إلى مكة؟
- ٨ - كيف تمّ تحطيم أصنام مكة؟ وما هو دور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في ذلك؟
- ٩ - كيف بايع الناس رسول الله ﷺ على الإسلام؟ وما هي خصوصية بيعة النساء له ﷺ؟
- ١٠ - ما هي أهم الدروس والعبر التي يمكن أن نستفيد منها من واقعة فتح مكة؟

الدرس السادس والعشرون

أحداث السنة الثامنة من الهجرة

غزوة حنين وحصار الطائف

مباحرات البحث

- أ - سرايا لتحطيم الأصنام والأوثان خارج مكة المكرمة :
- ١ - سرية خالد بن الوليد لتهديم «العُزَّى»
- ٢ - سرية عمرو بن العاص لتهديم «سُوع»
- ٣ - سرية سعد بن زيد الأشهلي لتهديم «مناة»
- ٤ - سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة لدعوتهم إلى الإسلام
- ب - غزوة حنين وأسبابها الواقعية :
- ١ - قبيلتا هوازن وثقيف وحلفاؤهما تحشدان قواتهما لغزو مكة
- ٢ - النبي ﷺ يستطلع أخبار حشد هوازن وثقيف
- ٣ - هوازن وثقيف تحشدان قواتهما في وادي حنين وتباغتان المسلمين
- ٤ - هزيمة جيش المسلمين وانسحابهم من أرض المعركة في الجولة الأولى
- ٥ - ثبات النبي ﷺ وانقلاب الهزيمة إلى النصر
- ٦ - الهجوم المضاد من المسلمين ومطاردة فلول ثقيف إلى الطائف

- ٧ - محاولة اغتيال رسول الله ﷺ
 - ٨ - تحصن ثقيف وهوازن في الطائف وحصار المسلمين لهم
 - ٩ - فكُّ حصار الطائف وانسحاب المسلمين وأسباب ذلك
 - ١٠ - توزيع الغنائم وما جرى عندها من إشكالات
 - ١١ - مصير مالك بن عوف الضمري
 - ١٢ - عمرة النبي ﷺ وعودته إلى المدينة
 - ١٣ - الدروس والعبر
- الأسئلة

غزوة حنين وحصار الطائف

سرايا لتحطيم الأصنام والأوثان خارج مكة المكرمة

لقد تم فتح مكة في العشرة الثانية من شهر رمضان المبارك، وبقي رسول الله ﷺ في مكة لترتيب أمورها الإدارية والدينية وإزالة بقايا آثار الشرك والوثنية «ثم بعث رسول الله ﷺ فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل، ولم يأمرهم بقتال»^(١).

وكانت مهمة هذه السرايا تحطيم الأصنام والأوثان التي كانت تعبد من دون الله في ضواحي مكة وأطرافها، بعد أن طهر بيت الله منها، وأعلن في مكة نفسها أن من كان في بيته صنم فليكسره.

١ - سرية خالد بن الوليد لتهديم «العُزَّى»

قال ابن إسحاق والواقدي: «ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العُزَّى، وكانت بنخلة»^(٢)، وكانت بيتاً يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومُضَر كلها. فلما سمع صاحبها - أي سادنها - بمسير خالد إليها علّق عليها سيفه، وأسند في الجبل الذي هو فيه وهو يقول:

أيا عَزَّ شُدِّي شِدَّةَ لا شَوَى لها على خالد القي القِناع وشُمري
أيا عَزَّ إن لم تقتلي المرءَ خالداً فبُؤئي بإثم عاجل أو تَنصُري

(١) ابن هشام: ٤ / ٤٢٨ .

(٢) نخلة: اسم موضع .

فلما انتهى إليها خالد هدمها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «نعم، تلك العزى وقد يئست أن تُعبد ببلاذكم أبداً»^(١).

٢ - سرية عمرو بن العاص لتهديم «سُواع»

روى الواقدي: «وبعث ﷺ عمرو بن العاص إلى صنم هُذيل - سُواع - فهدمه، فكان عمرو يقول: انتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تُريد؟ فقلت: هدم سُواع، فقال: ما لك وله؟ فقلت: أمرني رسول الله ﷺ! قال: لا تقدر على هدمه، قلت: لِمَ؟ قال: يمتنع! قال عمرو: حتى الآن أنت في الباطل؟ ويحك أهل يسمع أو يُبصر؟ قال عمرو: فدنوت إليه فكسرتة، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزائنه.. ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت الله»^(٢).

٣ - سرية سعد بن زيد الأشهلي لتهديم «مناة»

قال الواقدي: «وبعث سعد بن زيد إلى مناة بالمُشَلَّل فهدمه»^(٣)، وكانت «مناة» للأوس والخزرج وغسان، وهي من أقدم الأصنام، وكانت العرب تسمي: «عبدمناة» و«زيد مناة»، وكان منصوباً على ساحل البحر الأحمر من ناحية المشلل بقديد، بين مكة والمدينة. وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة.. يعظمونه ويذبحون له ويهدون له، ولم يكن أحد أشد اعظاماً له من الأوس والخزرج»^(٤).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٣٦ - ٤٣٧ وقارن برواية الواقدي في المغازي: ٢ / ٨٧٣ - ٨٧٥.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٧٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٨٧٠.

(٤) الكلبي، الأصنام: ١٣، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٢٣.

٤ - سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة لدعوتهم إلى الإسلام

قال ابن إسحاق: «بعث رسول الله ﷺ فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل، ولم يأمرهم بقتال، وكان ممن بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه مُقاتلاً. . . وبعث معه قبائل من العرب، سُليم. . . ومدلج، فوطئوا بني جذيمة. . . فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح، فإنَّ الناس قد أسلموا.

قال ابن إسحاق: فحدثني بعض أصحابنا من أهل العلم من بني جذيمة، قال: لما أمرنا خالد أن نضع السلاح قال رجل متاً يقال له جَحْدَم: ويلكم يا بني جذيمة! إنه خالد والله! ما بعد وضع السلاح إلاَّ الإِسار، وما بعد الإِسار إلاَّ ضرب الأعناق والله لا أضع سلاحي أبداً.

قال: فأخذه رجال من قومه، فقالوا: يا جحدم، أتريد أن تسفك دماءنا؟ إنَّ الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح، ووُضِعت الحرب، وأمن الناس. فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم السلاح لقول خالد.

. . فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك، فكُتِفُوا، ثمَّ عرضهم على السَّيف، فقتل من قتل منهم فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ، رفع يديه إلى السماء، ثمَّ قال: «اللهم إني أبرأ إليك ممَّا صنع خالد بن الوليد».

قال ابن إسحاق: . . ثمَّ دعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال: «يا عليَّ، أخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك». فخرج عليُّ حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ، فَوَدَى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال. . . حتى لم يبق شيء من دم ولا مال إلاَّ وداهُ، فبقيت معه بقيَّة من المال. فقال لهم عليُّ رضوان الله عليه حين فرغ منهم: هل بقي لكم بقيَّة من دم أو مال لم يُودَ لكم؟ قالوا: لا.

قال ﷺ: «إني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال، احتياطاً لرسول الله ﷺ مما يعلم ولا تعلمون. ففعل».

ثم رجع - عليّ - إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال: «أصبت وأحسن».

قال - ابن إسحاق - : ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتى إنه ليرى مما تحت منكبيه، يقول: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد - يكررها - ثلاث مرّات».

قال ابن إسحاق: وقد قال بعض من يعذر خالداً إنه قال: ما قاتلتُ حتى أمرني بذلك عبد الله بن حُذافة السهمي، وقال: إنّ رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقتلهم لامتناعهم من الإسلام.

قال ابن هشام: . . لما أتاهاهم - أي بني جذيمة - خالد، قالوا: صَبَأْنَا، صَبَأْنَا^{(١)(٢)}.

وفي رواية الواقدي تفاصيل أخرى عما فعله خالد بن الوليد ببني جذيمة لم يذكرها ابن إسحاق في روايته قال: « . . فخرج - خالد - في المسلمين من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فكانوا ثلاثمائة وخمسين رجلاً . . فأنهى إليهم - أي بني جذيمة - فقال: الإسلام! قالوا: نحن مسلمون! قال: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: إنّ بيننا وبين قوم من العرب عداوة، فخشنا أن تكونوا هم، فأخذنا السلاح لأن ندفع عن أنفسنا من خالف دين الإسلام».

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٢٨ - ٤٣١، وقارن برواية الواقدي في المغازي: ٢ / ٨٧٥ وما بعدها .

(٢) صَبَأْنَا: يعنون دخلنا في دين محمد، وكانوا يسمون النبي ﷺ الصبائي، لأنه خرج من دينهم . يقال: صبأ الرجل: إذا خرج من دين إلى دين .

قال - خالد - : فضعوا السلاح! . . فوضع القوم السلاح، ثم قال لهم خالد: استأسروا! . . فاستأسر القوم، فأمر بعضهم يكتف بعضاً، فلما كُتفوا دفع إلى كل رجل من المسلمين الرجل والرجلين، وباتوا في وثاق، فكانوا إذا جاء وقت الصلاة يكلمون المسلمين فيصلّون ثم يُربطون!!

فلما كان في السّحر، والمسلمون قد اختلفوا بينهم، فقائل يقول: ما نريد بأسرهم، نذهب بهم إلى النبي ﷺ وقائل يقول: ننظر هل يسمعون أو يطيعون، ونبلوهم ونخبرهم. والناس على هذين القولين.

فلما كان في السّحر نادى خالد بن الوليد: من كان معه أسير فليذافه - والمذاقة: الاجهاز عليه بالسيف - فأما بنو سليم فقتلوا كل من كان في أيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسرارهم^(١).

فنحن إذن أمام فعل ليس له ما يبرره! فهو غدر وأسر وتقتيل! لقوم أعلنوا أنهم من المسلمين على كلا الروايتين! ولا ندري ما الذي حدى بخالد بن الوليد إلى ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء. والقسوة المفرطة في القتل؟! هل إنه اجتهد وتأول فهو معذور - كما يقولون - ؟! أم أنه اشتبه عليه الأمر عندما قالت جذيمة: «صبأنا صبأنا» فلم يفهم من ذلك أنهم أسلموا فأقدم على ما أقدم عليه؟

ذهب إلى كلا الوجهين بعض المؤرخين وبعض كتاب السيرة المحدثين^(٢) فقال أحدهم: وكان قتل خالد لبني جذيمة تأوّلًا منه، واجتهاداً خاطئاً^(٣).

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٧٥ - ٨٧٦ .

(٢) انظر: الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٨٣ - ٨٨٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٣٠ - ٤٣١، ومحمود شيت خطاب في كتابه: الرسول القائد: ٣٤٦، وسيرة خالد بن الوليد - قادة فتح العراق والجزيرة: ٧٢ - ٧٤ .

(٣) الصلابي - علي محمد: السيرة النبوية: ٢ / ٥١٢، والعامري، بهجة المحافل: ١ / ٤٤٤ .

إلا أننا عندما نعود إلى رسول الله ﷺ وردود أفعاله اتجاه هذه الجريمة، كذلك ردود أفعال أصحاب رسول الله ﷺ لفعل خالد واستنكارهم عليه، يتضح لنا زيف كل المبررات التي تحاول أن تغسل آثار هذه الجريمة عن خالد بن الوليد.

فعندما بلغ النبي ﷺ نبأ هذه الجريمة غضب غضباً شديداً، وعبر عن غضبه بكلماته التي تبرا فيها من فعل خالد رافعاً يديه إلى السماء حتى بان بياض ابطنه.

ثم أخذ يتدارك الموقف من خلال ارسال علي عليه السلام مع مبلغ كبير من المال لدفع دية من قُتل أو جرح من جزيمة بيد خالد ومن اعانه على ذلك من بني سليم.

ومع الأسف لا يحدثنا التاريخ عن كيفية مواجهة خالد لرسول الله ﷺ بعد عودته إلى المدينة إلاّ إشارات قليلة وردت في رواية الواقدي: «وكان رسول الله ﷺ لا يقبل على خالد، ويُعرض عنه، وخالد يتعرّض لرسول الله ﷺ ويحلف ما قتلهم على ترة ولا عداوة» إلاّ أن الواقدي نفسه ينقل بعد هذا روايات تنسب لرسول الله ﷺ يمدح فيها خالداً ويجزل عليه الصفات الحميدة.

فيقول: فلما قدم عليّ ووداهم - أي بني جزيمة - أقبل رسول الله ﷺ على خالد، فلم يزل عنده من عليّة الصحابة حتى تُوفي رسول الله ﷺ!

ثم يروي عمن حدثه عن رسول الله ﷺ إنه قال - كما يزعم الراوي - : «لا تسبوا خالد بن الوليد، فإنما هو سيف من سيوف الله، سلّه على المشركين»!

وفي رواية أخرى زعم فيها الراوي أن رسول الله ﷺ قال: «نعم عبد الله خالد ابن الوليد، وأخو العشيرة، وسيف من سيوف الإسلام، سلّه على الكفار والمنافقين»^(١)!

ولا ندرى ماذا نصدق؟ انصدق فعل رسول الله ﷺ وهو رافع يديه يتبرأ من فعل خالد. . أم نصدق ما نسب إليه من روايات يكشف لنا فعل النبي ﷺ عن كذبها؟ فإذا كان خالد قد سلَّ سيفه على المشركين أو الكفار والمنافقين - كما تزعم الرواية - فلماذا يغضب رسول الله ﷺ ويتدارك الموقف ويدفع ديتهم؟

ثم إن أصحاب رسول الله ﷺ وخاصة من كان معه من المهاجرين والأنصار في هذه السرية قد استنكروا على خالد فعلته واعتبروها جريمة قتل مع سبق الإصرار بحق طائفة من المسلمين بعد أن آمنهم وجردهم من سلاحهم.

ثم إن المهاجرين والأنصار الذين كانوا مع خالد في هذه السرية لم يشاركوه في جريمته، ولم يشاركه فيها إلا بنو سليم لثارات سابقة وحروب بينهم وبين جذيمة.

يروى الواقدي: «لَمَّا نَادَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي الْأَسْرِ يُذَافُونَ، ثُبَّتْ بَنُو سُلَيْمٍ عَلَى اسْرَاهِمَ فذَاقُوهُمْ، وَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فَأَرْسَلُوا أَسْرَاهِمَ، فَغَضِبَ خَالِدٌ عَلَى مَنْ أَرْسَلَ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَكَلَّمَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو أُسَيْدٍ السَّاعِدِيُّ وَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا خَالِدُ، وَاللَّهِ مَا كُنَّا لَنَقْتُلَ قَوْمًا مُسْلِمِينَ! قَالَ خَالِدُ: وَمَا يَدْرِيكَ؟! قَالَ أَبُو أُسَيْدٍ: نَسْمَعُ إِقْرَارَهُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ بِسَاحَتِهِمْ.

وعن عبد الله بن عمر - الذي كان ضمن أفراد السرية - قال: وأرسلت أسيري، وما أحبُّ أني قتلته، وأن لي ما طلعت عليه شمس أو غربت، وأرسل قومي معي من الأنصار أسراهم.

وأما عبد الرحمن بن عوف فقد جابه خالداً وأنكر عليه فعلته وقال له: أخذت بأمر الجاهلية، قتلتهم بعمك «الفاكهة» قاتلك الله! . . ثم قال له: أهل السرية كلهم يخبروننا أنك وجدتهم قد بنوا المساجد وأقروا بالإسلام، ثم حملتهم على السيف! فقال خالد: أمرني رسول الله أن أغير عليهم، فأغرت بأمر

النبي ﷺ! فقال عبد الرحمن: كذبت على رسول الله ﷺ»^(١).

وممن استنكر على خالد بن الوليد فعلته الشنيعة عمر بن الخطاب، وأبو قتادة الأنصاري، وعمار بن ياسر.

روى الواقدي: «ودخل عمار على رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، لقد حمش قوماً»^(٢) قد صلوا وأسلموا» ثم وقع بخالد عند النبي ﷺ، وخالد جالس لا يتكلم، فلما قام عمار وقع به خالد. فقال النبي ﷺ: مه يا خالد!

لا تقع بأبي يقظان، فإنه من يُعاده، يعاده الله، ومن يُبغضه يبغضه الله ومن يسفّه يسفّه الله»^(٣).

والذي يبدو أن السبب الحقيقي الذي دفع خالد بن الوليد إلى ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء هو ما أشار إليه عبد الرحمن بن عوف في قوله لخالد: «أخذت بأمر الجاهلية» فلا زالت الجاهلية وثاراتها هي التي تحرك سلوك خالد بن الوليد، فهو قد انتقم من بني جذيمة ثاراً لعمه «الفاكه بن المغيرة» الذي قتلته بنو جذيمة مع والد عبد الرحمن بن عوف عند عودتهما في تجارتهما من أرض اليمن، وذلك في أيام الجاهلية. فوجدها خالد بن الوليد فرصة للانتقام، ناسياً أو متناسياً أن الإسلام قد الغى كل مآثر الجاهلية وثاراتها.

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما فعله خالد بن الوليد في بني جذيمة جريمة بشعة ليس لها ما يبررها، وإنها من رواسب الجاهلية، وتجسدت فيها جاهليته التي بقيت ملازمة له في وقائع أخرى مشابهة لهذه الواقعة ولا تقل عنها اجراماً وبشاعة، وهي قصة قتله لمالك بن نويرة وقومه في عصر خلافة أبي بكر^(٤).

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٨٧٦ - ٨٨٠.

(٢) حمش القوم: ساقهم بغضب (القاموس المحيط: ٢ / ٢٧٠).

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٨١ - ٨٨٢.

(٤) الديار بكرى، تاريخ الخميس: ٢ / ٢٠٩.

ونحن نبرأ إلى الله من صنيعه كما تبرأ النبي ﷺ من صنيعه، وحسبه ما يلقاه عند من لا تضيع عنده الحقوق والودائع.

ولا نريد أن نتوقف كثيراً عند أقوال المدافعين عن خالد بن الوليد وتبرير ما فعله، فهو دفاع ليس له ما يبرره، وفيه مجازفة كبيرة في الحكم والتقييم إذ يخرج هذا الدفاع الأمور عن موضوعيتها.

ولا ندري هل أخطأ رسول الله ﷺ عندما غضب على خالد وما فعله وأدان عمله وتبرأ منه؟ وأصاب خالد في اجتهاده وفعلته؟ فإنَّ دفاع هؤلاء الكتاب عن خالد يحمل في طياته هذه المجازفة الخطيرة في التقييم، بالإضافة إلى إدانة الصحابة الذين شجبوا فعل خالد من خلال ما واجهوه به من كلمات، ومنهم من كان حاضراً في هذه السرية وشاهد أحداثها عياناً، فهل نكذب كل هؤلاء ونصدِّق خالداً فيما ادعاه؟!

غزوة حنين^(١) وأسبابها الواقعية

تعتبر غزوة حنين وحصار الطائف، من الأحداث المهمة التي وقعت بعد فتح مكة وفي الأشهر الأخيرة من السنة الثامنة من الهجرة.

وتأتي أهميتها من جهات متعددة يأتي بيانها في نهاية الدرس، ولهذا نجد القرآن الكريم يتحدث عن هذه الغزوة، ويطلب من المسلمين استلهم الدروس والعبر منها، كي لا تأخذهم حالة الغرور الكاذبة مستقبلاً، كما أخذتهم في هذه الغزوة.

١ - قبيلتا هوازن وثقيف وحلفاؤهما تحشدان قواتهما

تعتبر قبيلتا هوازن وثقيف من القبائل الكبرى المتحالفة مع قريش وتشاركها

(١) حُئِن: واد قبل الطائف، بينه وبين مكة ثلاث ليال. والطائف: بلدة ثقيف (انظر معجم البلدان).

في حروبها مع النبي ﷺ كما حصل في غزوة الأحزاب (الخدق)، وكانت بعض التوقعات تشير إلى أن النبي ﷺ قد يبدأ بها قبل فتح مكة بعد أن لم يفصح عند وجهة خروجه .

وكانت هوازن من أكثر القبائل وجلاً أن يكون رسول الله ﷺ قاصدهم في خروجه، ولهذا أرسلوا رجلاً منهم يتحسس لهم الأخبار وقالوا له: «أتت المدينة حتى تلقى محمداً فستخبر لنا ما يُريد في أمر حلفائه» .

وقد أمسك المسلمون في الطريق هذا الرجل وأتوا به إلى رسول الله ﷺ فسأله رسول الله ﷺ: «وأين هوازن؟ قال: تركتهم ببَقعاء وقد جمعوا الجموع، وأجلبوا العرب، وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم، فتركْتُ ثقيفاً على ساق قد جمَعوا الجموع، وبعثوا إلى الجُرَشِ^(١) في عمل الدِّبابات والمنجنيق، وهم سائرون إلى جَمع هوازن فيكونون جمعاً . فقال رسول الله ﷺ: حسبنا الله ونعم الوكيل . . .»^(٢) .

وحيث كان سكن هاتين القبيلتين على مقربة من مكة وإلى جنوبها الشرقي، فإن أخبار فتح مكة قد وصلتهم بسرعة، فخافوا أن تدور عليهم الدائرة، وأن ينالهم ما نال قريشاً من تبديل الدين، وتهديم الأصنام، ومن ثم الخضوع الكامل لسلطة الإسلام المركزية، وسلب قريش مكانتها وسلطتها بين قبائل العرب .

ولهذا كلّه أخذوا يعيدون استعداداتهم العسكرية السابقة ويحشدون قواهم، ويستعينون بمن حولهم من القبائل، للمبادرة بغزو مكة قبل أن يبدأ رسول الله ﷺ بغزوهم كما كانوا يتوقعون .

(١) الجُرَش: من مخاليف اليمن من جهة مكة (معجم البلدان) .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٠٤ - ٨٠٦ .

روى الواقدي: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة مشيت أشراف هوازن بعضها إلى بعض، وثقيف بعضها إلى بعض، وحشدوا وبغوا وأظهروا أن قالوا: والله ما لاقى محمدٌ قوماً يحسنون القتال، فأجمعوا أمرهم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم، فأجمعت هوازن أمرها وجمعها مالك بن عوف، فاجتمعت هوازن كلها وكان في ثقيف سيدان لها يومئذ: قارب بن الأسود.. والأحمر بن حارث، وهو الذي قادها موالياً ثقيفاً، فأوعبت كلها مع هوازن - وقالوا - نسير معكم ونكون يداً واحدة، فخرجوا معهم... ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب... وجماع الناس، ثقيف وغيرها من هوازن إلى مالك بن عوف النَّضْري»^(١).

فسبب هذه الغزوة كما في روايات المؤرخين هو بغى القبيلتين هوازن وثقيف وتحشدها لضرب المسلمين، وما كان لرسول الله ﷺ أن يترك مكة وأهلها بعد أن فتحها ودخل أهلها في الإسلام عرضة للمخاطر المحيطة بها، فكان ولا بد من ضرب هذه القبائل المتحشدة قبل أن تبادر بمهاجمة مكة.

إلا أنه يبقى الهدف الواقعي من هذه الغزوة والذي لم يُشر إليه المؤرخون هو «أن رسول الله ﷺ وبعد فتح مكة كان يريد أن يقضي على كل ما تبقى في الجزيرة العربية من مظاهر الشرك والوثنية، وتوحيد هذه القبائل ضمن الدولة الإسلامية التي يظللها الإسلام، وكانت قبيلتا هوازن وثقيف تمثلان الثقل الأكبر لهذه القبائل، وكانت الطائف من أخصب بقاع الجزيرة العربية، ومقر عبادة «اللات»، أكبر أصنام العرب بعد هُبل»^(٢).

ولهذا كانت الفرصة مؤاتية لضرب هاتين القبيلتين حيث لا زال المسلمون يعيشون نشوة انتصار فتح مكة، وقوات المسلمين الذين فتحوا مكة لا زالوا على

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٨٨٥ - ٨٨٦، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٣٧، وابن سعد،

الطبقات: ٢ / ٣٢٤.

(٢) الكلبي - أبو المنذر هشام ابن محمد، الأصنام: ١٦، تحقيق: أحمد زكي باشا.

استعدادهم القتالي وهم عشرة آلاف مقاتل ، ولم يخوضوا حرباً تذكر في مكة ،
بالإضافة إلى ما ينضم إليهم من مسلمة ما بعد الفتح من قريش ، بالإضافة إلى هذا
كله قرب منطقة الطائف من مكة . . كل هذه الأمور قد حفزت رسول الله ﷺ
لغزو الطائف قبل أن يعود إلى المدينة بعد فتح مكة .

قيادة هوازن وثقيف

أعطيت زمام قيادة القبيلتين إلى مالك بن عوف النَّضري ، «وهو يومئذ ابن
ثلاثين سنة ، وكان سيِّداً فيها ، وكان مُسْبِلًا^(١) يفعل في ماله ويحمد»^(٢) .

إلا أن هذا القائد رغم عفوان الشباب الذي كان يتمتع به ، بالإضافة إلى قوة
الإرادة ومضاء العزيمة والشجاعة ، والكرم . . إلا أنه لم يكن في مستوى القائد
الحكيم الذي يصدر عن رأي ، أو يأخذ بمشورة ، فكان مغروراً يسبل ثيابه كبراً
واختيالا ، وكان سقيم الرأي سيء المشورة !

ويدل على سوء رأيه وسفهه هو ما أقدم عليه من أمر افراد القبيلتين
باصطحاب أموالهم ونسائهم وأطفالهم إلى المعركة ، حتى يشعر كل رجل منهم
وهو يقاتل أن وراءه ما يجب القتال من أجله والدفاع عنه ! وعندما أُعترض عليه
أصر على رأيه بطريقة عجيبة تحدثنا عنها الرواية التاريخية .

روى الواقدي وابن إسحاق - واللفظ للأول - : «فلما أجمع مالك المسير
بالناس إلى رسول الله ﷺ أمر الناس فجاءوا معهم بأموالهم ونساءهم وأبنائهم
حتى نزلوا بأوطاس^(٣) - وكان - دريد بن الصَّمّة - وهو يومئذ ابن ستين ومائة

(١) المسبل : هو الذي يطول ثيابه ويرسله إلى الأرض إذا مشى .

(٢) الواقدي ، المغازي : ٢ : ٨٨٥ .

(٣) أوطاس : ديار هوازن ، وكانت فيه وقعة حنين ، وفيها قال النبي ﷺ : «الآن حمي الوطيس» وذلك
حين استعرت الحرب ، وهي من الكلم التي لم يسبق النبي ﷺ إليها أحد . (انظر : معجم البلدان
لياقوت ، والروض الأنف للسهيلي) .

عورتكم وممكن منكم عدوكم، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم، فانصرفوا واتركوه!

فسل مالك سيفه، ثم نكسه، ثم قال: «يا معشر هوازن، والله لتطيعنني أو لأتكنن على السيف حتى يخرج من ظهري! وكره مالك أن يكون لدريد فيها ذكر ورأي، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: والله لئن عصينا مالكا، وهو شاب يقتل نفسه ونبي مع دريد، شيخ كبير لا قتال فيه. . واجمعوا أمرهم مع مالك. فلما رأى ذلك دريد وإنهم قد خالفوه، قال: هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه:

يـالـيتـنـي فـيـها جـذع أـخـب فـيـها وأـضـع»^(١)

إلا أن دريد بن الصمة لم تنفعه خبرته ولا حكمته وبصيرته بالحرب، إذ كان ينبغي عليه أن ينسحب منها بعد أن رأى من قائدها تعنته واستبداده بالرأي، لكنه اشترك معهم فقتل فيها قتلة ذليلة^(٢).

٢ - النبي ﷺ يستطلع أخبار حشد هوازن وثقيف ويتحرك نحوهما

لقد كان رسول الله ﷺ مسبقاً بأخبار تحركات هوازن وثقيف واستعداداتهم العسكرية للاغارة على مكة، إلا أنه ﷺ أرسل من يستطلع له الخبر مجدداً، ليتأكد من صحة تلك الأخبار، وحجم الاستعدادات عندهم.

قال ابن إسحاق: «ولما سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم. فانطلق ابن أبي حدرد، فدخل فيهم. . حتى سمع وعلم ما أجمعوا عليه من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٨٦ - ٨٨٩، وابن هشام: ٤ / ٤٣٧ وما بعدها .

(٢) انظر خبر مقتله في المصدرين السابقين .

صفوان بن أمية أدرأه له وسلاحاً، فأرسل ﷺ إليه - وهو يومئذ مشرك - فقال: يا أبا أمية: «أعزنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً»، قال صفوان: أغصباً يا محمد؟ قال ﷺ: بل عارية ومضمونه حتى نؤديها إليك. قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح. فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها، ففعل»^(١).

استكمل رسول الله ﷺ استعدادات وتجهيزات قوات المسلمين، واستخلف على مكة من يقوم بأمرها ثم توجه للقاء هوازن في منطقة حنين.

روى الواقدي: «وخرج رسول الله ﷺ في اثني عشر ألفاً من المسلمين، عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفين من أهل مكة، فلما فصل - أي خرج - قال رجل من أصحابه: لو لقينا بني شيبان ما بالينا، ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة! فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾...»^(٢). وعن الزهري عن سعيد بن المسيب، قال: قال أبو بكر: .. يا رسول الله، لا تغلب اليوم من قلة، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾...».

واستعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة، أميراً على من تخلف عنه من الناس، ثم مضى رسول الله ﷺ على وجهه يريد لقاء هوازن»^(٣).

بعض حوادث الطريق إلى حنين

لقد كان من الممكن أن يكتفي رسول الله ﷺ بالعدد الذي خرج معه من المدينة لفتح مكة ولا يُشرك غيرهم في هذه الغزوة، وهو عدد لا يستهان به، إلا

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٤٠، والواقدي، المغازي: ٢ / ٨٩٠.

(٢) التوبة: ٢٥.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٤٠، والواقدي، المغازي: ٢ / ٨٨٩ - ٨٩٠.

كفّار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء يقال لها: «ذات أنواط» يأتونها كلّ سنة، فيعلّقون أسلحتهم عليها، ويذبّحون عندها، ويعكفون عليها يوماً.

قال: رأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سِدْرَةَ خُضْرَاءَ عَظِيمَةً، قال: فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط!

قال رسول الله ﷺ: الله أكبر، قلتُم، والذي نفس محمد بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ^(١).

فهذه الحادثة تكشف لنا عن عقلية وثنية جاهلية لا زالت رواسبها باقية في عقول ووجدان بعض المسلمين، إذ إنهم هم الذين اقترحوا ذلك وليس من خرج معهم من المشركين! فهم ليسوا بحاجة إلى مثل هكذا اقتراح! ولا تفصح لنا الرواية تفاصيل كثيرة عن هؤلاء المسلمين الذين اقترحوا أن تكون لهم ذات أنواط، هل إنهم من مسلمي ما بعد الفتح؟ أم شاركهم في ذلك بعض المهاجرين والأنصار؟

وهناك قضية أخرى يذكرها الواقدي في سياق أحداث الطريق إلى حنين، ومحصلها: أن رسول الله ﷺ نزل في الطريق تحت شجرة ليستريح، وعلّق سيفه وقوسه، يقول أبو بردة: فما أفرعني إلاّ صوته: يا أبا بردة! فقلت: لبيك! فأقبلت سريعاً، فإذا رسول الله جالس وعنده رجل جالس، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا الرجل جاء وأنا نائم، فسل سيفي ثم قام به على رأسي ففزعت منه، وهو يقول: يا محمد، من يؤمنك مني اليوم؟ قلت: الله.. قال أبو بردة: فوثبت إلى سيفي فسللته، فقال رسول الله ﷺ: شم سيفك - أي أغمدته - قال: قلت: يا رسول

الله، دعني اضرب عُقْ عدوَّ الله، فإنَّ هذا من عيون المشركين، فقال لي: اسكت يا أبا بُردة. قال: فما قال له رسول الله ﷺ شيئاً ولا عاقبه.. فقال ﷺ: يا أبا بردة، إنَّ الله مانعي وحافظي حتى يظهر دينه على الدين كله^(١).

وهذه القصة قد ذكرت من قبل المؤرخين في أكثر من غزوة! ومن المستبعد تكرارها بنفس الحيشية في هذه الغزوات، فقد تكون قصة واحدة وقعت في غزوة من غزواته ﷺ، نسبها بعض المؤرخين إلى هذه الغزوة، ونسبها بعضهم إلى غيرها. وسوف يأتينا محاولة أخرى لاغتيال رسول الله ﷺ في أثناء المعركة.

٣ - هوازن وثقيف تحشدان قواتهما في وادي حنين وتباغتان المسلمين

الذي يبدو من خلال النصوص التاريخية أنَّ مالكا بن عوف النضري قائد ثقيف وهوازن في معركة حنين قد وضع خطة عسكرية محكمة لمباغطة المسلمين وأخذهم على غُرة بعد محاصرتهم في وادي حنين! فبعد أن شجع أصحابه ووجههم بقوله: «إنَّ محمداً لم يُقاتل قطّ، قبل هذه المرّة، وإنما كان يلقي قوماً أغماراً لا عِلْمَ لهم بالحرب فيُنصر عليهم! فإذا كان في السَّحر فصُّقُوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم، ثمَّ صُفُّوا صفوفكم، ثمَّ تكون الحملة منكم، واكسروا جُفون^(٢) سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسور الجفن، واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أنَّ الغلبة لمن حمل أولاً! فلما وعى ذلك عبد الله ابن أبي حَدرد رجع إلى النبي ﷺ فأخبر بكل ما سمع^(٣).

وهذا المقدار من المعلومات العسكرية والخطة التي وضعها ابن عوف نقلها أبي حدرد حرفياً إلى النبي ﷺ إلا أنَّ ابن عوف استكمل ذلك بوضع خطة

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٩٢ .

(٢) جفون، جمع جفن: وهو غمدُ السيف (القاموس المحيط) .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٩٣ .

عسكرية ميدانية لم يطلع عليها ابن حدرد وتتلخص خطته الميدانية كما في رواية الواقدي، قال: «ولما كان من الليل عمَد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم في وادي حنين - وهو وادي أجوف، ذو شعاب ومضايق - وفرّق الناس فيه، وأوعز إلى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة»^(١).

وهكذا استكمل مالك بن عوف خطته العسكرية من خلال تعبئة قواته المقاتلة أولاً، ثم احتلال هضاب الوادي ومضايقه قبل دخول المسلمين إليه مستفيدين من ظلام الليل ثانياً.

وكان رسول الله ﷺ قد: «عبأ أصحابه وصفّهم صفوفاً في السّحر، ووضع الألوية والرايات في أهلها. . وكان رسول الله ﷺ قد قدّم سُلَيْمًا من يوم خرج من مكّة مقدّمة الخيل، واستعمل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فلم يزل على مقدّمته حتى ورد الجعرانة. وانحدر رسول الله ﷺ بأصحابه، وقد مضت مقدّمته، وهو على تعبئته في وادي حنين. فانحدر رسول الله ﷺ انحذاراً - وهو وادٍ حدور^(٢) - وركب رسول الله ﷺ بغلته البيضاء. . ولبس درعين والمِغْفَر والبيضة، واستقبل الصُّفوف، وطاف عليها بعضها خلف بعض ينحدرون في الوادي، فحضّهم على القتال وبشّره بالفتح إن صدقوا وصبروا، وهم على ذلك ينحدرون في غَلَس^(٣) الصبح»^(٤).

٤ - هزيمة جيش المسلمين وانسحابهم من أرض المعركة

نجحت خطة مالك بن عوف الميدانية في انزال الهزيمة في جيش المسلمين

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٨٩٥ .

(٢) الحدور: المكان ينحدر منه (لسان العرب) .

(٣) الغلس: ظلمة آخر الليل (النهاية لابن الأثير)، وفي رواية ابن إسحاق: عماية الصبح: أي ظلامه قبل ان يتبين .

(٤) الواقدي، المغازي: ٢ / ٨٩٥ - ٨٩٧ .

هوازن ثم يقوموا بهجوم معاكس ، وإنما انهزموا من أول وهلة وجرفت خيولهم أمامها قوات المسلمين التي خلفها .

يقول أحد الباحثين في الاستراتيجية العسكرية - وهو يستعرض سبب هزيمة المسلمين في الجولة الأولى يوم حنين - : «إن واجب (المقدمة) المهم هو حماية (القسم الأكبر) - من الجيش - والحصول على المعلومات عن العدو حتى لا تباغت قوات (القسم الأكبر) .

ولم تنجز مقدمة المسلمين هذا الواجب أبداً ، فهي لم تستطع معرفة مواضع المشركين التي احتلوها في وادي حنين ، واندفعت المقدمة بسرعة على غير هدى وبصيرة ، واندفعت وراءها قوات المسلمين لاعتقادها أن اندفاعها هذا أمين وغير خطر ، إذ لو كان هنالك خطر لما اندفعت المقدمة أو لاستطاعت القضاء عليه !

ثمّ يضيف : إن من أهم أسباب هزيمة المسلمين في الصفحة الأولى من معركة حنين هو : عدم قيام مقدمتهم بواجبها ، فلم تحصل على المعلومات عن مواضع العدو ، ولم تمنع مباغته العدو للقسم الأكبر .

وبذلك اخفقت مقدمة المسلمين يوم حنين في واجبها إخفاقاً ذريعاً ، على الرغم من أنها كانت بقيادة خالد بن الوليد^(١) .

هذه هي أهم أسباب هزيمة المسلمين في الجولة الأولى من معركة حنين ، إلى جانب السبب النفسي المعنوي الذي كان يتمثل في حالة الزهو والغرور الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾^(٢) .

(١) خطاب ، الرسول القائد : ٣٨٣ .

(٢) التوبة : ٢٥ .

ومهما يكن من أمر، فإن هزيمة المسلمين في هذه الجولة من المعركة كانت قاسية جداً، جعلت بعض مسلمة ما بعد الفتح وبعض المشركين ممن خرج مع النبي ﷺ في هذه الغزوة يظهرون فرحتهم واغترابهم بالأمر، وشماتتهم وتشفيهم من المسلمين.

قال ابن إسحاق: «فلما انهزم الناس، رأى من كان مع رسول الله ﷺ من جُفَاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضَّعْف، فقال أبو سفيان ابن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! وصرخ «جَبَلَة» أو كلدة بن حنبل: «ألا بطل السَّحر اليوم»!

وفي رواية الواقدي: وقال سهيل بن عمرو: لا يجتبرُها^(١)، محمد وأصحابه...»^(٢)!

٥ - ثبات النبي ﷺ وانقلاب الهزيمة إلى نصر

لقد كانت هزيمة المسلمين في الجولة الأولى من معركة حنين، هزيمة واسعة وشاملة وصلت ببعضهم إلى مشارف مدينة مكة! ففي رواية الواقدي عَمَّن حدثه عن أم عُمَارِذ: «... فوالله ما رأيتُ هزيمةً كانت مثلها، ذهبوا في كُلِّ جهة، وكان المسلمون قد بلغ أقصى هزيمتهم مَكَّة، ثم كَرَّوا بعد وتراجعوا...»^(٣).

وإذا علمنا أن حنين بينها وبين مكة مسير ثلاث ليال، فمن البعيد أن يكون هؤلاء المنهزمون عادوا إلى أرض المعركة بعد هزيمتهم!

وقد نقل ابن إسحاق جملة من الروايات الحاكية لهذه الهزيمة، ونجد

(١) أي اصابته مصيبة لا مجبر لها أو منها (لسان العرب).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٤٣ - ٤٤٤، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩١٠.

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٠٢ - ٩٠٣.

الروايات الأكثر تفصيلاً عند الواقدي في مغازيه، وكذلك نجدها عند غيرهما من المؤرخين وكتاب السيرة.

ولا نريد أن نتوقف كثيراً عند هذه الهزيمة وأسماء من انهزم منهم بعد أن أشرنا إلى بعض أسبابها، والمهم أن نتوقف عند موقف الرسول القائد ﷺ في معالجة هذا الموقف الحرج الذي أشبه - في بعض ملابساته - واقعة معركة أحد في جولتها الأولى، حيث انهزم المسلمون وثبت رسول الله ﷺ مع ثلة من أهل بيته وأصحابه.

وهنا أيضاً ثبت رسول الله ﷺ مع ثلة من أهل بيته وأصحابه، واستطاع - وبحكمة قيادية عالية - أن يجمع بعض هذا الشتات المنهزم، ليحوّل بهم الهزيمة إلى نصر كبير.

وفي رواية مقتضبة يرويه الواقدي عن أنس بن مالك، قال: «فسمعت رسول الله ﷺ - والتفت عن يمينه ويساره والناس منهزمون - وهو يقول: «يا أنصار الله، وأنصار رسوله! أنا عبد الله ورسوله صابر» قال - أنس - : ثمّ تقدم بحربته أمام الناس، فوالذي بعثه بالحق، ما ضربنا بسيف ولا طعنًا برمح حتى هزمهم الله، ثمّ رجع النبي ﷺ إلى العسكر وأمر أن يُقتل من قُدر عليه منهم، وجعلت هوازن تُؤلي، وثاب من انهزم من المسلمين»^(١).

فهذه الرواية على اقتضاها تشير إلى عوامل غيبية تدخلت لتحسم الأمر لصالح المسلمين، والذي تؤيده روايات أخرى تتحدث عن نزول الملائكة لنصرة رسوله ﷺ بعد أن انهزم عنه من انهزم من المسلمين!

إلا أن روايات أخرى تتحدث عن القضية بتفصيل أكثر وأوسع، وتوعز نصر المسلمين إلى ثبات رسول الله ﷺ أولاً، وشجاعة من ثبت معه أو عاد من هزيمته

والتحق برسول الله ﷺ ثانياً، ولا نستبعد تدخل الملائكة في المعركة كعامل معنوي ثالث لهذا النصر بعد الهزيمة .

روى ابن إسحاق عن الزُّهري عن حدثه عن العباس بن عبد المطلب، قال: إني لَمَعَ رسول الله ﷺ آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها^(١)، قال: وكنت امرأً جسيماً شديد الصوت، قال: ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: أين أيها الناس؟ فلم أرَ الناس يلوون على شيء، فقال: يا عباس، اصرخ، يا معشر الأنصار: يا معشر أصحاب السَّمُرَةِ^(٢)، قال: فأجابوا: لبيك، لبيك! قال: فيذهب الرجل ليثني بغيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ دِرْعَه، فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وثرسه، ويقتحم عن بغيره، ويخلى سبيله، فيؤم الصوت، حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة، استقبلوا الناس، فاقتتلوا، وكانت الدَّعْوَى أَوَّلَ ما كانت: يا للأنصار، ثم خلصت أخيراً: يا للخزرج، وكانوا ضُبراً عند الحرب، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مُجْتَلِدِ القوم وهم يجتلدون^(٣) فقال: الآن حَمِي الوطيس!

ثم أخذ بيده من الحصى فرماهم، ثم قال ﷺ: انهزموا، ورب الكعبة! فوالله ما زلت أرى أمرهم مُدبراً وحدهم كليلاً، حتى هزمهم الله .

وروي: «وكان دعاء النبي ﷺ يومئذ حين انكشف الناس عنه ولم يبقَ إلا المائة الصابرة «اللهم، لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان!» قال له جبريل: لقد لَقِنتَ الكلمات التي لَقَّنَ الله موسى يومَ فلق البحر أمامه وفرعون خَلَقَهُ» .

(١) الحكمة: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه، وشجرتها بها: أي ضربتها بلجامها أكفها (القاموس المحيط) .

(٢) السَّمُرَةُ: الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية (النهاية لابن الأثير: ٢ / ١٨١) .

(٣) اجتلد: أي ضرب بالسيف (لسان العرب) .

وفي رواية ابن إسحاق عَمَّنْ حدثه عن جابر بن عبد الله، قال: «... ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رُمح له طويل، أمام هوازن، وهوازن خلفه، إذا أدرك طَعَنَ برمحه، وإذا فاتته الناس رفع رُمحه لمن وراءه فاتَّبِعوه، قال: بينما ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جَمَله يصنع ما يصنع، إذ هوى له عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، ورجل من الأنصار يريدانه، قال: فيأتيه عليّ بن أبي طالب من خلفه، فضربَ عُرقُوبِي الجمل، فوقع على عجزه، ووثب الأنصاري على الرجل، فضربه ضربة أطنَّ قدمه بنصف ساقه، فانجعف عن رحله، قال: واجتلد الناس، فوالله ما رجعت راجعة الناس عن هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى.. عند رسول الله ﷺ»^(١).

وفي رواية الشيخ المفيد في الإرشاد: «وأقبل رجل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية سوداء في رأس رُمح طويل أمام القوم، إذا أدرك ظفراً من المسلمين أكَبَ عليهم، وإذا فاتته الناس رفعه لمن وراءه من المشركين فاتَّبِعوه وهو يرتجز ويقول:

أنا أبو جَـرولَ لا بَـراحَ حَتَّى تُبَيحَ القومَ أو تُباحَ
فصمد له أمير المؤمنين ﷺ فُضِرَ عُجْرُ بَعِيرِهِ فصرعه، ثم ضربه فقَطَرَهُ،
ثم قال:

قد عَلِمَ القومُ لدى الصَّباحِ أَنِّي في الهِجاءِ ذو نِصاح
فكانت هزيمة المشركين بقتل أبي جَـرولَ لعنه الله.

ثم أضاف الشيخ المفيد: «ولما قتل أمير المؤمنين ﷺ أبا جَـرولَ وخُذِلَ القوم لقتله، وضع المسلمون سيوفهم فيهم، وأمير المؤمنين ﷺ يقدّمهم حتى قتل أربعين رجلاً من القوم، ثم كانت الهزيمة والأسر حينئذ»^(٢).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤/ ٤٤٤ - ٤٤٥، وقارن برواية الواقدي في المغازي: ٢ / ٨٩٨ - ٩٠١.

(٢) المفيد، الإرشاد: ١ / ١٤٢ - ١٤٤.

٦ - الهجوم المضاد ومطاردة فلول ثقيف إلى الطائف

اجتمع مع رسول الله ﷺ ذلك العدد الذي تذكره الرواية السابقة، فاستقبل بهم المشركين وصمدوا في مواضعهم حتى فتر هجوم المشركين، وكان النهار قد طلع، وكان المشركون قد تركوا مواضعهم التي كانوا قد احتلوها في الهضاب والجبال المحيطة بوادي (حنين) فأدى صمود المسلمين العنيد إلى إيقاع بعض الخسائر بالمشركين، مما أدى إلى انهيار معنوياتهم وتراجعهم.

«وعندما أخذ عدد المسلمين الصامدين يتزايد، بدأوا بالهجوم المضاد على المشركين، رأت هوازن وثقيف أن المقاومة لا تجديهم نفعاً، وأنهم لا يستطيعون صد هجوم المسلمين، انسحبوا من ميدان المعركة تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين، ولم يكن للمشركين ما يحميهم عند انسحابهم، فانقلب انسحابهم إلى هزيمة»^(١).

وتحدثنا روايات السيرة عن هزيمة هوازن وثقيف وأحلافها بإسهاب وتطويل، يكفيها منها بعض المقاطع التي تسلط الأضواء على هذه الهزيمة النكراء لفلول المشركين.

فتحدثنا بعض روايات الواقدي في المغازي عن الرعب الذي أصاب المشركين في أرض المعركة، وعن نصر الملائكة المعنوي للمسلمين، فتقول: «.. وكان الرعب الذي قذف الله في قلوب المشركين يوم حُنين كوقع الحصى في الطست... وكان مالك بن أوس يحدث عن عدّة شهدوا ذلك اليوم فيقول: لقد رمى رسول الله ﷺ بتلك الكفّ من الحصيات، فما منا أحدٌ إلا يشكو القذى في عينيه، ولقد كنّا نجد في صدورنا خفقاناً كوقع الحصى في الطّساس، ما يهدأ ذلك الخفقان عتاً، ولقد رأينا يومئذ رجالاً بيضاً على خيل بلق، عليهم عمائم حُمر قد أرخواها بين أكتافهم، بين الماء والأرض كتائب كتائب، ما يليقون»^(٢).

(١) خطاب، الرسول القائد: ٣٦٧ (بتصرف).

(٢) يقال، فلان ما يليق شيئاً من سخائه، أي ما يمسك (لسان العرب).

شيئاً، ولا نستطيع أن نقاتلهم من الرعب منهم . . . » .

وفي رواية أخرى له أيضاً عن ربيعة، قال: «حدثني نفرٌ من قومنا حضروا يومئذ - أي يوم حنين في صفوف المشركين - قالوا: كمنا لهم - أي للمسلمين - في المضايق والشعاب، ثم حملنا عليهم حملةً ركبنا أكتافهم حتى انتهينا إلى صاحب بَغلة شهباء - يقصد به رسول الله ﷺ - وحوله بيضٌ حسان الوجوه - فقال - أي رسول الله ﷺ: «شاهت الوجوه، ارجعوا»، فانهزمنا، وركب المسلمون أكتافنا وجعلنا نلتفت وراءنا ننظر إليهم يكدوننا^(١)، فتفرقت جماعتنا في كل وجه، وجعلت الرعدة تسحقنا حتى لحقنا بعلباء بلادنا . . . » .

وروي أيضاً: «قالوا: وهربت ثقيف، فقال شيوخ منهم - أسلموا بعد، كانوا قد حضروا ذلك اليوم - قالوا: ما زال رسول الله ﷺ في طلبنا فيما نرى، ونحن مولون حتى إنَّ الرجل منا ليدخل حصن الطائف وإنه ليظنَّ أنه على أثره، من رُعب الهزيمة»^(٢) .

وأما ابن إسحاق فقد اختصر مرويات هزيمة هوازن وثقيف، ولم يذكر إلا طرفاً منها .

قال ابن إسحاق - عَمَّنْ حدثه - قال: «لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد»^(٣) الأسود، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، لم أشك أنها الملائكة، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم» .

وقال أيضاً: «فلما انهزمت هوازن استحرَّ - أي اشتد - القتل من ثقيف في

(١) يكدوننا: أي يطلبوننا، ووكد فلان أمراً إذا قصدَه وطلبه (النهاية لابن الأثير) .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٠٥ وما بعدها .

(٣) البجاد: كساء مخطط من اكسية العرب . (الصحاح للجوهري) .

بني مالك، فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم، فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة. . وكانت رايتهم مع ذي الخمار - عوف بن ربيع - فلما قُتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قُتل. . ولما بلغ رسول الله ﷺ قتله قال: أبعد الله!

وفي رواية أخرى له، قال: «ولما انهزم المشركون، أتوا الطائف، ومعهم مالك ابن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غيرة من ثقيف، وتبعته خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من الناس، ولم تتبع من سلك الثنايا»^(١).

والذي يبدو من هذه الروايات التاريخية للحادثة أن قائد هوازن وثقيف مالك ابن عوف لم يحسب للهزيمة والانسحاب حساباً الدقيق، إذ لم يدُر في خَلده أن قواته سوف تهزم ويصبح ظهرها مكشوفاً لجيوش المسلمين وعندها يكثر فيهم القتل. . .

ومهما يكن من أمر، ساهمت عوامل كثيرة أشرنا إليها في إنزال الهزيمة في جيش المشركين، فقتل منهم من قُتل وفرّ منهم منهزماً الكثير، تاركين وراءهم أموالهم ونساءهم وذرايرهم، وهي أموال عظيمة لم يغنم مثلها المسلمون في غزواتهم.

وهكذا قضت هذه الغزوة على غرور قائدهم إذ «خرج مالك بن عوف بعد الهزيمة، فوقف في فوارس من قومه، على ثنية من الطريق، وقال لأصحابه: قفوا حتى تمضي ضعفاؤكم، وتلحق أخراكم، فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس»^(٢).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٤٩ - ٤٥٣، وقارن برواية الواقدي: ٢ / ٩٠٥ .

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ٤٥٥ .

وبعد أن انسحب مالك بن عوف بالمنهزمين من قبيلتي هوازن وثقيف، ودخلت منهم أرض المعركة، وبقيت بعدهم نساؤهم وذرايرهم وأموالهم ونعمهم. . «أمر رسول الله ﷺ بالغنائم تجمع، ونادى مناديه: مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يَغْل! وجعل الناس غنائمهم في موضع حتى استعمل رسول الله ﷺ عليها».

وفي رواية ابن إسحاق: «ثم جُمعت إلى رسول الله ﷺ سبايا حنين وأموالها، وكان على المغانم مسعود بن عمرو الغفاري، وأمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال إلى الجعرانة، فحبست بها»^(١).

وهكذا انتهت معركة حنين، وانتهى الأمر بفلول المشركين إلى الطائف وحصونهم، ولاحقهم رسول الله ﷺ إلى الطائف وحاصروهم بها كما سوف يأتي لاحقاً.

٧ - محاولة اغتيال رسول الله ﷺ

ذكر المؤرخون وكتاب السيرة عدّة محاولات لاغتيال رسول الله ﷺ نذكرها - باختصار - قبل بيان ما جرى في حصار الطائف، وقد ذكرنا ضمن حوادث الطريق أحد هذا الحوادث وعلقنا عليها بما يناسبها.

أما الحادثة الثانية فهي ما ذكرها كل من ابن إسحاق، والواقدي وغيرهما، وجاء في مروياتهم:

ففي رواية ابن إسحاق: «وقال شيبه بن عثمان بن أبي طلحة، أخو بني عبدالدار: اليوم أدرك ثأري من محمد! - وكان أبوه قُتل يوم أحد - اليوم أقتل محمداً، قال: فأدرت برسول الله ﷺ لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي، فلم

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٥٤ - ٤٥٩ .

أطق ذاك، وعلمت أنه ممنوع مني».

وفي رواية الواقدي: «وكان شيبه بن عثمان بن أبي طلحة قد تعاهد هو وصفوان ابن أمية حين وجه رسول الله ﷺ إلى حُنين. . إن رأيا على رسول الله ﷺ دائرة أن يكونا عليه، وهما خلفه! قال شيبه: لقد هممتُ بقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذلك، وعلمت أنه ممنوع مني وأيقنت بالإسلام!»

قال الواقدي: «وقد سمعت في قصة شيبه وجهاً آخر، كان شيبه بن عثمان يقول: لَمَّا رَأَيْتُ رسولَ الله ﷺ غزاً مَكَّةَ فظفر بها وخرج إلى هوازن، قلت: أخرج لعلِّي أدرك ثأري! . . فلما انهزم أصحابه جئته عن يمينه، فإذا العباس قائم. . فقلت: عمُّه لن يخذله! ثم جئته عن يساره فإذا بأبي سفيان - ابن الحارث - ابن عمِّه، فقلت: ابن عمِّه لن يخذله! فجئته من خلفه فلم يبق إلا أسوره بالسيف، إذ رُفِعَ ما بيني وبينه شواظ من نار كأنه البرق، وخفْتُ أن يَمَحْشَنِي^(١)، ووضعت يدي على بصري ومشيت القَهْقَرَى. والتفت إلي فقال: يا شَيْب، ادنْ مِنِّي! فوضع يده على صدري وقال: اللهم أذهب عنه الشيطان! قال: فرفعت إليه رأسي وهو أحب إلي من سمعي وبصري وقلبي! ثم قال: يا شَيْب، قاتل الكفَّار! فقال: فتقدمت بين يديه أحب والله أقيه بنفسي وبكل شيء، فلَمَّا انهزمت هوازن رجع إلى منزله، ودخلتُ عليه فقال: الحمد لله الذي أراد بك خيراً ممَّا أردت، ثم حدَّثني بما هممت به»^(٢).

وهذه الروايات، بحسب حيثياتها والتفاصيل الواردة فيها تشابه - إلى حد ما - حادثة أخرى وقعت عند فتح مكة وكان بطلها هناك شخص آخر يدعى «فضالة ابن عُمير. .» الذي أراد قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح،

(١) سورة: أي علاه، والشواظ: اللهب الذي لا دخان له، ويمحشني: أي يحرقني .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٤٤، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٠٩ - ٩١٠ .

فلما دنا من رسول الله ﷺ قال له: أفضالة؟ قال: نعم فُضالة يا رسول الله! قال ﷺ: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء! كنت أذكر الله، قال: فَضحك النبي ثم قال:

إِسْتَعْفِرَ الله، ثم وضع يده على صدره، فيسكن قلبه. فكان فضالة يقول: «والله ما رفع يده عن صدري حتى ما مِنْ خَلَقَ اللهُ شيء أحبَّ إليّ منه..»^(١).

وتعدد محاولات اغتيال النبي ﷺ وإن كان ممكناً في نفسه، إذ كان رسول الله ﷺ في سفراته وتحركاته مكشوف أمام الناس، ولم يتخذ لنفسه الحراسة الخاصة والجهاز الأمني الخاص كما يتخذه في أيامنا هذه الحكام والملوك والجبابرة.. فمن الطبيعي أن يراه الأعداء، فيدور في خلداهم إغتنام الفرصة للانتقام منه وقتله، ويزين لهم الشيطان ذلك.. كل هذا ممكن في نفسه وله ما يبرره.

إلا أن تشابه هذه الحوادث بنفس حيثياتها وفي أكثر من غزوة، وكون الراوي هو بطل الحادثة نفسه، ويذكر لنفسه الكرامات والفضائل.. تجعلنا نتحفظ عليها وعلى أمثالها من الروايات، بل قد تسقط هذه الروايات عن درجة الاعتبار، وإن كان فيها بعض العبر والدلالات!

٨ - تحصن ثقيف وهوازن في الطائف وحصار المسلمين لهم

تعتبر عملية حصار المسلمين لمدينة الطائف وحصونها امتداداً لغزوة حُنين، إلا أن المؤرخين ذكروها تحت عنوان: «ذكر غزوة الطائف بعد حُنين» أو «شأن غزوة الطائف»^(٢).

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٤١٧ .

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٧٨، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٢٢ .

قال ابن إسحاق: «ولما قَدِمَ قُلٌّ^(١) ثَقِيفَ الطَّائِفِ، أَغْلَقُوا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ مَدِينَتِهَا، وَصَنَعُوا الصَّنَائِعَ لِلْقِتَالِ».

وفي رواية الواقدي: «ومضى رسول الله ﷺ إلى الطائف، وكانت ثقيف قد رمُوا حصنهم، ودخلوا فيه منهزمين من أوطاس وأغلقوا عليهم - وهو حصن على مدينتهم له بابان - وصنعوا الصنائع للقتال وتهيأوا، وأدخلوا حصنهم ما يُصلحهم لسنة لو حُصروا...»^(٢).

لم يقع عند حصن الطائف قتال يُذكر، وإنما كانت هنالك مناوشات خفيفة ورمي بالسهم الذي أصاب بعض المسلمين فاستشهد به بعضهم وجرح آخرون، واستعمل بعض السلاح الجديد الذي يتناسب مع فتح الحصون كالمنجنيق والدبابات على ما ذكره المؤرخون.

وما ذكره ابن إسحاق والواقدي - بعد حذف الزوائد والجزئيات التي لا تمت إلى الواقعة بصلة - يمكن تخليصه بما يلي:

قال ابن إسحاق والواقدي - واللفظ للأول - : «ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف، فضرب به عسكره، فقتل به ناس من أصحابه بالنبل، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف، فكانت النبل تنالهم، ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم - لأنهم - أغلقوه دونهم، فلما أصيب أولئك التفر من أصحابه بالنبل وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم، فحاصروهم بضعاً وعشرين ليلة.

قال ابن هشام: ويقال سبع عشرة ليلة».

(١) القُل: الجماعة المنهزمون من الجيش .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٧٨، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٢٤ .

وفي رواية ابن سعد: «فحاصرهم ثمانية عشرة ليلة».

وفي رواية الواقدي: «وقد اختلف علينا في حصاره - أي الطائف - فقال قائل: ثمانية عشر يوماً، وقال قائل: تسعة عشر يوماً، وقال قائل: خمسة عشر يوماً».

قال ابن إسحاق: «فحاصرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم قتالا شديداً، وتراموا بالنبل».

قال ابن هشام: «ورماهم رسول الله ﷺ بالمنجنيق، حدثني من أثق به، أن رسول الله ﷺ أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق، رمى به أهل الطائف».

قال ابن إسحاق: «حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف، دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابه، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سيكك الحديد محمية بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل، فقتلوا منهم رجالاً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنان ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون».

وفي رواية الواقدي: «وشاور رسول الله ﷺ أصحابه، فقال له سلمان الفارسي: يا رسول الله ﷺ أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم، فإننا كنا بأرض فارس نصب المنجنيقات على الحصون وتنصب علينا، فنصيب من عدونا ويصيب منا بالمنجنيق، وإن لم يكن المنجنيق طال الثواء. فأمر رسول الله ﷺ بعمل منجنيقاً بيده، فنصبه على حصن الطائف. ويقال: قدم بالمنجنيق يزيد بن زمعة ودبابتين. ودخل المسلمون تحت الدبابه، وهي من جلود البقر - وذلك يوم يقال له: «الشدخة» قيل: وما الشدخة؟ قال: ما قُتل من المسلمين - دخلوا تحتها، ثم زحفوا بها إلى جدار الحصن ليحفره، فأرسلت عليهم ثقيف سيكك الحديد المحمية بالنار فاحرقت الدبابه، فخرج المسلمون من تحتها وقد أصيب

منهم مَنْ أصيب، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتل منهم رجالاً» .

وروى الواقدي: «ونادى منادي رسول الله ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حُرٌّ، فخرج من الحصن رجال، بضعة عشر رجلاً . . وكلُّ هؤلاء أعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كلَّ رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمله . .

وأمرهم رسول الله ﷺ أن يقرؤوهم القرآن ويعلموهم السنن .

فلما أسلمت ثقيف تكلمت أشرافهم في هؤلاء المُعتقين . . يردّوهم في الرّق، فقال رسول الله ﷺ: أولئك عُتقاء الله، لا سبيل إليهم!» .

وينقل لنا الواقدي وابن هشام بعض الروايات الأخرى التي تناولت أموراً جانبية قام بها بعض الأفراد ممن كان في جيش المسلمين، نذكر منها قصة الأحمق المطاع «عينه بن حصن» كما سماه رسول الله ﷺ!

روى الواقدي قال: «وقال عيينة: يا رسول الله، ائذن لي حتى آتي حصن الطائف فأكلّمهم، فأذن له، فجاءه . . فدخل عليهم الحصن، فقال: فداؤكم أبي وأمي! والله لقد سرّني ما رأيّت منكم، والله لو أنّ في العرب أحداً غيركم! والله ما لاقى محمداً مثلكم قطّ، ولقد ملّ المقام، فاثبتوا في حصنكم، فإنّ حصنكم حصين، وسلاحكم كثير، ومأواكم واتن^(١)، لا تخافون قطعه! . . فلما رجع إلى النبي ﷺ قال له: ما قلت لهم؟

قال: قلت - لهم - ادخلوا في الإسلام، والله لا يبرح محمّد عُقر داركم حتى تنزلوا، فخذوا لأنفسكم أماناً قد نزل بساحة أهل الحصون قبلكم، قينقاع، والنضير، وقريظة، وخيبر، أهل الحلقة والعُدة والأطام فخذلتهم ما استطعت!!

ورسول الله ﷺ ساكت عنه ، حتى إذا فرغ من حديثه ، قال له رسول الله ﷺ : كذبت ! قلت لهم كذا وكذا ! قال عيينة : استغفر الله !

ولهذا الرجل قصة أخرى برواية ابن إسحاق حيث كان يمدح فيها المشركين لامتناعهم من رسول الله ﷺ ، وعندما «قال له رجل من المسلمين : قاتلك الله يا عيينة ، أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ، وقد جئت تنصر رسول الله ﷺ ! قال : إني والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم ، ولكنني أردت أن يفتح محمد الطائف ، فأصيب من ثقيف جارية . . ، لعلها تلد لي رجلاً ، فإن ثقيفاً قوم مناكير»^(١) .

٩ - فكُ حصار الطائف وانسحاب المسلمين

ومهما يكن من أمر ، فإن حصار الطائف امتد زمانه ، فرأى رسول الله ﷺ - بحكمته وبما سده الله به من حسن تدبير - أن ينهي هذا الحصار ، ويأمر جيشه بالرحيل عن الطائف موكلاً أمرها إلى وقت آخر قد لا يحتاج فيه إلى قتال لدخول أهلها في دين الله ، وهذا ما حصل بعد أقل من عام من فك الحصار .

روى الواقدي : «أمر رسول الله ﷺ بالرحيل ، فجعل الناس يضحجون من ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : فاغدوا على القتال ، فغدوا فأصابت المسلمين جراحات .

فقال رسول الله ﷺ : إنا قافلون إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون والنبي ﷺ يضحك .

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه حين أرادوا أن يرحلوا : «قولوا لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده» .

(١) مناكير : أي ذو دهاء وفطنة .

فلَمَّا ارتحلوا واستقلّوا قال ﷺ: «قولوا آتبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون».

ولما ظعن رسول الله ﷺ من الطائف قيل: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف! قال ﷺ: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم». هذا وقد استشهد من المسلمين في حنين أربعة شهداء، وفي الطائف اثنا عشر شهيداً^(١).

أسباب فكّ الحصار عن الطائف

وردت في بعض الروايات الإشارة إلى أن سبب الانسحاب من الطائف وفك الحصار عن ثقيف، يعود إلى أمر غيبي في علم الله سبحانه، ففي رواية أنّ رسول الله قال لخولة بنت حكيم: «وإن كان لم يؤذن لنا في ثقيف» وفي رواية أخرى يقول فيها الراوي: «ولم يؤذن لرسول الله في فتحها» أي الطائف، وهنالك روايات أخرى بنفس المضمون^(٢).

ونحن في الوقت الذي نسلّم بالأُمور الغيبية، وأن الأمر لله سبحانه، وهو الذي يوحى إلى نبيّه ما يشاء، فلعل الحكمة الإلهية اقتضت ارجاء أمر ثقيف إلى وقت آخر.

إلا أنّ هنالك - بحسب الظاهر - أسباباً موضوعيةً دعت رسول الله ﷺ إلى رفع الحصار عن الطائف والانسحاب بالمسلمين والرحيل عنها.

ويمكن إجمال هذه الأسباب بما يلي:

أولاً: قوة حصون الطائف، وشجاعة بني ثقيف وتكديس المواد الغذائية فيها، كل ذلك جعل استسلامها للمسلمين صعباً يحتاج إلى مدة طويلة.

(١) (٢) انظر: الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٢٢ وما بعدها، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٧٨ وما بعدها، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٢٨.

ثانياً: أصبحت الفترة بين ترك المسلمين المدينة في رمضان حتى حصار الطائف، حوالي شهرين تقريباً، وهذه المدة ليست قليلة بالنسبة للمسلمين . . مما جعل بعضهم يرغب في العودة، كما أن الوقت ثمين بالنسبة لرسول الله لتوطيد دعائم الإسلام.

ثالثاً: قرب حلول الشهر الحرام (ذي القعدة)، وما كان رسول الله ﷺ ليقاتل في الأشهر الحرام.

رابعاً: انتشار الإسلام في ثقيف، مما جعل دخول ثقيف في الإسلام أكيداً لا يحتاج إلا إلى الوقت^(١).

وهكذا انتهت صفحة حصار الطائف، وعاد رسول الله ﷺ من حيث أتى من تلك الرحلة المباركة غير مهزوم ولا مغلوب ولا عاجز، ولكنه قادر ومنفذ لحدود الله، غير مقاتل مهاجماً في الشهر الحرام، مراعيّاً الرحم والقربة - التي تنادى بها بعض ثقيف - وأخذاً القوم إلى الإسلام في رفق . . وخرج من بين ظهرانيهم، ليلقى وفد هوازن وثقيف في المدينة بين ظهري المسلمين^(٢).

وسوف نعود لثقيف ووفدها إلى المدينة عند الحديث في الوفود التي قدمت إلى المدينة في السنة التاسعة من الهجرة والتي اصطلح عليها المؤرخون بـ«عام الوفود».

١٠ - توزيع الغنائم وما جرى عندها من اشكالات

لقد كانت غنائم هذه الغزوة من أكبر الغنائم التي غنمها المسلمون، ولعلها تماثل غنائم غزوة خيبر أو أكثر منها.

إلا أن ما جرى عند توزيع هذه الغنائم من أفعال وأقوال واعتراضات من

(١) خطّاب، الرسول القائد: ٣٦٩ - ٣٧٠ (باختصار وتصرف).

(٢) أبو زهرة، خاتم النبیین: ٢ / ١٢٧٢.

بعض الذين شملتهم هذه الغنائم، أو من الذين لم تشملهم، لم يجرِ مثلها في غيرها من الغزوات السابقة!

ولهذا لابد لنا من التوقف عند بعض النصوص التاريخية التي سلطت الأضواء على هذه القضية لنطوي بذلك الفصل الأخير من فصول هذه الغزوة.

روى الواقدي وابن إسحاق: «وكان سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألف بعير، وكانت الغنم لا يدرى عددها، قد قالوا أربعين ألفاً وأقل وأكثر... وكان رسول الله ﷺ قد غنم فضة كثيرة، أربعة آلاف أوقية»^(١).

وفي التفاتة إنسانية من رسول الله ﷺ إتجاه الأسرى في هذه الغزوة ما رواه الواقدي بقوله: «وانتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، والسبي والغنائم بها محبوسة، وقد اتخذ السبي حظائر يستظلون بها من الشمس، فلما نظر رسول الله ﷺ إلى تلك الحضائر سأل عنها فقالوا: يا رسول الله، هذا سبي هوازن استظلوا من الشمس.. فأمر بسر بن سفيان الخزاعي يقدم مكة فيشتري للسبي ثياباً يكسوها، فلا يخرج المرء منهم إلا كاسياً، فاشترى بسر كسوة فكسى السبي كلهم».

وفي التفاتة إنسانية أخرى - وما أكثرها من رسول الرحمة والإنسانية - وفي خصوص الأسرى أيضاً ما ذكره المؤرخون من تأخير توزيع الغنائم تربصاً وانتصاراً لقدوم وفد هوازن - وكان يتوقع قدومهم - «فلما رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة أقام يتربص أن يقدم عليه وفدهم...»^(٢).

إلا أن وفد هوازن قد تأخر، وطال انتظار النبي ﷺ لهم في الجعرانة،

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٤٣ - ٩٤٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٨٨ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٩٤٣ - ٩٤٤ .

والمسلمون والمؤلفة قلوبهم ممن اشترك في حنين والطائف يلحون على النبي ﷺ الحاحاً شديداً، لكي يوزع الغنائم عليهم.

ففي رواية: «فُجِعت الغنائم بين يدي النبي ﷺ، فجاء أبو سفيان بن حرب، وبين يديه الفضة، فقال: يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالا! فتبسّم رسول الله ﷺ. وقال أبو سفيان: أعطني من هذا المال يا رسول الله»^(١).

ثم قدم وفد هوازن، يتقدمهم أبو صرد زهير بن صرد.

إلا أن قدوم هذا الوفد هل كان قبل توزيع السبي والغنائم، أم بعدها؟

الذي ينصّ عليه الواقدي أنّ هذا الوفد قد قدّم على رسول الله ﷺ بعد توزيع الغنائم فتكلم متكلمهم وكان آخر ما قاله لرسول الله ﷺ: «فامنن علينا منّ الله عليك! فقال رسول الله ﷺ: قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قُسم السبي، وجرت فيهم الشّهمان».

أما رواية ابن إسحاق، فالذي يفهم منها أن رسول الله ﷺ لم يوزع الغنائم إلا بعد قدوم وفد هوازن وردّ السبايا إليهم، فيقول: «ولما فرغ رسول الله ﷺ من ردّ سبايا حنين إلى أهلها، ركب، واتبه الناس يقولون: يا رسول الله، اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم...»^(٢).

ويمكن التوفيق والجمع بين الروایتين بأن نقول: إنّ رسول الله ﷺ قد انتظر قدوم وفد هوازن فلما تأخر قدومهم، بدأ بتوزيع السبايا أولاً، ثمّ قدم وفدهم

فطلب رسول الله ﷺ، أو رغب المسلمين في إعادة السبي إليهم، وبعد أن أعاد إليهم السبي، ورحل وفد هوازن وزع على المسلمين والمؤلفة قلوبهم الإبل

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٩٤٤.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٢ / ٩٥٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٩٢.

والغنم والفضة . . .

ومهما يكن من أمر، فسوف نعتد التسلسل الذي ذكره ابن إسحاق في قسمة الغنائم، حيث أعاد رسول الله السبي لوفد هوازن ثم قام بتوزيع الغنائم على المسلمين، ولا نهمل روايات الواقدي التي تزودنا بتفاصيل وتوضيحات قد لا نجدها عند ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق: «ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة . . فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك، فامنن علينا، من الله عليك . . وقام رجل من هوازن، ثم أخذ بني سعد بن بكر، يقال له زهير، يكنى أبا صُرد، فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر، عماتك وخالاتك وحواضنك^(١) اللاتي كنَّ يكفلنك، ولو أنا ملحننا^(٢) للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين.

وفي رواية الواقدي إنه قال:

أَمُننَ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمٍ فَإِنَّكَ الْمَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَدَّخِرُ
أَمُننَ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ عَاقَهَا قَدَرٌ مَمْرُقٌ شَمَلَهَا فِي دَهْرَهَا غَيْرُ
أَمُننَ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا إِذْ فَوْكَ مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَحْضِهَا الدَّرَرُ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ؟»

فقالوا: يا رسول الله، خيّرنا بين أموالنا وأحسابنا، بل تردّ إلينا نساءنا وأبنائنا، فهو أحبُّ إلينا.

(١) حواضنك: يعني اللاتي أرضعن النبي ﷺ، وقد كانت حاضنته من بني سعد بن بكر من هوازن .
(٢) ملحننا: أي أرضعنا، والملح: الرضاع . والحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام من العرب، والنعمان بن المنذر ملك العراق من العرب .

فقال النبي ﷺ لهم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس، فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكُم عند ذلك، وأسأل لكم».

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: «وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم».

فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا! وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا! فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال عباس لبني سليم: وهتُموني^(١).

فقال رسول الله ﷺ: «أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ستُّ فرائض من أول سبي أُصيبه، فردُّوا إلى الناس الناس أبناءهم ونساءهم».

وهكذا - وبحكمة النبي ﷺ وحسن تدبيره للأُمور، ونظرته المستقبلية لقبيلتي هوازن وثقيف - عادت الأسرى من النساء والذرية إلى أهلها، وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «لو كان ثابتاً على أحد من العرب ولاء أو رق لثبت اليوم، ولكن إنما هو إيسار وفدية»^(٢).

أما الغنائم الأخرى من الفضة والإبل والنعم والشاة، فقد وزعت بعد ذلك

(١) وهتُموني: أي أضعفتموني.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٨٨ وما بعدها، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٤٩ و ٩٥٤ وما بعدها.

وبحسب ما اقتضته المصلحة الإلهية في تأليف قلوب من دخل في الإسلام حديثاً، ولم ينل منها من المهاجرين والأنصار أحد شيئاً يذكر.

إلا أنه حصلت عند توزيع هذه الغنائم غلظة وإساءة أدب للنبي ﷺ من بعضهم، وأثرة وطمع وجشع من بعض آخر، ووجد وعتاب من بعض ثالث، استوعب رسول الله ﷺ كل ذلك بسعة صدره، وحلمه الكبير، وحسن خلقه، وتواضعه لله سبحانه.

قال ابن إسحاق: «ولما فرغ رسول الله ﷺ من رد سبايا حنين إلى أهلها، ركب، واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله، اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، حتى الجأؤة إلى شجرة، فاختطف عنه رداءه!»

فقال ﷺ: «أدوا عليّ ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نِعْمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً» ثم قام إلى جنب بعير، فأخذ وبرة من سنامه، فجعلها بين اصبعيه، ثم رفعها، ثم قال: «أيها الناس، والله مالي من فيئكم ولا هذه البرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخييط، فإن الغُلُول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً^(١) يوم القيامة».

قال ابن إسحاق: «وأعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس، يتألفهم ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن كلدة مائة بعير.. وأعطى فلان وفلان..».

وواجه رسول الله ﷺ اعتراضاً وعتاباً من بعضهم، حيث استقلل ما أعطاه رسول الله ﷺ.

(١) الخياط (هنا): الخيط، والمخييط: الإبرة، والغُلُول: الخيانة، والشنار: أقبح العار.

قال ابن إسحاق: «وأعطى عباس بن مرداس أبا عر فسخطها، فعاتب فيها رسول الله ﷺ فقال أبيات من الشعر يعاتب بها رسول الله ﷺ» :

كَانَتْ نِهَابًا تَلَفَيْتُهَا بِكَرِّي عَلَى الْقَوْمِ فِي الْأَجْرِ
فَأَصْبَحَ نَهْبِي وَنَهْبُ الْعُبَيْ دِ بَيْنَ عَيْنَةٍ وَالْأَفْرِ
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تُدْرَاءِ فَلَمْ أُعْطَ شَيْئًا وَلَمْ أُمْنَعِ
أَلَّا أَفَائِلَ أُعْطِيَتْهَا عَدِيدَ قَوَائِمِهَا الْأَرْبَعِ
وَمَا كَانَ حَصْنٌ وَلَا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا به، فاقطعوا عني لسانه، فأعطوه حتى رضي، فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به رسول الله ﷺ»^(١).

وتروى قصة ابن مرداس بشكل آخر في رواية الشيخ المفيد في الإرشاد^(٢).

ووصل الطمع بأحد من المؤلفة قلوبهم وهو «حكيم بن حزام» إلى حد الجشع مما دعا رسول الله ﷺ أن يعظه بموعظة خالدة خلود الدهر والزمان كما يحدث هو عن نفسه فيقول: «سألت رسول الله ﷺ بحنين مائة من الإبل فأعطانيها، ثم سألته مائة فأعطانيها، ثم سألته مائة فأعطانيها، ثم قال رسول الله ﷺ: يا حكيم ابن حزام، إن هذا المال خَصْرَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ بَوْرِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يَبَارِكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ». فكان حكيم يقول: والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً^(٣).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٩٤، والواقدي، المغازي: ٩٤٧/٢.

(٢) المفيد، الإرشاد: ١ / ١٤٦ - ١٤٨.

(٣) لا أرزأ: أي لا آخذ من أحد (النهاية لابن الأثير).

وعندما سُئل رسول الله ﷺ عن عدم اعطاءه جُعيل بن سُراقة الضمري، واعطاءه عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، قال ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده، لجُعيل بن سراقة خيرٌ من طلاع الأرض، كلهم مثل عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، ولكني تألفتُهما لئُسلما، ووكلت جُعيل بن سراقة إلى إسلامه»^(١).

وهناك موقف خشن فض من رجل تميمي سمته الروايات «ذا الخويصرة» واجه رسول الله ﷺ فَاغضبه كثيراً فأجابه رسول الله ﷺ على اعتراضه، ثم أخبر رسول الله ﷺ عما يؤول إليه أمر هذا الرجل ومن على شاكلته.

وفي رواية ابن إسحاق: «... جاء رجل من بني تميم، يقال له ذو الخويصرة، فوقف عليه ﷺ وهو يعطي الناس، فقال: يا محمد، قد رأيتُ ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله ﷺ: أجل، فكيف رأيت؟ فقال: لم أرك عدلت!

فغضب النبي ﷺ، ثم قال: ويحك! إذا لم يكن العدل عندي، فعند من يكون!

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ألا أقتله؟

فقال ﷺ: لا، دَعُهُ فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين، حتى يخرجوا منه كما يخرج السَّهم من الرَّمِيَّة...»^(٢).

وفي رواية الواقدي: «... دَعُهُ، إِنَّ له أصحاباً، يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهم من الرَّمِيَّة، ينظر الرامي في قُذْذِهِ فلا يرى شيئاً، ثم ينظر

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٩٦ .

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ٤٩٦ .

في نصله فلا يرى شيئاً، ثم ينظر في رصافه^(١) فلا يرى شيئاً. قد سبق الفَرْتُ والدَّم، يخرجون على فرقة من المسلمين، رأيتهم أنّ فيهم رجلاً أسود، إحدى يديه مثل ثدي المرأة أو كبضعة تدردر» فكان أبو سعيد - الخدري - يقول: أشهد لسمعتُ علياً يُحدّث هذا الحديث^(٢).

وصدق رسول الله ﷺ فما دارت دورة الزمن حتى خرج هؤلاء الخوارج على وصيّهم أمير المؤمنين ع عليه السلام وخرج معهم ذو الخويصرة، «فقتله أمير المؤمنين في مَنْ قُتل يوم النهروان من الخوارج»^(٣).

وهكذا نجد في رواية يرويهما الواقدي عن عبد الله بن مسعود يقول فيها: سمعت رجلاً من المنافقين يومئذ - ورسول الله ﷺ يُعطي تلك العطايا - وهو يقول: إنها العطايا ما يُراد بها وجه الله! . . فجئت رسول الله فأخبرته، فتغيّر لونه ثم قال: «يرحم الله أخي موسى، قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر»^(٤).

موقف الأنصار من غنائم حُنين

أما الأنصار فكان لهم موقف المعاتب لحرمانهم من الغنائم، ولم يستوعبوا دلائل ما قام به رسول الله ﷺ فسجلوا اعتراضهم وعتابهم شعراً ونشراً، واستوعب رسول الله ﷺ ذلك منهم وأرضاهم بالقول الطيب من دون أن يعطيهم شيئاً من الغنائم.

روى ابن هشام: ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى في قريش وقبائل العرب، ولم يعط الأنصار شيئاً، فقال حسان بن ثابت يعاتبه في ذلك:

(١) القنذ: ريش السهام، والرصاف: عقب يلوي على مدخل النصل فيه . (الصحاح، والنهاية) .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٤٨ - ٩٤٩ .

(٣) المفيد، الإرشاد: ١ / ١٤٨ - ١٤٩ .

(٤) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٤٩ .

وَأَتِ الرَّسُولَ فَقُلْ يَا خَيْرَ مُؤْتَمِنٍ لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا مَا عُدَدَ الْبَشَرُ
عَلَامٌ تُدْعَى سُلَيْمٌ وَهِيَ نَازِحَةٌ قُدَّامَ قَوْمٍ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا
ويروي ابن هشام، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ: «لَمَّا أُعْطِيَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أُعْطِيَ مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قَرِيْشٍ وَفِي قِبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ
فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ
مِنْهُمْ الْقَالَةُ^(١)، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: «لَقَدْ لَقِيَ وَاللَّهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ».

فدخل عليه سعد بن عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ
قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ، لَمَّا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفِيءِ الَّذِي أَصَبْتَ...!
قَالَ ﷺ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا مِنْ
قَوْمِي! قَالَ ﷺ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ... فخرج سعد، فجمع الأنصار... فلما
اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار.

فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا معشر
الأنصار: ما قَالَةٌ بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ، وَجَدَةٌ^(٢)، وَجَدْتُمُوهَا عَلَيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ
ضُلَالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وَعَالَةً^(٣) فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءَ فَأَلْفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ! قَالُوا:
بَلَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ وَأَفْضَلُ.

ثم قال: أَلَا تَجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: بِمَاذَا نَجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
لله وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ. قَالَ ﷺ: أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقَلْتُمْ، فَلِصَدَقْتُمْ
وَلِصَدَقْتُمْ: أَتَيْنَا مُكَذِّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا
فَأَسَيْنَاكَ.

(١) القالة: كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكي البعض عن البعض (النهاية لابن الأثير).
(٢) الجدة والموجدة: العتاب أو الغضب (شرح أبوزر، وصحاح الجوهرى).
(٣) عالة: جمع عائل، وهو الفقير.

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاة^(١) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكُم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً^(٢)، وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال الراوي: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً».

وهناك فقرة مهمة في رواية الواقدي لكلمة رسول الله في الأنصار لم يذكرها ابن هشام جاء فيها: «فسترون بعدي أثره، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فإن موعدكم الحوض، وهو ما بين صنعاء وعُمان، وآيته أكثر من عدد النجوم، اللهم ارحم الأنصار...».

وينبغي أن نستدرك على روايتي ابن إسحاق والواقدي، برواية وردت في الصحيحين عن أنس بن مالك تؤكد أن ما صدر من مقالة عن الأنصار، لم تصدر من الأنصار كلهم، وإنما قالها حديثو السنن منهم، فقد جاء في الرواية أن رسول الله ﷺ - بعد أن جمع الأنصار - قال لهم: «ما حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله! فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس متا حديثه اسنائهم، قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم...»^(٣).

(١) اللعاة: بقلة خضراء ناعمة، شبهه ﷺ بها زهرة الدنيا ونعيمها .

(٢) الشعب: الطريق بين الجبلين .

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٨٨ وما بعدها، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٤٢ وما بعدها (بتلخيص من المصدرين)، وانظر: صحيح البخاري الحديث: ٤٣٣١، وصحيح مسلم الحديث: ١٠٥٩ .

ومهما يكن من أمر فقد عالج رسول الله ﷺ قضية غنائم غزوة حنين، بصبر، وسعة صدر، وحكمة عالية، وموقف كريم، فيه من الدروس والعبر الشيء الكثير نتوقف عندها لاحقاً.

١١ - مصير مالك بن عوف الضمري

تحدثنا عن مالك بن عوف وقيادته لهوازن وثقيف في هذه المعركة، وأشرنا هناك إلى نقاط القوة والضعف في شخصية هذا القائد الشاب، الذي انتهى به المطاف إلى اللجوء إلى حصن الطائف والاختباء بها.

وكان رسول الله ﷺ يقدّر أنّ هذا القائد قد يثار لهزيمته، وقد يكون مصدر متاعب للمسلمين في مكة، وقد يحشد قواته مرة أخرى لغزو المدينة. . كل ذلك مقدر ومحتمل من هذا القائد الذي يتمتع بعنفوان الشباب واندفاعه، بالإضافة إلى تطلعاته للقيادة والأمانة.

هذا ما قدّره رسول الله ﷺ - على ما يبدو - في هذا الرجل، ولهذا عالج رسول الله ﷺ قضية بحكمة عالية ولم يهمله، وإنما أخذه من مكنّ الضعف في شخصيته، فحول هذا الضعف إلى قوة لصالح الإسلام، ووظف تلك الطاقة والحيوية الشبابية لخدمة من أسلم من قومه.

روى الواقدي وابن إسحاق: «وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن، ما فعل مالك ابن عوف؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف.

فقال رسول الله ﷺ: «أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل»، وكان رسول الله ﷺ أمر بحبس أهل مالك بمكة عند عمّتهم أم عبد الله بنت أبي أمية، فقال الوفد: يا رسول الله، أولئك سادتنا وأحببتنا إلينا، فقال ﷺ: «إنما أريد بهم الخير»، - وكان رسول الله ﷺ قد -

وقف مال مالك فلم يجر فيه السهم .

فلما بلغ مالك بن عوف الخبر، وما صنع في قومه، وما وعده رسول الله ﷺ، وأن أهله وماله موقوف، وقد خاف مالك ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال، فيحبسونه، فأمر براحلته فهيئت له، وأمر بفرس له، فأُتي به إلى الطائف، فخرج ليلاً، فجلس على فرسه، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحبس، فركبها، فلحق برسول الله، فأدركه بالجعرانة أو بمكة، فردّ عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحُسن إسلامه، وقال حين أسلم:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله في الناس كُلّهم بمثلِ محمّدٍ أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُدي ومتى تشأُ يُخبركَ عما في غدٍ فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وتلك القبائل: ثُمالة، وسلمة، وفَهَم فكان يُقاتل بهم ثقيفاً، لا يخرج لهم سرحاً إلا أغار عليه، حتى ضيق عليهم...»^(١).

١٢ - عُمره النبي ﷺ وعودته إلى المدينة

بعد أن انتهى رسول الله ﷺ من توزيع الغنائم في الجعرانة لم يبق أمامه إلا العودة إلى المدينة بعد أن طال غيابه عنها، إلا أنه ﷺ وقبل أن يخرج إلى المدينة أتى مكة لأداء مناسك العمرة.

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمراً.. فلما فرغ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة.

واستخلف عتاب بن أسيد على مكة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٤٩١، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٥٤ - ٩٥٦ .

في الدين، ويعلمهم القرآن.

وفي رواية الواقدي: واستعمل رسول الله ﷺ عتّاب بن أسيد على مكة، وخلف معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري يعلمان الناس القرآن والفقه في الدين. وقال - رسول الله ﷺ - لعتّاب: أتدري على من استعملتك؟ قال: الله ورسوله أعلم! قال ﷺ: استعملتك على أهل الله....

وفي شرح المواهب: وكان عمر عتّاب إذ ذاك نحو عشرين سنة.

وقال ابن هشام: لما استعمل النبي ﷺ عتّاب على مكة رزقه كل يوم درهماً، فقام فخطب الناس فقال: أيها الناس، أجاج الله كبد من جاع من درهم، فقد رزقني رسول الله ﷺ درهماً كل يوم، فليست بي حاجة إلى أحد. وقال ابن إسحاق: وقدم رسول الله ﷺ المدينة في بقية ذي القعدة أو في ذي الحجة.

وقال الواقدي: «وقدم رسول الله ﷺ يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة»^(١).

١٣ - الدروس والعبر والعظات

تعتبر غزوة حُنين وما تفرع عنها في حصار الطائف، من الغزوات النادرة التي تجلّت فيها دروس عظيمة وفي جميع مفردات وقائعها وأحداثها، فلا بد لنا من التوقف عند بعضها:

أولاً: تجلّي قانون الأسباب والمسببات في مقابل القلة والكثرة:

لقد كانت غزوة حنين في أعقاب فتح مكة، التي انتصر فيها الإسلام والمسلمون وفتح الله عليهم فيها أغلاق مكة، ومكنهم من نواحي قريش

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٥٠٠، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٥٩، والقسطلاني، المواهب اللدنية: ٣

والمشركين، وأوشكت الجزيرة كلها أن تكون في قبضتهم، وكل هذا حصل ومن دون أن يصيبهم قتل أو جرح أو إسهار في هذا الفتح... ومن هنا دخل العجب إلى نفوسهم، فقال قائلهم: «لن نغلب عن قلة...» وهم يخرجون إلى مقابلة هوازن وثقيف! معتمدين على كثرة عددهم وعدتهم، ومن دون أن يحسبوا لعدوهم حسابه اللازم! فوقع الذي وقع وانهمز الجيش الإسلامي في الجولة الأولى من المعركة، ولولا ثبات رسول الله ﷺ وأهل بيته ثم عودة بعض الأنصار والمهاجرين... لحلت بالإسلام والمسلمين كارثة كبيرة.

والله سبحانه بيّن لرسوله ﷺ وللمسلمين ومنذ غزوة بدر الكبرى، أن للنصر أسبابه ومسبباته، وكذلك للهزيمة والانكسار أسبابها ومسبباتها، وإن الكثرة والقلة ليس لهما دور الحسم في المعركة ف: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَّاذِنِ اللَّهُ﴾^(١)، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٢).

إنما يأتي النصر الإلهي عند ما تتوفر عوامله من الصدق، والإيمان، والتوكل على الله، والثبات والاستقامة والصبر والتقوى...

ولهذا كان رسول الله ﷺ يكرر على مسامع المسلمين في غزواتهم وسراياهم مقولة: «ولكم النصر ما صبرتم».

فإذا كانت وقعة بدر قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئاً في جنب كثرة أعدائهم، إذا كانوا صابرين ومتقين، فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضاً لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين.

وكما نزلت آيات من كتاب الله في تقرير عبرة بدر، كذلك نزلت آيات منه

(١) البقرة: ٢٤٩.

(٢) آل عمران: ١٢٦، والأنفال: ١٠.

أيضاً في تقرير العبرة التي ينبغي أن تؤخذ من حنين^(١). فأنزل الله هذه العظة البليغة في كتابه الكريم:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذْرِبًا ۚ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۖ﴾ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ (٢).

ثانياً: الفرار عند الفرز، والكثرة عند الطمع:

من القضايا التي تثير الانتباه في هذه الغزوة قضية توزيع الغنائم التي لم يقع مثلها في الغزوات والسرايا السابقة والتي كانت فيها غنائم، حيث كانت توزع على المقاتلين ويأخذونها بطيب نفس ومن دون أي اعتراض يذكر.

ولكن في هذه الغزوة نراهم يزدحمون على رسول الله ﷺ حتى ينتزعون منه رداءه! وهم يقولون: أقسم علينا فيئنا! ورسول الله يقول لهم: «ردوا عليّ ردائي.. أيها الناس، والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة، إلاّ الخمس، والخمس مردود إليكم» إنه لموقف عجيب حقاً! وأعجب منه صبر رسول الله ﷺ وحلمه وسعة صدره.

يعلق المرحوم محمد الغزالي على الموقف بقوله: «وهؤلاء الأعراب والطلقاء والرؤساء، ما أغنوا عن الإسلام شيئاً في مآزقه الأولى، بل كانوا هم العقاب الصلدة التي اعترضت مسيله، ولكنهم اليوم - بعدما أعلنوا إسلامهم - يبعون من الرسول أن يفتح عليهم خزائن الدنيا، فحلف لهم إنه لم يستبق منها شيئاً لشخصه، ولو امتلك ملء هذه الأودية ما لا لوزّعه عليهم.

(١) البوطي، فقه السيرة: ٤٢٤ .

(٢) التوبة: ٢٥ - ٢٧ .

والحق أن رسول الله وسع بحلمه وكرمه مسالك بيّنة للطيش والجشع في سبيل تألف هؤلاء الناس . . ولو عاقبهم على جبنهم في «حنين» لنال منهم أي منال .

والعجيب أن هؤلاء الذين فرّوا عند الفزع، هم الذين كثروا عند الطمع، وشاء النبي أن يلطف معهم، وينسى ماضيهم تكرماً وتأليفاً.

وماذا يصنع؟ إن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة «برسيم» تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة! فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهشّ له^(١).

وفيما صنعه رسول الله ﷺ وهديه النبوي في تأليف الناس درس بليغ في الاجتماع السياسي لمن كان يتبغي أن يرتقي سُلّم السياسة مهتدياً بهدي رسول الله ﷺ في سياسته وحسن تدبيره .

ثالثاً: الترفع عن الدنيا، والعلو في الآخرة:

وفي قضية توزيع الغنائم أيضاً نلاحظ موقف الأنصار، الذين لا نتهمهم بسوء الأدب مع رسول الله ﷺ وإنما لم يفهموا الحكمة في الطريقة التي اتبعها رسول الله ﷺ في التقسيم، فلم يستوعبوا أبعادها السياسية إلى المدى البعيد، فظنوا أن هذا الحرمان من الغنائم ضرباً من الإعراض عنهم والإهمال لأمرهم، فانطلقت السنتهم بالعتاب! نعم، عتاب المحب لمن أحب، وقد يكون بعضهم قد تجاوز درجة العتاب الهادئ نتيجة ضغط نفسي أو تحريك خارجي، فوصل إلى درجة «القاله» في عتابه .

وتبقى النفس البشرية وضعفها أمام مغريات الدنيا وزينتها! وتبقى حاجتها

ملحّة إلى من يردعها عن غيها ويستشير فيها نوازع الخير وابتغاء وجه الله والآخِر،
والإيثار بالدنيا وزخرفها من أجل ذلك .

وهكذا كان الأنصار «رضوان الله عليهم» بمجرد أن لامست كلمات رسول
الله ﷺ شغاف قلوبهم، فاضت أعينهم من الدموع حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا:
«رضينا برسول الله قسماً وحظاً» .

فكان في موقف رسول الله ﷺ منهم درساً بليغاً من دروس التربية العالية،
فارتفع بهم إلى مرتبة عالية من مراتب السمو الإنساني، تعلو بهم على المال،
وعلى الجاه، وعلى ما يتكالب عليه الناس من متاع الدنيا .

وكان فيما أخبر به ﷺ الأنصار بما يؤول إليه أمرهم من «أثرة من بعده
ووصيته لهم بالصبر حتى يلقوا الله ورسوله عند الحوض . . .»^(١) من دلائل نبوته
واستشرافه لمستقبل ما تأول الأمور إليه من بعده!

وهنا يتوقف أحد الباحثين في سيرة النبي ﷺ ليعلق على كلام رسول
الله ﷺ في هذا الموقف فيقول:

«والأنصار - في تاريخ الدعوات، مثلُ فريدةٍ للرجال الذين تقوم بهم
الرسالات العظمى، حتى إذا استوت على سوقها، وتجاوزت أيام محنتها
ومؤونتها، وتدلت ثمارها وحلاجاتها، جاءت أيد غير أيديهم فقطفت ما تشتهي،
ولم تكتف بذلك! بل لظمت أيدي الغارسين حتى لا تلتقط من الثمار الساقطة
قليلاً ولا كثيراً! ولا نقول ذلك تعليقاً على توزيع، الغنائم في هذا المقام، فقد
اتضح وجه الرشد في هذه القسمة الحصيفة . . . ولكننا نذكر في مناقب الأنصار،
وافتراض ترفعهم عن الدنيا في سبيل الدين وتأليف الناس عليه، إن شؤون الحكم
ابتعدت عنهم، واحتازها غيرهم وهم لها أكفاء، فلم تمض ثلاثون سنة حتى

كانت في أيدي الطلقاء!! ولا ريبة في أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى، وأن شأن الدنيا أنزل قدرًا من أن يأسى عليه رجل العقيدة.

غير أننا نتساءل: أكان من مصلحة الرسالات نفسها أن تقع هذه الأثر؟ أم كان سوء حظ الإسلام أن يلقي هذا اللون من الحكام، فيقصي أصحاب السبق وأولوا النصرة، ويملك زمام الدين آخر الناس دخولا فيه وبصرًا به^(١).

وما قاله هذا الباحث أصاب به عين الحقيقة، ونقلنا كلامه بطوله لموضوعيته ولا يمكن أن يتهم صاحبه بأنه ينطلق في تشخيصه وتقييمه للأُمور من عقدة مذهبية.

إلا أن ما قاله في الأنصار، ينطبق على رجال آخرين لهم سابقة الإسلام والهجرة والجهاد والبذل والعطاء في سبيل الله، ولهم من المؤهلات الاجتماعية والسياسية والشخصية ما يؤهلهم لتسليم أعلى سلم في مناصب الدولة.. إلا أنهم أبعادوا عنها! وهذا ما نتركه لخدمة التاريخ لكي يحدثنا عن ظلاماتهم.

رابعاً: إنسانية ورحمة وعلو أخلاق الرسول الأكرم:

من الواضح أن رسول الله ﷺ هو رسول الإنسانية، ومظهر لرحمة الله في أرضه، وهو الهادي المهدي الذي أرسله الله سبحانه رحمة للعالمين.

وقد ظهرت لنا - ومن خلال استعراضنا لسيرته العطرة - الكثير من جوانب إنسانيته ورحمته ورأفته حتى مع أعدائه ومحاربيه ومقاتليه، فضلاً عن أصحابه وأنصاره ومحبيه ومؤيديه.

وفي هذه الغزوة بالذات برزت وبوضوح العديد من المواقف الإنسانية التي تجلت فيها مظاهر الرحمة والشفقة والمحبة في أجلى صورها.

(١) الغزالي - محمد، فقه السيرة: ٣٩٦ - ٣٩٧، ودويدار، صور من حياة الرسول: ٥٥٢.

فوجد رسول الله ﷺ يمرُّ في أرض المعركة فيجد الناس قد اجتمعوا ينظرون إلى امرأة من الأعداء قد قتلت فيغضب لهذا المشهد، وتأتي أوامره حازمة صارمة بعد هذا المشهد المؤثر فيطلب من أحد أصحابه أن يدرك خالد بن الوليد ويقول له: «أدرك خالداً فقل له إن رسول الله ينهك أن تقتل وليداً أو امرأة...»^(١).

وعندما رأى ﷺ أن ذرية الأعداء تقتل من قبل المسلمين، قال: «ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية! ألا لا تقتل الذرية! ثلاثاً. فقال له أسيد بن حضير: يا رسول الله، أليس هم أولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «أو ليس خياركم هم أولاد المشركين؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها»^(٢).

ونجده ﷺ يمرّ على أسرى ثقيف وهم في حظيرة يستظلون بها من الشمس، يرقُّ لهم ويطلب على الفور أن تشتري لهم الملابس، وكسوتهم والرفق بهم، وحتى إنه ﷺ يؤخّر توزيع الغنائم كي يفسح المجال أمام أهلهم للوفود إليهم، واستردادهم، وهو ما حصل فعلاً بجهود رسول الله ﷺ النابعة من رحمته بهم، وإنسانيته العالية.

ونجد نفس الأمر في العبيد الذين خرجوا من حصون الطائف، فاعتقهم رسول الله ﷺ وجعلهم من عتقاء الله.

ونلاحظ مشهداً إنسانياً آخر صدر من رسول الله ﷺ بحق أخته في الرضاة - الشيماء - التي كانت مع الأسرى فمجرد أن يتعرف عليها رسول الله ﷺ يسط إليها رداءه ويجلسها عليه، ثم يقبل عليها بوجهه المشرق بأشراق النبوة: «إن أحببت فعندي محبة مكرمة، وإن أحببت إن امتعك وترجعي إلى قومك فعلت؟»

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٤ / ٣٣٧.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٠٥ - ٩١٢.

فتختار العودة إلى قومها، فيكرمها رسول الله ﷺ ويردّها إلى قومها معززة مكرمة.

وأخيرها - وليس آخرها - نجد رحمة رسول الله وإنسانيته لا تقتصر على نساء وذراري، وأسرى ثقيف وهوازن فقط بل تشمل الجميع فيحفهم بدعائه - وهو صاحب الدعوة المستجابة - «اللهم اهدِ ثقيفاً». فهل هناك أعظم بركة من هذا الدعاء المستجاب، فما دار الحول إلا ووفد ثقيف في المدينة تعلن اسلامها. وفي كل مفردة من المفردات التي ذكرناها - وهناك الكثير مما لم نذكره - دروس وعبر وعظات لمن أراد أن يعتبر ويتعظ ويتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ، وخاصة من يريد أن يتسنى القيادة والرئاسة على الأمة.

خامساً: تحذير الأمة من أصحاب الانحرافات الفكرية:

لقد واجه رسول الله ﷺ - عند توزيع الغنائم - الكثير من الاعتراضات، وكان بعضها قد خرج عن حدود اللياقة والأدب مع رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يستوعب كلّ هذه الاعتراضات بحلم وسعة صدر ويذكر نفسه ويذكر المسلمين بما لاقى الأنبياء من قبله من قومهم فيقول: «رحم الله موسى أُوذي بأكثر من هذا فصبر».

إلا أننا نجد في مفردة من مفردات هذه الاعتراضات، أن رسول الله ﷺ يواجه شخصاً تسميه الرواية ب«ذي الخويصرة» فيعترض على رسول الله ﷺ ويقول له بفضاضة وتطاول: «أعدل يا محمد! فيجيبه رسول الله ﷺ: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل...».

فيطلب منه أحد أصحابه - على عادته - أن يقتله! فينهاه رسول الله ﷺ عن ذلك، ويقول له: «معاذ الله أن يتحدث الناس أتّي أقتل أصحابي» فالمعارضة مهما كانت شديدة لا تعالج بالقتل والتصفية الجسدية.

إلا أنه يحذّر المسلمين منه ومن أتباعه مستقبلاً! ليس كشخص يتمثل في

«ذي الخويصرة»، وإنما كخط فكري منحرف له سماته ومفاهيمه ومصطلحاته في داخل الكيان الإسلامي.

فيقول ﷺ: «إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية» وفي نص ثاني: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الإسلام»^(١). بالاضافة إلى روايات أخرى لا تخرج عن اطار العلامات التي ذكرها ﷺ في هاتين الروايتين. وهؤلاء الذين نبه النبي ﷺ أصحابه على خطورة ظهور اتجاههم الفكري بين المسلمين، وبين سماتهم ومعالمهم الشاخصة، أطلق عليهم في التاريخ بـ(الخوارج) أو (المارقين) الذين خرجوا على خلافة علي بن أبي طالب، وأشعلوا فتنة عظيمة بين المسلمين، فقاتلهم الإمام علي عليه السلام وقضى على شوكتهم.

ولهذا يقول راوي حديث رسول الله السابق، أبو سعيد الخدري: «فأشهد أنني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علياً قاتلهم وأنا معه».

وسمات ومعالم هؤلاء الخوارج أو المارقين هو التمسك بالقشور وترك اللباب، فيأخذون من الدين ظواهره ولا يعون مقاصده، فيتمسكون بالظواهر، فنراهم حريصين على أشكال العبادة، ويقرأون القرآن وربما يحفظونه، إلا أنهم لا يتورعون عن تكفير وقتل المسلمين إذ خالفوهم في الرأي، لأنهم - بحسب رأيهم - يمتلكون فهم الدين دون سواهم، والحقيقة المطلقة ملك إرادتهم، فلا وجود للاختلاف والاجتهاد في أدبياتهم، بالاضافة إلى تضيقهم على أنفسهم وعلى الآخرين في أمور الدين، فحولوا يسر الإسلام وسماحته إلى ضيق وتعصب وتشنج، فرفضوا كل مرونة أو رؤية أو اجتهاد يبرز سماحة هذا الدين ويسره واستيعابه.

(١) الرواية الأولى وردت في صحيح مسلم: ٤ / ١١٢، والثانية في البخاري: ٤ / ١٧٩ ومسلم معاً.

وقد ابتليت الأمة الإسلامية بهؤلاء في سالف الزمن، وابتلينا بهم نحن في حاضرنا. فهؤلاء هم سبب مأساتنا، ومأساة الأجيال القادمة وهذا ما نبه عليه رسول الله ﷺ وحذرنا منه. فهل نأخذ من هذا الدرس النبوي ما يحصّن أفكارنا وعقولنا ويحفظ عقيدتنا من الانحراف^(١)؟

سادساً: بدر افتتحت، وبحنين ختمت غزوات الرسول:

لقد كانت غزوة بدر الكبرى فاتحة عهد لغزوات رسول الله ﷺ، واختتمت هذه الغزوات بغزوة حنين، «ولهذا يُقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر، فيقال: بدرٌ وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين»^(٢).

فلم تسجل لرسول الله ﷺ أي غزوة على المشركين من عرب الجزيرة بعد غزوة حنين، وإنما كانت هنالك بعض السرايا إلى جهات من أنحاء الجزيرة بقيادة بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وكانت هنالك غزوة تبوك في السنة التاسعة إلى أرض الروم خارج الجزيرة على ما سوف يأتي.

وما بين بدر وحنين توجد قواسم مشتركة كثيرة، وتوجد أيضاً فوارق أساسية، وفي كل منهما دروس وعبر كثيرة.

«فالملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين، والنبى ﷺ رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما، وبهاتين الغزاتين، أطفئت جمره العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين، فالأولى: خوفتهم وكسرت من حدّهم، والثانية: استفرغت قواهم، واستنفذت سهامهم، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بُداً من الدخول في دين الله»^(٣).

(١) للتوسع في أخبار الخوارج انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، الأجزاء: ١ و ٢ و ٦ و ١٣ .

(٢) ابن قيم، زاد المعاد: ٣ / ٦٤٩ .

(٣) المصدر نفسه: ٣ / ٦٤٩ .

ولا ننسى الدور المشترك الذي قام به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في كلا الغزوتين، حيث قتل صناديد المشركين في بدر من أمثال عتبة وشيبة والوليد، وقتل نصف العدد الذي قتل من المشركين فيها، وفي حنين نجده فارس ميدانها والمدافع الفرد عن رسول الله ﷺ وقاتل صناديد المشركين وقادتهم. . فلله درك يا أبا الحسن وعلى الله أجره.

إلا أنه تبقى فوارق: القلة والكثرة، وعمق الإيمان وعدمه، والثبات والهزيمة، والصدق في الموقف، أمام المخادعة فيه. . تبقى هذه وغيرها فوارق أساسية بين الغزوتين، سجلها القرآن الكريم كتوثيق لكلا الغزوتين:

فقال سبحانه عن غزوة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ...﴾ (١).

وقال سبحانه في غزوة حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

نكتفي بهذا القدر من دروس حنين، وهنالك دروس كثيرة أخرى أشرنا إلى بعضها في ثنايا الدرس، ولم نستطع أن نستوعبها جميعاً.

وبانتهاء هذا الدرس تنتهي أحداث السنة الثامنة من الهجرة - وهي سنة حافلة بالأحداث الكبرى - لنستقبل مع رسول الله ﷺ أحداث السنة التاسعة والذي اصطلح عليه تاريخياً بعام الوفود.

(١) آل عمران: ١٢٣ .

(٢) التوبة: ٢٥ - ٢٦ .

الأسئلة:

- ١ - ما هي أهداف السرايا التي بعثها رسول الله ﷺ وهو في مكة؟ وكيف تقيّم ما فعله خالد بن الوليد ببني جذيمة؟
- ٢ - ما هي الأسباب الواقعية والموضوعية لغزوة حنين؟
- ٣ - كيف استعد رسول الله ﷺ لهذه الغزوة؟ وما هي التدابير العسكرية التي اتخذها قبل الغزوة؟
- ٤ - من هو قائد المشركين في غزوة حنين؟ وكيف حشد قواته لمباغطة المسلمين؟
- ٥ - ما هي عوامل هزيمة المسلمين في الجولة الأولى من غزوة الطائف؟
- ٦ - ما هو الدور الذي قام به النبي ﷺ وأهل بيته في انقلاّب الهزيمة إلى نصر؟
- ٧ - كيف تمّ التخطيط لاغتيال رسول الله ﷺ في الطائف؟ ولماذا فشلت المحاولة؟
- ٨ - كيف تمّ حصار الطائف؟ ولماذا فك رسول الله ﷺ الحصار عنهم بعد ذلك؟
- ٩ - كيف تم توزيع غنائم غزوة حنين؟ وكيف تقيّم الاشكالات التي حصلت عندها؟
- ١٠ - كيف كان موقف الأنصار من توزيع الغنائم؟ وكيف عالج رسول الله ﷺ الموقف معهم؟
- ١١ - ما هو المصير الذي انتهى إليه قائد المشركين في غزوة حنين؟
- ١٢ - ما هي أهم الدروس والعبر والعظات التي نستفيد منها من غزوة حنين وحصار الطائف؟

الدرس السابع والعشرون

أحداث السنة التاسعة من الهجرة

سرايا الدعوة قبل غزوة تبوك

محاوَر البحث

- ١ - مجمل تسلسل أحداث السنة التاسعة
- ٢ - تسلسل الأحداث بحسب سياقها التاريخي :
أولاً : بعث المصدّقين
ثانياً : سرايا الدعوة قبل غزوة تبوك
- ٣ - من أهم هذه السرايا وما جرى فيها من أحداث :
أولاً : سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم
وفد تميم في المدينة
ثانياً : بعثة الوليد بن عُقبة إلى بني المصطلق
ثالثاً : سرية قطبة بن عامر إلى خثعم
رابعاً : سرية الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب
خامساً : سرية علقمة بن مجرّز إلى الحبشة
سادساً : سرية علي بن أبي طالب عليه السلام لهدم «الفلس» صنم طيّء
- ٤ - الدروس والعبر
الأسئلة

سرايا الدعوة قبل غزوة تبوك

١ - مجمل تسلسل أحداث السنة التاسعة

بعد رحلة الفتح المبين ما بين مكة وحنين: «قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الجمعة لثلاث ليال بقين من ذي القعدة»^(١)، لتنتهي بذلك السنة الثامنة من الهجرة بما حققته من انتصارات وفتوحات عظيمة.

ومرحلة ما بعد فتح مكة من المراحل المهمة في تاريخ الدعوة الإسلامية ودولة الإسلام في المدينة. «إذ كان فتح مكة ايذاناً بدخول الجزيرة العربية كلها في حظيرة الإسلام... ومن هنا أخذت أمة الإسلام تتكيف في الجزيرة تكيّفاً دولياً، وتظهر في الوجود كدولة لها المقومات التي تحفظ كيانها، وتضمن سلامتها، وتحميها من كلّ ما يعوق سيرها وتقدمها»^(٢).

لقد كانت مهمة الحفاظ على المكتسبات التي حققها المسلمون خلال سنّي الجهاد التي تتوجت بفتح مكة من المهام الشاقة والثقيلة، ولها تبعاتها المالية والسياسية والعسكرية، وتستوجب الحذر والحيطّة التامة ومراقبة الاوضاع الداخلية والخارجية والتحسب لكلّ طارئ.

ولهذا كانت أمام رسول الله ﷺ جملة من المهام التي لا بد من القيام بأعبائها مع المسلمين، وعلى رأس هذه المهام:

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٧٣ .

(٢) دويدار، صور من حياة الرسول: ٥٥٦ .

أولاً: تطهير الجزيرة من مظاهر الشرك والمشركين والجيوب المتبقية منها، ودعوتهم إلى الإسلام.

ثانياً: توفير الموارد المالية اللازمة للدولة الإسلامية، ومن خلال أخذ الضرائب المالية من المسلمين.

ثالثاً: مراقبة الحدود الدولية للدولة الإسلامية وصد العدوان الخارجي عليها.

رابعاً: استقبال الوافدين على المدينة من القبائل والرؤساء وممثليهم الذين كانوا يفدون لإعلان البيعة.

هذه هي أهم المهام التي لا بد من إنجازها، أو انجاز بعض مراحلها ما بعد فتح مكة.

ولهذا جاء تسلسل أحداث السنة التاسعة من الهجرة والتي عرفت تاريخياً «بعام الوفود» لتضم ثلاثة أحداث رئيسية، إلى جانب بعض الحوادث الجانبية.

وهذه الأحداث - بحسب تسلسلها التاريخي - هي:

أولاً: سرايا الدعوة وبعث المصدقين.

ثانياً: غزوة تبوك.

ثالثاً: وفود البيعة.

وسوف نتحدث عن هذه المحاور الثلاثة بحسب تسلسلها التاريخي.

٢ - تسلسل الأحداث بحسب سياقها التاريخي

أولاً: بعث المصدّقين^(١):

روى الواقدي: «لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - قَدِمَ الْمَدِينَةَ - فَأَقَامَ بَقِيَّةَ ذِي الْقَعْدَةِ وَذِي الْحِجَّةِ، فَلَمَّا رَأَى هَلَالَ الْمَحْرَمِ بَعَثَ الْمَصَدِّقِينَ، فَبَعَثَ بَرِيدَةَ بْنَ الْحُصَيْبِ إِلَى أَسْلَمَ وَغِفَارَ بِصَدَقَتِهِمْ، وَيُقَالُ: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ. وَبَعَثَ عَبَادَ بْنَ بَشَرَ الْأَشْهَلِيَّ إِلَى سَلِيمَ وَمَزِينَةَ، وَبَعَثَ رَافِعَ بْنَ مَكِيثٍ فِي جَهِينَةَ، وَبَعَثَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى فَزَارَةَ، وَبَعَثَ الضَّحَّاكَ بْنَ سَفْيَانَ الْكَلَابِيَّ إِلَى بَنِي كَلَابٍ، وَبَعَثَ بُشَيْرَ بْنَ سَفْيَانَ الْكَعْبِيَّ إِلَى بَنِي كَعْبٍ، وَبَعَثَ ابْنَ اللَّثِييَّةِ الْأَزْدِيَّ إِلَى بَنِي ذُبْيَانَ، وَبَعَثَ رَجُلًا مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ هُذَيْمٍ عَلَى صَدَقَاتِهِمْ»^(٢).

والذي نلاحظه في هذا النص التاريخي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَفْتَتِحُ بِدَايَةِ السَّنَةِ التَّاسِعَةِ بِبَعْثِ الْمَصَدِّقِينَ لَجَبَايَةِ الضَّرَائِبِ الْمَالِيَةِ مِنْ تِلْكَ الْقَبَائِلِ الَّتِي دَخَلَتْ فِي الْإِسْلَامِ، فَكَانَ عَلَيْهِمْ دَفْعُ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ فَرِيضَةَ الزَّكَاةِ قَدْ شَرَعَتْ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فَقَدْ يَكُونُ التَّشْرِيعُ سَابِقًا عَلَيْهَا، إِلَّا أَنَّ اسْتِحْصَالَ هَذِهِ الْأَمْوَالِ لَمْ يَتِمَّ إِلَّا بَعْدَ دُخُولِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ فِي الْإِسْلَامِ، وَتَوْسِعَ رُقْعَةُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَانْتِهَاءُ الْغَزَوَاتِ وَالسَّرَايَا الَّتِي كَانَتْ تَوْمُنُ جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ نَفَقَاتِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ خِلَالِ الْغَنَائِمِ الَّتِي كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَحْصِلُونَ عَلَيْهَا مِنْ هَذِهِ الْغَزَوَاتِ وَالسَّرَايَا.

والملاحظة الثانية في هذا النص: نجد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَبْعَثُ لِكُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلًا مِنْ أَهْلِهَا لاسْتِحْصَالِ صَدَقَاتِهَا، وَهَذَا مَا يَبْدُو لَنَا وَاضِحًا مِنْ خِلَالِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّصُّ التَّارِيخِيُّ وَالْقَبَائِلُ الَّتِي أَرْسَلُوا إِلَيْهَا، وَهِيَ نَفْسُ الْقَبَائِلِ الَّتِي

(١) المصدّق: أي العامل الذي يستوفي الزكاة من أربابها، ويقال له: آخذ الصدقة والمصدّق .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٧٣ .

ينتسبون إليها، فبعث الكلابي إلى بني كلاب، والكعبي إلى بني كعب... ويمثل هذا النص أحد النماذج لما كان عليه رسول الله ﷺ في عمال الصدقة، وهنالك نصوص كثيرة في كتب السنن والتراجم تؤكد هذا المعنى، ففي سنن أبي داود عن حرب بن عبيد الله بن عمير الثقفي عن جده، قال: «أتيت النبي ﷺ فأسلمت، وعلمني الإسلام وعلمني كيف أخذ الصدقة من قومي من أسلم...»^(١).

وترجم ابن حجر في الإصابة، وابن سعد في الطبقات، وغيرهما، لكثير من الصحابة ممن استعملهم رسول الله ﷺ على صدقات قومهم، أو بعثهم مصدقين إلى قبائلهم، ومن نماذج ذلك ما ذكر ابن حجر في الإصابة^(٢): «إنَّ عُدساً وخزيمة وفدا على النبي ﷺ، فولّى خزيمة على الاحلاف، وكتب له:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله لخزيمة بن عاصم: إني بعثتك ساعياً على قومك فلا يضاموا ولا يظلموا»^(٣).

إلا أن هذا لا يعني أن رسول الله ﷺ لم يرسل إلى بعض القبائل من يأخذ صدقاتهم من غير المنتسبين إليها ففي صحيح البخاري عن بريدة أن النبي ﷺ بعث علياً إلى خالد ليقبض الخمس^(٤).

وقال ابن إسحاق: «وبعث - رسول الله ﷺ - علي بن أبي طالب عليه السلام إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم»... ففعل وعاد ولقي النبي ﷺ بمكة في «حجة الوداع»^(٥).

(١) سنن أبي داود، كتاب الخراج والامارة والفيء: باب ٣١ الحديث رقم: ٣٠٤٩.

(٢) انظر: الإصابة لابن حجر، والطبقات لابن سعد، في ترجمة: خزيمة بن عاصم، وقرة بن دعموص النميري.

(٣) المصدر نفسه في ترجمة خزيمة بن عاصم.

(٤) البخاري، كتاب المغازي، رقم الباب: ٦١.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٠ - ٦٠٢.

إلا أنّ في إرسال علي عليه السلام كساعي لجمع الصدقات كلام بين المحدثين نفيًا وإثباتًا، ولهذا يقول الكتاني في التراتيب الإدارية تحت عنوان «تنبيه»: «وقع في قصة حجة الوداع من صحيح مسلم، مقدم علي من سعائته، قال القاضي: أي من عمله في السعي في الصدقات، وقال بعضهم في غير مسلم: إنه بعثه أميراً لا عاملاً، إذ لا يجوز استعمال بني هاشم على الصدقات. وفي النسائي عن البراء: «كنت مع علي حين أمره النبي ﷺ على الصدقات» فصّرّح بأنه أمره ولم يقل استعمله. قال القاضي: ويحتمل أنه ولي الصدقات احتساباً أو أُعطي عمالته عليها من غير الصدقة. قال بعضهم: السعاية تستعمل في مطلق الولاية فلا تدل على الصدقات خصوصاً»^(١).

ومهما يكن من أمر، فإنّ رسول الله كان يبعث المصدّقين إلى القبائل من أهلها في الغالب، ومن غير المنتسبين إليها في بعض الأحيان. بل قد روي أن رسول الله ﷺ خرج بنفسه إلى البادية في إبل الصدقة!

ففي رواية طريفة يرويها الإمام أحمد في مسنده عن عائشة قالت: «خرج رسول الله ﷺ إلى البادية في إبل الصدقة، فأعطى نساءه بغيراً بغيراً غيري! فقلت يا رسول الله اعطينتهن بغيراً بغيراً غيري؟ فأعطاني بغيراً آد صعباً لم يركب عليه، فقال ﷺ: يا عائشة أرفقي به، فإنّ الرفق لا يخالط شيئاً إلاّ زانه، ولا يفارق شيئاً إلاّ شأنه»^(٢).

ولعلّ رسول الله ﷺ أراد أن يعطي لعائشة درساً أخلاقياً عملياً في الآداب الاجتماعية من خلال اهداء بغير صعب الركوب ووصيته لها بالرفق به، ثمّ بين لها

(١) الكتاني: التراتيب الإدارية: ١ / ٣٢٣ - ٣٢٤. والمقصود بـ «القاضي» القاضي عياض صاحب كتاب «الشفاء».

(٢) مسند الإمام أحمد: ٦ / ١١٢.

أهمية الرفق في الحياة وشؤونها!

والملاحظة الثالثة التي نستفيدها من هذا النص في قضية المصدقين، أنّ رسول الله ﷺ كان يقدّر حجم المخاطر التي سوف يتعرض لها المصدق في عمله لجمع الصدقات والأموال، لما للأموال من مكانة في نفوس الناس، ولأنهم جديده عهد بالإسلام، وإعطاء الأموال عن طيب خاطر يحتاج إلى تربية نفسية وإيمانية عالية، ولعله لهذا السبب كان رسول الله ﷺ يبعث إلى تلك القبائل أحد المتسبين إليها، أو يستعمل على صدقاتهم من يسلم منهم.

بالإضافة إلى ذلك نجد رسول الله ﷺ يوصي المصدقين بالرفق واللين وعدم الاجحاف أو الظلم بحق من يوفدون إليهم «وقد كان رسول الله ﷺ قد أمر مصدقيه أن يأخذوا العفو منهم ويتوقوا كرائم أموالهم»^(١).

وفي طبقات ابن سعد عن سويد بن غفلة قال أتانا مصدق رسول الله، فأخذت بيده فقرأت في عهده، فإذا فيه: «إنه لا يفرق بين مجتمع، ولا يجمع بين متفرق»، فأتاه رجل بناقعة عظيمة فأبى أن يأخذها، ثم أتاه آخر بناقعة دونها فأبى أن يأخذها، ثم قال: أيّ سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا أتيت رسول الله ﷺ وقد أخذت خيار إبل امرئ مسلم»^(٢).

وكان هؤلاء المصدقون يستلمون الصدقات من أربابها مراعين وصايا رسول الله ﷺ فكانت بعض القبائل تعطي أموالها بطيب نفس وأريحية عالية، وبعض آخر يمتنع عن ذلك، فيكون امتناعهم سبباً في شغل غارة عليهم كما حصل في قضية بني تميم الآتية.

هذه خلاصة أمر المصدقين الذين بدأ رسول الله ﷺ يستعملهم في السعاية

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٧٤ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٦ / ٦٨ .

لجمع صدقات القبائل، ولا نريد أن نتوسع كثيراً في هذا الأمر، وبيان ما يؤخذ من النعم والشاة ونصاب كل منها، ووزن ما يؤخذ من غيرها. . لخروجها عن موضوع بحثنا، ولتكفل كتب الأموال والخراج لبيان ذلك بالتفصيل^(١).

إلا أن الذي نود أن نشير إليه إشارة عابرة أن تعين المصدقين والسعاة والجباة كان يتم من قبل رسول الله ﷺ باعتبار الولاية العظمى له ﷺ، وباعتباره رئيس الدولة وحاكمها المطلق، كما أن الاشراف على المصدقين والجباة وكيفية استحصالهم لهذه الأموال وضبطها وتدوينها كان يتم باشراف مباشر منه ﷺ، فكان يستوفي الحساب على عمال الصدقات، ويحاسبهم على المستخرج من الصدقات والمصروف منه، وإذا أحس من عامل خيانة في الأمر حاسبه على ذلك كما فعل ذلك مع عامله ابن اللُتَيْبَةِ من الأزد، حيث حاسبه رسول الله ﷺ عندما قال هذا الرجل: هذا لكم، وهذا أهدي لي! فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «ما بال عامل ابعته، فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا يقعد في بيت أبيه، أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟! والذي نفس محمد بيده! لا ينال أحد منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيراً له رُغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رأينا عُفرتي ابطيه» ثم قال: «اللهم هل بلغت؟ مرتين».

وكان يقول أيضاً: «أَيُّمَا عامل استعملناه وفرضنا له رزقاً فما أصاب بعد رزقه، فهو غلول»^(٢) وكانت هذه الأموال تكتب وتضبط في سجلات خاصة بها في العهد النبوي وباشراف مباشر من النبي ﷺ. فقد جاء في جوامع السيرة لابن حزم: «كان كاتب رسول الله ﷺ في الصدقات الزبير بن العوام، فإن غاب أو اعتذر كتب جهم بن الصلت وحذيفة بن اليمان»^(٣).

(١) للتوسع انظر: كتاب الأموال لأبي عبيدة .

(٢) البخاري الحديث (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢) وأبو داود (٤٩٤٣) .

(٣) الكتاني، التراتيب الادارية: ١ / ٣١٦، نقلاً عن ابن حزم في جوامع السيرة .

وترجم الحافظ في الاصابة لجهم بن سعد وقال عنه إنه من كتاب النبي ﷺ وكان هو والزبير يكتبان أموال الصدقة. وفي صبح الأعشى (١١ / ١): «إن الزبير بن العوام وجهم بن الصلت كانا يكتبان للنبي ﷺ أموال الصدقات، وإن حذيفة بن اليمان كان يكتب له خرص النخل».

ويعلق الشيخ الكتاني على هذه الروايات فيقول: «فإن صح ذلك فتكون هذه الدواوين قد وضعت في زمانه ﷺ»^(١). فما يقال من أن عمر بن الخطاب في خلافته قد ابتكر وضع الدواوين غير صحيح أو محل شك!!

ثانياً: سرايا الدعوة:

ذكر المؤرخون وقائع مجموعة من السرايا التي أرسلها رسول الله إلى بعض القبائل، والتي سبقت غزوة تبوك وذكروا لها أسباباً مختلفة، منها:
أولاً: امتناع بعض القبائل من دفع زكاة أموالهم.

ثانياً: وجود مظاهر الشرك والوثنية بينهم، والذي كان يسعى رسول الله ﷺ لتطهير الجزيرة العربية منها.

ثالثاً: ردعهم عن غيهم وما قد يقدمون عليه من اعتداء على أطراف المدينة أو بعض القبائل التي أعلنت إسلامها.

إلا أن هذه السرايا بشكل عام كانت بمثابة سرايا الدعوة إلى الله سبحانه، وإن تعددت الأسباب والمسببات والوسائل فيها.

(١) الكتاني، التراتيب الإدارية: ١ / ٣١٥ - ٣١٦ .

٣ - من أهم هذه السرايا وما جرى فيها من أحداث

وفيما يلي بعض تلك السرايا وباختصار :

أولاً: سرية عُيَيْنَة بن حصن الفزاري إلى بني تميم:

قال ابن سعد: ثم سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم . . وذلك في المحرم سنة تسع من مهاجر رسول الله ﷺ^(١) .

ولم يذكر ابن سعد سبب لهذه السرية، إلا أن الواقدي يذكر سببها في سياق بعث المصدّقين، حيث بعث رسول الله ﷺ أحد المصدّقين إلى قبيلة خزاعة، وكانت قبيلة خزاعة قد دخلت في الإسلام، وكانوا حينما جاءهم المصدّق قد حلّ بنواحيهم بنو تميم «فهم يشربون معهم على غدير لهم . . .» .

وعندما وصلهم المصدّق: أمر بجمع مواشي خزاعة ليأخذ منها الصدقة . . فحشرت خزاعة الصدقة من كلّ ناحية، فاستنكرت ذلك بنو تميم وقالوا: ما هذا؟ تؤخذ أموالكم منكم بالباطل! وتجيّشوا، وتقلّدوا القسيّ، وشهروا السيوف! فقال الخزاعيّون: نحن قوم ندين بدين الإسلام، وهذا من ديننا. قال التميميّون: والله لا يصل إلى بغير منها أبداً! فلما رآهم المصدّق هرب منهم وانطلق مولياً وهو يخافهم . . فقدم المصدّق على النبي ﷺ فأخبره الخبر .

وهنا أرادت خزاعة أن تستدرك الأمر والورطة التي أوقعتها فيها بنو تميم «فوثبت خزاعة على التميميين فأخرجوهم من محالّهم، وقالوا: . . . ليدخلن علينا بلاء من عداوة محمد ﷺ وعلى أنفسكم حيث تعرضون لرّسل رسول الله ﷺ، تردّونهم عن صدقات أموالنا، فخرجوا راجعين إلى بلادهم»^(٢) .

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣٠ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٧٤ .

والذي نلاحظه في رواية ابن سعد في الطبقات أنه يذكر: «أن رسول الله ﷺ بعث عيينة بن حصن إلى بني تميم يصدقهم». مع أن بني تميم لم تدخل في الإسلام بعد حتى تدفع صدقات أموالها! وهي التي أخرجت بني خزاعة ومنعتها من دفع صدقاتها لؤماً منها. ثم يذكر ابن سعد «بعث رسول الله ﷺ عيينة بن حصن إلى بني تميم في خمسين فارساً...»^(١). وهذا خلط عجيب من ابن سعد!

على أي حال، قدم مصدق الرسول ﷺ من بني خزاعة فأخبر رسول الله ﷺ خبر بني تميم وما أقدموا عليه، «فقال رسول الله ﷺ: من لهؤلاء القوم الذين فعلوا ما فعلوا؟ فانتدب أول الناس عيينة بن حصن الفزاري، فقال: أنا والله لهم، أتبع آثارهم ولو بلغوا يبرين»^(٢)، حتى آتيك بهم إن شاء الله، فترى فيهم رأيك أو يُسلموا!

فبعثه رسول الله ﷺ في خمسين فارساً من العرب، ليس فيهم مهاجر واحد ولا أنصاري، فكان يسير بالليل ويكن لهم بالنهار. فخرج في أثرهم حتى وجدهم قد عدلوا من السُّقيا يؤمون أرض بني سليم في الصحراء، قد حلّوا وسرّحوا مواشيهم، والبيوت خلوفٌ ليس فيها أحد إلا النساء ونُفِير، فلما رأوا الجمع ولّوا وأخذوا منهم أحد عشر رجلاً، ووجدوا في المحلة من النساء إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيّاً، فحملهم إلى المدينة» فأمر بهم النبي ﷺ فحبسوا في دار رَملة بنت الحارث»^(٣).

نتوقف قليلاً عند هذا المقطع من الرواية لنلاحظ أن رسول الله ﷺ يبعث

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٢) يبرين: رمل معروف في ديار بني سعد من تميم (معجم ما استعجم للبكري: ٨٤٩).

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٧٤ - ٩٧٥، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣٠.

عينه ابن حصن في مهمة تأديب بني تميم ولا يبعث معه مهاجراً ولا أنصارياً وإنما يبعثه في خمسين فارساً من العرب! ولعل الحكمة في ذلك - والله العالم - تمكن في شخصية عينة بن حصن صاحب المقولة المعروفة في حصار الطائف حيث يقول: «إني والله ما جئت معكم أقاتل ثقيفاً، ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب جارية من ثقيف...» وعندما أخبر النبي ﷺ بمقاتله، تبسم ﷺ وقال: «هذا الحُمق المُطاع»^(١).

ولم تمض فترة زمنية طويلة على إسلام هذا الرجل حتى يدخل في دورة تربوية وإيمانية في مدرسة رسول الله ﷺ فيتحول إلى إنسان آخر.. فهو جديد عهد بالإسلام فكيف يمكن أن يأمره رسول الله ﷺ على المؤمنين من ذوي الهجرة والجهاد من المهاجرين والأنصار؟ ولهذا اختار له رسول الله ﷺ خمسين نفرًا من شاكلته لأنهم أكثر انسجاماً مع أخلاقيات قائدهم.

ولعل رسول الله ﷺ كان يريد أن: «يُشغل بذلك الذين أسلموا حديثاً ليألفوا الإسلام، ويتحملوا واجباته، وليحملوا عبء الدعوة إلى الإسلام من بعد، وليكون منهم المجاهدون في سبيله، وليتعودوا القيام بواجباتهم، وليرضي نهمتهم من حب السلطان، ولكي ينالوا من الغنائم بالحق ممن تأبوا على الإسلام من القبائل»^(٢).

وفد تميم في المدينة

كان من المتوقع أن يقدم وفد تميم إلى المدينة ليس لغرض البيعة والدخول في الإسلام، وإنما من أجل فداء أسرائهم الذين وقعوا في الأسر في سرية عينة بن حصن.

ولهذا نجد رسول الله ﷺ يؤجل أمر غنائمهم وأسرائهم إلى حين،

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٣٧ .

(٢) أبو زهرة، خاتم النبیین: ٢ / ١٢٨٣ .

ويحفظهم في بيت رملة بنت الحارث، بعيداً عن فضول الأعين.

وفعلاً لم تمض فترة زمنية طويلة إلا ووفد بني تميم المتمثل في عشرة من أبرز شخصياتهم في المدينة.

يقول الواقدي: «فقدم منهم عشرة من رؤسائهم.. فدخلوا المسجد قبل الظهر، فلما دخلوا سألوهم عن سببهم فأخبروا بهم فجاءوهم، فبكى الذراري والنساء، فرجعوا حتى دخلوا المسجد ثانية، ورسول الله ﷺ يومئذ في بيت عائشة، وقد أذن بلال بالظهر.. والناس ينتظرون خروج رسول الله ﷺ فعجلوا خروجه، فنادوا: يا محمد، اخرج إلينا! فقام إليهم بلال فقال: إن رسول الله ﷺ يخرج الآن، فخرج رسول الله ﷺ وأقام بلال الصلاة، وتعلقوا به يكلمونه، فوقف رسول الله ﷺ معهم بعد إقامة بلال الصلاة ملياً، وهم يقولون أتيناك بخطيبنا وشاعرنا فاسمع منا! فتبسم النبي ﷺ، ثم مضى فصلّى بالناس الظهر.. ثم خرج فجلس في صحن المسجد، وقدموا عليه وقدموا عطارد بن الحجاب التميمي فخطب..»^(١).

وفي رواية ابن إسحاق: «فلما دخل وفد بني تميم المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حُجراته: أن اخرج إلينا يا محمد، فأذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد جئناك نُفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال ﷺ: قد أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عطارد بن حجاب...»^(٢).

وينقل كل من الواقدي وابن إسحاق مقولة وشعر خطيب وشاعر بني تميم والتي احتوت على التفاخر بالأموال والأولاد والعدد والعشيرة.. وكذلك الرد الذي جاءهم من ثابت بن قيس، وحسان بن ثابت الأنصاريان وبأمر من رسول الله ﷺ.

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٧٥ - ٩٧٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٢٦.

وعندما انتهت هذه المبارات الكلامية والشعرية قال أحد أعضاء وفد بني تميم: «إِنَّ هذا الرجل - ويقصد رسول الله ﷺ - لمؤتي له^(١)، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا.. فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم».

قال ابن إسحاق: وفيهم نزل من القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

ثانياً: بعثة الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق:

قال الواقدي: بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى صدقات بني المصطلق، وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد بساحتهم، فلما خرج إليهم الوليد وسمعوا به.. خرج منهم عشرون رجلاً يتلقونه.. فلما رآهم ولّى راجعاً إلى المدينة.. فأخبر النبي ﷺ أنه لما دنا منهم لقوه، معهم السلاح يحولون بينه وبين الصدقة! فهم رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم من يغزوهم، وبلغ ذلك القوم - أي بني المصطلق - فقدم عليه الركب الذين لقوا الوليد، فأخبروا النبي ﷺ: وقالوا: سلّه هل ناطقنا أو كلمنا؟ ونزلت هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمُ فَاسِقُ بَنِي فَتَيِّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٣) فقرأها النبي ﷺ عليهم وأخبرهم بما نزل.. ثم قال ﷺ: مَنْ تُحِبُّونَ ابْعَثْ إِلَيْكُمْ؟ قالوا: تبعث علينا عباد بن بشر. فقال: يا عباد سير معهم فخذ صدقات أموالهم وتوق كرائم أموالهم.

قال الراوي: «فخرجنا مع عباد يقرئنا القرآن ويُعلّمنا شرائع الإسلام حتى

(١) أي: موفق له .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٦١ وما بعدها . والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٧٦ وما بعدها .

(٣) الحجرات: ٦ .

أنزلناه في وسط بيوتنا، فلم يُضَيَّع حقاً، ولم يعد بنا الحق. .»^(١).

وقد ذكر ابن إسحاق قصة بعثة الوليد إلى بني المصطلق في سياق حديثه عن غزوة بني المصطلق^(٢) التي غزاها رسول الله ﷺ في السنة السادسة من الهجرة، وقد ذكرناها ضمن أحداث تلك الغزوة برواية ابن إسحاق وذكرنا ما يستفاد منها من دروس وعبر في نهاية الدرس السادس عشر.

إلا أن رواية الواقدي هنا أضافت عنصراً جديداً إلى رواية ابن إسحاق وهو إرسال عباد بن بشر مع بني المصطلق للقيام بالمهام التي أوكلها رسول الله ﷺ إليه، فقام بها خير قيام فكان يأخذ صدقاتهم ويقرؤهم القرآن ويعلمهم الشرائع. . كما في الرواية.

ثالثاً: سرية قطبة بن عامر إلى خثعم:

ذكر الواقدي هذه السرية في موضعين من كتابه المغازي، الموضع الأول: ضمن سرية شجاع بن وهب في ربيع الأول سنة ثمان وقبل غزوة مؤتة، والموضع الثاني: ذكرها قبل غزوة تبوك وأرخ لها في صفر سنة تسع! وفي الموضع الأول ذكرها بكامل أحداثها، وفي الموضع الثاني ذكر قسماً منها ثم أحال إلى ما ذكره سابقاً فقال: «وخبّر هذه السرية داخل في سرية شجاع بن وهب»^(٣).

وقد ذكرنا ملخص هذه السرية ضمن السرايا التي سبقت غزوة مؤتة.

رابعاً: سرية الضحّاك بن سفيان إلى بني كلاب:

روى الواقدي: «بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى القُرطاء^(٤) فيهم الضحّاك بن

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٨٠ - ٩٨١ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٩٦ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٧٥٣ - ٧٥٥ و ٢ / ٩٨١ .

(٤) القُرطاء: بطن من بني بكر .

سفيان، والأصيد بن سلمة، حتى لقوهم بالزُّج. . فدعوهم إلى الإسلام فأبوا، فقاتلوهم فهزموهم، لحق الأصيد أباه سلمة بن قُـرط، وسلمة على فرس له على غدير زُج، فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان، فسبّه وسبّ دينه، فضرب الأصيد عرقوبي فرسه، فلما وقع على عرقوبيه ارتكز سلمة على رمحه في الماء، ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله، ولم يقتله ابنه. وهذه السرية في شهر ربيع الأول سنة تسع.

ثم يروي الواقدي عن حدثه قضية أخرى ضمن سياق هذه السرية إلا أنها لا ارتباط لها بهذه السرية وإنما هي قضية أخرى منفصلة عنها، ولا ندري لماذا لم يُفرد لها عنواناً آخر؟!

قال: «حدّثني فلان. . : كتب رسول الله ﷺ إلى حارثة بن عمرو بن قُـرط يدعوهم إلى الإسلام، فأخذوا صحيفته فغسلوها ورقّعوا بها دلوهم! وأبوا أن يُجيبوا. . . فلما فعلوا بالكتاب ما فعلوا قال رسول الله ﷺ : ما لهم؟ أذهب الله بعقولهم، فهم أهل رعدة، وعجلة وكلام مختلط، وأهل سفه». وكان الذي جاءهم بالكتاب رجل من عُرينة يقال له: عبد الله بن عوسجة، لمُستهلّ شهر ربيع الأول سنة تسع.

وعن تأثير دعاء رسول الله ﷺ على أولئك القوم قال الواقدي: «رأيتُ بعضهم عبيّاً لا يبين الكلام»^(١).

وقال الديار بكري: «فلذا لا يوجد من بني كلاب إلا مختل العقل، ومختلط الكلام، وبعضهم لا يفهم كلامه»^(٢).

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٨٢ - ٩٨٣ .

(٢) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ١٢٠ .

خامساً: سرية علقمة بن مجرّز المدلجي إلى الحبشة:

في ربيع الآخر سنة تسع «بلغ رسول الله ﷺ أنّ ناساً من الحبشة رأهم أهل الشُعْبَةِ^(١) في مراكب، فبعث علقمة بن مجرّز المدلجي في ثلاثمائة رجل حتى انتهى إلى جزيرة في البحر فخاض إليهم فهربوا منه، ثم انصرف.

فلما كان ببعض المنازل استأذنه بعض الجيش في الانصراف حيث لم يلقوا كيداً، فأذن لهم، وأمر عليهم عبد الله بن حذافة السهمي - وكانت به دُعاة - فنزلوا في بعض الطريق، وأوقد القوم ناراً يصطلون عليها ويصطنعون الطعام، فقال - لهم قائدهم ابن حذافة - : «عزمتُ عليكم إلا توابتم في هذه النار! فقام بعض القوم فتحاجزوا حتى ظنّ أنّهم واثبون فيها! فقال: اجلسوا، إنما كنتُ أضحك معكم!

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: من أمركم بمعصية فلا تطيعوه»^(٢)!

وفي رواية البخاري في الصحيح قال: «باب: سرية عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجرّز المدلجي، ويقال: أنّها سرية الأنصار.

حدثنا فلان. . عن عليّ (رضي الله عنه) قال: بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فعُضِبَ فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تُطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهُمُوا وجعل بعضهم يُمسِكُ بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في

(١) مدينة في ساحل البحر الأحمر، وهي مدينة «جدة» اليوم.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٨٣ - ٩٨٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٤٠.

المعروف»^(١).

وفي رواية أخرى للبخاري أيضاً عن علي عليه السلام : . . . فجمعوا حطباً فأوقدوا، فلمّا همّوا بالدّخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض فقال بعضهم: إنّما تبعنا النبي ﷺ فراراً من النار أفندخلها؟ . . إلى آخر الحديث. . وفي حديث ثالث له أيضاً، أن النبي ﷺ قال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» وقال للآخرين: «لا طاعة في مَعْصِيَةِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^(٢).

والذي نلاحظه في عنوان الباب الذي عقده البخاري حيث يقول: باب سرية عبد الله بن حذافة، وعلقمة بن مجزر ويقال: إنها سرية الأنصار! ثم يقول في الرواية الأولى والثانية: فبعث النبي سرية فاستعمل عليها رجل من الأنصار. . الخ.

مع أن الرجلين ابن حذافة، وابن مجزر من المهاجرين وهما قرشيان وليسا من الأنصار^(٣)!! والجيش الذي أرسل معهم لم تنص الرواية التاريخية أنهم كانوا فقط من الأنصار حتى نسميها سرية الأنصار!

فلعل ما روي عن علي عليه السلام يتعلق بسرية أخرى وليس لها علاقة بهذه السرية التي كان قائدها علقمة وهو الذي أمر ابن حذافة على خصوص العائدين منهم. فيكون ما روي عن علي عليه السلام لا علاقة له بهذه السرية. فتأمل.

وعلى أي حال فإنّ لنا وقفة تأمل في حديث رسول الله ﷺ في هذه الواقعة تأتي في الدروس والعبر في نهاية هذا الدرس.

(١) صحيح البخاري، المجلد الثالث ج ٥ / ١٢٦ الحديث ٤٣٤٠ .

(٢) المصدر نفسه: المجلد الرابع ج ٨ / ١٣٥ و١٧١، الحديث رقم (٧١٤٥) و(٧٢٥٧) .

(٣) انظر: الإصابة لابن حجر: ٢ / ٢٩٦ و٢ / ٥٠٥ - ٥٠٦ .

سادساً: سرية علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الفُلس^(١) صنم طيئ:

وقد أرخ الواقدي إرسال هذه السرية «في ربيع الآخر سنة تسع» من الهجرة، وذكر لذلك روايتين:

الأولى: رواية عبد الرحمن بن عبد العزيز عن ابن حزم وجاء فيها: «وبعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام في خمسين ومائة رجل على مائة بعير وخمسين فرساً، وليس في السرية إلا أنصاري، فيها وجوه الأوس والخزرج، فاجتنبوا الخيل واعتقبوا على الإبل، حتى أغاروا على أحياء من العرب، وسأل عن محلّة آل حاتم، ثم نزل عليهم، فشتوا الغارة مع الفجر، فسبوا حتى ملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاء، وهدموا الفُلس وخربوه، وكان صنماً لطيّء، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة»^(٢).

والثانية: رواية أخرى عن هذه السرية ذكرت فيها جزئيات وتفاصيل كثيرة مروية أيضاً عن «عبد الرحمن بن عبد العزيز» ولكنه يرويها هذه المرة عن محمد بن عمر بن علي، يقول الراوي: «ذكرت هذه السرية لمحمد بن عمر بن علي، فقال: ما أرى ابن حزم زاد على أن ينقل من هذه السرية ولم يأتك بها! قلت:

فأت بها أنت! فقال: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الفُلس ليهدمه، في مائة وخمسين من الأنصار، ليس فيها مهاجرٌ واحد...» إلى آخر الرواية التي ذكر فيها جزئيات ليس لها أهمية تاريخية، ثم قال: «وسار علي عليه السلام إلى الفُلس فهدمه وخربه، ووجد في بيته ثلاثة أسياف، رسوب،

(١) الفُلس: بفتح الفاء أو بضمها، وهو صنم لطّي، وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له:

«أجا» أسود كأنه تمثال إنسان، كانوا يعبدونه ويهدون إليه، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده.

(الأصنام لابن الكلبي: ٥٩).

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٨٤.

والمخذّم، وسيُقال له اليمانيّ، وثلاثة أذراع . . وجمعوا السَّبيَّ . . ثم ساروا حتى نزلوا «ركك»^(١) فتقاسموا السبي والغنائم، وعزل للنبي ﷺ صفيّاً: «رسوباً والمخذّم»، ثم صار له بعد السيف الآخر، وعزل الخُمُس، وعزل آل حاتم، فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة . . .» .

ثم يكمل الواقدي الروایتين برواية ثالثة يرويها عن الزهري، قال: «كان في السبيّ أخت عديّ بن حاتم لم تُقسم، فأُنزلت دارَ رملّة بنت الحارث، وكان عديّ ابن حاتم قد هرب حين سمع بحركة عليّ عليه السلام وكان له عين في المدينة فحدّره فخرج إلى الشام . . وكانت أخت عديّ إذا مرّ النبي ﷺ تقول: يا رسول الله: هلك الوالد، وغاب الوافد، فامُنن علينا منّ الله عليك! كلّ ذلك يسألها رسول الله ﷺ: مَنْ وافدك؟ فتقول: عديّ بن حاتم! فيقول ﷺ: الفارّ من الله ورسوله؟ حتى يئست. فلما كان اليوم الرابع مرّ النبي ﷺ فلم تكلم، فأَسار إليها رجل: قومي فكلّميه! فكلّمته، فأذن لها ووصلها.

وسألت عن الرجل الذي أشار إليها ف قيل: عليّ، وهو الذي سباكم، أما تعرفينه؟ فقالت: لا والله، ما زلتُ مُدنية طُرف ثوبي على وجهي، وطرف ردائي على بُرقي من يوم أسرت حتى دخلت هذه الدار، ولا رأيتُ وجهه ولا وجه أحد من أصحابه»^(٢).

وفي رواية: إن اسمها «سَفانة» وإنها أسلمت، ويذكر أنها قالت له ﷺ: «يا محمد أ رأيت أن تخلي عتاً، ولا تشمت بنا أحياء من العرب فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يردّ طالب حاجة قط، أنا

(١) ركة محلة من محال سلمى، أحد جبلي طيء (معجم البلدان) .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٨٤ - ٩٨٩ .

ابنة حاتم طي، فقال لها النبي ﷺ: «يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق. وإن الله يحب مكارم الأخلاق»^(١).

وفي رواية البيهقي: فقام أبو بردة بن دينار، فقال: يا رسول الله! الله عز وجل يحب مكارم الأخلاق؟ فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق»^(٢).

كانت هذه رواية الواقدي عن سرية علي عليه السلام إلى أرض طي.

أما ابن إسحاق: فقد ذكر هذه السرية تحت عنوان «أمر عدي بن حاتم»، ولم يدخل في جزئيات أحداث هذه السرية وإنما ركز حديثه على هروب عدي بن حاتم إلى الشام، ثم أسر أخته وإطلاقها من الأسر، ثم عودته من الشام وإسلامه على يدي النبي ﷺ. . . والقصة بكاملها مروية عن عدي نفسه تقتطف منها بعض المقاطع:

فبعد أن من رسول الله على ابنة حاتم الطائي وأطلقها من الأسر قال لها: «فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك» تقول: فأقمت حتى قدم ركب. . فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهط من قومي، لي فيهم ثقة وبلاغ.

قالت: فكساني رسول الله ﷺ، وحملني، وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عدي: فوالله إنني لقاعد في أهلي، إذ نظرت إلى طعينة تصوب إلي. .

(١) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٨٨ .

(٢) البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٣٤١ .

فقلت ابنة حاتم، فإذا هي، فلما وقفت عليّ - أخذت - تقول: القاطع الظالم، احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقيّة والدك وعورتك! فقلت: أي أختي، لا تقولني إلاّ خيراً، فوالله ما لي عذر. . ثمّ نزلت فأقامت عندي، فقلت لها - وكانت امرأة حازمة - ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟

قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تدلّ في عزّ اليمن، وأنت أنت! قال عدي: قلت: والله إنّ هذا الرأي، فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم.

قال: فقام رسول الله ﷺ، فانطلق بي إلى بيته. . فلقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تُكلّمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك.

قال: ثمّ مضى بي رسول الله ﷺ حتى دخل بي بيته، تناول وسادة. . فقفزها إليّ، فقال: اجلس على هذه. قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت، فجلستُ عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثمّ قال: ايه يا عدي بن حاتم! ألم تكن ركوسياً^(١)؟ قلت: بلى. قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع^(٢)؟ قلت: بلى. قال ﷺ: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك، قلت: أجل والله. وقال: وعرفت أنه نبيّ مرسل، يعلم ما يُجهل.

(١) الركوسية: من الركوسية: وهم قوم لهم دين بين دين النصرى والصابئين .

(٢) المرباع: أي أخذ الربع من الغنائم .

ثم قال ﷺ: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكنَّ المالُ أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكنَّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن المُلْك والسلطان فيغيرهم، وأيمُّ الله ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم. قال عدي: فأسلمتُ.

وكان عدي يقول: قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونن، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتحت، وقد رأيتُ المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحجَّ هذا البيت وأيمُّ الله لتكونن الثالثة، ليفيطنَ المال حتى لا يوجد من يأخذه»^(١).

وفي صحيح البخاري: إنَّ رسول الله ﷺ قال لعدي: «... وإني قد أرى أنَّ ممَّا يمنعك - أي من الإسلام - خصاصة تراها ممَّن حولي، وأنَّ الناس علينا إلباً واحداً، هل تعرف مكان الحيرة؟» قال: قلت: لقد سمعت بها، ولم آتها. قال ﷺ: «لتوشكنَّ الطَّعينة أن تخرج منها بغير جوار حتَّى تطوف بالكعبة، ولتوشكنَّ كنوز كسرى بن هرمز تُفتح» قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز - ثلاث مرات - وليوشكنَّ أن يبتغي مَن يقبل ماله منه صدقة فلا يجد».

قال - عدي - : «فلقد رأيت اثنتين: قد رأيت الطَّعينة تخرج من الحيرة بغير جوار حتَّى تطوف بالكعبة، وكنتُ في الخيل التي أغارت على المدائن، وأيمُّ الله! لتكونن الثالثة إنه لحديث رسول الله ﷺ حدَّثني»^(٢).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٧٨ - ٥٨١، وقارن برواية البيهقي في دلائل النبوة: ٥ / ٣٣٩.

(٢) صحيح البخاري، الحديث ٣٥٩٥، ومسند أحمد: ٤ / ٢٥٧.

٤ - الدروس والعبر

بعد هذا الاستعراض الموجز للقسم الأول من أحداث السنة التاسعة لابد لنا من وقفة قصيرة عند بعض مقاطعها لاستلهم بعض الدروس والعبر منها:

أولاً: تنظيم الموارد المالية للدولة الإسلامية:

مما لا شك فيه أن للدولة الإسلامية مقوماتها الأساسية، ومن أهمها وجود الموارد المالية الكافية لسدّ الحاجات الضرورية والتي تتمثل في الجوانب الاجتماعية والعسكرية آنذاك.

والتشريع الإسلامي أعطى صلاحيات واسعة من خلال أحكامه الأولية للقيادة الإسلامية ولصاحب الولاية المطلقة في الدولة الإسلامية والتي كانت متمثلة في عصر النبوة الخاتمة في شخص رسول الله ﷺ، في قبض هذه الأموال وتنظيم مصارفها وانفاقاتها.

ولهذا نجد الرسول ﷺ وبعد فتح مكة واتساع رقعة الدولة الإسلامية، وازدياد حاجة الدولة إلى هذه الموارد.. يبادر إلى إرسال المصدقين والسعاة وجباة الأموال إلى القبائل لجباية ما فرضه الله عليهم من حقوق شرعية، فيكون بذلك قد أرسى قواعد النظام المالي في الإسلام في أسسه الأولية.

والذي يلفت النظر في هذا المجال هي الطريقة المرنة والمسحة الأخلاقية التي كان يلزم بها رسول الله ﷺ سعاته ومصدقيه، فيوصيهم بتجنب «كرائم أموالهم» وعدم الاجحاف بهم.. بالإضافة إلى الرقابة المباشرة منه ﷺ على هؤلاء السعاة كي لا تغريهم الأموال المستحصلة فيقعوا في جريمة الخيانة لله وللرسول ﷺ وللمسلمين، في الوقت الذي قد ائتمنوا على أموالهم.

وفي ذلك كله درس وعبرة لمن أراد أن يتصدى لأُمور المسلمين وأموالهم، فلا يأخذ شيئاً منهم إلا بحقه، ولا ينفقه إلا بوجهه، مع مراعاة المرونة الإسلامية في التطبيق، والتقوى في العطاء والقبض.

ثانياً: حماية مكتسبات الدولة الإسلامية:

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد ذلك الفتح المبين، وهو مرفوع الهامة، متوجاً من الله بنصره.. إلّا أنه لم يخلد إلى الراحة، فما حصل للدولة الإسلامية من مكتسبات عظيمة تحتاج إلى حماية ويقظة وتحسب لكل طارئ، فما زالت هذه الدولة الناشئة لها من يتربص بها من بعض الجيوب الوثنية ورؤساء العشائر الذين كانوا يرون تهاوي سلطان قريش أمام الإسلام، بالاضافة إلى ما يهدد هذه الدولة من عدوان خارجي يتمثل في الدولة الرومانية.

ولهذا نجد الرسول الأكرم ﷺ يعمل على كلا الصعيدين، فمن جانب يرسل السرايا الصغيرة للدعوة للإسلام، أو لتأديب من يفكر في العدوان على الدولة الإسلامية ومكتسباتها أو المنتسبين إليها أو المتحالفين معها، بالاضافة إلى محو آثار الجاهلية والوثنية والشرك التي كانت تتمثل في تلك الأصنام التي اتخذت أرباباً تُعبد من دون الله.

ومن جانب آخر نجد الرسول الأكرم ﷺ يمهد ويهيئ أصحابه لمهمة أخرى خارج حدود الجزيرة لردع عدوان تعد له الدولة الرومانية وحلفائها.

هذه الحركية القيادية في شخصية الرسول القائد ﷺ تمثل معلماً مهماً من معالم شخصيته القيادية، والتي ينبغي أن نستلهم منها الكثير من الدروس والعبر للنهوض بالأمة الإسلامية من واقعها المرير حيث يتربص بها أعدائها من الداخل والخارج!

ثالثاً: الدروس الأخلاقية من سرايا الدعوة:

لقد استعرضنا وقائع مجموعة من السرايا في هذا الدرس، ولا نريد أن نتوقف عند الجوانب العسكرية والتعبوية والنتائج التي حصلت عليها في هذه المجالات. وإنما هنالك لفتات أخلاقية عالية في مفردات بعض هذه السرايا،

فوجد الجانب الإنساني والاجتماعي الذي أخذه رسول الله ﷺ بعين الاعتبار وهو يتعامل مع الأسرى من قبيلتي تميم، وطيء، فيحفظ لهم كرامتهم، ولا يعرضهم لذل ومهانة السبي، ويطلق سراحهم، ويعيدهم إلى أهلهم بعد أن يكسوهم ويطعمهم. . . رغم كونهم أسرى محاربين، ورغم الجفوة والعنجهية التي اتصف بها رؤسائهم من بني تميم، ورغم مفاخرتهم. . . إلا أن رسول الله ﷺ قابل كل ذلك بالاحسان إليهم واللطف والرفق بهم. . . فأثر ذلك في نفوسهم أيما تأثير فعادوا إلى أهلهم وهم مسلمون، بعد أن كانوا من المحاربين للإسلام.

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «إنَّ الرفق لا يخالط شيئاً إلاَّ زانه، ولا يفارق شيئاً إلاَّ شانه».

رابعاً: الطاعة في المعروف:

بغض النظر عن السرية التي ورد فيها قصة ذلك القائد الذي استبد به الغضب أو جنحت به الدُّعابة فطلب من رؤسياه أن يوقدوا ناراً ويلقوا بأنفسهم فيها. إلاَّ أنَّ في ثناياها درساً كبيراً في السياسة والقيادة!

فحق الطاعة المطلقة والتي تتسع دائرتها لتشمل كلَّ ما يأمر به أو يُنهى عنه هي لله سبحانه ولمن قُرنت طاعتهم بطاعته عزَّ وجلَّ لمكان عصمتهم وولايتهم، يقول تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١).

أما دوائر الطاعة الأخرى فهي في حدود ما أمر الله سبحانه وتعالى به سعة وضيقاً.

إلاَّ أن نزعة الاستعلاء عند البعض قد تصل إلى ما وصل إليه صاحبنا في هذه القصة فيتصور لنفسه الولاية المطلقة حتى على نفوس الناس، فأمرهم أن يلقوا بأنفسهم في لهيب ذلك النار الذي سجروه بأنفسهم.

فيأتي الرسول الأكرم ﷺ ليعطي قاعدة إنسانية وأخلاقية نابعة من تعاليم الدين الحنيف، تجسدت في كلمات قلائل قالها تعقيباً على هذه القصة: «الطاعة في المعروف» والمعروف هنا يقابل المعصية، لذا نجد في الرواية الأخرى توضيح للفكرة: «لا طاعة في المعصية إنما الطاعة في المعروف».

هذه الكلمات على وجازتها تكذب كل ما نسب لرسول الله ﷺ من أنه أمر بطاعة أولياء الأمور والحكام حتى ولو أمروا بالمعصية، وكانوا من الظالمين والفاستين والأشرار... مما فتح باب شر على الأمة الإسلامية، شلت حركته الثورية، فأصبحت مقدراتها في أيدي المستبدين والطغاة الذين عاثوا في الأرض فساداً، وألبسوا الأمة ثوب الذل والهوان.

خامساً: مكارم الأخلاق في الأمم:

لكل أمة من الأمم حضارتها وتاريخها وخصالها التي تعزز بها، وتفاخر الأمم الأخرى من خلالها، ومما لا شك فيه أن الأمة التي بُعث رسول الله ﷺ في وسطها كان لها بقايا من مكارم الأخلاق التي جاء الإسلام لإقرارها وتجديدها في وسط الأمة، ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «إنما بعثت متمماً لمكارم الأخلاق».

وفي قصة أسر سفان بن حاتم الطائي وما نظقت به من كلمات في محضر رسول الله ﷺ وقرار الرسول الأكرم ﷺ لها على ما قالت به بحق والدها... ما يؤكد حرص الإسلام ورسول الله ﷺ على خصال الخير والمعروف التي كانت تتجسد في الافراد القلائل من أمثال «حاتم الطائي»، في مقابل عُبَاب من الظلم والقطيعة والسلب والنهب والاعتداء التي كانت غالبية على تلك الأمة في عصر جاهليتها.

ولهذا نجد الرسول الأكرم ﷺ يمنُّ على سفان ويطلقها من أسرها إكراماً وحباً لمكارم الأخلاق التي اتصف واشتهر بها والدها، لأنها من الصفات التي تلتقي مع تعاليم الإسلام، وجاء الإسلام لتأصيلها في الأمة، فيقول ﷺ: «خلوا

عنها فإنَّ أباهما كان يحب مكارم الأخلاق، وإنَّ الله يحب مكارم الأخلاق».

ثمَّ بيَّن ﷺ لأصحابه وللأمة الإسلامية من بعده طريقهم إلى رضوان الله وحسن جزائه فيقول ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحدٌ إلَّا بحسن الخلق».

سادساً: أسلوب الدعوة من خلال سلوك النبي ﷺ:

لقد نقلنا قصة إسلام عدي بن حاتم بطولها لما فيها من العبر الهامة المتعلقة بعقيدة الرّجل من جهة، وبالتجسيد الواضح لشخصية رسول الله ﷺ من جهة ثانية.

لقد كان عدي بن حاتم يحمل في تصوره وهو مُقبلٌ على رسول الله ﷺ أنّه أحد رجلين: إما نبيٌّ أو ملك، فلما تجسدت شخصية رسول الله ﷺ من خلال وقوفه مع امرأة ضعيفة.. فقال في نفسه «والله ما هذا بملك» كذلك عندما دخل منزل رسول الله ﷺ، فوجده منزلاً متواضعاً خالياً من زخارف الدنيا وليس له أيّ شبه ببيوت السلاطين والملوك، ثم يفاجئه رسول الله ﷺ بأن يدفع له الوسادة الوحيدة الموجودة في البيت ليجلس عليها، ويتربع هو جالساً على الأرض فقال عدي في نفسه «والله ما هذا بأمر ملك».

فلم يحتج رسول الله ﷺ لمزيد من الاستدلال والبيان ليثبت لعدي أنه ليس بملك، فكلُّ شيء في شخصية الرسول ﷺ وسلوكه وطريقة معيشته، تُوحى لعدي أنّ هذا الذي أمامه لا ينشد من وراء دعوته هذه مُلكاً، ولا يسعى وراء ثروة أو مجد.. فهي إذن شيء آخر غير المُلك وسلوك الملوك.

ثمَّ يأتي النبي ﷺ ليأخذ عدي من حيث يعتقد به، فيبين له عقيدته التي هو عليها، وإنها لا تلتقي مع أخذه للمرباع من أموال الناس! فيُسلّم عدي بذلك ويوقن معها أنها النبوة وليست الملك فيقول في نفسه: «وعرفت أنّه نبيٌّ مرسل،

يعلم ما يجهل».

فلم يبقَ أمام هذا الواقع إلا أن يُسلم عدي على ידי رسول الله ﷺ، فما الذي يمنعه عن ذلك بعد أن أيقن أنه نبي مُرسل؟ إنها العوائق الدنيوية التي تصد عن الحق، والتمثلة في: ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم، مع ما هم عليه من فقر وفاقة.. ولهذا عمد النبي ﷺ لإزالة هذه العوائق من خلال الحديث عن مستقبل الإسلام والمسلمين، عندها أسلم عدي وحسن إسلامه.

وكيف لا يُسلم عدي «وقد وجد سمات النبوة الصادقة في مظهر معيشته وحياته، ووجد هذه السمات في لون حديثه وكلامه، ووجد مصداق ذلك فيما بعد، في وقائع الزمن والتاريخ، فكان ذلك سبب إسلامه، وانخلاعه عن مظاهر الأبهة والترف التي كان قد أسبغها عليه قومه»^(١).

والدرس الكبير الذي نستفيده من هذه القصة يتمثل في تعلم أسلوب الدعوة إلى الله ﷻ من خلال المنهج النبوي في الدعوة في خطوطها العامة، حيث نجد النبي ﷺ يتعامل مع النفوس البشرية من خلال معرفة مواطن الضعف فيها، وكان يحدث كل إنسان بما يسع له علمه وفكره وعقله، وبما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه، ويزيل عن طريقه كل عائق يمنعه من الإيمان، ولهذا أثر رسول الله ﷺ في عدي ومن على شاكلته من الزعماء ورؤساء القبائل.

سابعاً: الآداب الاجتماعية في التخاطب:

ينص علماء التفسير على نزول الآية الرابعة والخامسة من سورة الحجرات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾^(٢) في وفد بني

(١) البوطي، فقه السيرة النبوية: ٤٧١.

(٢) الحجرات: ٤ - ٥ وانظر: الواحدي النيسابوري، أسباب النزول: ٢٥٨.

تميم الذي وفد إلى المدينة في هذه السنة لمفاداة أسرائهم، فلما دخلوا المسجد نادوا بأعلى أصواتهم من وراء حجرات النبي ﷺ: يا محمد اخرج إلينا!

فجاءت هاتان الآيتان لتعالج هذه القضية، وسميت السورة بهذا الاسم «الحجرات» لهذه المناسبة.

إلا أن القرآن الكريم لم يقصر الأمر على هذه الحادثة فقط، وإنما أرسى قاعدة في آداب التعامل والتحدث مع النبي الأكرم ﷺ من خلال الآيات التي سبقت هاتين الآيتين.

ومما لا شك فيه أن أجواء سورة الحجرات بصورة عامة، وهاتان الآيتان بصورة خاصة فيها من التوجيهات القرآنية في التربية وتهذيب النفس ما يفوق عدد آياتها التي لا تتجاوز الثمانية عشرة آية بكثير.

لقد حرص الرسول الأكرم ﷺ ومن خلال توجيهات القرآن الكريم، والأخلاق والتربية العالية التي أدبه ربه بها، أن ينشيء تلك الجماعة الصالحة، وأن يخرج من هؤلاء الأعراب الجفاة، خير أمة أخرجت للناس، فكان يقابل غلظتهم وفضاختهم وبداتهم التي جُبلوا عليها، بلينه، وحسن خلقه، وطيب منطقته. وهذا ما نوه القرآن الكريم به في قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(١)، وقد لاحظنا ذلك من خلال مفردات كثيرة من سلوكه في التعامل مع هؤلاء الأعراب وكان آخرها - وليس أخيرها - موقفه من وفد بني تميم.

فهذه القضية وأمثالها في سيرته المعطاءة فيها دروس كثيرة في التعامل الاجتماعي وآداب العشرة والتخاطب مع الآخرين من خلال تعميم المفهوم الوارد

في الآيتين ليشمل كلّ ذي شأن في حياتنا الدينية والاجتماعية من العلماء والقادة والمفكرين وذوي الحقوق .

ولهذا يقول الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام في رسالته الموسومة برسالة الحقوق : «وَحَقّ سَائِسُكَ بِالْعِلْمِ التَّعْظِيمِ لَهُ ، وَالتَّوْقِيرِ لِمَجْلِسِهِ ، وَحَسَنِ الْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ ، وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ ، وَأَنْ لَا تَرْفَعَ عَلَيْهِ صَوْتَكَ ، وَلَا تَجِيبَ أَحَدًا يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَجِيبُ ، وَلَا تَحْدُثْ فِي مَجْلِسِهِ أَحَدًا وَلَا تَغْتَابَ عَنْهُ أَحَدًا . .»^(١) .

(١) للتوسع انظر: المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني: ٣ / ٤٥٠ باب آداب الصحبة والعشرة والمجلسي في بحار الأنوار كتاب العشرة .

الأسئلة:

- ١ - ما هي الأسباب التي دعت رسول الله ﷺ لبعث المصدقين إلى القبائل التي أسلمت؟
- ٢ - ما هو الطابع العام للسرايا التي سبقت غزوة تبوك؟
- ٣ - ما هي أسباب ونتائج سرية عيينة بن حصن إلى بني تميم؟
- ٤ - كيف كان سلوك بني تميم عندما وفدوا على رسول الله ﷺ؟ وكيف تعامل النبي ﷺ معهم؟
- ٥ - ما هي ملابسات بعثة الوليد بن عُقبة إلى بني المصطلق؟ وما هي الآيات التي نزلت بشأنها؟
- ٦ - لماذا دعا رسول الله ﷺ على بني كلاب؟ وما هي آثار دعائه ﷺ؟
- ٧ - ما هي القصة التي ذكرها المؤرخون في سرية علقمة بن مجرّز؟ وماذا نستفيد منها من دروس وعبر؟
- ٨ - ما هي المهمة التي أناطها رسول الله ﷺ بعلي بن أبي طالب عليه السلام في خروجه إلى أرض طيء؟
- ٩ - كيف كان تعامل علي بن أبي طالب مع أسرى قبيلة طيء؟
- ١٠ - ما هي الدروس والعبر التي نستفيدها من قصة سفانة بنت حاتم الطائي؟
- ١١ - كيف كان إسلام عدي بن حاتم على يدي رسول الله؟ وما هي الدروس والعبر المستفادة منها؟

الفهرست

المقدمة ٥

الدرس السابع عشر / أحداث السنة السادسة من الهجرة

قصة حديث الإفك

(٣١-٧)

- ١ - قصة حديث الإفك بعد غزوة بني المصطلق ٩
- ٢ - آراء واتجاهات المؤرخين والمفسرين في أسباب نزول آيات قصة الإفك ٩
- الاتجاه الأول: إنّ آيات حديث الإفك نزلت في السيّد عائشة ١٠
- تناقض الروايات والاشكالات الواردة عليها ١٣
- الاتجاه الثاني: نزول آيات الإفك في تبرئة «مارية القبطية» زوج الرسول وأم إبراهيم ٢١
- الاشكالات الواردة على الرواية ٢٤
- الاتجاه الثالث: نزل آيات الإفك في المنافقين ٢٧
- ٣ - رأي السيّد الطباطبائي في حديث الإفك ٢٩
- الأسئلة: ٣١

الدرس الثامن عشر / أحداث السنة السادسة من الهجرة

غزوة الحديبية «ق١»

(٦٤-٣٣)

- ١ - سرايا سبقت غزوة الحديبية ٣٥
- ٢ - غزوة الحديبية ٤١
- ٣ - الحديبية غزوة أم صلح، أم معاهدة؟ ٤١

- ٤ - تاريخ الغزوة ومكانها، وأهداف النبي منها ٤٢
- ٥ - سجل المفاوضات بين قريش والنبي ﷺ ٥١
- ٦ - النبي ﷺ يرسل رجلين من أصحابه لمفاوضة قريش ٥٨
- ٧ - بيعة الرضوان، أسبابها الحقيقية ونتائجها ٥٩

الدرس التاسع عشر/ أحداث السنة السادسة من الهجرة

غزوة الحديبية «ق٢»

(٦٧-١٠٤)

- ١ - المفاوضات النهائية مع قريش ٦٧
 - ٢ - أحداث سبقت امضاء وثيقة الصلح ٦٨
 - ٣ - وثيقة صلح الحديبية في بنودها القانونية ٧٨
 - ٤ - حوادث ما بعد وثيقة الصلح ٨١
 - ٥ - ما نزل من القرآن الكريم في صلح الحديبية ٨٨
 - ٦ - من الحوادث اللاحقة لصلح الحديبية ٩١
 - ٧ - من نتائج وآثار صلح الحديبية ٩٥
 - ٨ - الدروس والعبر ٩٩
- الأسئلة: ١٠٤

الدرس العشرون/ أحداث السنة السابعة من الهجرة

غزوة خيبر «ق١»

(١٠٧-١٣٤)

- المدخل ١٠٧
- ١ - تاريخ الغزوة وأسبابها ١٠٨
- ٢ - أهمية خيبر، وموقعها الجغرافي وحصونها ١١١
- ٣ - الاجراءات العسكرية التي اتخذها الرسول ﷺ لهذه الغزوة ١١٢
- ٤ - استعداد اليهود للمعركة، وطبيعة القتال في أرض خيبر ١١٩

- ٥ - سقوط حصون اليهود في خيبر ١٢٠
- ٦ - دور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في غزوة خيبر ١٢٢

الدرس الحادي والعشرون/ أحداث السنة السابعة من الهجرة

غزوة خيبر «ق٢»

(١٣٧-١٧٤)

- ١ - مصالحة اليهود على البقاء في خيبر ١٣٧
- ٢ - يهود فدك ووادي القرى وتيماء، وجنوحهم للسلم ١٤٠
- ٣ - مغانم وأموال خيبر ١٤٧
- ٤ - قدوم جعفر بن أبي طالب عليه السلام والمهاجرون من الحبشة ١٥٢
- ٥ - قصة الشاة المسمومة التي قُدمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ١٥٧
- ٦ - إرجاع صحائف التوراة إلى اليهود ١٥٨
- ٧ - نبي الرحمة ١٥٩
- ٨ - اهتمام قريش بنتائج غزوة خيبر ١٦١
- ٩ - عوامل انتصار المسلمين في خيبر ١٦٤
- ١٠ - نتائج وآثار غزوة خيبر ١٦٧
- ١١ - الدروس والعبر ١٧١
- الأسئلة: ١٧٤

الدرس الثاني والعشرون/ أحداث السنة السابعة من الهجرة

عالمية الإسلام: مراسلة الملوك والأمراء

(١٧٥-٢٢٥)

- مراسلة الملوك والأمراء ١٧٧
- تمهيد: عالمية الرسالة الإسلامية ١٧٧
- ١ - ملاحظات عامة حول مكاتيب النبي صلى الله عليه وسلم ورسائله ١٧٨
- ٢ - خصائص رسائل النبي صلى الله عليه وسلم ومكاتبه ١٨٩

- ٣ - تاريخ رسائل النبي ﷺ ١٩٥
- ٤ - نصوص رسائل النبي ﷺ إلى الملوك وردود أفعالهم ١٩٧
- ٥ - الخارطة السياسية لرسائل ومكاتبات النبي ﷺ ٢١٢
- ٦ - نتائج وآثار رسائل وكتب النبي ﷺ إلى الملوك ٢١٤
- ٧ - الدروس والعبر ٢٢٠
- الأسئلة: ٢٢٥

الدرس الثالث والعشرون/ أحداث السنة السابعة من الهجرة

عمرة القضاء

(٢٢٧-٢٥٨)

- ١ - السرايا السابقة لعمرة القضاء وأحداثها ٢٢٩
- ٢ - تاريخ الخروج لعمرة القضاء وأسبابها ٢٣٠
- ٣ - كيفية خروج رسول الله ﷺ ومن معه، وعددهم ٢٣١
- ٤ - اخراج السلاح معهم تحسباً من غدر قريش ٢٣٣
- ٥ - كيفية دخول رسول الله ﷺ إلى مكة لأداء العمرة ٢٣٥
- ٦ - كيفية عمرة رسول الله ﷺ كما نقلها المؤرخون ٢٣٧
- ٧ - مدة بقاء رسول الله ﷺ في مكة وتاريخ خروجه منها ٢٤٢
- ٨ - زواج النبي ﷺ من ميمونة بنت الحارث ٢٤٦
- ٩ - آثار ونتائج عمرة القضاء ٢٤٩
- ١٠ - الدروس والعبر ٢٥٣
- الأسئلة: ٢٥٨

الدرس الرابع والعشرون/ أحداث السنة الثامنة من الهجرة

غزوة مؤتة

(٢٦١-٣١٦)

- غزوة مؤتة ٢٦١

- ١ - رسائل النبي ﷺ التي بعثها في هذه السنة ٢٦٢
 - ٢ - سرايا سبقت غزوة مؤتة ٢٦٥
 - ٣ - غزوة مؤتة، تاريخها وخلفياتها وأسبابها ٢٦٧
 - ٤ - أمراء غزوة مؤتة ٢٧١
 - ٥ - أحداث غزوة مؤتة ٢٨٤
 - ٦ - بطولات ومآثر شهداء غزوة مؤتة ٢٨٨
 - ٧ - مصير جيش المسلمين بعد مقتل الأمراء ٢٩٠
 - ٨ - عودة المسلمين وردود أفعال أهل المدينة اتجاههم ٢٩٤
 - ٩ - النبي ﷺ يخبر عائلة جعفر باستشهاده ويعزيهم ٢٩٦
 - ١٠ - غزوة مؤتة نصر أم هزيمة؟ ٢٩٨
 - ١١ - نتائج وآثار غزوة مؤتة ٣٠١
 - ١٢ - الدروس والعبر من غزوة مؤتة ٣٠٣
 - ١٣ - سرايا سبقت فتح مكة ٣٠٥
- الأسئلة: ٣١٦

الدرس الخامس والعشرون/ أحداث السنة الثامنة من الهجرة

فتح مكة

(٣٦٦-٣١٩)

- عهد الحديبية وحرص النبي ﷺ على الوفاء به ٣١٩
- ١ - خلفيات وأسباب فتح مكة ٣٢٠
- ٢ - قبيلة خزاعة تستنصر النبي ﷺ ٣٢٢
- ٣ - أبو سفيان وفشل محاولته تدارك الموقف ٣٢٣
- ٤ - عزم النبي ﷺ على فتح مكة وكتمانه الأمر ٣٢٧
- ٥ - حاطب بن أبي بلتعة وخيانتة لله ولرسوله ٣٢٩
- ٦ - رسول الله ﷺ والمسلمون في طريقهم إلى مكة ٣٣٤
- ٧ - حرص رسول الله ﷺ على كتمان الأمر وفتح مكة من دون قتال ٣٣٥

- ٨ - العباس بن عبد المطلب يجير أبا سفيان بن حرب ويصحبه إلى النبي ﷺ ٣٣٧.
- ٩ - أبو سفيان في مكة ليلبغهم قول رسول الله ﷺ ٣٤٠.
- ١٠ - رسول الله ﷺ يدخل مكة مع شعار: «اليوم يوم الرحمة» ٣٤١.
- ١١ - بعض أحداث مكة عند فتحها ٣٤٣.
- ٢ - آثار ونتائج فتح مكة ٣٥٥.
- ١٣ - الدروس والعبر ٣٥٨.
- سابعاً: إنَّ هذا الفتح إرساء لدعائم المجتمع الجديد في مكة: ٣٦٣.
- الأسئلة: ٣٦٦.

الدرس السادس والعشرون/ أحداث السنة الثامنة من الهجرة

غزوة حنين وحصار الطائف

(٣٦٩-٤٣٠)

- سرايا لتحطيم الأصنام والأوثان خارج مكة المكرمة ٣٦٩.
- ١ - سرية خالد بن الوليد لتهديم «الغزى» ٣٦٩.
- ٢ - سرية عمرو بن العاص لتهديم «سواع» ٣٧٠.
- ٣ - سرية سعد بن زيد الأشهلي لتهديم «مناة» ٣٧٠.
- ٤ - سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة لدعوتهم إلى الإسلام ٣٧١.
- غزوة حنين وأسبابها الواقعية ٣٧٧.
- ٢ - النبي ﷺ يستطلع أخبار حشد هوازن وثقيف ويتحرك نحوهما ٣٨٢.
- ٣ - هوازن وثقيف تحشدان قواتهما في وادي حنين وتباغتان المسلمين ٣٨٧.
- ٤ - هزيمة جيش المسلمين وانسحابهم من أرض المعركة ٣٨٨.
- ٥ - ثبات النبي ﷺ وانقلاب الهزيمة إلى نصر ٣٩١.
- ٦ - الهجوم المضاد ومطاردة فلول ثقيف إلى الطائف ٣٩٥.
- ٧ - محاولة اغتيال رسول الله ﷺ ٣٩٨.
- ٨ - تحصن ثقيف وهوازن في الطائف وحصار المسلمين لهم ٤٠٠.
- ٩ - فكُّ حصار الطائف وانسحاب المسلمين ٤٠٤.

- ١٠ - توزيع الغنائم وما جرى عندها من اشكالات ٤٠٦
- ١١ - مصير مالك بن عوف الضمري ٤١٧
- ١٢ - عمرة النبي ﷺ وعودته إلى المدينة ٤١٨
- ١٣ - الدروس والعبر والعظات ٤١٩
- الأسئلة : ٤٣٠

الدرس السابع والعشرون/ أحداث السنة التاسعة من الهجرة

سرايا الدعوة قبل غزوة تبوك

(٤٣٣-٤٦٣)

- ١ - مجمل تسلسل أحداث السنة التاسعة ٤٣٣
- ٢ - تسلسل الأحداث بحسب سياقها التاريخي ٤٣٥
- ٣ - من أهم هذه السرايا وما جرى فيها من أحداث ٤٤١
- ٤ - الدروس والعبر ٤٥٥
- الأسئلة : ٤٦٣
- الفهرست ٤٦٥